وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة الجزائر

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية

قسم التاريخ

المذاهب الفقهية المندثرة وأثرها في التشريع الإسلامي في القرنين الثاني والثالث للهجرة (8 و 9 للميلاد)

رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

إعداد الطالب

عبد القادر بو عقادة

إشراف

الدكتور: موسى لقبال

1423هـ 1424هـ

2002م 2003م

جامعة الجزائر

كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية

قسم التاريخ

المذاهب الفقهية المندثرة و أثرها في التشريع الاسلامي

في القرنين الثاني و الثالث للهجرة { 8 و 9 م}

رسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط

إعداد الطالب

عبد القادر بو عقادة

إشراف

الدكتور: موسى لقبال

1423-1424هـ

2002-2003م

شكر وعرفان

أتقدم بالشكر الجزيل إلى كل من ساهم وساعد في إنجاز هذا البحث المتواضع ، فلقد سرت في هذا الطريق بعد إنارته من قبل الدكتور المشرف: موسى لقبال

الذي لم يبخل بتوجيهه كما أتقدم بالشكر إلى الأستاذة : لطيفة بن عميرة على مساعدتها القيمة ، و إلى جميع أساتذة قسم التاريخ ، وإلى عمال المكتبة الوطنية و الجامعية ، ومكتبة كلية أصول الدين بالخروبة، وجميع من ساهم في البحث من أساتذة وأصدقاء

وأخيرا أشكر الأستاذ ناجي شنوف على مساعدته القيمة كذلك ، أرجو من الله أن يكتب لهم ثواب ذلك كلّه.

الإهداء

إلى روح والدي الذي غرس فيّ حب العلم والعلماء

إلى أمي التي سهرت على رعايتي وحفتني بحنانها

إلى زوجتي التي دفعتني وساعدتني على إتمام بحثي

وإلى كلّ من ساعدني على إنجاز هذا العمل المتواضع وأخص بالذكر منهم الأستاذ الدكتور: موسى لقبال
الذي وجّهني وشجّعني على الخوض في هذا الموضوع

وإلى
كلّ الأساتذة والمعلمين الذين كانت لهم بصمة في
تعليمي وتربيتي
أهدي هذا العمل المتواضع الذي أرجو به القبول

المقدمة

المقدمة

أجمع المهتمون بدراسة التاريخ على أنه من مراكز القوة الحضارية في العصر الوسـيط تلك الدولة التي ظهرت في شبه الجزيرة العربية وصلت تأثيرا ا شرقا حيث السند والهند وما وراءهما وغربا حيث المغرب والأندلس، و بتوسع هذه الدولة عرفت تحولات جذرية في كافة

الميادين المهمة، إذ أثّرت في البيئات التي وردت وأثّرت البيئات تلك في أنظمة الدولة وجميع نواحيها، منها الناحية العلمية.

فقد تطورت العلوم عند المسلمين من عهد النبي ρإلى منتصف القرن الرابع للهجرة وهو القرن الذي يعتبر العصر الذهبي، وانقسمت إلى علوم نقلية وأخرى عقلية، كما انتقل كل منها من طور لآخر فصارت منظمة و مدونة. و إذا كان المسلمون قد أخذوا العلوم العقلية عن غيرهم من فرس و يونانيين و هنديين كاملة عن طريق الترجمة، فإن العلوم النقلية قد مرت بعدة مراحل إلى أن وصلت إلى التنظيم و التدوين تأثرا بالعلوم العقلية.

وأهم هذه العلوم الفقه ، فلقد كان المسلمون أيام النبي ρيرجعون إليه في التشريع والاستفتاء عن المسائل فينظر فيها ويعطي الحكم المناسب لها بما أوحي إليه، حتى إذا توفي الرسول ρ بقي الأمر عند الصحابة يفسرون ويحكمون وفق كتاب الله وما تركه الرسول ρ من آثار، فإن أعزهم ذلك ولم يجدوا في الكتاب والسنة حكما اجتهدوا رأيهم وفق النصوص و الواقع الذي يعيشونه، ثم جاءت طبقة التابعين تلامذة الصحابة الأطهار، وكثر المستجد، فاختلفت اجتهاداتهم، وتجلت على إثر ذلك مدرستان كبيرتان هما مدرسة الحديث ومدرسة الفقه، ولكل مدرسة أئمة مجتهدون، ثم تطور الأمر إلى أن ظهرت المذاهب الفقهية.

كان العلماء يجتهدون في مسائل متفرقة، وأخذوا يوسعون دائرة بحثهم حتى شمل أبواب الفقه كله، وساير هذا وضع الكتب في مختلف الأبواب، فعرفت آراء المجتهدين فيها، كما ساير هذا كثرة الجدل والمناظرات بين الفقهاء، أدى ذلك إلى أن صار لكل إمام أصول وأساليب يجري عليها في عملية الاستنباط للأحكام الشرعية. كل هذا جعل المذاهب تتبلور ويستقل كل مذهب عن غيره، كما اجتمع حول كل إمام أنصار وأتباع يأخذون عنه وينحون منحاه،وما يلاحظ هو ظهور المذاهب والتعصب لها والتأليف فيها كان ظاهرة من مظاهر القرنين الثاني والثالث للهجرة (الثامن والتاسع للميلاد).

ولم يكن الأمر مقتصرا على المذاهب الأربعة فحسب بل كانت في ذلك العصر مذاهب فقهية كثيرة لم يقل بعضها عن بعض في القيمة والقوة. وكان على رأسها شخصيات أمثال الحسن البصري والأوزاعي والثوري والليث وسفيان بن عيينة وداود الظاهري

والطبري، وإسحاق بن راهويه وأبي ثور، وغيرهم من أصحاب المذاهب، ولكن ما حدث بعد القرنين الثاني والثالث للهجرة هو تقلص المذاهب الفقهية إلى أن صارت أربعة مشهورة واضحة المعالم واندثرت الأخرى وقد كانت مذاهب سائدة ولأصحابا آراء ومواقف.وبقدر ما كانت هذه الشخصيات مشرقية ،فإن تأثيرا ا قد وصلت بلاد المغرب التي شهدت حركة مذهبية فقهية وعقدية – حنفية ومالكية وأوزاعية وإباضية وصفرية –ولكن لاعتبارات سياسية وخصوصيات بيئية وثقافية تمسك المغرب بالمذهب المالكي وتنكر لغيره ،وهذا بعد صراع مذهبي عنيف خصوصا بين المالكية والأحناف ،وقد تحدث الأستاذ موسى لقبال عن هذه الحركة المذهبية في كتابه دور كتامة في تاريخ الدولة الفاطمية ، وبحثنا هذا يدخل في نفس إطار الحركة المذهبية

و يدور حول أهم المذاهب الفقهية السنية المندثرة وأبرز شخصيا ا وآراء أصحابا ومواقفهم وطرق استنباطهم وانتشار مذاهبهم وأسباب اندثارها وأثر ذلك كله على حركة الفقه والتشريع عموما.

ولقد دفعتني إلى هذا الموضوع أسباب أبرزها:

- المساهمة ولو بقسط يسير في التعريف بالملامح الفكرية والثقافية للعصر الإسلامي الأول، وإظهار التراث الفكري الإسلامي الأصيل.

-عدم وجود كتابة جامعة لهذه المذاهب المندثرة وأثرها في الفقه والتشريع الإسلامي عامةوعليه فقد حاولت الخوض في هذا الموضوع ليكون للمغاربة السبق في هذا ا ال.

-إرادتي النظر في اتجاهات الفقهاء المسلمين وما لهم من كنوز في مجال الحياة الفكرية يمكن الاستئناس با اليوم.

-التوضيح بأنّ المذاهب في مجملها غير مارقة عن الدين بل لها أصول واحدة تختلف فقط في بعض الفروع، ومن هنا نتجنب كلّ غلو وتعصب لأي مذهب أو رأي.

إلى غير ذلك من الأسباب كان على رأسها دافع الرغبة الشخصية في الخوض في مثل هذه المواضيع ومحاولة التخصص فيها.

وفيما يخص المنهجية المتبعة فقد اعتمدت منهج البحث التاريخي التحليلي النقدي حيث قمت باستخدام المصادر الأساسية القديمة وعلى رأسها كتب طبقات الرجال فجمعت منها المادة التي م البحث واستخرجت ما يخص كل شخصية ثم قارنت بعضها بالبعض وناقشتها محاولا الوصول إلى نتائج وأفكار جديدة وإعطاء تفسيرات لهذه المذاهب. كما اعتمدت على النتائج التي وصل إليها الباحثون في تاريخ التشريع وأصول الفقه لإثراء الموضوع والمقارنة كذلك.

كما حاولت أن أعطي نظرة تاريخية لحدوث هذه المذاهب وانتشارها واندثارها مركّزا على أسباب ذلك ومتجنبا في نفس الوقت الخوض في تحليل الموضوع تحليلا شرعيا أو ما يسمى بالفقه المقارن، لأنّ ذلك من تخصص جهات أخرى، فكان هدفي هو إعطاء صورة شاملة لهذه المذاهب كنماذج لحالة الفقه في القرنين الثاني والثالث للهجرة ،وجمع المتفرق منها وترتيب المختلط وإتمام النقص الواضح في تاريخ المذاهب .وقد حاولت من خلال هذا الموضوع الرد على بعض المستشرقين الذين جزموا بأن الفقه الاسلامي تأثر بالقوانين الرومانية ، وهذه الفكرة تفندها تعدد المذاهب الفقهية والتى لم تقتصرعلى المذاهب الأربعة فحسب بل ان تعداد المذاهب الهائل يجعل الشريعة في وسع وا ا أشمل من أن تحتاج الى القوانين الرومانية.

وفيما يخص خطة البحث التي اتبعتها هي تقسيم الموضوع إلى ما يلي:

- **مدخل الموضوع** وركزت فيه على الأوضاع العامة التي سادت أثناء ظهور المذاهب المندثرة لما لها من أثر على الحياة التشريعية عامة، فقدمت لمحة عن الوضع الاجتماعي والسياسي والثقافي بشكل موجز يخدم الموضوع.

- **الفصل الأول**: وأتحدث فيه عن تطور الفقه والتشريع الإسلامي، والمراحل التي مر با منذ عهد النبوة إلى مرحلة الجمود وغلق باب الاجتهاد من حيث مميزات كل مرحلة وطرق الاستنباط فيها والعوامل التي أثّرت في التشريع أثناءها وأبرز الشخصيات والحواضر التي احتضنت الحركة العلمية.

-**الفصل الثاني**: فقد خصصته لشخصية الإمام الأوزاعي، وقمت فيه بدراسة شخصيته وملامحه، ومذهبه الفقهي وانتشاره، وآثاره وأثره في التشريع من خلال ذلك،كما طرحت بعض أفكاره ومواقفه تجاه الأوضاع عامة آنذاك.

-**الفصل الثالث**: يبحث في حياة الإمام سفيان الثوري والعوامل التي تأثّر با وأقوال العلماء فيه وفي منهجه، واهتمامه بالحديث والعلم عموما وأبرز آرائه ومواقفه وركزت على موقفه تجاه السلطان حيث يتميز عن غيره في هذا الشأن وأثر ذلك على فقهه، بالأخص أيام أبي جعفر المنصور والمهدي.

-**الفصل الرابع**: تناولت فيه مذهب الليث بن سعد وما كان لهذا المذهب من أثر على الحياة التشريعية وبالأخص في معاصرته للإمام مالك إمام دار الهجرة وما وقع بينهما كما تطرقت إلى أبرز مواقفه وآرائه وخدمته للمجتمع والعلماء. وتأثر الإمام الشافعي بفقه الليث بن سعد. وأخذت سيرته وعلمه بشيء من التلميح وأبرز العوامل المؤثرة في ذلك.

-**الفصل الخامس**: تحدثت عن الإمام داود الظاهري وأبرز ملامح شخصيته وأهم مواقفه وآرائه وشرحت بما فيه الكفاية منهجه الفقهي بالاعتماد على أبرز الفتاوى، وما ألفت إليه الانتباه أنني في شرحي للمذهب الظاهري ما كان بوسعي إلاّ أن أعتمد على أحد أقطاب المذهب وهو ابن حزم في شرح المذهب الظاهري، لأنه يعتبر الباعث للمذهب الظاهري ثم إننا حينما ندرس صاحب المذهب لا ندرسه لذاته وإنما لأثره الفقهي. فكثيرا ما أخذت آراء ابن حزم لأشرح فقه الظاهر.

-**الفصل السادس**: وهو فصل ختامي أخذت في التحدث عن مذاهب أخرى قد اندثرت بشكل موجز ولكني حينما وصلت إلى الطبري حاولت إظهار آثاره وأقوال العلماء فيها ودوره في حركة التشريع من خلال ذلك.كما شرحت أسباب اندثار المذاهب الفقهية بكل أبعادها حتى أعطي القارئ الأسباب الموضوعية لاندثارها رغم قوة هذه المذاهب.وتحدثت كذلك بشيء من التفصيل عن أثر هذه المذاهب المندثرة في الفقه وا تمع والدولة. وتلك هي ثمرة العمل المراد إنجازه.

وما تجدر الإشارة إليه أنّ كلّ فصل هو مقسم إلى مجموعة من المباحث وكل مبحث مخصص لجانب معين لكل مذهب، وينتهي كل فصل بشبه خاتمة تقدم أبرز نتيجة من دراستنا للفصل.

وينتهي البحث بخاتمة هي عبارة عن جملة من النتائج توصلت إليها من خلال دراسة هذه الظاهرة وأثرها على جميع المستويات.

وأود التنبيه إلى أنني قد أخذت نماذج فقط لدراسة هذه المذاهب المندثرة وأثرها في التشريع وحاولت في أخذي في هذا أن أنضبط بالإطار الزماني من جهة ومن جهة ثانية التحدث عن أبرز المذاهب المندثرة والتي كان لها الأثر الواضح على حركة الفقه، ولا يختلف عنها المذهب الجريري في القوة إلاّ أنه في القرن الثالث كان شافعي المذهب، ولم يستقل بمذهبه إلاّ في أواخر حياته أي بداية القرن الرابع للهجرة (التاسع للميلاد).

و حاولت أن أثري الموضوع ببعض الملاحق التي لم أستطع إدراجها أثناء البحث، بل أشرت إليها فقط، و تتمثل هذه الملاحق في بعض الرسائل التي كانت بين الفقهاء تبرز فقههم واختلاف الفتيا حول الموضوع الواحد بينهم، إضافة إلى أ ا تظهر مواقفهم ودورهم الاجتماعي.

تقييم المصادر والمراجع

أ- **تقييم المصادر:**

إنّ المصادر المعتمدة في البحث قد تميزت جلها بميزتين هما:

أ- الندرة في المعلومات الخاصة بالشخصية والمذهب المدروس.

ب- أنّ تلك المعلومات هي كلّها متشابهة آخذ بعضها عن الآخر.

وكنت قد اعتمدت في هذا البحث وركّزت على نوعية من المصادر ذات الأولوية وهي القريبة زمانا من أصحاب المذاهب، أخص بالذكر منها.

كتاب التاريخ الكبير للإمام أبي عبد الله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي البخاري (ت 256هـ)، وكتاب الجرح والتعديل للإمام الحافظ شيخ الإسلام محمد بن إدريس بن

المنذر الحنظلي الرازي (ت 327هـ)، وكتاب الطبقات الكبرى لمحمد كاتب الواقدي المعروف بابن سعد (ت 230هـ) وهو كتاب في عدة طبعات الأولى تحقيق محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية والثانية تحقيق إحسان عباس،دار صادروالثالثة طبعة دار الفكر ،تحقيق سهيل كيالي طبعة 1994وهي من أجلّ الكتب في هذا الميدان (تراجم الرجال) ومعرفة الطبقات.

ولا يقلّ أهمية عنهما طبقات الفقهاء لابن إسحاق الشيرازي (393-472هـ) وهي كتب بقدر ما هي قريبة زمانا من أصحاب المذاهب فإنها مصادر مهمة في هذا ا ال اعتنت بسرد أخبار أصحاب الفقه وطبقات الرجال عموما، وتجريحهم وتعديلهم.

ولقد كان لكتاب حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للمؤلف أحمد بن عبد الله أبو نعيم الأصفهاني (ت 430هـ) أثر بارز يظهر في الرسالة من حيث سرد آراء وشيوخ وتلامذة المذاهب، وهو كتاب في عدة أجزاء اعتمدت في ذلك على طبعتين الأولى صادرة عن دار الكتاب العربي 1967، والثانية صادرة عن دار الكتب العلمية بيروت

أما ا موعة الأخرى التي اعتمدت عليها فقد كانت با جميع الشخصيات المراد البحث عنها، وطبيعة هذه ا موعة أنها جمعت كل ما كتبه الأوائل المذكورون حول الشخصيات. وتتمثل في الأساس في كتب للإمام شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد الذهبي (673-748هـ)، وأبرزها سير أعلام النبلاء تحقيق شعيب أرناؤوط ناجي وكتاب العبر في خبر من غبر وهو على طبعتين الأولى بالكويت وهي في جزأين الأول سنة 1960 تحقيق صلاح الدين المنجد والثاني سنة 1961 تحقيق فؤاد السيد، وطبعة ثانية تحقيق محمد السعيد زغلول صادرة عن دار الكتب العلمية بيروت وهي مجموعة من الأجزاء، وله أيضا كتاب ميزان الاعتدال في نقد الرجال على طبعتين الأولى مطبعة السعادة بمصر والثانية دار المعرفة ببيروت ويعتبر هذا الكتاب من ابرز الكتب في علم الجرح والتعديل، ولا يقل عنه أهمية كتاب لنفس المؤلف وهو الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، تحقيق موسى محمد علي الموشي.

ومن أبرز المصادر في فترة الإمام الذهبي ما جمعه وكتبه، جمال الدين يوسف المزي (654-742)، وهو مؤلفه المشهور تهذيب الكمال في أسماء الرجال وقد أخذت منه آراء ومواقف وأبرز الأحداث لتلك المذاهب وهو على طبعتين الأولى تحقيق بشار عواد معروف مؤسسة الرسالة 1994، والثانية تحقيق أحمد سيد وحسن أحمد آغا، دار الفكر 1994 وهما طبعتان جديدتان.كما أفادتني مجموعة من الكتب في تراجم الرجال وتعريفهم وكانت من أهم هذه الكتب كتاب طبقات الحفاظ لجلال الدين عبد الرحمان السيوطي (ت 911هـ)وهو في عدة طبعات الأولى تحقيق محمد عمر ،مكتبة وهبة عابدين بمصر سنة 1973،والثانية مطبعة دار الكتب العلمية بيروت 1983،وكتاب لابن عماد الحنبلي المتوفى سنة1089مالمسمى شذرات الذهب في أخبار من ذهب تحقيق شبار عواد معروف الطبعة الأولى مؤسسة الرسالة 1994والثانية مطبعة دار الكتب العلمية بيروت والثالثة مطبعة المكتب التجاري للطباعة والنشر بيروت والأخيرة مطبعة الآفاق الجديدة بيروت وهي بدون تاريخ.

كما أني اعتمدت على نوع آخر من الكتب وهي المصادر المتحدثة عن المذاهب مباشرة وأهمها: كتاب المحلى بالآثار لعلي بن سعيد بن حزم الأندلسي (ت 456هـ ، 1064م) تحقيق عبد الغفار البندراني وهو على طبعتين طبعة دار الكتب العلمية وأخرى دار الجيل بيروت وأخذت منه فقه أهل الظاهر وأبرز فتاويهم وكذلك كتابه الأحكام في أصول الأحكام لنفس المؤلف.

وفيما يخص مذهب الإمام الأوزاعي وفقهه. فقد أخذت ردود أبي يوسف المتوفى سنة 182 هـ في رده عن سير الإمام الأوزاعي وهو كتاب حققه وعلق عليه أبو الوفا الأفغاني يبرز تناقض المواقف بين الأوزاعي وأبي حنيفة.

ولقد صادفتني في أثناء البحث بعض المصطلحات في الفرق والمذاهب والأماكن فاعتمدت لأجل شرحها على مؤلفات متخصصة قديمة أهمها:

كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي وهو في خمسة أجزاء، وكتاب الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي وكتاب آخر لمحمد بن عبد الكريم الشهرستاني أبو الفتح، في كتابه الملل

والنحل تحقيق محمد سيد الكيلاني، ولا يقل عنها أهمية كتاب الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم.

ولم تكن هذه الكتب لوحدها العمدة في البحث بل كانت هناك كتب أخرى في المذهب المالكي والشافعي قد أفادتني في شرح الأعلام ومعرفة انتشار المذهب وهي لا تقل أهمية كذلك عن الأولى. وهناك كتب التاريخ العام القديمة مثل كتاب البداية والنهاية للعلامة الحافظ أبو الفدا بن كثير الدمشقي ت 774هـ.

ب- **تقييم المراجع**:

وقد اعتمدت في بحثي على أربعة أصناف من الكتب:

الأولى: خاصة بتاريخ التشريع الإسلامي وتطوره ومدارسه وآراء أصحاب المذاهب وأهم أسباب الاندثار وأهم هذه الكتب:

- مؤلفات للأستاذ محمد يوسف موسى وهي تاريخ الفقه الإسلامي، وكتاب المدخل لدراسة الفقه الإسلامي

- مؤلفات للأستاذ محمد مصطفى شلبي هي المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي وكتاب أصول الفقه الإسلامي.

وكتاب آخر قيم للأستاذ أبو العينين بدران هو كتاب الشريعة الإسلامية تاريخها ونظرية العقود والملكية.

وهناك كتب أخرى لا تقل قيمة على الإطلاق وهي متخصصة في تاريخ التشريع مثلما كتبه الأستاذ محمد الخضري بك في مؤلفه تاريخ التشريع الإسلامي، والأستاذ محمد الحجوي الثعالبي في

مؤلفه الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي وهو في ثلاثة أجزاء يسرد فيه تطور الفقه الإسلامي وأبرز مدارسه وآرائها والقائمين عليها.

الثانية: كتب اعتمدت عليها في شرح بعض المصطلحات الفقهية التشريعية وأهمها:

كتاب مصادر التشريع الإسلامي فيما لا نص فيه للأستاذ عبد الوهاب خلاف، وكتب أصول الفقه الإسلامي للأستاذ محمد محدة طبعة دار الشهاب باتنة وكتاب مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب للأستاذ شرح الدين علي الراجحي.

الثالثة: كتب قد درست بعض أصحاب المذاهب الفقهية المندثرة من حيث سير ا وأبرز آرائها ومواقفها وفتاويها. وأهمها كتاب محاسن المساعي عن مناقب الأوزاعي قدمه شكيب أرسلان وهو عبارة عن مخطوط يوضح فيه أهم آراء الإمام ومناقبه. وقد أضاف عليه شكيب، وكتاب سنن الأوزاعي وهو عبارة عن أحاديث وآثار وفتاوى مأثورة عن الإمام الأوزاعي جمعها وشرحها السيد مروان محمد الشعار. كما صادفتني في آخر بحثي رسالة جديدة التأليف تتحدث عن الأوزاعي كونه محدثا وحافظا للدكتور حسين محمد ملاح، قارنت با ما وصلت إليه بالنسبة لهذه الشخصية.

وفي فقه الإمام سفيان الثوري وآرائه ومناقبه وفتاويه اجتهد محمد رواس قلعجي في كتابه موسوعة سفيان الثوري.

أما فقه الليث بن سعد فإنّ محمود سعد قد جمع فتاويه وآراءه كذلك في إطار إحياء التراث فكتب كتاب فقه الليث في ضوء الفقه المقارن، وهو كتاب مهم يبين بالأخص طرق استنباط الليث في الفقه.

ومن أهم الكتب التي اعتمد ا في انتشار المذاهب المندثرة ما ألفه أحمد تيمور باشا، وهو كتاب نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الأربعة إذ يجمع بين دقة المعلومات وحسن الأداء اللغوي وبساطته ما يجعل القارئ لا يمل من قراءته والأخذ عنه.

الرابعة: كتب أخرى في إطار التاريخ العام ولكن لها صلة مباشرة مع تاريخ الإسلامي في العصر الوسيط. تدرس حالة المسلمين وا تمع والسلطة وأداؤها. مثل كتاب التشريع والقضاء في الإسلام للأستاذ أنور العمروسي، وأحمد شلبي في كتابه التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية وهي عينة من مجموعة من الكتب أخذت منها نتفا تخص تاريخ الفقه الإسلامي وانتشار المذاهب.

كما أفادتني بعض ا لاّت المتخصصة وعلى رأسها مجلة الموافقات الصادرة عن كلية أصول الدين بالجزائر في أعداد لها وأهم المقالات ما كتبه الشيخ عبد الرحمان الجيلالي في ترسيخ المذهب المالكي بالمغرب والأندلس على حساب المذهب الظاهري والأوزاعي.

وكذلك مجلة الدارة في العدد الثاني للسنة الثانية جوان 1977 وهي مجلة خصصت هذا العدد لتطور الفقه الإسلامي.

أما مجلة الفكر الصادرة بيروت فقد أخذت منها معلومات تخص المذهب الأوزاعي وفكر الإمام.

ولقد واجهت أثناء قيامي بالبحث صعوبات عديدة. أبرزها أنّ المذاهب المراد البحث عنها هي بالفعل مندثرة. ذلك أنّ فقه زعمائها وآراءهم ومواقفهم مبعثرة هنا وهناك وأنّ مناهجهم غير واضحة فكان من الصعب جمع المادة التي وجدناها متكررة في كل المصادر ضئيلة جدا عند الكثير منها وغالبا لا تؤدي الغرض، وإنّ هذا لم يثنني عن البحث والعمل بل ازدادت الرغبة والحماسة لاستخراج هذه الدرر من ذاك الركام.

و أكبر صعوبة واجهتني في طريق بحثي هي تلك الظروف العامة التي سادت البلاد فتعرقل البحث لتخلفي عن الذهاب إلى المكتبات وهي موجودة بالعاصمة، وضغط الظروف الأمنية في المنطقة التي أقطنها، و أثناء ذلك كله انقطعت عن البحث لمدة سنتين لأجل أداء الخدمة الوطنية في ظروف لا تخفى على أحد، فكان الاهتمام أثناءها وبعدها بالمحافظة على الذات أكثر من تحقيق أهداف أخرى، كما أن عدم التفرغ للبحث بفعل مهنة التعليم الشاقة، ودخولي المستشفى مدة من الزمن أخلّ بعملي، وما أفقد توازني هو وفاة الوالد الذي ترك فراغا كبيرا كان يجب سده وتحمل مسؤولية ذلك وأنا الابن الأكبر وأثر آخر هو تحديد مدة البحث وتقديمه بالنسبة لطلبة النظام القديم، فكنت في صراع مع الذات والصعوبات من جهة وسباق مع الزمن وإ اء البحث من جهة ثانية.

ولعلّ هذا قد أخلّ بالبحث نوعا ما سواء قي طريقة عرض الموضوع أو تقليص شخصياته وتحديدها، أو المعلومات الخاصة بكل مذهب وكذلك من حيث النتائج أو التأثيرات بالنسبة لهذه المذاهب.

وختاما فإنني أتقدم بالشكر الجزيل لكل من ساهم في دفعي لإنجاز هذا البحث ومساعدتي على الخوض فيه، ذلك أنّ المادة في هذا الشأن شحيحة وتتطلب صبرا ومثابرة وأخص بالشكر الأستاذ المشرف الدكتور موسى لقبال الذي وجهني إلى هذا الموضوع الشيق والذي صبر علي وقدر ظروفي فله الشكر الجزيل على ذلك ، و على ما بذله كذلك في معهد التاريخ حيث أن بصماته تبقى واضحة من خلال ما أمد للمجتمع من طلبة و اساتذة في كل المستويات، و آثاره بارزة في بناء التاريخ الوسيط و بالأخص المغرب الإسلامي، إذ يعد من أبرز رواده و مطوريه من خلال ما كتبه و قدمه في مسيرته لتعليمية، و لا يفوتني أن أنوه بجهود الأساتذة لطيفة بن عميرة عى توجيها ا القيمة ومساعد ا الهادفة وايضافا ا المفيدة .

كما أتقدم بالشكر إلى السيد الأستاذ ناجي شنوف الذي كتب وصحح أثناء تبييضه لهذه الرسالة، كما لا يفوتني أن أشكر أساتذة و إدارة قسم التاريخ واللجنة العلمية على تقديرهم لي، وحرصهم الدائم على رفع مستوى الطلبة، وإلى عمال المكتبة الوطنية و الجامعية، و مكتبة معهد أصول الدين، وإلى جميع من ساعدني الشكر والامتنان.

المدخل

المدخل

اتفق العارفون بالتاريخ الوسيط أنّ ميزان القوة قد مال لصالح الشرق الذي برزت فيه دولة فتية في شبه الجزيرة العربية، انطلقت من صحراء قاحلة بفكرة دينية إلى ما وراء الصحراء حيـث البلاد المترامية الأطراف ذات الخيرات الكثيرة، وكذلك الحضارات المختلفة، و قد امتدت زمانا من

عهد الرسول ρ إلى عهد الخلفاء الراشدين، ثم احتضنها بنو أمية لها قرابة قرن كامل، ثمّ انتقلت الخلافة إلى العباسيين لمدة طويلة، و قد صاحب هذا الانتقال من فترة لأخرى انتقال في جميع ميادين الحياة من بداوة إلى حضارة ومن انغلاق إلى انفتاح ومن ضيق إلى توسع.

ومن هذه التطورات تلك الحاصلة في الميدان الديني التشريعي إذ شهد القرن الثاني و الثالث للهجرة (8،9م) بروز المذاهب الفقهية المتعددة و المنتشرة هنا و هناك و التي اهتمت بالفقه و التشريع تنظيما وتدوينا وشرحا وتوسعا. وكانت لهذه المذاهب آثار جمة على الحياة الدينية التشريعية، كما تأثرت هذه المذاهب بالأوضاع السائدة السياسية و الاجتماعية و الثقافية، حيث توالت الأحداث و تنوعت الشعوب و دخلت إلى الكيان الإسلامي أنواع من الثقافات كانت لها بصماتها على حركة الفقه، هذه الحركة ازدادت ثراء حيث صار الفقهاء يدلون بفتاويهم في كل حادث، و بحسب اختلاف مشارب الفقهاء اختلفت الفتيا و أعطت التنوع للحركة التشريعية.

و يمكن إعطاء نظرة شاملة لهذه الأوضاع في هذين القرنين قبل التطرق إلى الحركة التشريعية و المذاهب الفقهية.

- **الأوضاع السياسية.**

يعتبر عصر المذاهب منذ نشأتها وتبلورها إلى توسعها وانتشارها، من أخصب الأزمنة في تاريخ الخلافة الإسلامية ، من حيث توالي الأحداث وندرة طابعها، منها دخول عناصر جديدة

بأفكار مسبقة تركت بصما ا بشكل جلي، إذ شاركت في صنع أحداث مختلفة في شتى الميادين ، منها الميدان السياسي.

ومن هذه الأحداث انتقال الخلافة من الأمويين إلى العباسيين[1]،بحيث كان هذا الانتقـال منعطفا مهما في التاريخ الإسلامي، نظرا للتغيرات الكبيرة التي حـدثت في أعقابـا في مجـالات السياسة والإدارة والفكر وا تمع، وقد اعتمدت هذه الثورة على التنظيم الدقيق والسرية في بـث مبادئها وكسب الأنصار إليها. كما اعتمد على عنصر الموالي [2] من الفرس بالأخص[3].

وما يلاحظ أنّ قيام الدولة العباسية لم يلغ كل ما حققته الدولة لأموية، بل أكملت الطريق ولكن بأكثر تمييز وقوة، فكان بذلك لكل دولة ملامحها الخاصة .

لقد كانت أولى التغيرات بعد قيام الدولة العباسية وا يار الدولة الأموية هي انتقال عاصمة الخلافة من دمشق[4] العربية إلى بغداد[5] على حدود فارس بجوار حدائق كسرى، وبذلك تحولت وجهة الدولة عن البحر المتوسط إلى بلاد فارس[1]، ولعلّ هذا التحول يعطي الدولة تميزا أكثر واختلافـا أكبر عن الدولة السابقة.

---

(1) كان أول من جلس على عرش الدولة العباسية عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم، و كان أبوه محمد أول من اضطلع بنشر الدعوة العباسية في أواخر العصر الأموي حتى مات سنة 125 هـ / 742 م و أوصى بالإمامة بعده لابنه إبراهيم الذي قبض عليه و حبس ثم قتل، و لما انتصرت الدعوة العباسية كان أول خليفة هو أبو العباس ، لأن أمه كانت عربية و أخوه الأكبر أبو جعفر المنصور كانت أمه أم ولد و كانت خلافة أبو العباس في اليوم الثالث من شهر ربيع الأول سنة 132 هـ/ 749 م (حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، دار الجيل، بيروت، ج2 ، ص 23، 24).

(2) الموالي : هم المسلمون من غير الجنس العربي و يفهم من أغلب المصادر أن هؤلاء قد نظموا حيا م الاجتماعية و انتموا إلى أقوى القبائل العربية، كما كانوا على قدم المساواة مع المسلمين من العرب، و قد أثار المستشرقون الخلاف بين العرب و الموالي (محاضرات في صدر الإسلام و الخلافة الأموية : للأستاذ بشار قويدر، جامعة الجزائر معهد التاريخ).

(3) عمر فاروق : التاريخ الإسلامي و فكر القرن العشرين، بيروت، ط2 ، 1985 ، ص107، 108

[4] دمشق: قيل أنّ الذي بناها هو جبرون بن سعد بن عاد بن أرم بن سام بن نوح، وسماها ارم ذات العماد، ولد با إبراهيم الخليل بعد بنائها بخمسين سنة. أنظر ياقوت الحموي: معجم البلدان مج 2 دار صادر بيروت ط 1984 صص 463-464

[5] بغداد: كلمة مكونة من بغ= الصنم داد= أعطاني، وهي دار السلام مدينة بناها ومصرها المنصور ونزل با 149هـ/ 766م وهي عاصمة الخلافة العباسية. وذلك لعدة أسباب. (ياقوت الحموي نفسه ج1 ص451).

[1] أبو القاسم محمد كرو شخصيات أدبية في المشرق والمغرب، بيروت ط 3 1966 ص 68.

حاول العباسيون في بداية أمرهم تأمين جبهتهم الداخلية و التمكين لسلطا م بالقـضاء علـى رؤوس بني أمية، فقد تتبع أبو العباس [2] بني أمية " حيث كان يقتل ويمثّل... وهرب منه وجوه بني أمية ، وتغيبوا عند العرب وأفناء الناس فلم يجدهم"[3]. ولم ينته العباسيون إلى هذا الحـد، بـل عمـدوا إلى استعمال المكر والخديعة لجلب بني أمية ومنها " أنّ الأمانات بسطت لهم حتى تداعى من هرب... فلما اجتمع بنو أمية... أشار الأمير[4]- أن دهدهوا رؤوسهم فوضـعت علـيهم – أعمـدة الحديـد – فشدخوا"[5]، ولكن بقي نفر من بني أمية وأتباعهم لم يأمنوا هذه وتحقّق بالفعل ظنهم- وقد تكون حيلة استعملوها- وهي استجابة البعض للأمان وتنصت الآخرين لأخبارهم. وصحة الأمان، ومع ذلك فقـد اشتد الطلب على بني أمية فهربوا في الآفاق، وكانوا يسمعون في الرواية أن مستراحهم بالمغرب فـ ع أكثرهم إلى أفريقية[6]، وتوافى إليها بشر كثير، وكان واليها عبدالرحمان بـن حبيـب بـن أبي عبيـد الفهري[7]، فلم يكره نزولهم إليها، ومن الذين دخلوها عبد الرحمان[8] بن معاوية بن هشام[9].

ولعلّ هذا الفرار كان له نجاح ما يذهب غم الكارثة التي تتمثل في الهجوم العنيف الذي قام به العباسيون ضدهم، وجعل بني أمية يستجيبون لذلك التحدي بتحدٍ آخر فكونوا دولة منافسة لدولة بني العباس. " وهذا بفضل ذلك الشاب الشجاع الذي تخلّص بكيده فعبر القفر وركب البحر حتى دخل بلدا أعجميا فمصر الأمصار وجند الأجناد وأقام ملكا بعد انقطاعه بحـسن

---

(2) هو أبو العباس عبد الله بن محمد أول خليفة عباسي أختلف في صفة السفاح هل هي له أم لعمه، وهل هي لبذله المال أم لإراقته الدماء (محمد فريد وجدي دائرة المعارف ج5 بيروت ط3 ص 167، أحمد مختار العبادي : التاريخ العباسي و الفاطمي ، دار النهضة العربية ، ط1971 ، ص 41)

(3) مؤلف مجهول: أخبار مجموعة تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، ط1 1981 ص48.

(4) هي قصة أمير الشام عبد الله بن علي الذي لجأ إلى المكر فأعلن وأشاع في كور الشام وعساكره أنّ الخليفة قد ندم على ما كان في بني أمية وأعطاهم الأمان، فانتشر خبر الأمان وخرجوا من مخابئهم، وبعد أن بلغ عبد الله بن علي في تطمين الأمويين المتواجدين وإغداق المواثيق والعهود عليهم دعاهم إلى مأدبة في داره ثم غدر بم وذبحهم ذبح النعاج وكان عددهم نيفا وسبعين رجلا من وجوه بني أمية.
(عبد الحميد النعنعي: تاريخ الدولة الأموية بالأندلس، دار النهضة العربية، ط 1986 ،ص137،136).

(5) أخبار مجموعة: ص ص 51،50.

(6) أفريقية: اسم لبلاد واسعة قبالة جزيرة الصقلية وينتهي آخرها إلى قبالة جزيرة الأندلس، سميت نسبة لأفريقيس بن أبرهة بن الراشش، وقيل هو إفريقيس بن أبرهة بن صيفي بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان (ياقوت: المصدر السابق، ج1 ، ص228 وما بعدها وقد أورد موسى لقبال تفصيلا شيقا لمصطلح أفريقية ومدلولاته وأفريقيا عند الرومان والعرب من برقة إلى شرق المغرب الأوسط أنظر (موسى لقبال:المغرب الإسلامي ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،الجزائر ،ط3، 1984 ،ص13 ومابعدها لعدة صفحات).

(7) عبد الرحمان بن حبيب بن أبي عبيد الفهري في سنة 132 هـ /749 م سقطت دولة بني أمية و قامت دولة بني العباس فأعلن عبد الرحمان دخوله في طاعتهم فأقروا له بولاية إفرقية ، و لكنه أعلن فيما بعد خروجه عن طاعتهم ، وهذا ما أثار بني العباس فقتلوه سنة 137هـ/754 (عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ، دار النهضة ،بيروت ،ط1981، ج2 ، ص131 و ما بعدها)

(8) هو عبد الرحمان بن معاوية بن عبد الملك بن مروان بن الحكم صقر قريش ولد في 113 هـ/731م: في إحدى قرى قنسرين هذا الذي فر من العباسيين سباحة في ر الفرات قبل وصولهم فر إلى مصر ثمّ القيروان وكان صاحبها عبد الرحمان بن حبيب للمزيد من معرفة القصة ارجع إلى(النعنعي، نفس المرجع ص137 وما بعدها).

(9) أخبار مجموعة ص 52-53.

تدبير وشدة عزم"[1]. إنه عبد الرحمان بن معاوية صقر قريش الرجل المخلص لأجداده أقـام دولة بالأندلس[2] التي سيكون لها شأن كبير.

استقر المنصور(136 -158 هـ/754 – 775 م) والعباسيون عامة في بغداد - بعد فتنة الراوندية[3] بالهاشمية[4] – وبعد أن " سأل عن أحوال مواضعها في الحـر والـبرد والمطر والوحل"[5]. فازدهرت أوضاع العباسيين وصارت دولتهم قوية شديدة البأس مترامية الأطراف، وأثّر هذا المركز في تقدم اقتصادها بفروعه المختلفة، وتدفقت الأموال على خزينة الدولة حتى نسب إلى هارون الرشيد[6] أنه عندما رأى سحابة في الجو قال: " أمطري حيـث شئت فسيأتيني خراجك"[7]، و هذا لأتساع رقعة الدولة العباسية و قوة نفوذها السياسي شرقا و غربا.

برزت مكانة الدولة العباسية بعظم الشخصيات وترابط عهود الخلفاء، فقد كـان عهـد المنصور امتدادا لعهد أخيه ، إذ كان يبني دوله ويؤسس ملكا، وكانت أمامه صعاب تعترضه،

---

(1) أخبار مجموعة ص53.

(2) الأندلس: جزيرة كبيرة تغلب عليها المياه الجارية والشجر والثمر... تواجه أرض المغرب. وهي جزيرة ذات ثلاثة أركان مثل شكل المثلث قد أحاط بها البحران المحيط والمتوسط أنظر(ياقوت المصدر السابق ج1 ص 262).
وتسمى شبه الجزيرة الإيبيرية (أسبانيا والبرتغال اليوم) في الطرف الجنوبي الغربي من قارة أروبا.

(3) الراوندية: نسبة إلى مدينة راوند القريبة من (أصبهان) وهي فرقة ظهرت أيام المنصور تقدس الملوك وتجعلهم في مصاف الآلهة. كان أبو جعفر يراهم أعداءه السياسيين لأنهم من أتباع أبي مسلم الخراساني، واعتبرهم زنادقة. للمزيد ارجع إلى (حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ،ج2 ، ص 88).

(4) الهاشمية: مدينة بناها السفاح بالكوفة. أنظر(ياقوت: المصدر السابق، ج5 ،ص389).

(5) ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار الكتاب ،لبنان ،ط 1957،ج3، ص417.

(6) هارون الرشيد: هو الخليفة العباسي وهو أشهرهم وأكثرهم ذكرا حتى من المصادر الأجنبية تولى الخلافة سنة 170-193هـ/786-809م تزوج زبيدة وأنجب منها الأمين محمد وجارية أخرى فارسية تدعى مراجل أنجب منها عبد الله المأمون. (أحمد مختار العبادي: المرجع السابق ، ص 80 وما بعدها).

(7) أبو القاسم محمد كرو : المرجع السابق،ص70.

حيث أن الخزينة في أول أيام المنصوركانت خاوية لكثرة ما أعطى أخوه أبو العباس فحاول المنصور تجاوز ذلك بحسن التدبير و حرص شديد ،ويجيء عهد المهدي[1]، وقد استقرت الدولة وأمنت على نفسها فاشتهرعهده باليسر والرخاء وإصلاحات تدل على نضج وتفكير[2].

ويستمر الوضع في الرخاء والازدهار في العهود الموالية وذلك بفضل عدة إصلاحات يقوم بها الخلفاء العباسيون وكذلك طريقة تسييرهم للأمور التي كادت تفلت من أيديهم من حين لآخر بفعل الفتن والفرق.

إنّ سياسة الإصلاحات التي قام بها المنصور أو أبو العباس قبله أو أي خليفة آخر من العباسيين، قد أخذت من مجتمعات أخرى و أهمها الفرس. فقد جاءت الدولة العباسية على أكتافهم[3] ومتأثرة بنظمهم وتقاليدهم[4]. حيث أدخل الفرس رؤية جديدة تجاه الحكم ، وجعلوا قصور الخلفاء ببغداد أشبه بقصور الأكاسرة في المدائن[5]، كما أدخلوا طرائقهم في تنظيم الدواوين الإدارية وأساليب الحرب ونظم الحكم، وهذا ما جعل بعض المؤرخين يسمون العصر العباسي بعصر سيطرة الموالي.

و نتيجة هذه السياسة و التنظيم ادت بالفرق التي كانت تمتشق السيف لانتزاع الملك و هم

---

(1) المهدي: هو الخليفة العباسي الثالث 158-169هـ/775-785م. اهتم المهدي بإقامة العدل وإجراء إصلاحا تعود على الناس بالخير كبناء المدارس والمستشفيات والمصانع وخزانات المياه وحارب الزنادقة. (أحمد مختار العيادي: المرجع السابق، ص67 وما بعدها).

(2) أحمد شلبي: التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية، مكتبة النهضة، بيروت ،ط 3 ، 1966 ، ص59.

(3) يذكرون في هذا البحث تحت اسم الموالي أيضا.

(4) أحمد مختار العبادي: نفس المرجع ،ص34.

(5) المدائن: مدينة ببلاد فارس بناها آنو شروان بن قباذ ملك الفرس.(ياقوت: المصدر السابق، ج5 ،ص74).
كان فتح المدائن بعد أن عبر سعد بن أبي وقاص الدجلة. والمدائن شرق الدجلة وبها إيوان كسرى وكان دخولها بقيادة القعقاع بن عمر الذي مهد الطريق لسعد ودخلها في صفر سنة 16هـ/637م وقد قسم سعد بن أبي وقاص دور المدائن بين المسلمين فاستوطنوها حتى تحولوا إلى الكوفة فيما بعد.(انظر عصام محمد شبارو: الدولة العربية الإسلامية الأولى، دار النهضة ،بيروت، ط3، 1995 ،ص 291 وما بعدها.

الشيعة[1] والخوارج[2]، يفلّ سيفها وتضعف شوكتها، فسكنت الفتن عما كانت عليه، ولكن منتحلي هذه النحل قد حولوا جهادهم في سبيلها من السيف إلى القلم. فأخذوا ينظّمون آراءهم ويدونون حججهم.. فتكونت مذاهب الشيعة التي كانت لم فلسفات وجماعات ودعايات[3]،و كذلك الخوارج .

إلاّ أننا نلاحظ بأنّ هذه السياسة لعبت دورا في تهدئة الأوضاع فقط بالنسبة لهذين الحزبين، لأنهما لن يستسلما إلاّ بعد إرساء أسس دولتيهما و بالأخص بالنسبة للشيعة. إذ حينما قرب المهدي العلويين وأطلق سراح المسجونين منهم وأوقف اضطهادهم الذي عانوه أيام أبيه، وازداد إحسان المهدي حينما أمنهم عن طريق وزيره يعقوب بن داود[4]، إذ رضي المهدي عليه واستوزره[5] إغتنم هؤلاء الفرصة ،فصار تحركهم أكثر و خطرهم أكبر على دولة بني العباس.

و عليه فإن العهد العباسي لم يسلم من الفتن، بل وجد خلفاؤه أزمات داخلية كانت نتيجة تمرد الفرق الدينية السالفة الذكر، فأثّرت على مسار الدولة العباسية داخليا وخارجيا ، ففي عهد هارون الرشيد(170 -193 هـ/784-809م) ظهرت دولة الأدارسة ببلاد المغرب، كوّنها إدريس بن عبد الله الذي فر من موقعة فخ[6] التي حصلت أيام الهادي... وقد اتخذ الرشيد طريقة للوقوف

---

[1] الشيعة: هم الذين شايعوا عليا وقالوا بإمامته وآل بيته. وهم فرق(الشهرستاني: الملل والنحل ، ج1 ،بيروت ،ص 146-147)،علي عبد الفتاح المغربي :الفرق الكلامية الإسلامية ،مكتبة وهبة،ط1995 ،ص137

[2] الخوارج: فرقة من الفرق الدينية ظهرت بعد التحكيم في معركة صفين وهم من جند علي كرم الله وجهه لم يرضوا بالتحكيم فخرجوا على علي و معاوية. (محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية: دار الفكر، ص60 وما بعدها لعدة صفحات، علي عبد الفتاح نفس المرجع ،ص169).و الخوارج و الشيعة فرق كثيرة(أنظر أحمد محمد أحمد جلي : دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين، الرياض ، ط2، 1988 ،ص 51، 151 .

[3] محمد أبو زهرة :الإمام الشافعي، بيروت ،ط2، 1948م، ص 58 وما بعدها.

[4] يعقوب بن داود استوزره المهدي لأنه كان يقول بما تقول به الزيدية واشترك في ثورة محمد النفس الزكية فكان ملما بأخبارهم فأراد المهدي أن يأنس العلويون بحكمه من جهة ويعرف أخبارهم بواسطته من جهة أخرى.(أحمد مختار العيادي: المرجع السابق، ص 70- 71).

[5] أحمد شلبي: المرجع السابق ،ص 61-62.

[6] كانت موقعة فخ في عهد المهدي 169هـ، وهرب منها رجلان من آل البيت أولهما يحي بن عبد الله بن الحسين الذي ثار أيام هارون الرشيد في الديلم، وثانيهما أخوه إدريس بن عبد الله الذي نجح في إثارة أهالي المغرب الأقصى على العباسيين. وكان قيام دولة الأدارسة بعد أن استقبلت قبيلة أوربة البربرية إدريس بن عبد الله وأيدته قبائل أخرى فكون دولة في 172-375هـ /788-985م. (ارجع إلى حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق ،ص181 ؛العبادي :المرجع السابق ،ص75).

في وجه الأدارسة، فأقطع إبراهيم بن الأغلب[1] منطقة تونس وكان ذلـك بـدءا لقيـام دولـة الأغالبة[2]في جمادى الأخره 184 هـ /سبتمبر 800 م.

أما بالنسبة للخوارج فتبرز أحداثهم بالأخص في ظهور منهج الاعتـدال الـذي تزعمـه الإباضية[3]، حيث بدأت الدعوة السرية الإباضية في البصرة[4]، ونجحت في كسب الأنصار فيمـا وراءها[5]،ولقد وجدت هذه الفرقة الخارجية مرتعها ببلاد المغرب بالإضافة إلى الصفرية والأزارقة. كما تقوم عدة ثورات خارجية وتشتد في عهد المهدي[6] وتمتد إلى بدايات عهد هارون الرشيد[7].

ورغم ذلك فإنّ عهد هارون الرشيد في سياسته الداخلية كان أقوى من كلّ الأحداث ومن الفتن التي ثارت، فكان الاستقرار طابع الدولة والعظمة طابع الخليفة،و أنّ أيام الرشيد كانت كلّها أيام خير[8]، ولكن هذه العظمة كانت بعض الأحيان تختل بفعل الاحتكاك الداخلي وربما كذلك

داخل القصر، نذكر منها فتنة البرامكة[9] ومحنتهم أثناء عهد هارون الرشيد، وكذلك الفتنة بين ولديه الأمين[10] والمأمون[11] سنة 193هـ /808م[12].

---

[1] إبراهيم بن الأغلب ولاه الرشيد على تونس 196/184هـ كان أستاذه الليث بن سعد وتسمية الأغالبة لإظهار الولاء للعباسيين من 184-296هـ/800-909 م. والاعتراف بسلطا م. (حسن إبراهيم حسن:المرجع السابق ، ص 174).

[2] أحمد شلبي: المرجع السابق ،ص81،حسين مؤنس :تاريخ المغرب و حضارته ،بيروت ،ط1 ،1992،ج1،ص258.

[3] الإباضية: نسبة إلى عبد الله بن أباض بن مرة بن عبيد بن تميم خرج آخر دولة بني أمية أجمعوا على أنّ من ارتكب كبيرة من الكبائر كفر، وكفر نعمة لا كفر ملة... (انظر الشهرستاني: المصدر السابق ،ص 134،علي عبد الفتاح: المرجع السابق ،ص188).

[4] البصرة: البصرة في كلام العرب الأرض الغليظة، وهي منطقة توجد بالعراق، فيها حجارة سوداء ووقعت فيها أحداث كثيرة، كما أنها مدينـة العلم والعلماء دخلها الكثير من الفقهاء. (ياقوت: المصدر السابق، ج1 ،ص 430 ما بعدها).

[5] فاروق عمر: المرجع السابق ،ص134.

[6] في سنة 162 ثورة عبد السلام الخارجي، وياسين بن تميم بأرض الموصل سنة 168 وغيرها(انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ،. بيروت، ط1965 ،ج 6، ص57، 78).

[7] أحمد شلبي: نفس المرجع، ص 80.

[8] نفسه ص80.

[9] البرامكة: أسرة فارسية زعيمهم يحي البرمكي وقعت لهم نكبة في عهد هارون الرشيد 187هـ إذ كان وزراء العباسيين في عهد الرشد منهم للمزيد من الاطلاع ارجع إلى العبادي المرجع السابق ص84،(حسن إبراهيم حسن :ج2 ،ص 48، وهناك رسالة قدمها الأستاذ قويد بشار حول دور أسرة البرامكة جامعة الجزائر قسم التاريخ، يفصل هذه الأحداث و أهم نتائجها، و كذلك محمد الخضري: الدولة العباسية، دار المعرفة، بيروت، 1996، ص106).

[10] الأمين: محمد الأمين خايفة عباسي 193-198هـ/809-813م جاء بعد وفاة أبيه الرشيد ومدة خلافته لم تكن طويلة. قام الـ اع بينه وأخيه المأمون وهو في إطار الـ اع بين العرب والموالي (انظر العيادي: المرجع السابق، ص94).

[11] المأمون: عبد الله المأمون ولد سنة 170هـ وحكم بين 198-218هـ/813-833م أمه فارسية " مراجل" تصارع مع أخيه وانتهى الصراع بمقتل أخيه الأمين، (العيادي:نفس المرجع ،ص101).

[12] ابن خلدون: المصدر السابق،ج3 ، ص464.

ولم يمنع هذا من قيام سياسة خارجية قوية، حيث ظهرت قوة المسلمين جلية سـواء بالمـشرق أو المغرب أو الأندلس. والملاحظة الهامة هي وجود كيانين رئيسيين متباينين الخلافة العباسية بالمشرق وبالمغرب الإسلاميين، والإمارة الأموية التي تأسست بالأندلس(سنة 138هـ/756م) وصارت خلافـة[1] سـنة 316هـ/928م في عهد عبد الرحمان الثالث (300-350هـ /912-976م) ولكل دوره[2].

وما يلاحظ أنّ الدولة العباسية سطرت لنفسها سياسة كانت تهدف إلى تحقيق نوع من القوة مـن جهة والتفرغ للشؤون الداخلية من جهة أخرى، و تظهر هذه السياسة في أمرين:

أولهما جنوح الدولة إلى تحقيق نمط في الحكم بإعطاء الولاة مزيدا من السلطة مع مزيد من المراقبة، أدى ذلك إلى أن أعطى عامل الثغور سلطة أكبر وقدرة على العمل مكنته من مواجهة المواقف المـتغيرة[3]، و ذلك لاحتكاكهم بالقوى المعادية للدولة العباسية و لبعد المسافة

ثانيهما: الاعتراف بالأمر الواقع في الأندلس والمغرب الأقصى وإعطاء الأغالبة سلطة الاستقلالية في نطاق التبعية للخلافة العباسية. وهذا لأجل التفرغ لمواجهة الدولة البيزنطية. فأزيحت الأثقال ووطد السلطان بالمشرق[4].

وقد تمكّن المسلمون في سبيل فرض وجودهم على النطاق العالمي باستعمال وسيلة العصر المبتكـرة في مجال الحرب والتجارة، حيث أنّ السنوات الأولى من القرن التاسع للميلاد(3هـ) شـهدت نشاطا بحريا – للبحرية الإسلامية- في المياه الإيطالية، حيث هاجم المسلمون جزائر باشـيلاريا " قوصرة"[5] سنة 806م ثم هاجموا إقليم روما ونابولي حوالي 808م و في 813 أغاروا على نيس، والتحول الكبير حدث بعد عقدين من القرن 9م (3هـ) إذ أضحى المسلمون يـسيطرون علـى مفاتيح البحر المتوسط[6]، مع العلم أنّ المناوشات لم تنته على الحدود الأندلسية الأوربية أي بـين

(1) محمد موسى الشيخ: دولة الفرنجة و علاقتها بالأمويين في الأندلس، مؤسسة الثقافة الإسلامية، الإسكندرية،ط1981،ص

(2) في أواخر القرن الثالث للهجرة تظهر دولة أخرى بافريقية و المغرب و هي الدولة الفاطمية من 4ربيع الأخر 297هـ-إلى شعبان 358هـ/ديسمبر909- جويلية 967 م (حسين مؤنس: المرجع السابق، ص448).

إن ضعف الدولة العباسية و بروز الدولة الفاطمية شجع على قيام و إعلان الخلافة الأموية بالأندلس بعد القضاء على ثورة بني حفصون سنة 315هـ/928م.(إبراهيم بيضون : الدولة العربية في الأندلس ، دار النهضة،بيروت ، ط3، 1986، ص273)

(3) حسن أحمد محمود: العالم الإسلامي في العصر العباسي، دار الفكر، بيروت، ط1 ،ص 162.

(4) نفسه : ص162.

(5) قوصرة: جزيرة في بحر الروم – المتوسط بين مهدية وجزيرة صقلية (انظر ياقوت الحموي :المصدر السابق، مجلد 4، ص413).

6 الباز العريني :تاريخ أوربا العسور الوسطى، بيروت، ط1968، ص 214.

الإمارة الأموية والدولة الكارولنجية[1]. ومثلما كان يقع بـين الدولـة الإسـلامية في المـشرق والإمبراطورية البيزنطية.

ولكن ما نشب بين المسلمين والمسيحيين في شبه الجزيرة الأيبيرية وكذا في الشام، لم يمنـع الاتصال الحضاري بينهم، بل كان للمسلمين حلفاء في جهات متعددة بأوربا الكاثوليكية، فقـد تحالف شارلمان[2] وهارون الرشيد لمناوأة بيزنطة وقرطبة[3].وتبادل الطرفان الوفـود ففـي عـام 180هـ/796م، بعث شارلمان وفدا مؤلفا من ثلاثة رجال، اثنين من الإفرنج وثالث يهـودي يدعى إسحاق، وفي سنة 189 هـ/804م. أرسل هارون إلى شارلمان وفدا يمثله من الأغالبة... و رد بالمثل شارلمان، ثمّ إنّ التفاهم الذي توطد بين العباسيين والفرنجة لم يختلف بوفـاة هـارون الرشيد إنما ظلّت أواصره معقودة حتى عصر المأمون[4].

هذا بالنسبة للعلاقات مع الغرب عموما، ولكن خطرا آخر يوجد بالمـشرق، إذ أنّ قيـام الدولة العباسية صحبه ظهور أطماع صينية سافرة، فقد ألبوا الأتراك الشرقيين، وبدأوا يغيرون على أطراف إقليم ما وراء النهر، بيد أنّ العباسيين ضوا بالأمانة كاملة وهزموا جيش الصين[5].

وهكذا فإنّ ظروف العصر العباسي، ونجاح خلفائه في توطيد النظام الداخلي في كبح جماح الثورات والتصدي للمشكلات الخارجية. قد ترك أثرا عميقا في كل ا الات الحيوية و بـالأخص في ناحية من أهم نواحي الحياة الاقتصادية وهي التجارة الداخلية والخارجية[6].

---

(1) الكارولنجية:أسرة من الحكام الفرنجة أسسها بيين في القرن 7م حكم أمراؤها بوصفهم رؤوساء ديوان القصر في العهد الميروفنجي ، و أعلن بيين القصير نفسه حاكما في 751م و إستمر إلى 768م ثم ترك الملك لولده شارل الكبير الذي اعلن إمبراطورا سنة 800م بعد فتنة بينه و أخيه كارلومان ثم قسمة الإمبراطورية الكارولنجية بعد موت لويس التقي إبن شارلمان . و بعد معاهدة فردانة 843م قسمت الإمبراطورية بين ابناء لويس، و بذلك قضي ائيا على وحدة الإمبراطورية الكارولنجية.(محمد شفيق غربال: الموسوعة العربية الميسرة ، دار الجيل ، ط1995، ج2، ص1423، محمد مرسي الشيخ : المرجع السابق ، ص20)

(2) شارلمان زعيم إفرانجي ولد في 743م و توفي في 814م تميز عهده بالقوة (أنظر الباز العاريني: المرجع السابق ،من ص272إلى 317)

(3) الباز العريني :نفسـه: ص 227.

(4) حسن أحمد محمود :المرجع السابق، ص 164 وما بعدها.

(5) إستطاع عامل العباسيين زياد بن صالح الخزاعي أن يهزم الجيش الصيني في يوليو 751م (أنظر حسن أحمد محمود: نفسه، ص170)

(6) حسن أحمد محمود: نفسـه، ص202.

وخلاصة القول أنّ الدولة الإسلامية في العصر الذي برزت فيه المذاهب الفقهية يعد بحـق عصر ازدهار كبير، وقوة عظيمة كانت تمثلها شخصية الرشيد، " حيث يعتبر عهده واسطة العقد بالنسبة للتاريخ الإسلامي الوسيط، واكتملت للدولة ألوان من العظمة والقوة وا ـد، وكانـت الدولة مهيبة الجانب، فاحترمتها الدول ا اورة وهابتها[1] ، و قد شارك الجميع في بناء هذه القوة ، و كان في مقدمة المشاركين الفقهاء و العلماء الذين أثروا – بفضل قوة استنباطا م – في الحيـاة الاجتماعية والسياسية و الفكرية حيث أعطوا الأحكام الشرعية لكل ظاهرة أو مستجد، و ساهموا بقسط كبير في استقرار الدولة بإرشادهم ا تمع، و إضعاف شوكة الفرق و نصـحهم الحكام، و بذلك اعتبروا المراقبين الحقيقيين و المشرعين الورعين للمجتمع و الدولة آنذاك، و مـن هـؤلاء الفقهاء أصحاب المذاهب الفقهية الأربعة و المذاهب المندثرة .

[1] أحمد شلبي: المرجع السابق ص80.

ثانيا: الأوضاع الاجتماعية.

إنّ رقعة الدولة العربية الإسلامية توسعت وانتشر الإسلام فشمل أقاليم جديـدة تسكنها شعوب غير عربية وأطلق عليهم مصطلح " الموالي" وكان لهـؤلاء أن يـؤثروا في المظاهر السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الجديد[1]. وهكذا تكونت الدولـة الإسلامية في هذا العصر من أمم مختلفة إذ كان من أجزائها المغرب ومصر والـشام وجزيـرة العرب والعراق وفارس... وكانت هذه الأمم تختلف فيما بينها فلكل منها مزايـا وصـفات عرفت بها[2].

ووقع الامتزاج والاختلاط وهي عملية لها ظواهر سلبية وإيجابية. " إذ وسط هذه الأفواج الأعجمية المتدفقة من كل صوب على الحياة العربية، في كلّ ميادينها كان مـن الطبيعي أن يظهر صراع قوي بين الاتجاهات المحافظة والجديدة خصوصا بـين العـرب والفرس[3]، ولكن بالمقابل هناك إيجابيات جمة لهذا الاختلاط في مجالات السياسة والإدارة والدين واللغة.

ويورد أحمد أمين ملاحظة مهمة في هذا الباب إذ يقول: أنّ نتيجة الـصراع هـو هزيمة العرب في الناحية السياسية والإدارية، والغلبة كانت للموالي، أما في الجانب الـديني واللغوي فقد انتصر العرب. حيث لم تستطع ا ـوسية أن تساير الإسلام، وظـل المـوالي يخدمون أغراضهم السياسية – يقصد المناصب- فيما يخدمون في الوقـت نفـسه اللغـة والدين[4]، وأنّ أكثر ا ـيدين في اللغة[5] والدين في هذا العصر كانوا فرسا.

بفضل هذا الامتزاج خرج إلى الوجود مجتمع جديد فعـال وقـوي لـه طابعـه الإسلامي ووحدته المتماسكة ولغته العربية، ولعلّ السر في هذا النمط الفريد مـن نوعـه -الذي ابتدأت لبنته الأولى في عهد الرسول ρ وازدادت قوة من فترة لأخرى إلى غايـة العهد العباسي- تعود إلى المبدأ الذي أقره القرآن الكريم : ﴿يا أيّها النّاس إنّا خلقنـاكم مـن

---

(1) فاروق عمر: المرجع السابق، ص 234.

(2) أحمد أمين: ضحى الإسلام، بيروت، ط10، ج1، ص5.

(3) أحمد أمين :نفسه: ص5.

(4) أحمد أمين: نفسه، ص40.

(5) يقال أن الأصمعي يحكى عن عصره أنه مما يخلّ بالمروءة التكلم في مصر عربي بالفارسية.

ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم)[1]، إذ بتطور الزمن انصهرت هذه الأمم والشعوب وتفاعلت وتداخلت ونتج منها إنتاج كان له من المميزات والخصائص ما جعل المؤرخين يطلقون عليه الإنتاج العباسي[2]. حيث أعطت الخلافة العباسية للعناصر الإسلامية المختلفة دورا يليق بها، ووصلت هذه العناصر الإسلامية غير العربية إلى مناصب قيادية كمنصب الوزارة وقيادة الجيش وحكم الولايات[3].

إنّ ظاهرة الامتزاج التي ركز عليها الكثيرون قد برزت أكثر في العهد العباسي بعد الفتوحات التي تميز بها العصر الذي سبقهم، فقد أعطت قوة كبيرة وصبغة واضحة للمجتمع الإسلامي من خلال هذه العملية إلاّ أننا بقدر ما نسجل إيجابيات هذه الظاهرة نسجل من جهة أخرى بعض السلبيات التي عكّرت الصفو وأثارت الفتن، وأفرزت الانحرافات.

فالإيجابية الأولى لهذا الامتزاج هو تأثر الحياة الاجتماعية بالفرس في الأكل واللبس والتأثيث واللهو واللعب، وحتى العادات والتقاليد وأخذ الجديد هذا يدخل من أمم أخرى هندية ويونانية وصينية وهي أيضا نتيجة لظهور حركة واسعة للترجمة من كل الثقافات العالمية[4].

والإيجابية الثانية تتمثل في أنّ أمر التمازج هذا بين العرب وغيرهم لم يقتصر على الاحتكاك الفكري وتبادل الآراء في السياسة والأدب والدين بل كذلك اختلاط الدماء [5] أي التوليد، إنها ظاهرة انتشرت في هذا العصر، لولوع الناس بالاختلاط بغير العرب. وكان ميل العرب إلى الإماء أكثر من الحرائر وهذا لعدة أسباب منها جمال المرأة في البلاد الأعجمية المفتوحة. وكذلك نجابة الأبناء عن طريق امتزاج الدماء، وظهور نوابغ فيهم بكثرة كما نشأ جيل جديد يحمل مميزات خاصة حتى أنّ بعض الخلفاء أنفسهم كانوا من هذا الصنف[6] مثل المأمون.

---

[1] سورة الحجرات الآية 13.

[2] أبو القاسم محمد كرو: المرجع السابق ص52.

[3] أمينه بيطار: تارخ العصر العباسي، بيروت ط3 1977 ص54.

[4] أبو القاسم محمد كرو: المرجع السابق ص69.

[5] أحمد أمين: المرجع السابق، ص9.

[6] أحمد أمين :نفسه: ص11.

والحقيقة أنّ هناك أسبابا أخرى دفعت إلى ولوع الناس بالتزوج من الأعجميـات أبرزها عملية الفتوحات التي تدفع إلى السبي من جهة وإلى طول المكوث في البلاد المفتوحة فيضطر الفاتح إلى الزواج حيت تحقق هدفا آخر وهو إيجاد الترابط مع الشعوب الداخلـة في الإسلام، ثمّ هي مبادئ الدين التي تدعو إلى العفّة والتحصين فأبيح التعدد، حيـث لا يمانع الشرع في أقل من أربعة.

و لظاهرة الامتزاج سلبيات كذلك أفقدت المجتمع الإسلامي في هذا العصر بعض التوازن من خلال تلك الشوائب التي لم يتخلص منها الداخلون في الإسلام، ومن خلالها وجد بعض المسلمين منفذا أفرغوا نزواتهم وميولاتهم المنحرفة وذلك في الأخلاق والعادات والاعتقادات وأهمها ظاهرة الزندقة، وهي ذات أصول فارسية وثنية حيث هي المروق عن الدين والاستهزاء بقدسيته. فالزندقة[1] روجت المروق عن الدين ودفعت إلى ظهور عـدة فرق" ووصلت إلى عدم الاعتراف بنبوة محمد صلى الله عليه و سلم [2] كان ذلـك لأنّ البيئة الدينية امتازت بإطلاق الحرية في الاعتقاد والبحث العلمي والحياة الفكريـة بـصفة عامة، فقد كان المجتمع مكونا من مسلمين لهـم مـذاهب مختلفـة ونـصارى ويهـود وزرادشتيين[3] خصوصا في العراق ونشأ في جو هذه الحريـة صـراع بـين الـديانات والمذاهب... كان بعضها صادقا نزيها والبعض الآخر مغرضا هداما[4]. ولكـن الدولـة الإسلامية خصوصا العباسية لم تبق مكتوفة الأيدي بل أحكمت القبضة على أهل البـدع والزندقة، فقد أوصى المنصور ابنه ولي عهده بأن يتقرب من الفقهاء ويجعلهم عضده، ولا يفرق الجماعة ويحارب المنحرفين[5].

---

(1) الزندقة: هي تلك البدع في أصول الدين والانحراف عن منهج الإسلام وتعود في الأصل إلى اتباع الديانات المجوسية الفارسية كالزرادشتية والمانوية (العيادي: المرجع السابق، ص68).

(2) فاروق عمر: المرجع السابق، ص203.

(3) الزرادشتية: ديانة أتباع زرادشت بن يورشب كان أبوه من أذربيجان و أمه من الري و اسمها دغدويه ظهر نحو 1400 ق م. امتدت هذه الديانة إلى أفغانستان وباكستان والعراق كان آخر ملك زرادشتي توفي 656م بإيران والديانة اليوم هي في الهند (بومباي).(انظر الشهرستاني: المصدر السابق، ج1، ص281، سهيل زكار: المعجم الموسوعي ، دار الكتاب العربي، دمشق، ط1 1997، ص458 وما بعدها).

(4) أبو القاسم محمد كرو: المرجع السابق ص72.

(5) فاروق عمر: نفس المرجع، ص207.

فأمعن المهدي في قتل الملحدين و المنحرفين عن الدين لظهورهم في أيامه وإعلا م باعتقادا م في خلافته... حتى أننا لأول مرة نسمع بتعيين رجل خاص يعهد إليه أمرهم، وسمي بصاحب الزنادقة[1]، وعلى العموم فإنّ العباسيين شعروا بخطـر هـؤلاء النـاس ومذاهبهم ونزعا م على الإسلام فقاوموا هذه المذاهب المنحرفة وحاربوا أهلـها محاربـة عنيفة لا رحمة فيها[2]. وكان نتيجة ذلك أن قتل منهم جماعة منهم يعقوب بن الفضل بن عبد الرحمان بن عباس بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب، وكان سبب قتله أن أوتي به إلى المهدي فأقر بالزندقة[3]. كما تزندق رجل ادعى النبوة في جهات خراسان[4] واجتمع إليه نحو ثلاثمائة ألف مقاتل[5].وكان يسمى بالمقنع لأنه كان رجلا أعورا... وقـصيرا... اتخذ وجها من ذهب فجعله على وجهه لئلا ُيرى فسمي بالمقنع وادعى الألوهية[6] كـان هذا المقنع يسمى حكيما وهاشميا وكان يقول بالتناسخ[7] وأنّ الله خلق آدم فتحـول في صورته ثمّ صوره نوح إلى أبي مسلم ثم إلى هاشم وهو المقنع[8].

والملاحظ أنّ الخلفاء العباسيين لم يستعملوا وسيلة القـوة فقـط لـردع هـذه الانحرافات وضرب الزنادقة بل عمدوا إلى وسيلة ثانية وهـي تحفيـز العلمـاء لإجـراء المناظرات وتأليف الكتب لرد الشبهات. وهذا من أوجه نشاط الحركة العلمية آنذاك.

ومن السلبيات التي برزت أيضا ظاهرة الشعوبية وهي حركة فكريـة اجتماعيـة ترمي إلى ضرب الكيان العربي في ثقافته وإرثه الحضاري، والتقليل من شأن اللغة العربيـة والاستهزاء بالمثل والقيم العربية واحتقار العرب، والشعوبيون ظلوا على دينـهم القـديم

---

(1) أحمد أمين: المرجع السابق، ص140.

(2) نفسـه: ص141.

(3) ابن الأثير: المصدر السابق،ج6 ، ص89.

(4) خرسان: بلاد واسعة. أول حدودها مما يلي العراق وآخرها مما يلي الهند وسجستان وكرمان (انظر ياقوت: المصدر السابق، ج2، ص350 وما بعدها).

(5) ابن خلدون: المصدر السابق، ج3 ،ص421.

(6) ابن الأثير: نفس المصدر، ج6 ،ص38.

(7) التناسخ يعني تناسخ الأرواح من ميت إلى حي وهي فكرة تطورت إلى طرح الحلاج وسميت الحلولية، و الحلولية هي التي كان يقول با أصحاب المقنع كما ا ا تشبه ما قالته الراوندية حينما قالوا أن ابا مسلم الخراساني إنتقلت إليه صورة آدم (حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج2، ص89).

(8) ابن خلدون:نفس المصدر ص439.

وأسلموا ظاهريا. إنّ الشعوبيين لم يظهروا عداءهم للإسلام بل عمدوا إلى طريقة أخبث وأذكى في نفس الوقت. هو ضرب الدعائم التي يقوم الإسلام (الدين، اللغة، التاريخ).

ومن المظاهر الأخرى الاجتماعية التي طرأت على المجتمع العباسي ظاهرة التضخم السكاني... حيث ألغى العباسيون قيود الهجرة[1]. وهذا ما جعل النقص في الأيدي العاملة بالريف... ، وارتفاع الأجور، ولعل ذلك هو الذي أدى بالعباسيين وأصحاب الإقطاعات الكبيرة في جنوب العراق إلى استخدام الرقيق في الأعمال الزراعية، ومن ثم نشأةُ مشكلة الزنج[2] المشهورة[3].

كما انتشر في بغداد عامة نوع من الذوق الاجتماعي الرفيع بين الخاصة والعامة في كلّ شيء[4] وهذا دليل على تطور الحياة الاجتماعية في هذا العصر رغم بعض الشوائب المذكورة آنفا. لقد برز المجتمع الإسلامي أيام العهد العباسي مجتمعا متماسكا راقيا في جميع شؤونه تدل على تلك اللحمة المتماسكة بين العرب وغير العرب وتدل عليه أيضا ذلك التعامل السمح الذي طبع العلاقة بين المسلمين وأهل الذمة وغيرهم في دار الإسلام. هذا الاستقرار ولّد إنتاجا علميا قويا، و كان ممن قام عليه الفقهاء الذين شرعوا لمظاهر عدة في الحياة الاجتماعية بهدف تقوية المجتمع و جعله متماسكا، و ضرب كل فكرة هدامة، فخرجت إلى الوجود أحكام طورت الحركة العلمية بمثل ما حققت أهدافا اجتماعية.

---

(1) حسن أحمد محمود: المرجع السابق، ص226.

(2) ثورة الزنج كانت سنة 255هـ / 868م حركة قام بها الزنوج من جنوب العراق وصاحبها هو علي بن محمد الذي ادعى النسب العلوي أو الولاء للعلويين اتخذ لقب المهدي (فاروق عمر: المرجع السابق، ص369 وما بعدها بعدة صفحات).

(3) حسن أحمد محمود: نفسه، ص 241.

(4) نفسه: ص238.

ثالثا: الأوضاع العلمية والفكرية:

لم يشهد العالم الإسلامي نظيرا لعصر ظهور المذاهب الفقهية في جانبه الفكري إلى يومنا هذا، من حيث مبلغ التطور كما ونوعا وانتشارا وأثرا على جميع الأصعدة.

فقد ساهم الخلفاء العباسيون مساهمة كبيرة من حيث تسخير الوسائل ودفع الحركة العلمية. إذ شجعوا الحركة العلمية في شتى نواحيها، وبالغوا في إكرام الأدباء والعلماء وتقريبهم إليهم، وحذا الأمراء والوزراء حذوهم في مختلف الأقاليم والمدن الكبرى، فكانوا يتنافسون في ذلك وفي فتح دور العلم[1].

وما يلاحظ أنّ العصر الأموي كان الاتجاه العلمي فيه إلى التلقي والاستماع وخصوصا في العلوم الدينية، أما العصر العباسي فقد أخذ العلم يدون وأخذت العلوم تتميز، وصار لكل علم علماء، واختصوا به، وتفننوا فيه، وضبطوا[2] قواعده.

كما أدت عوامل أخرى إلى الاهتمام بالعلم في هذا العهد بالإضافة إلى تشجيع الخلفاء والأمراء نذكر منها:

تحفيز الدين الإسلامي على العلم والتعلم وما فيهما من أجر ومكان عند الله عز وجلّ والآيات والأحاديث لا يتسع المجال لذكرها، كما أنّ العامل التاريخي وهو خروج العرب من عزلتهم واختلاطهم بغيرهم من الأمم والشعوب، و كذلك العامل الجغرافي المتمثل في نقل عاصمة الخلافة من دمشق إلى بغداد وبذلك وقعت تحت تأثير جغرافي وهو الاقتراب من بلاد فارس فكان التأثير والتأثر[3].

ولعله من الطبيعي " أن يكون العصر العباسي الأول أنسب العصور الملائمة للنهضة الثقافية فمدينة السلام بدأ فيها الهدوء بعد حركة الفتوح التي كانت طابع العصر الأموي، والثقافة تنتشر في الأمة إذ هدأت، واستقرت أمورها وانتظم ميزان اقتصادها،

---

[1] أبو القاسم محمد كرو: المرجع السابق، ص80.

[2] فالخليل بن أحمد يضبط بحور الشعر بوضع علم العروض، و علماء اللغة يضعون الضوابط علم النحو والصرف. ويقوم الشافعي بضبط قواعد الاستنباط. وهكذا.(أبو زهرة: الإمام الشافعي، ص58)

[3] أبو القاسم محمد كرو: نفس المرجع، ص65.

وجلّ هذا توفر بعد قيام الدولة العباسية[1].

لقد كان للجانب الاقتصادي وانتشار التبادلات، وانفتاح المسلمين على العـالم (هنـد وصين وبيزنطة وفارس) أثره الواضح في تقدم ا تمع وانتشار الترف والرخاء بين طبقاته.. و كان لذلك أثره في تقدم الثقافة وانتشار العلم على نطاق واسع بما ييسره من إمكانيات للدولة والأشخاص، للإنفاق في سبيل العلم ووسائله بسخاء ودون تردد[2]

وقد كانت النهضة في ذلك العصر تتمثل في ثلاثة جوانب على العموم هي ظهور حركة التصنيف[3] وحركة تنظيم العلوم الإسلامية[4] وحركة الترجمة في اللغـات[5].إنّ الحركة العلمية في العصر العباسي شهدت استفاقة كبرى وهذا ما يلاحظ من خلال كثرة وتنوع الأماكن التي اشتغلت بـا واحتضنت هذه الحركة،حيث لم تقتصر على المـساجد والكتاتيب بل وجدناها في الأسواق وعند حوانيت الوراقين، وبدأت النـدوات العلميـة تناقش فيها القضايا الفكرية، ثمّ امتدت الحركة إلى منازل العلماء يتناقشون المسائل العلمية الدقيقة ويتناظرون في الأدلة والحجج، وإلى جانب ذلك وجدت مجالس الخلفاء والأمـراء والولاة ، وكانت تخضع لنوع من الآداب والتقاليد والأنظمة في كل شيء، وكان لهـذه ا الس دور عظيم في تشجيع الحركة العلمية وازدهارها لأنها تحـت إشـراف الخليفـة المباشر[6]

---

[1] أحمد شلبي: المرجع السابق، ص213.

[2] أبو القاسم محمد كرو: المرجع السابق ص71.

[3] حركة التصنيف وهي كتابة الكتب ومرت بثلاث مراحل هي:

تقييد الفكر أو الحديث في صحيفة مستقلة، ثم تدوين الأفكار المتشابة في ديوان واحد والمرحلة الأخيرة مرحلة التصنيف وهي ترتيبه وتنظيمه ووضعه في فصول.

[4] حركة تنظيم العلوم الإسلامية: وهي العلوم التي تتعلق بالدين ولغة القرآن وهي العلوم النقلية كالتفسير وفصله عن الحديث والفقه ومذاهبه والنحو ومدارسه والتاريخ انظر(أحمد شلبي المرجع السابق ص214).

[5] حركة الترجمة وهي حركة أخذ العلوم من اللغات العالمية إلى العربية وقد انتشرت في عهد المأمون ومن المترجمين من السريانية واليونانية إلى العربية. أبو يحيا (يوحنا) البطريق. ترجم كتاب التنجيم لبطليموس (انظر محمد عبد الرحمان مرحبا الموجز في تاريخ العلوم عند العرب بيروت ط1968 ص72 وما بعدها).

[6] أحمد على الملاّ :أثر العلماء على الحضارة الأروبية دمشق ط2 1981 ص51 وما بعدها.

وبرزت إلى الوجود طريقة عمل بها الخلفاء تشجيعا للعلم وهي البعثات العلمية. فقد اتسم عصر المأمون بإيفاد البعوث العلمية لاستيفاء الثقافة من مواردها الأصلية والتشجيع على ترجمة أمهات الكتب الأجنبية من مختلف اللغات في الفلسفة والطب والطبيعة والفلك والرياضيات والسياسة ونظم الحكم، فأقام مع النصارى[1] علاقات وما يلاحظ أن ما كان من اختلاف بين الديانتين الإسلامية والمسيحية لم يؤثر في انتقال الأفكار بين المسلمين والمسيحيين[2].

إنّ التقاء المسلمين بغير المسلمين كان له نتيجتان هامتان: أولاهما نقل ما للمسلمين من أفكار و آراء أساسها التوحيد إلى عالم يؤمن بالتثليث، و هو ما سيؤثر مستقبلا على الحياة الفكرية و الدينية على أوربا [3] ، و ثانيهما معرفة طرق الاستدلال و الاستنباط لما للأوربيين من منطق يوناني حافظوا عليه و موروث فكري استفاد منه المسلمون .

كانت الحركة الدينية سمة العصر حيث كان لها شيوع واسع، تدرس القرآن والحديث والفقه والقراءات سواء في مصر أو الشام. حتى قيل " كان عند كلّ عمود من أعمدة جامع دمشق شيخ وعليه الناس يكتبون العلم.. وكان إلى جانب هذه الحركة الدينية حركة أدبية تتمثل في الشعر والنثر في الشام أقوى منها في مصر وما لبثت هذه الزعامة أن تحولت إلى العراق تبعا لتحول الحاضرة من دمشق إلى بغداد[4].

فصارت العراق أهم مراكز الحياة العقلية في فروع العلم والفن، من تفسير وحديث وفقه ومن لغة ونحو وصرف، ومن ترجمة كتب فلسفية وجد في تفهمها والتعليق عليها، ومن مذاهب كلامية[5]، وعلوم طبية ورياضية وغناء وموسيقى ونقش وتصوير، ومن تأليف في كل العلوم والفنون[6].

---

(1) محمد عيد عبد الرحمان مرحبا: المرجع السابق ص 73، سيأتي بيان أهم المترجمين و الناقلين في الفصل القادم.

(2) الباز العريني: المرجع السابق، ص228.

(3) سيغريد هونكة: دور الفكر الاسلامي في ميلاد النهضة في أوربا، مجلة الأصالة الجزائر، العدد 37/36، السنة الخامسة ، شعبان، رمضان 1396، سبتمبر 1976، ص41، عثمان أمين: إزدهار الحضارة الاسلامية في الغرب الاسلامي و دور هذه البلدان في النهضة الأوربية ص53.

(4) أحمد أمين: المرجع السابق، ص96 وما بعدها.

5 المذاهب الكلامية: منها المعتزلة والجبرية، وغيرها متأثرة بالفلسفات الدخيلة، أنظر علي عبد الرحمان المغربي: المرجع السابق.

6) أحمد أمين: نفس المرجع، ص77.

كما انتشر علم الكلام والمجادلات وقد كان يتزعم هذا الاتجاه المعتزلة[1] الذين تمرسوا بالجدل وأتقنوه[2]. و لم تكن هذه الحركة العلمية في قصور الخلفاء أو مجالس الأمراء أو في المساجد فقط، بل كانت تنتظم من فترة لأخرى و تظهر في عدة منشآت و منها بيت الحكمة التي تعد أول مكتبة عامة ذات شأن في العالم الإسلامي، أنفقت عليها الدولة العباسية بسخاء، وكان يجتمع فيها العلماء للدرس والإطلاع، ويلجأ إليها الطلاب للقراءة والعلم، ويؤمها الباحثون من مختلف الأقطار الإسلامية يأخذون منها وينهلون[3]، وقد أنشئت في عهد هارون الرشيد وتوسعت بشكل كبير في عهد المأمون[4].

وهكذا يتبين لنا بأنّ الخلفاء قاموا فعلا برعاية الثقافة والعلم وكثيرا ما كان منهم علماء وفقهاء مثل المأمون هذا في الشرق، أما في الغرب وأخص بالذكر الأندلس، فكذلك وجد من الخلفاء من يشجع العلم، بل كان هو نفسه عالما.حيث يذكر أنّ الأمير عبد الرحمان بن الحكم[5]الأوسط، كان حليما جوادا، وكان له حظ في الأدب والفقه وحفظ القرآن ورواية الحديث، وقد حكى عنه أنه تمادى مع بعض جلسائه[6] فأفحمه حجة وحفظا على ظهر قلب.

وكان منهم من قرب العلماء واستشارهم، ومثال ذلك الخليفة العباسي الثاني المنصور، فمن العلماء الذين تألقوا في عهده محمد بن عبد الرحمان بن أبي ليلى[7] قاضي قضاة المنصور والإمام أبي حنيفة والإمام مالك[8].وفي بلاد المغرب كانت مذاهب متعددة

---

(1) المعتزلة: تقوم هذه الفرقة على أصول خمسة هي : التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (انظر أبو زهرة: تاريخ المذاهب، ص126).

(2) أبو زهرة: الشافعي ص57.

(3) محمد عبد الرحمان مرحبا : المرجع السابق ص74.

(4) محمد علي الملاّ :المرجع السابق ص56.

(5) عبد الرحمان الأوسط (206-238هـ / 822-852م) تسلم الإمارة عن أبيه تميز عهده بعدة ثورات منها ثورة طليطلة وثورة البربر وبداية المقاومة الإسبانية، ولكن عهده شهد نهضة ثقافية كبيرة راجع إبراهيم بيضون: الدولة العربية في إسبانيا، بيروت، ط3 1986 ص230.

(6) أخبار مجموعة: ص122.

(7) أنظر ترجمة له في الفصل الأخير، ص 234.

(8) أحمد شلبي: المرجع السابق ص57.

حنفية وشافعية وظاهرية ومعتزلة وغيرها وقد وفد المذهب المالكي وتصارع مع الحنفية وتزايد الصراع في القرن الثاني للهجرة ويذكر أن الفاطميين قد استعانوا بالفقهاء الأحناف، فاغتنم الأحناف الفرصة فكانوا صوط عذاب على المالكية وعيونا عليهم ، ونشروا مذهبهم أيام الفاطميين ،ونكّل بالمذهب المالكي ولكنه صمد وظفر بالنجاح أيام المعز بن باديس (406 - 454 هـ/1016-1062 م)حين قتل الشيعة بالقيروان عام 409 هـ و تغلب المذهب المالكي على الجميع [1].

كما شهد هذا العصر في الجانب العلمي بروز المذاهب الفقهية بصورة جلية، فبعد ما كانت حركة الفقه مقتصرة على مذهبين، أهل الرأي وأهل الحديث، صارت إلى تطور أكثر ببروز مدارس فقهية لها شيوخها ومناهجها، وساهمت عدة عوامل في تبلورها وتطورها.

و ما يلاحظ أن هذه المذهب الفقهية لا تمثل آراء خارجة عن نطاق النصوص الشرعية الثابتة، و إنما نجد الحرص الأكيد من جميع أئمة المذاهب المشهورة[2] و غير المشهورة على التماس الحق و الصواب، و حاول كل فقيه مجتهد الوصول إلى الصواب بأساليب و مناهج اجتهادية، و هكذا تعددت المذاهب، و اعتبر تعددها ظاهرة صحية[3]، و من هذه المذاهب ما بقي إلى اليوم و تسمى المذاهب الأربعة. و منها ما اندثر و انقرض و لم يبق من آرائه و مواقفه و بعض فتاويه إلاّ الشيء القليل و لكنه الغني و هي مجالات البحث.

و قبل الخوض في هذه المذاهب يجب التنبيه إلى أن حركة التشريع قد مرت منذ البعثة إلى عهد الضعف و الجمود بعدة مراحل شهدت خلالها الحياة التشريعية عدة أحداث و تميزت بجملة من الملامح التي اتصفت با كل فترة، و لا عجب أن الحركة التشريع قد مرت بمراحل اختلف الناس في عدها، و في مرحلة منها تكونت المذاهب المندثرة.إلا أننا يمكن أن نقسمها إلى مراحل واضحة صبغت هذه التطور و هي مرحلة التكوين ثم مرحلة النضج و الكمال ثم مرحلة الهرم و الشيخوخة أو الجمود والتقليد و هي أساس البحث في الفصل الموالي.

---

(1) انظر في محنة المالكية و انتصار المالكية على الشيعة ،موسى لقبال :دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ، الشركة الوطنية للنشر ،الجزائر ، 1979 ،ص 411 ومابعدها ؛حسن أحمد محمود :قيام دولة المرابطين ،دار الفكر العربي ،القاهرة ،ص 90 وما بعدها لعدة صفحات .

(2) و هي المذاهب الأربعة الحنفي و المالكي و الشافعي و الحنبلي .

(3) محمد علي الملا: المرجع السابق، ص70.

الفصل الأول

التشريع الإسلامي ومراحل تطوره

المبحث الأول: الفقه و التشريع

المبحث الثاني: الدور الأول- التشريع في عهد الرسول ρ

المبحث الثالث: الدور الثاني- التشريع أيام الصحابة و التابعين

المبحث الرابع: الدور الثالث- دور النضج و الكمال"***عصر المذاهب***"

المبحث الخامس: الدور الرابع –دور التقليد

المبحث الأول

الفقه والتشريع

إذا كان المقصود من دراسة تاريخ علم من العلوم هو التعريف بمسائله ومبادئه وأهدافه وثماره حتى تتحقق الاستفادة منه، فإنّ الفقه الإسلامي لم يعد قاصرا على مجموعة الأحكام الفرعية في العبادات والمعاملات ولكنه أصبح منهجا متكاملا لشُعب الحياة الإنسانية كلها في العقيدة والعبادة والاجتماع والاقتصاد والتشريع والسياسة لأنّ الطور الذي وصل إليه الفقه في آخر مراحله كان بناء متراصا ينظّم العمران البشري وأنواع المعاملات والعلاقات الإنسانية تنظيما دقيقا، وهذا يعطي لدراسة تاريخ التشريع والفقه الإسلامي أهمية كبرى لأنها الحياة الإسلامية في أخص عناصر مقوماتها، حيث كانت شريعة الإسلام هي القاعدة التي يقوم عليها بناء الأمة[1].

إنّ الفقه الإسلامي يشبه تماما الكائن الحي من حيث تطوره، فهو لم ينشأ من العدم، كما لم يبلغ الكمال طفرة واحدة، بل نشأ من شيء موجود سابق عليه، وأخذ في السير متدرجا في مراتب الحياة متأثرا بالموجود حتى بلغ أقصى ما يقدر له من نضج وكمال ثم لينال منه الزمن وأحداثه[2] حتى أدرك الشيخوخة والهرم[3].

لقد تميز التشريع الإسلامي على غيره من الشرائع بأنه أصلح المجتمع البشري ووضع القواعد لحقوق الإنسان، وأيد الحريات العامة بأنواعها وثبتها بنصوص، إذ كان صريحا في إقرارها وبذلك تميز عن باقي الشرائع، فنادى بتوحيد الله ونفي الواسطة بين العبد[*] وربه[4]، ودعا إلى الاعتدال والتوسط في كلّ شيء، وأقر مبدأ الشورى والعدالة

---

(1) مناع القطان: تاريخ التشريع الإسلامي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط11، 1993 /1414، ص11

(2) وهو ما سنراه من خلال دراسة تطور الفقه في أطوار متعددة ولكن لم ينل منه الزمن إلاّ بعد أن ركن العلماء إلى الاقتصار على البحث في المذهب ، دون محاولة التوسع أكثر والبحث عن مصادر للتشريع بل اصطدم بعدة مصاعب تركته يسلك منحى آخر وهذا ما دفع إلى غلق باب الاجتهاد فيا بعد ووصف الفقه مرحلة التقليد والجمود.

(3) محمد يوسف مرسي : المدخل لدراسة الفقه الإسلامي، دار الفكر العربي، القاهرة، ط11، 1961 ص13.

(*) وهي ميزة كانت تحكم المجتمع المسيحي عموما تبرز لنا أساسا من خلال ظاهرة صكوك الغفران

(4) أبو العينين: الشريعة والملكية الإسلامية تاريخها في نظرية العقود، مؤسسة شباب مصر، الإسكندرية، ص59 وما بعدها.

الاجتماعية وأرسى مبدأ التسامح والتضامن الاجتماعي [1]. إنّ التشريع يستند في أسـسه العامة إلى الوحي الإلهي ومن هنا يتميز عن أي تشريع آخر، وأنه يقوم على الأخلاق وأنّ فيه الجزء الديني والدنيوي، والعبرة ببواطن الأمور و دقائقها لا الظواهر، وكذلك قبـول التشريع للتطور حسب الزمان والمكان[2].

- **دور الموالي في الفقه:** إن كان هذا هو التشريع في شموله، فقد كان من الصعب أن يتكفل العرب وحدهم به باعتبار شساعة الرقعة، ودخول شعوب جديدة، وباعتبـار الحرية المكفولة في البحث وأنّ الخلق كلهم عيال الله أقربهم إليه أنفعهم لعيالـه، وأيـضا باعتبار دور الدولة في ترسيخ ودفع حركة الفقه والتشريع، ولذا اهتم الموالي بهذا الجانـب حتى صار منهم الأفذاذ.

فلقد نبغ الموالي في تأسيس الكثير من العلوم بسبب أنّ الملّة الأولى لم يكن فيها علم ولا صناعة لمقتضى أحوال البداوة التي كانت تميز حياة العرب قبل الإسـلام، فكانـت الأحكام تحفظ في الصدور، ولم يعرفوا أمر التعليم والتأليف- و هذا مقارنة مع ما كـان موجودا في خارج الجزيرة كبلاد الفرس و الروم- ثم صارت العلوم كلـها ملكـات في الاستنباط والتنظير والقياس فاندرج في جملة الصنائع، والصنائع منتحل الحضر والعرب هم أبعد الناس عن الحضر آنذاك، فصارت العلوم حضرية والحضر هم العجم[3].

حواضر الحركة التشريعية: ومثلما قام العرب بنقل الفقه، عمل الموالي بالإتمـام والتطوير حسب ما لديهم من ملكات، فإنّ الفقه لم يستقر في الحجاز فحسب بل استقر في مراكز أخرى خارج شبه الجزيرة إذ هناك مراكز زاهرة للعلوم الإسلامية بلغت الذروة أيام العباسيين.

لقد كانت العراق أوفرها حظا لعدة عوامل واعتبارات، أبرزها انتقال الخلافة إلى هناك، كما أنه كان حلقة وصل بين الثقافة الإسلامية والأجنبية[4].

---

(1) أبو العينين: المرجع السابق، ص74.

(2) محمد يوسف موسى:تاريخ الفقه الإسلامي، دار المعرفة، القاهرة، ط2، 1966، ص24 ص25.

(3) محمد يوسف :نفس المرجع ، ص24 ،25.

(4) محمد يوسف نفس المرجع ، ص11.

وبرزت الحركة العلمية الدينية في مصر وقلبها النابض جامع عمرو بن العاص[1]، الذي كان ملتقى العلماء والفقهاء، وإليه يلجأ الناس للاستفتاء، كما يفد الطـلاب إليـه لتلقي العلوم، وأصبحت مصر مركزا علميا هاما يأتو ا من أفريقية[2] والأندلس، وبذلك أثرت مصر في المغرب و الأندلس في المذاهب والعلوم الدينية الأخرى[3]باعتبارها مركـزا هاما التقت فيه المذاهب و الأفكار كما هاجر إليها العديد من الصحابة و التابعين. ثم إنّ دمشق[4] كانت معقلا هاما لهذه العلوم باعتبارها عاصمة الأمويين وذخر الشام. وحينما قامت دولة بني العباس في بغداد هاجر الأمويون إلى الأندلس فارين، وكونوا دولة هنـاك عاصمتها قرطبة، وكان هناك تنافس بين العاصمتين في كل النواحي، وشـجع الحكـام المفكرين والفقهاء. وهكذا برزت في الحياة العلمية الفقهية مراكز هامة هي بغداد و دمشق و الفسطاط و قرطبة و مكة و المدينة،و القيروان و ـرت وفاس وسجلماسة .

ولقد استمر العلم في الرقى و الازدهار رغم العراقيل والمحن السياسية منها علـى وجه الخصوص:

- انتقال السلطة من يد الأمويين إلى العباسيين.
- الفتن والثورات الداخلية من حين لآخر.

يلتبس الأمر على كثير من الناس حول الفقه والتشريع هل لهما نفس المعنى؟ مـن هو الأسبق؟ ومن الذي يحتوي الآخر؟ إلى غير ذلك من التساؤلات التي يجب أن نفـصل فيها بتعريفات.

---

(1) هو مـ ل قيسبة بن كلثوم التجيبي حيث طلب عمرو بن العاص أن يجعله مسجدا فتصدق به قيسبة، فبني سنة (21هـ /640م) قيل وقف على قبلته ثمانون رجلا من الصحابة، ياقوت: المصدر السابق، ج4 ص265.

(2) يقصد هنا بإفريقية ليبيا وتونس والجزائر وحتى المغرب، وقد مر معنا ذكر إفريقيةص20.

(3) سيدة إسماعيل كاشف: مصرفي فجر الإسلام ، دار الرائد العربي، بيروت، ط3، 1406/1986 ص311.

(4) فتحها المسلمون أيام عمر بن الخطاب في 14هـ /635 وكانت القيادة لأبي عبيدة بن الجراح ودخلها المسلون صلحا وكانت بداية فتح في المنطقة أيام أبي بكر الصديق والقيادة لخالد بن الوليد، (ارجع إلىعصام محمد شبارو: المرجع السابق، ص302.).

- **الفقه**: إنّ الفقه كلمة كانت عامة ثمّ تخصصت في مجال محدد، أي أنها تطورت عما كانت عليه في العصر الأول من مفهوم لآخر ولكنه في نفس الإطار وله اختصاص.

في **المرحلة الأولى**: كان يقصد بها المعنى اللغوي لها، فأطلق على الفقه كلمة الفهم وأنه العلم بالشيء، والفهم لما ظهر وأخفى، وهو فهم أحكام الدين أي فهم كـلّ مـا شـرع الله لعباده[1]، وعليه فقد صارت كلمة الفقه تحتوي أمرين هما:

1- مطلق الفهم والفطنة.

2- غرض المتكلم من كلامه ولا يكون إلاّ بالعلم بالشيء وفهمه[2].

وعليه فقد كانت هذه الكلمة واسعة تستعمل لفهم الشرع وأحكام الدين وهي بذلك مرادفة لكلمة الشريعة.وقد أخذ مفهومها من قولـه تعـالى: (مَـا نَفْقَـهُ كَثِيـرًا مِمَّـا تَقُـولُ) [3]، (ولكن لا تفقهون تسبيحهم) [4]، قال أبو حنيفة في هذا الإطار: " الفقه معرفة النفس ما لهـا وما عليها"، وقد سمى كتابه في العقائد الفقه الكبير[5].

وفي المرحلة الثانية: وقع التخصص في الفهم، وصار الفقه جزءاً من الفهـم كلّـه لأنّ الفهم يكون للدين كله في جميع مجالاته، وصار الفقه هو: " العلم بالأحكام الشرعية المكتـسبة من أدلتها التفصيلية والدليل التفصيلي هو الموصل إلى الحكم في مسألة معينة"[6].

وللفقه أقسام هي: قسم المعاملات وقسم العبادات، ووصل الشافعية إلى تقسيم الفقه إلى سبعة أقسام، كما أنّ للفقه تعريفات عديدة لدى علماء الأصول والفقهاء[7].

---

(1) المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية: موسوعة جمال عبد الناصر ج1 القاهرة ط 1386/1967 صص9.10.

(2) أبو العينين: المرجع السابق، ص26 ، أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، الدار الجامعية، بيروت، ط1989، ص10.

(3) سورة هود الآية91.

(4) سورة الإسراء الآية 44.

(5) أبو العينين: المرجع السابق، ص26.

(6) أحمد فراج حسين: نفس المرجع، ص10.

(7) للمزيد من المعلومات في هذا الموضوع راجع موسوعة جمال عبد الناصر: ص10، وأبو العينين: نفس المرجع، ص31.

أما الشريعة: لغة الشرعة هي مورد الناس للاستسقاء، وهـي الطريـق المـستقيم (ثمّ جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها) [1].

أما **اصطلاحا**: فهي الأحكام التي شرعها الله لعباده ليكونوا مؤمنين عاملين على ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، وسميت الأحكام شريعة لأنها مستقيمة محكمة الوضع لا ينحرف نظامها عن مقصدها[2].

والشريعة الإسلامية مجموعة الأحكام التي نزل بها الوحي وهي أقسام:

أ- ما يتعلق بالعقائد الأساسية، كالأحكام المتعلقة بذات الله، وصفاته، والإيمان بـه وبكتبه ورسله وملائكته واليوم الآخر...

ب- ما يتعلق بتهذيب النفوس وإصلاحها، وهي الفضائل التي يجب أن يتحلى بـها المسلم كالصدق، الأمانة...

ج- ما يتعلق ببيان أعمال الناس وتنظيم علاقاتهم بخالقهم كالصلاة والصوم، وتنظيم العلاقات بين بعضهم البعض كالبيوع والزواج[3].

من خلال هذه التعريفات والتقسيمات يمكن لنا أن نصل إلى خلاصة مفادهـا: أنّ الشريعة هي أعم وأشمل من الفقه، والفقه أخص من الشريعة وهو جزء منـها، وأنّ كلمـة الشريعة كانت أسبق في الظهور من الفقه[4]، كما أنّ الشريعة بها أحكام منتهية ولا يمكـن الاستزادة فيها أو النظر باعتبارها عقائد تميز بين المسلم والخارج عن الشريعة، أما الفقه فهو يحتوي على أحكام نزلت يمكن تقسيمها إلى ما يلي:

- أحكام قطعية الثبوت وقطعية الدلالة لا يمكن الاجتهاد فيها.
- أحكام قطعية الثبوت وظنية الدلالة يمكن الاجتهاد فيها.

---

(1) سورة الجاثية آية 18، أنظر محمد بن ناصر السحيباني: من مزايا التشريع الإسلامي، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السنة 16، العدد 61، ربيع أول 1404هـ، ص64.

(2) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص16.

(3) محمد مصطفى شلبي: المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، دار النهضة العربية، بيرت، ط2، 1969، ص29.

(4) محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه، ص10، أحمد فراج حسين: نفس المرجع، ص12.

- أحكام ظنية الثبوت وظنية الدلالة يمكن كذلك الاجتهاد فيها.

و عليه يمكننا أن نسمي الفقه تشريعا لأنه يشرع لعدة مسائل، و لا يمكن أن نـسمي الشريعة فقها لأن الشريعة أعم من الفقه.

تطورت حركة التشريع منذ عهد الرسول ρ ، و برزت لها خصائص أهمها:

1- رفع الحرج والضيق: (لا يكلف الله نفسا إلاّ وسعها) [1]، (ما جعل الله عليكم في الدين من حرج) [2].

2- رعاية مصالح الناس: كتقديمه للمصلحة العامة على المصلحة الخاصة.

3- تحقيق العدالة لجميع الناس: (إنّ الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) [3].

4- تقليل التكاليف.

5- التدرج في التشريع، مثل تحريم الخمر بالتدرج[4].

إنّ التشريع الإسلامي قد مر بمراحل تميزت فيه كل مرحلة بخصائص معينة، لكن يمكن أن نؤكد أنّ كل مرحلة كانت مكملة للأخرى، إلى أن وصل التشريع إلى المرحلـة الأخـيرة، كما أثّرت في تطوره عوامل، فاتساع الرقعة، ودخول شـعوب جديـدة إلى دار الإسـلام، وحدوث مستجدات وأقضيات لم يعرفها العرب من قبل وطول المدة، كلّ هـذه أثّـرت في التشريع تأثيرا مباشرا.

لقد ظهر التشريع في أطوار ثلاثة، طور التشريع – طور الاجتهاد- وطور التقليد[5]،

وعلماء التشريع وتاريخه يقسمونه عموما إلى أدوار هي:

1- دور النشأة والتأسيس: من البعثة إلى وفاة الرسول ρ.

---

(1) سورة البقرة الآية 286.

(2) سورة الحج الآية 78.

(3) سورة النساء الآية 58، عبد الله الزايد: نشأة الفقه الإسلامي و تطوره، مجلة الدارة الرياض، العدد الثاني، السنة الثالثة، جمادى الثانية1397هـ،جوان1977م، ص40.

(4) الخضري بك: تاريخ التشريع الإسلامي، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1992 ص21.

(5) موسوعة جمال عبد الناصر للفقه: ج1، ص22.

2- دور البناء أو الشباب: يتناول التشريع أيام الصحابة وكبار التابعين من القرن الأول إلى القرن الثاني للهجرة.

3-دور النضج والكمال: من أوائل القرن الثاني إلى منتصف القرن الرابع الهجري بلغ فيه الفقه أوجه.

4- دور الشيخوخة والهرم والاحتضار، وهو دور التقليد وسد باب الاجتـهاد، مـن القرن الرابع هـ، إلى اليوم، مع الملاحظة أنه لم يخل هذا الدور في مراحله الأخيرة من بعـض الاجتهادات[1].

وموضوعنا الذي نحن بصدده يندرج في الدور الثالث دور النضج والكمال، وهو الدور الذي ظهرت فيه المذاهب بقوة إلاّ أنّ في ايته وبداية الدور الرابع بقيت مذاهب كتـب لهـا الانتشار والاستمرار وهي المذاهب الأربعة المعروفة[2]، ومذاهب أخرى وهي كثيرة انـدثرت وتلاشت وضربتها عوامل شتى عصفت با فاندرست وبادت[3] .

كما أنه من خلال هذه الأطوار يمكن الحكم بأنّ كلّ ظاهرة إنسانية وكونية لا يمكـن لها إلاّ أن تمر بأطوار هي الطفولة ثم الشباب والنضج والكمال ثمّ الشيخوخة والهرم والتلاشي، لتبرز بعدها ظواهر أخرى، وأنّ طول مدة البقاء والانتشار تعود إلى طبيعة الظـاهرة و قـوة أسسها.

والملاحظ أنّ لكل دور وسائله التشريعية، فإذا كان الكتاب والـسنة في الـدور الأول فإننا نجدهما مع بعض في الدور الثاني مع بروز وسيلة أخرى هي الاجتهاد.

---

[1] محمد يوسف موسى: المدخل لدراسة الفقه الإسلامي، ص22.

[2] المذاهب الأربعة: مذهب أبي حنيفة ومالك، الشافعي، وأحمد بن حنبل.

-أبو حنيفة ولد سنة 80هـ، توفي 150هـ.

-الإمام مالك ولد عام 93هـ توفي 179هـ.

-الإمام الشافعي ولد عام 150هـ توفي 204هـ.

-الإمام أحمد بن حنبل ولد 164هـ توفي 241هـ.

[3] مذاهب اندثرت وهي صميم بحثنا، في الفصول القادمة لبعضها.

المبحث الثاني: الدور الأول:

التشريع في عهد الرسول ρ

أثرت عدة عوامل على عملية التشريع في هذا الدور و أعطت له صبغة خاصة و تظهر هذه العوامل في تلك الظروف التي ترعرع فيها التشريع وأهمها:

- أنّ العرب كانت لهم احتكاكات من خلال تجارتهم وأسفارهم مع شعوب أخرى لها ديانات و ثقافات.

- أنّ الرسول ρ لم يستقر في مكة بل هاجر إلى المدينة، والظروف تختلف بين مكة المعارضة والتي تعتبر مبدأ الرسالة والمدينة الموالية التي تعتبر حاضنة وناشرة الرسالة.

- بداوة المجتمع الذي انبعث فيه هذه الرسالة المحمدية وطبيعة العشوائية التي كانت تحكمه.

كل هذه الظروف وغيرها سوف تعمل على إعطاء صبغة معينة للتشريع في هذا الدور. ولقد مر التشريع في العهد النبوي بمرحلتين هما:

أ- **التشريع** في **مكة**: جاء التشريع تبعا لظروف المنطقة التي أرسلت فيها الرسالة المحمدية والظرف الزماني كذلك، فعامل المكان المتمثل في مكة وما حولها معروفة بأصنامها وتوافد الزوار والحجيج إليها، وقد كان لكل قبيلة فيها صنم وإله يعبد، أما الظرف الزماني فهو فُتوة الدعوة التي يجب أن تنطلق صحيحة متماسكة لا يشوبها الغموض أو التردد، فكان التشريع في هذه الفترة قائما على ترسيخ عقيدة " لا إله إلاّ الله": وبذلك ضرب كل الآلهة المتعددة الأشكال والأحجام والأتباع، و لذلك فالتشريع الإسلامي كان قائما على إصلاح العقيدة باعتبارها الأساس الذي ينبني عليه ما بعده.

كان كل هذا يقوم بطريقة الوعظ والنظر في ملكوت الله[1] ، وبسرد قصص الأمم السالفة والحث على نبذ تقاليد الآباء من العادات الباطلة[2]، والدعوة إلى الإيمان بالرسل والبعث والحساب واليوم الآخر والإرشاد إلى محاسن الأخلاق[3].

---

(1) عبد الودود السريتي: النظرية العامة في الفقه الإسلامي وتاريخه، دار النهضة العربية، بيروت، ط1992، ص252.

(2) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه، ص44.

(3) أبو العينين: المرجع السابق، ص88.

وعليه فلما كان الاعتناء بإبطال العقائد الفاسدة، وتمتين العقيدة الحقة والقـضاء على الرذيلة وإحلال الأخلاق الحسنة، فإنّ المشرع لم يعرض إلى التشريعات العملية بـل العقيد فقط، إلاّ ما كان له صلة بها، كتحريم أكل الميتة والدم وما أهل لغير الله به، وما لم يذكر اسم الله عليه لأنّ هذه الأشياء كانت لغير الله وفاسدة، أو أشياء أخرى عملية تربط العبد بربه وتجعل الخضوع له وحده وتوجيه النفس نحو الخير كالصلاة[1]. وعموما فـإنّ السور المكية والتشريعات المكية كانت كلّها تهدف إلى ترسيخ العقيدة، وتهذيب النفوس وإعطاء الأخبار عن الأمم، والمقصود هونبذ الوثنية[2].

مميزات التشريع في مكة: تميز التشريع في مكة عن المدينة تبعا للظـروف المكانيـة والزمانية السابقة الذكر وأهم ما ميز التشريع في هذه الفترة عن المدني:

1- أنّ الآيات المكية أغلبها تدعو إلى التوحيد ونبذ الشرك وإثبات الرسالة.
2- وضع الأسس العامة للتشريع وفضائل الأخلاق، كنبذ وأد البنات، وسفك الدماء.
3- ذكر قصص الأنبياء والأمم السالفة، زجرا لأهل الشرك.
4- أغلب الآيات قصيرة حتى يسهل الحفظ وتؤدي الغرض.
5-الصيغة في الخطاب أغلبها " يا أيها الناس" ، " يا بني آدم".
6- سور فيها كلمة " كلا" رادعة وزاجرة تليق بجبابرة قريش.
7- كل سورة فيها سجدة فهي مكية إلاّ سورة الحج.
8- كل سوره فيها قصة آدم وإبليس فهي مكية إلاّ سورة البقرة[3].

ب- التشريع في **المدينة:** هاجر الرسول ρ إلى المدينة وهناك بدأ التشريع والقرآن المدني، لقد استمر عشر سنوات، حيث جاءت التشريعات المفصلة، تتنزل لتنظيم الحيـاة، وبدأ تكوين الدولة وما تحتاج إليه من نظم وانتقل الإسلام من العقيدة إلى الشريعة، شريعة تهتم بأحوال المسلمين داخليا بنبذ العصبية وتدعو إلى العدالة والمـساواة وخارجيـا في التعامل مع الغير وفي الجهاد وشرح أصول الحرب[4].

---

(1) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه، ص43.

(2) عبد الودود السريتي :المرجع السابق، ص 2523.

(3) أحمد فراج حسين: نفس المرجع، ص45.

(4) أبو العينين: المرجع السابق،،ص89.

وبالجملة لم يترك الوحي في هذه الفترة ناحية من نواحي الحياة إلاّ أخذها بالتنظيم وبين أبعادها وأعطى موقف الإسلام منها، حتى تلك المعاملات الصغيرة، فوضع الحكـم المناسب[1] وذلك إلى نزول قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) [2].

رغم قصر المدة في المدينة بالمقارنة مع حجم الدولة وا تمع الذي أراد الرسول ρ أن يقيمهما وبالمقارنة مع حجم التركة والثقل الذي على كتفه، نجده يعطي كل حادثـة حكما يكون قاعدة للمسلمين في التعامل مع ذوا م ومع أهلهم ومـع جيرا ـم ومـع مخالفيهم في العقائد، ومعانديهم ومحاربيهم، فاكتمل التشريع بمكة في العقائـد واكتمـل التشريع في المدينة في العقائد والعلاقات.

مصادر التشريع في **هذا الدور**: " إنه كلّما وقعت حادثة تطلب حكمـا لجـا الصحابة إلى الرسول ρ باعتباره المرجع الوحيد لهم، فإن لم يكن لديه حكمها تطلـع إلى السماء فيأتيه الوحي تارة بآيه أو بآيات من القرآن، وأخرى بغير القرآن بحيـث يلهمـه الجواب ويترك له التعبير عنه وهو ما عرف بالسنة وآنا آخر يتأخر الوحي فـلا يـ ل... وهنا يدرك ρ أنّ الله قد أوكل إليه بيان الحكم بالاجتهاد فيجتهد على ضوء ما نزل عليه من أحكام، أو ما ألهمه من سر التشريع مرة وحده وأخرى مع مشاورته مع أصحابه، فإذا أصاب الاجتهاد وجد الحق وأقره عليه الله ، وإن جانب الصواب نبهه إلى ما وقع فيه من خطأ، وي ل الوحي معاتبا إياه على تسرعه في الاجتهاد[3].

ولهذا لم يوجد في عصره عيه الصلاة والسلام رأيان في واقعة واحدة لأنه وحـده السلطة التشريعية[4].

---

(1) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه، ص47.

(2) سورة المائدة الآية 3.

(3) محمد مصطفى شلبي: المدخل في التعريف، ص75.

(4) أحمد فراج حسين: نفس المرجع، ص48.

وهكذا وضع القرآن الكريم والسنة الشريفة أساس الدين والتـشريع الإسـلامي، فنصا على مبادئ الإيمان والعبادات والعقوبات والعدالة في جميع مناحيها[1].

إذا فقد ارتكز التشريع في هذا العهد على أمرين وركيزتين هما:

1- القرآن الكريم: الذي اشتمل على أصول الشريعة وقواعدها العامة، من حلال وحرام وجاءت أحكامه مجملة تشير إلى مقاصد الشريعة وهو سر خلودها[2].

2- السنة النبوية: وهي عند الأصوليين: ما صدر عن النبي ρ من قول أو فعل أو تقرير وعند الحدثين: " ما أثر عن الرسول ρ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة أو سـيرة وهي مرادفة للحديث عندهم"[3]، وبذلك فهي ثروة غزيرو مليئة بالتوجيهات، والـسنة تأتي لأغراض وفي حالات أهمها:

أ- تبين حكما وتشرحه مثل ورود الصلاة مجملة في القرآن فجاءت السنة تفصلها مبينة وقتها وكيفيتها وعددها وغير ذلك، وكذلك الصوم فبينت حدوده ومواقيته وكذلك الزكاة والحج[4]، هكذا كانت السنة شارحة للقرآن.

ب- تبين حكم حادثة لم ي ل بشأ ا القرآن الكريم مبينا حكمها، فينظر الرسول ρ ويعطي حكمها، فأحيانا يصيب فيقره الله تعالى، وأحيانا لم يكن صوابا فيوجهه القرآن الكريم، والأمثلة على ذلك كثيرة: مثل أسرى بدر حينما وافق القرآن عمر بن الخطاب في قتلهم ولم يوافق الرسول ρ وأبو بكر الصديق في الفدية، فقال تعالى: (ما كان لنبيء أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض ...) [5]، وكذلك في قصة ا ادلة وهي قـصة أوس بن

---

[1] صبحي المحمصاني: فلسفة التشريع في الإسلام، دار العلم للملايين، ط4، 1975، ص32.

[2] مناع القطان: المرجع السابق، ص44.

[3] مناع القطان : نفس المرجع، ص88.

[4] محمد يوسف موسى: المدخل لدراسة الفقه ص29.

[5] سورة الأنفال الآية 67.

الصامت وزوجته خولة بنت مالك[*] حينما ظاهرها[1]، ويعاتبه في بعض تـصرفاته ρ في قوله تعالى: (عبس وتولى أن جاءه الأعمى) [2]، يعتبر هذا التصويب من الله عز وجـل تحقيقا لعدة أهداف أهمها:

- حتى يبين بشرية الرسول ρ.
- حتى يفتح الله باب الاجتهاد فيما بعد الرسول ρ، ويجد المخطئون عزاءهم في خطأ الرسول ρ.
- إرشاد الناس إلى احترام آراء بعضهم البعض مهما كانت مصداقيتها وصوابا.
- عدم التسرع في إعطاء الحكم إلاّ بعد التمحيص والتدقيق ومعرفة الأبعاد.

وعليه لم يكن للتشريع مصدر في عصر النبوة سوى الوحي الإلهي بنوعيـه المتلـو وهو القرآن الكريم وغير المتلو وهو السنة النبوية، يستوي في اعتبارها وحيا، أن تكون قد صدرت منه بإلهام أو بتقرير لأنه إذا أصاب أُقر على صوابه وإن أخطـأ وُجـه[3]، (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) [4]. إنّ الأحداث التي كانت بمكة أو جرت

(*) اختلف في إسمها فمنهم من قال أ ا خولة بنت الصامت، و قيل خولة بنت ثعلبة و قيل خولة بنت دليج و الأصح خولة بنت ثعلبة وفق حادثة عمر بن الخطاب الذي استوقفته العجوز، أنظر القصة عند(ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة، بيروت،1982، ج4، ص318، إبن العربي: أحكام القرآن، در المعرفة، بيروت، ط1987، ج4، ص1746).

(1) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه، ص50.

(2) سورة عبس الآية 1-2. نزلت في حق بن أم مكتوم الذي لم يجبه الرسول ρ و قد كان عنده رجل من المشركين هو الوليد بن المغيرة، إبن العربي: المصدر السابق، ج4، ص1905.

(3) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه، ص53.

(4) سورة النجم الآية 4,3.

بالمدينة كان الرسول ρ يصدر فيها حكما بوحي من الله أو بإلهامه أي السنة، إلاّ أنّ الرسول ρ لم يكن متواجدا في كل مكان، بل كان متواجدا زمانا فقط، وهذا ما يطرح إشكالا حينما تحدث أقضيات للناس في عهده في مكان غير المتواجد فيه.

و لاشك أنّ الصحابة كانوا يجتهدون في فهم الأحكام وتطبيقها، وهذا إذا عرض لأحدهم عارض وكان بعيدا، فقد اجتهد بعض الصحابة في القِبلة حينما خفيت عليهم، واجتهد أحدهم حينما أجنب في ليلة باردة فتمرغ كما تتمرغ الدابة ثم صلى ولم يغتسل ولم يكن يعرف بينهم التيمم[1].

كما كانوا يجتهدون في فهم النصوص، فحينما كان الرسول ρ ذاهبا إلى بني قريضة[2] أمرهم: " **أن لا يصلينّ أحدكم العصر إلاّ** في بني **قريضة**"[3]، فسافر الناس وفي طريقهم أدركهم العصر ، فبعضهم لم يصل أخذا بظاهر القول، والبعض الآخر صلى، فاختلفا وذهبا إلى الرسول ρ فلم ينكر عليهما.

وخرج صحابيان في سفر فحضرت الصلاة ولم يكن معهما ماء فصليا ثم وجدا الماء في الوقت فأعاد أحدهما ولم يعد الآخر فصوبهما الرسول ρ، وقال للأول الذي أعاد لك أجران وقال للثاني أصبت السنة[4]، ولم يكن الأمر كذلك فحسب بل دفع الرسول ρ الصحابة إلى أن يقضوا في خصومة أمامه، فقد روي أنّ النبي ρ قال يوما لعمرو بن العاص[5]: " أحكم في هذه القضية، فقال عمرو أأجتهد وأنت حاضر، قال: نعم إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر"[6]. والفائدة من ذلك كله أنّ الصحابة كانت

---

(1) عمر سليمان الأشقر: تاريخ الفقه الإسلامي، قصر الكتاب، ط 1990، ص55.

(2) كان القضاء على بني قريضة في 5هـ/627م بعد نقضهم للعهد و تحالفهم مع قريش في غزوة الخندق في شوال 5هـ.(عصام شبارو: المرجع السابق، ص167).

(3) رواه البخاري/ كتاب أبواب الصلاة/ باب صلاة الطالب و المطلوب، الحديث رقم904، 321/1.

(4) أحمد فراج حسين: نفس المرجع، ص52.

(5) عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم هو من دهاة العرب الأربعة استعمل على عمان فتح مصر و كان عاملها (ابن حجر: تهذيب التهذيب، دار الفكر، ط1، 1990، ج6، ص165).

(6) محمد مصطفى شلبي: المدخل في التعريف، ص101.

تحصل لهم أمور فيجتهدون ويرجعون بعد اجتهادا م إلى الرسول ρ الذي كان يقر منها الصحيح ويصوب الخطأ[1].

إذًا يمكن أن نقرر بأنّ مصادر التشريع في العهد النبوي هي القرآن والسنة، أما فيما يخص اجتهادات الصحابة في عهد الرسول ρ فإنهم كـانوا دائمـا يرجعـون إليـه في اجتهادا م فيقر صوابا ويصوب خطاها، وإذنه لمعاذ[2] بن جبل إذن خاص لمعرفته به أنه ذو اطّلاع بكتاب الله وسنة نبيه وورعه وإخلاصه وربما كان يرجع إليه في كـثير مـن الأحيان خصوصا وأنّ التجارة بين الحجاز واليمن كانت كثيرة والأسفار والاتـصالات كانت جمة[3].وقد رد الظاهرية هذه الحادثة لأن الحديث عن الحارث بن عمرو الهذلي بن أخ المغيرة بن شعبة ولا يدري أحد من هو؟ وقد كذب الناس حينما قالوا أنه متواتر.[*]

- **مميزات التشريع** في **العهد النبوي**[4]: تميز التشريع في هذا الدور بعدة خصائص هي:

- إصلاح العقيدة وتوجيه الناس وتنظيم شؤو م.

- واقعية التشريع حيث لم تفرض الحوادث ولم تخترع بل كان التـشريع يـأتي حسب الحوادث وغالبا ما جاءت الآيات يسألونك، يستفتونك.

- لم يكن هناك مجال للاختلاف باعتبار أنّ مصدر التشريع هو الرسول ρ .

---

(1) هناك إقرار الرسول صلى الله عليه وسلم وإذنه لمعاذ بن جبل حينما بعثه إلى اليمن واليا حيث أقره على الاجتهاد إن لم يجد ما في الكتاب ولا في السنة، انظر مناع القطان المرجع السابق ص104، (موسى إبراهيم الإبراهيم: المدخل في أصول الفقه وتاريخ التشريع الإسلامي، دار عمار، الجزائر، ط 1989 ص19).

(2) معاذ بن جبل بن عمر بن أوس أسلم و عمره 18سنة روى عن الرسول ρ توفي سنة 17هـ/ م، و عمره 34سنة (ابن حجر: ذيب التهذيب، ج8، ص220).

(3) اختلف الأصوليون في قضية اجتهاد الصحابة أيام الرسول ص رغم وقوعه في الجواز العقلي و الوقوع الشرعي بين المنع له مطلقا و الجواز (حسن أحمد مرعي: الاجتهاد في الشريعة، بحوث المؤتمر الإسلامي، سنة1396هـ، الرياض، ط1984، ص61)

(*) ابن حزم : إبطال القياس ، تحقيق سعيد الأفغاني ، مطبعة جامعة دمشق ،1960، ص 14.

(4) هناك شرح مفيد لهذه الخصائص عند عبد الله الزايد: نشأة الفقه و تطوره، مجلة الدارة، الرياض، العدد الثاني، السنة الثانية جوان1977، ص45.

- أنّ التشريع لم ينزل جملة واحدة رأفة بالناس لأجل القبول والامتثال.

- أنّ مصادر التشريع كانت كلّها مختصرة في الوحي[1].

إنّ عملية التشريع للمجتمع الإسلامي ليكون أكثر تماسكا وصلابة، وليحقق ما يرغب فيه، كانت عملية تدريجية وهي دليل ثقلها وأهميتها وحساسيتها، مع العلم أنّ المشرع هو الله، فكيف في الأمور الأخرى المختلف فيها والتي هي أقل أهمية من التشريع الإلهي.

والذي نخلص إليه أنّ الفقه في هذا الدور كان عمليا واقعيا، وانتهى ولم يدون منه شيء غير ما جاء من القرآن الكريم، لأنّ الرسول ρ أمر بكتابته و نهاهم عن كتابة السنة خوفا من اختلافها[2] بالقرآن[3].

---

[1] أبو العينين :المرجع السابق، ص91.

[2] محمد مصطفى شلبي: المدخل في التعريف، ص 104.

[3] القرآن المكي مدة مقام الرسول صلى الله عليه وسلم و هي اثنا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشرة يوما من 17 رمضان سنة 41 إلى أول ربيع الأول من 54 من ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم.
والقرآن المدني مدة مقامه صلى الله عليه وسلم بالمدينة أي تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام من ربيع الأول 54إلى التاسع من ذي الحجة 63 من ميلاده صلى الله عليه وسلم.(محمد الخضري: المرجع السابق:ص 14).

المبحث الثالث: الدور الثاني:

التشريع أيام الصحابة والتابعين

يمكن تسمية هذا الدور بدور البناء أو الشباب ويمتد هذا الطور من وفاة الرسول ρ إلى أوائل القرن الثاني الهجري ويمكن تقسيمه إلى فترتين بارزتين هما:

1- **فترة الخلافة الراشدة**: توفي الرسول صلى الله عليه وبوفاته انقطـع الـوحي الإلهي ولكن الواقعات كانت متجددة والنوازل تـ ل، فانفتحت أبواب الاجتهاد واسعة، خصوصا حينما برزت على الساحة بعد وفاته ρ أحداث مثل حروب الردة[(1)]، وظهـور الكذابين ، والفتن والحروب الداخلية ومقتل عثمان بن عفان[(2)]. ثمّ إنّ الرسول ρ عـاش في مكة والمدينة وقد تشابت العادات والتقاليد، ولكن عند مجيء نـصر الله وانفتحـت الأرض أمام المسلمين في العهد الراشدي وانتشر الإسلام شرقا وغربا وفتح الله بلاد الشام والعراق وإفريقية، وبلاد كسرى وكان لكل منها حضار ا وعادا ا وقوانينها وأعرافهـا، وكثرت الحوادث التي تتطلب أحكاما، والمشكلات التي تنتظر الحلول، ثم أنّ المأثور لم يف بالحاجة، دعت الحاجة عندئذ إلى الاجتهاد في شؤون مختلفة في المال والإدارة، والـضرائب والزراعة والصناعة وهي أمور لم يألفها العرب من قبل[(3)]، كان عليهم إعطاؤها الأحكـام المناسبة.ونشير إلى أنّ عهد الخلفاء الراشدين وهو ثلاثون سنة من تولي أبي بكر الصديق الى نزول الحسن بن علي[(4)] لمعاوية بن أبي سفيان و افتراق المسلمين إلى فرق شتى[(5)].

---

(1) حروب الردة: ارتد العرب من كلّ قبيلة باستثناء قريش وثقيف عن سلطة المدينة ونجم النفاق، والردة ما هي إلاّ حركة انفصالية في عهد أبي بكر الصديق اتسمت بالاكتفاء من الإسلام بالصلاة والتخلص من الزكاة. كانت حروب الردة من 11هـ – 12هـ/ 632-633م، (عصام محمد شبارو: المرجع السابق ص 94، عمر فروخ: تاريخ صدر الإسلام والدولة الأموية، دار العلم للملايين، ط1، 1970، ص 94 وما بعدها).

(2) موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامي: ج1، ص24، كان مقتل عثمان بن عفان سنة 35هـ/ محاصرا (ابن عماد: شذرات الذهب، دار آفاق، بيروت، ج1، ص40).

(3) أبو العينين: المرجع السابق، ص101، محمد يوسف موسى: المدخل لدراسة الفقه، ص32، احمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص84.

(4) الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم السبط الشهيد بكربلاء ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد سنة 4هـ وقتل سنة 61هـ. انظر ترجمته عند(ابن كثير: البداية والنهاية، مكتبة المعارف، بيروت، ط6 1985، ج8، ص149).

(5) محمد يوسف موسى: نفس المرجع، ص32.

وفي هذا العصر انتشر المسلمون الصحابة و التابعون في الأمصار الإسلامية المختلفة واشتهر منهم كثيرون [1]، وقد واجه هؤلاء الصحابة مشكلات بعضها عرفوا حكمها من الكتاب والسنة فأخبروا عنها، ولكن بعض هذه الأحكام لم تكن معروفة لكل واحد. فقد يخفى على أحدهم خصوصا وأنّ المشكلات الجديد لم تكن قد وقعت قبل عصرهم وهي تحتاج إلى بيان[2]. ونظرا لهذا فقد كان لزاما على الصحابة - وهم الذين عاشروا الرسول ρ وسمعوا أقواله وشاهدوا أفعاله، وتدربوا على طريقة الفهم والاستنباط – أن يجتهدوا في تطبيق تلك القواعد الكلية التي أخذوها في عهد الرسول ρ مـن الكتـاب والـسنة[3]، ويوجدوا حلا للمعضلات المستجدة [4]. لقد اشتهر هذا العصر بالمفتين المقـسمين علـى البقاع الإسلامية، وفي الحواضر التي وصلها الإسلام وفتحها المسلمون سواء أكانوا صحابة أم كبار التابعين الذين عاشوا مع الصحابة[5]، وفي أثناء اجتهادات هؤلاء حول المـستجد نجد بعض التعارض في الفتاوى التي تصدر عنهم وذلك لعدة أسباب أدت إلى اختلافهم، ولكن ما يمكن ملاحظته أنّ اختلافهم لم يكن في المسائل الواضحة البـارزة، ولكـن في المسائل الجزئية التي لم يصدر بشأ ا وحي قرآني أو أثر من السنة.

ويمكن أن نجمل أهم أسباب اختلاف المفتين في هذا الدور في:

1- اختلافهم في فهم النصوص وبالأخص القرآن[6]، إذ أنّ كثيرا منه في الأحكام ليس بقطعي الدلالة بل ظني يحمل لفظه معنيين فيفسره الصحابي الأول بطريقـة مخالفـة

---

(1) أمثال عبد الله بن عباس بمكة وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر بالمدينة وعبد الله بن مسعود بالكوفة، وعبد الله بن عمرو بن العاص بمصر (صبحي محمصاني: المرجع السابق، ص34).

(2) عمر سليمان الأشقر: المرجع السلبق ص68.

(3) أحمد فراج: حسين تاريخ الفقه ص85.

(4) وأشهر المفتين في هذا الدور الخلفاء الأربعة ثم بعض الصحابة، كأبي موسى الأشعري، ومعاذ بن جبل، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت (الخضري بك: المرجع السابق، ص99).

(5) للمزيد من معرفة أهم أسماء التابعين و المفتين في هذه الحواضر ارجع إلى كتاب الخضري بك: نفس المرجع، من ص115 إلى ص133، و أنظر الملحق رقم 1.

(6) محمد البيانوني: فهم النصوص الشرعية و أثره في اختلاف الفقهاء، مجلة أضواء على الشريعة، كلية الشريعة، الرياض، العدد 3، محرم 1392هـ، ص49.

للثاني، وهذا ما يعرف كذلك باختلاف القراءات ومثال ذلك: قوله تعالى: (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) [1]، فهل القرء هو الحيضة أم الطهر؟ ولذلك فما هي العدة أثلاثة طهور أم ثلاث حيضات؟ والأمثلة كثيرة.

2- اختلافهم في العلم بالسنة: إذ لم يكن الصحابة على درجة واحدة من الحفظ فمنهم من قلّ حفظه ومنهم من كثر... وهناك من ترك الرواية تورعا، كما تدخل في هذا الإطار مسألة الثقة والأخذ بخبر الواحد.

3- الاختلاف في استعمالهم للرأي إذا عمل الصحابي بما رآه مصلحة وأقرب إلى روح التشريع، ولكل قدراته وملكاته[2] في ذلك، واختلاف الرأي أثّر فيه اختلاف الزمن[3].

وقد أورد مصطفى سعيد الخن عدة أسباب أدت إلى الاختلاف وصلت إلى ثمانية أسباب إلاّ أننا نلاحظ أن مجملها يدور حول الأسباب المذكورة آنفا [4].

لقد كان الصحابي يرى رأيا في الحوادث المستجدة وفق ما يملكه من نضج، وحسب مدة معاشرته للرسول ρ، ولذا فسوف نجد منهم المقللين من الرأي والمكثرين فيه، وهذا يؤثر على من بعدهم في ظهور المدارس الفقهية الكبرى، واحتجاج كل مدرسة بصحابي.

---

(1) سورة البقرة الآية 228.

(2) الخضري بك: المرجع السابق، ص 97.

(3) مثال اختلاف الزمن في مسألة الإبل ففي عهد الرسول ρ وأبي بكر وعمر كان لا يتعرض لها احد و ى الرسول عن ذلك: قال: مالك ومالها معها سقاؤها وحذاؤها ترو الماء، وترعى الكلأ" فلما تغيرت النفوس زمن عثمان أقر بتعريفها (انظر شلبي: المدخل، ص117).

(4) للمزيد من الاطلاع ارجع إلى مصطفى سعيد الخن: أثر الاختلافات في القواعد الأصولية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 1972، من ص 32 إلى ص116)، أي أن اختلافهم يعود إلى فهم القرآن و اجتهادهم في دفع التعارض بين النصوص، أو التوقف عند ظواهرها و إلى السنة النبوية لعدم سماع الحديث أو عدم الثقة بالراوي أو تغير أحوال الناس و إلى الاجتهاد بالرأي كذلك (حسن أحمد مرعي: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، من بحوث المؤتمر الإسلامي، الرياض، سنة 1396هـ، ص77).

أمثلة عن اختلاف الصحابة واستعمالهم الرأي.

أ- كان أبو بكر الصديق يسوي بين المسلمين في الأعطيات فلا يفضل أحدا على الآخر، رغم أفضليتهم في السبق والجهاد، وجينما جاء عمر بن الخطاب، وجاءت الفتوح بمال كثير عدل عما كان يراه أبو بكر وقال: الرجل وتلاده في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته في الإسلام، وهكذا فضل عمر بن الخطاب الـبعض علـى الآخر[1].

ب- وروي أنّ عمر أثناء خلافته لقي رجلا له مسألة: قال ماذا صنعت؟، قـال الرجل: قضى علي بكذا، قال عمر لو كنت أنا لقضيت بكذا، قال الرجل فمـا يمنعـك والأمر لك؟، قال عمر، لو كنت أردك إلى كتاب الله وسنة نبيه لفعلت، ولكن أردك إلى الرأي، والرأي مشترك ولست أدري أي الرأيين أحق[2].

ج- ولما اختلف عمر والصحابة في خلافته حول قسمة الأرض المفتوحة، أي هل تكون للمحاربين ا اهدين أم تترك لأهلها مع وضع الخراج[3]، كان رأي عمر ألاّ تقـسم بـل تبقى خراجية ينتفّع بـا هم ومن يجيء بعدهم من المسلمين[4].

لقد كان عمر بن الخطاب أشهر العاملين برأيهم على ضوء ما يعرف من قرآن وسنة ومعاشرة للرسول ρ فلقد كان أيام الرسول ρ يفتى فيجيء القرآن بما قال وعكس اجتهاد

---

(1) محمد يوسف موسى: المدخل لدراسة الفقه، ص40.

(2) أبو العينين :المرجع السابق، ص 107.

(3) الخراج هو بكسر الخاء وفتحها، ما حصل من ريع أرض أو كرائها أو أجرة غلام أو نحوها، والخراج ما يأخذه السلطان، فيقع على الضريبة أو الجزية ومال الفيء ويختص غالبا بضريبة الأرض، وأول من وضع نظام الخراج هو عمر بن الخطاب بعد فتوح الشام والعراق ومصر وفي الخراج كتب عديدة أهمها كتاب الخراج لأبي يوسف صاحب أبي حنيفة. (محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية، دار الشروق، 1413/1993، ص187.188).

(4) محمد يوسف موسى: المرجع السابق ص41، إن هذا الاجتهاد العقلي مقصور على العللماء الذين يقومون بإستنباط الأحكام، فيجب أن لا يمارسه الذين يجهلون الشريعة (علي بابكر: إرساء أصل الاجتهاد، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، السنة 14، العدد55، رجب 1402هـ، ص139)

النبي ρ وأبي بكر ولذا وصل عمر بن الخطاب إلى أن يحرم المؤلفة قلوبهم ما كانوا يستحقون بـنص القرآن لزوال مقتضى الاستحقاق. كما لم يقطع يد السارق زمن المجاعة.

من خلال هذه المعطيات وغيرها لم نستطع ذكرها، تتبين لنا أهم الأسباب والظروف التي جعلت هذه الفترة تتصف ببروز مصادر تشريعية واضحة المعالم وسوف تؤثر هذه الفترة على ما بعدها.

مصادر التشريع في **هذا الدور**: **فترة الخلافة الراشدة**: هناك عدة أدلّة وحوادث تجعلنا نستنبط مصادر التشريع من عهد الصحابة نذكر منها على سبيل المثال:

أ- حادثة استقضاء الرسول ρ لمعاذ بن جبل على اليمن، وجعله واليا عليها ووصيته ρ إياه: " اعمل بكتاب الله فإن لم أجد فبسنة نبيه فإن لم أجد أجتهد رأيي ولا آلو...".

ب-كتاب عمر بن الخطاب إلى شريح القاضي[1]: وفيه ما يدل على وجوب الأخذ بالرأي: " اجتهد رأيك واستشر أهل العلم والصلاح".

ج- كتاب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري[2] وذلك فيما يقول: القضاء فريضة محكمة أو سنة متبعة ثم قال: الفهم الفهم، فيما تلجلج في صدرك فما ليس في كتاب الله ولا سنة نبيه فأعرف الأشباه والأمثال وقس الأمر عند ذلك[3].وقد نقد ابن حزم الرسالة وذكر بأنها لا تصح إذ تفرد بها مهولون ونقد القياس نقدا لاذعا بعد أن سفّه كل الأقوال في هذا الشأن .[*]

د- و كان أبو بكر الصديق إذا ورد عليه الخصم نظر في كتاب الله فإن وجد فيه شيئا قضى وإلاّ فإن علم شيئا عن الرسول ρ قضى به، فإن أعياه خرج فسأل المسلمين هل علمتم أنّ رسول الله ρ قضى من ذلك بقضاء، فربما اجتمع عليه النفر كلّهم يذكرونه عن الرسول ρ فيه قضاء فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ علينا علم نبينا، فإن أعياه جمع رؤوس الناس وخيارهم واستشارهم فإذا اجتمع رأيهم قضى بقضائهم(5)، و بذلك فهو يحاول أن يكون إجماعا على حكم لحادثة لم يرد بشأنها نص، و هي وسيلة لم تكن موجودة سابقا أيام الرسول ρ.

---

[1] أبو أمية شريح بن الحرث بن قيس بن الجهم بن معاوية بن عامر الكندي ولي قضاء الكوفة أيام عمر بن الخطاب عاش 120 سنة و استعفى عن القضاء قبل موته بعام أيام الحجاج توفي سنة 78 هـ / م (ابن سعد :الطبقات ،دار الفكر ،بيروت ،ط1 1994 ،ج4 ،ص374).

[2] هو عبد الله بن قيس ت 44هـ استعمله النبي صلى الله عليه وسلم على عدن وعمر على الكوفة والبصرة هاجر من اليمن إلى النبي في 52 من قومه وأرسله النبي صلى الله عليه وسلم مع معاذ إلى اليمن توفي في ذي الحجة سنة 44هـ، انظر اليافعي: المصدر السابق ج1 ص121.

[3] الخضري بك المرجع السابق ص90، محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه الإسلامي ج1 صص19،18.

[*] ابن حزم :إبطال القياس ،ص 6 .

[5] محمد الحجوي الثعالبي: الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، إدارة المعارف، الرباط، ط 1340هـ، ج2، ص10، مناع القطان: المرجع السابق، ص127.

فطريقة الصحابة في الاستنباط هي:

1- أخذ الحكم الشرعي من ظاهر النص أي تطبيق النصوص على الحوادث المندرجة تحتها (القرآن. السنة. إجماع الصحابة).

2- القياس على الأشباه والنظائر وهو أمر دربهم الرسول ρ عليه، فيقاس شارب الخمر على القاذف من أجل إقرار الحد ثمانين جلدة.

3- استنباطهم الحكم مراعين فيه مقاصد الشريعة وقواعدها الكلية التي منها قاعدة سد الذرائع ونحوها[1].

ويعتبر الاجتهاد في عصر الخلفاء مصدرا مستقلا من مصادر التشريع الإسلامي وليس ذلك في عصر الرسول ρ لأنّ الاجتهاد في عصره سواء أكان منه أم من أصحابه كان يصوبه الوحي[2].

خصائص التشريع في **هذا الدور**: امتدت هذه الفترة " عصر الصحابة" إلى الفترة الثانية حيث عصر صغار الصحابة وكبار التابعين والذي تزامن مع ظهور دولة بني أمية، وتميز هذا العصر بمواصفات هي:

1- أنّ الفقه في هذه الفترة كان واقعيا وليس افتراضيا، إذ تصدر الفتاوى بعد حدوث الحوادث.

2- قلّة التفريعات الفقهية حيث ستزداد بعد عهد الصحابة.

3- قلة المسائل الخلافية، نظرا لقرب عهدهم من عهد الرسولρ.

4-أنّ الصحابة لم يتركوا فقها مدونا بل عبارة عن أحكام وفتاوى محفوظة، وقد اقتصر التدوين على القرآن فقط.

---

(1) عبد الله الزايد: أطوار الاجتهاد الفقهي، مجلة البحوث الإسلامية، إدارة البحوث العلمية، الرياض، العدد 15، لسنة 1406، ص97.

(2) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص 105.

5-حدوث اجتهادات قائمة على المصلحة غيرت بعض الأحكام التي كان الرسول ρ يحكم بمقتضاها، مثل المؤلفة قلوبهم زمن عمر بن الخطاب.

6- تفاوت الصحابة في استعمال الرأي فمنهم من يتحرج من الاستعمال ويقلل منه ومنهم من لم يتحرج التوسع فيه وهذا ما أدي إلى بروز مدرستي الحديث والرأي.

7-أنه بـ ول نوازل لم تحدث في عهد النبوة جعل أحكاما تظهر بالاستنباط[1].

لم يظهر الخلاف بين الصحابة أكثر وذلك لعدة أسباب كتقليلهم من الأحاديث خوف الكذب وكذلك لإجماعهم لسهولة الاتصال وصغر الرقعة، وتورعهم، وقلة الحوادث التي كانت في عصرهم وأغلب الأحكام أجمع عليها الصحابة.

وهكذا فقد تخلف عن عصر الصحابة شرح هام لنصوص القرآن والسنة في الأحكام التي نتجت من آراء الصحابة في فهم المراد، منها تفسير الأحكام ووجوه تطبيقها، كما صدرت من الصحابة فتاوى اجتهادية كانت في البداية جماعية ثم صارت مع مرور الزمن عن اجتهاد فردي[2]

ب- **فترة الحكم الأموي**- صغار الصحابة.

بدأت هذه الفترة من الزمن " فيما يخص أطوار التشريع"، من وفاة علي بن أبي طالب في رمضان سنة 40هـ وابتداء حكم معاوية بن أبي سفيان سنة 41هـ، إلى غاية ظهور الضعف في الدولة الأموية وبداية القرن الثاني للهجرة. أي هي فترة تبدأ مباشرة بعد عصر الخلفاء التي رأينا فيها أصول التشريع القائم على القرآن والسنة والإجماع والقياس "الرأي"[3]. وهي فترة لا تختلف عما سبقها من حيث الاستنباط لأحكام التشريع الإسلامي، إذ بعد عهد عمر بن الخطاب[4]كثر انتشار الصحابة في البلاد المفتوحة،و قد

---

(1) للمزيد من الإثراء انظر الحجوي: المرجع السابق، ج2، ص39، أحمد فراج حسين: المرجع السابق، ص107، شلبي: المدخل في التعريف، ص120.

(2) أنور العمروسي: التشريع والقضاء في الإسلام، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط 1984، ص 39.

(3) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص 109.

(4) من الملاحظ أن عمر بن الخطاب لم يكن يسمح للصحابة مغادرة المدينة كونهم أهل شوراه، ومخافة أن يفتتن الناس بهم، أو أن ليفتتنوا بالدنيا، (انظر محمد يوسف موسى: المدخل لدراسة الفقه، ص 49).

أنشأ الصحابة العلماء حركة علمية في كلّ مصر نزلوا فيه، ولدى كل واحد منهم من العلم ما قد لا يكون عند الآخر، وكونوا مدارس منهجية في تعليمهم، وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم، فتخرج عليهم التابعون وتأثرت البلاد التي نزلوا فيها بشخصيا م و جوا في العلم منهجهم[1].

وإذا كانت هذه الفترة لم تختلف عن سابقتها في طرق الاستنباط فإنها كانت مختلفة تماما من حيث الخصائص والمميزات ومن خلال استعمال منهج الاستنباط السابق في العهد الراشدي.

مميزات هذه الفترة: برزت عدة أحداث أثّرت بطريقة مباشرة في حركة الفقه وتطوره أهمها:

1- انقسام الأمة بسبب الخلافة ومن الأحق بها إلى ثلاث طوائف:

أ- الخوارج: وهم جماعة من المسلمين لم تعجبهم سياسة عثمان بن عفان ولا قبول علي بن أبي طالب بالتحكيم ولا تولي معاوية الخلافة. وخرجوا عنهم جميعا، وكانوا يرون أن يكون الخليفة ذا كفاءة ومنتخبا بغض النظر عن أن يكون قرشيا أو عربيا أو أعجميا، ولقد استعملوا العنف في سبيل تحقيق مبادئهم.

ب- الشيعة: وهم الذين قالوا بأحقية علي بن أبي طالب وذريته بالخلافة وتشيعوا لهم ورأيهم أنّ الخلافة مقتصرة على آل بيت[2].

ج- جمهور معتدل وهم الذين لم يذهبوا مذهب الخوارج ولا الشيعة وهم أهل السنة والجماعة[3].

نظرا لهذه الأوضاع والانقسامات في صفوف المسلمين بسبب الإمامة "الخلافة"، حدثت

---

(1) مناع القطان: المرجع السابق، ص 211. انظر في هذا الباب الملحق رقم 1، الذي يبين أثر انتشار الصحابة في الأمصار وما خلفوا من تلاميذ نقلوا العلم وقاموا على الحركة العلمية في مصادرهم.

(2) ارجع إلى كتاب تاريخ المذاهب الإسلامية: للإمام محمد أبو زهرة ففيه تفصيل شيق لهذه المذاهب من ص31 إلى صفحة 90.

(3) أنور العمروسي: المرجع السابق، ص39، شلبي: المدخل في التعريف، ص122.

عدة إفرازات لهذه الظاهرة السياسية، وهي إفرازات مختلفة منها الدينية، حيث صار لكل فريق فقهاء يدافعون عن منحاه السياسي باستعمال النصوص الشرعية، و أحيانا يكون الغلو فيها لتحقيق غرض الأحقية في الخلافة، و سيظهر هذا جليا حينما ينقسم العالم الإسلامي إلى ثلاث خلافات، الأموية بالأندلس و العباسية بالمشرق و الفاطمية بمصر، و تعصب كل فريق لرأيه وصار يستعمل كل الوسائل السياسية والدينية وحتى العسكرية لنصرة فكرته.

2- انصراف الخلفاء الأمويين إلى السياسة وابتعادهم عن الدين ويظهر ذلك في أنهم أحدثوا أمورا لم تكن من الدين في السابق وأهمها:

أ- استحداث فكرة ولاية العهد التي لم يقل با نص وهذا يعد ضربا للدين.

ب- إلحاق معاوية بن أبي سفيان لزياد بن أبيه[1] وجعله أخاه.

ج- استباحة[2] يزيد بن معاوية للمدينة ثلاثة أيام، وعبد الملك بن مروان[3] الذي أذن للحجاج أن يستبيح مكة التي حرمها الله[4].

د- إضافة إلى هذا كلّه أمور الترف التي لم يسبق لها مثيل في عهد الخلافة وقد قام بها الأمويون وهذا ما جعل الناس يتقززون من الوضع وتشمئز نفوسهم لما يرون.

---

(1) أسلم في عهد أبي بكر تول العراق لمعاوية يقال له زياد بن سمية و زياد بن عبيد كان قوي المعرفة جيد السياسة كان من شيعة علي و ولاه القدس فلما استلحقه معاوية صار أشد الناس على الشيعة توفي سنة 53 هـ/ (بن حجر: لسان الميزان، دار الفكر، بيروت، 1993، ج2، ص608).

(2) انتهكت حرمة البقاع المقدسة 1- اباحة المدينة ثلاثة أيام على يد الجيش الأموي أيام يزيد بن معاوية 2- حريق الكعبة حينما رميت بالمنجنيق في فتنة عبد الله بن زبير و قد مالت الكعبة و قد بناها ابن الزبير سنة 65هـ، إلا أن المؤرخين حينما أجمعوا على حدوث هذه الوقائع فشلوا في إعطاء المبررات المقنعة فجاءت الكثير من الكتابات بعيدة عن الإنصاف (محمد الخضري: الدولة العباسية، دار المعرفة، بيروت، 1996، ص329، حمد محمد العريان: إباحة المدينة و حريق الكعبة، مجلة كلية الأداب، الرياض، العدد5، السنة 5، 1977م، ص79).

(3) بن الحكم بن أبي العاص كان أميرا على أهل المدينة أيام معاوية بويع بالخلافة سنة 65هـ/ م أيام أبيه و في خلافة عبد الله بن الزبير بقي على الشام و مصر مدة سبع سنين و ابن الزبير على باقي البلاد استقل بالخلافة بعد مقتل بن الزبير سنة 73هـ/ و توفي بدمشق سنة 86هـ/ (ابن كثير: المصدر السابق، ج9، ص61).

(4) شلبي: نفس المرجع ص114، أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه، ص114.

3- وقوع الاستبداد من بني أمية حينما رأوا المعارضة على أعمالهم، ومثـال أن كتب معاوية إلى عماله بفتوى خارجة على ما قضى به أبو بكر وعمر ورفـضها بعـض الولاة فعزلهم (حادثة إلحاق معاوية لزياد)، وهو أمر لم يعهده الناس في الخلفاء من قبـل خصوصا في مجال الدين والفتوى، وهو ما دفع كذلك بالعلماء إلى التفرق في الأمـصار هروبا من الواقع وخوفا من الفتن وهذا ما جعل الإجماع يتعذّر.

4- نشأ عن تفرق المسلمين اختراع الأحاديث وتأويل القرآن، وهو ما يـسمى بالوضع في الحديث وقد اندس بعض من اليهود والفرس الذي غُلبوا على أمرهم فـدبروا الحيل لهدم الإسلام[1].والوضع في الحديث كان كذلك إما استخفافا كالزندقـة. وإمـا حسبة بزعمهم التدين، وإما إغرابا وسمعة، وإما تعصبا ونصرة واحتجاجا[2].

ولأجل ذلك بدأ يظهر في هذا العصر علم الجرح والتعديل[3]، فيما يحدث أحدهم الآخر فيقول الآخر سمي لي رجالك فينظر في أهل السنة فيأخذ حديثهم وينظر في أهـل البدع فيترك.

إنّ الاختلاف السياسي والتعصب للمذاهب جعل كثيرا من الغالين في مذاهبـهم يستبيحون لأنفسهم أن يؤيدوا ما ذهبوا إليه بأحاديث تروى كذبا عن الرسول ρ والأمثلة كثيرة[4].

وعليه يمكن أن نلخص من خلال هذا ومقارنة مع الفترة الراشدية، بأنّ الـدين في عهد الخلفاء كان هو المسير للسياسة في حين انقلبت الأمور في العهد الأموي وصـارت السياسة تتحكم في الدين، و ذلك بشكل غير مباشر مثل قضية ولاية العهد.

---

(1) يوجينا غيانة تستشيجفسكا: تاريخ التشريع الإسلامي، دار آفاق، بيروت، ط1، 1980، ص106.

(2) أبو العينين: المرجع السابق، ص122، الخضري بك :المرجع السابق، ص108.

(3) هو علم يختص في بحث أحوال الرجال الذين يروون الأخبار ومدى صحتها سيأتي بيانه لاحقا ص 72. .انظر (أبو العينين: المرجع السابق، ص112).

(4) الخضري بك: نفس المرجع، ص 109 ولأجل معرفة الأمثلة أكثر فيما يخص هذه الظاهرة ارجع إلى الحجوي: المرجع السابق، ج2، ص85.

5- بروز مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، ذلك أنّ الفقهاء التابعين قد جابوا الأمصار و عمروها وشاركوا كبار الصحابة في الفتيا وكانت مصادر الفقه في عصرهم هي نفس المصادر في عصر الصحابة، فإذا نزلت حادثة نظر أحدهم في الكتاب أو السنة أو إجماع الصحابة فإن لم يجد تخير من أقوال الصحابة واتبعها عن نظر ودليل، وإذا لم يجد اجتهد رأيه... وقد اجتهد الفقهاء التابعون وصار لهم أتباع[1]. ولعلّ من عوامل بروز المدرستين هي اتساع رقعة الإسلام واختلاف شعوبه وكثرة الحوادث وقلة الأثر وهذا ما أدى إلى بروز مدرسة الرأي خارج الحجاز. وكذلك شيوع الوضع في الحديث أدى من جهة إلى البحث عن الآثار الصحيحة والتمسك بها وهذا أدى إلى بروز مدرسة الأثر ثم أنّ هذا الكذب في الأحاديث جعل الناس تستعمل الفكر والرأي مخافة الكذب على رسول الله ρ، خصوصا و أنّ الشريعة لا تتضارب مع المعقول.

أ- **مدرسة الرأي**: كان العراق هو المتبع لها، خصوصا حينما صار مركز السلطة العباسية، وكان أهل العراق أصحاب منهج عقلي لأسباب هي:

1- تأثرهم بالصحابي الجليل عبد الله بن مسعود[2] الذي كان من منحى عمر بن الخطاب.

2- كان العراق قليل الحديث مقارنة مع الحجاز.

3- العراق مجاور للفرس وذاك من شأنه أن يحدث المسائل الجزئية التي تحتاج إلى الرأي خصوصا وأنّ بلاد فارس بلاد حضارة يكثر فيها المستحدث.

4- العراق هو موطن الشيعة والخوارج وموطن شيوع الوضع في الحديث وذلك تأييدا للمذاهب السياسية[3].

خصائص هذه المدرسة: تتميز هذه المدرسة بميزتين هما:

1- كثرة التفريع لمسائل بالاندفاع وراء الفروض حتى سموا بالأرأيتيين[4].

---

(1) موسوعة عبد الناصر: ج1، ص26.

(2) هو أبو عبد الرحمان الهذلي صاحب الرسول ص و خادمه من كبار البدريين و من نبلاء الفقهاء المقرئين كان ممن يتحرى في الأداء و يتشدد في الرواية و يحث على الضبط توفي بالمدينة سنة 32هـ، و له نحو ستين سنة (السيوطي: طبقات الحفاظ، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1983، ص14).

(3) مناع القطان: المرجع السابق، ص 226.

(4) لقد كان هؤلاء يُفرعون السؤال الواحد في جملة من الفروع ويفترضون أحداثا لم تقع ويجعلون لها أحكاما فقهية، ولذا كانوا يسبقون الأحداث والوقائع بقولهم أرأيت إن كان كذا فما الحكم فأطلق عليهم مصطلح " الأرأيتيون".

2-عدم الخوف من الفتوى وعدم كراهيتهم المسألة[1].

أهم شيوخ هذه المدرسة:

علقمة بن قيس النخعي توفي عام 62هـ /680م.

حماد بن سليمان الأشعري توفي 120هـ /737م وعنـه أخـذ أبـو حنيفـة النعمان[2].

ب- **مدرسة الحديث:** نشأت هذه المدرسة في المدينة وربوع الحجاز،و المدينة هي دار الهجرة ومهبط الوحي وفيها تكونت السنة وقضى فيها الخلفاء الراشـدون، كانـت قبلتهم السنة باعتبارها نصوصا وتحاكموا إلى الحديث ورأوا فيه مبتغاهم و ايتهم فـإن لم يجدوا نصا في مسألة سكتوا[3] وتسمى هذه المدرسة بمدرسة الأثر أيضا.

والسر في وقوف هذه المدرسة عند النصوص يرجع إلى:

1- تأثرهم بعبد الله بن عمر[4] المقلّ من استعمال الرأي والمتعلق بالآثار.

2- قلة ما يعرض لهم من الحوادث مع كثرة ما لديهم من آثار.

3- يبعدهم عن مواطن الفتن وبواعث الـ اع[5].

ومن خصائص هذه المدرسة:

1- التساهل في شروط الحديث وقبوله ولو كان آحادا على الرأي.

2- الكراهية الشديدة للسؤال عن المسائل الفرضية[6].

---

(1) أبو العينين: المرجع السابق، ص127.

(2) محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه الإسلامي، ج3 ،ص18.

(3) أبو العينين: نفس المرجع، ص125.

(4) هو أبو عبد الرحمان عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي كان قد عين للخلافة يوم التحكيم مع وجود علي و كبار الصحابة توفي سنة 74هـ/ و عمره 86سنة (ابن عماد: المصدر السابق، ج1، ص81).

(5) مناع القطان: المرجع السابق، ص228.

(6) أبو العينين: نفس المرجع، ص126.

لقد كان كبار الصحابة يستندون في فتواهم إلى الكتاب والسنة، فإن أعجزهم ذلك استعملوا رأيهم، ولم يكونوا يتوسعون في الأخذ به، لذلك أثر عليهم ذم الرأي، ولما جاء من بعدهم وجد منهم من يقف عند الفتوى على الحديث ولا يتعداه، ووجد فريق آخر يرى أنّ الشريعة معقولة المعنى، ولها أصول يرجع إليها، فكانوا لا يخالفون الأولين في العمل بالمصدرين الأوليين ما وجد إلى ذلك سبيلا، ولكنهم يميلون إلى الرأي إن لم يجدوا لذلك سبيلا لاقتناعهم بمعقولية الشريعة، وقاسوا الأشباه والنظائر، فظهرت المدرستان[1]، وما زاد في اتساع الهوة هو دخول الحديث المكذوب،ولذلك تحرز أهل الرأي من الحديث وصاروا يقدمون الرأي على بعض الأحاديث لضعف فيها" في مسانيدها أو متو ا"، أو لا معقوليتها أحيانا، ولعدم الاتفاق في تفسير الحديث، ومثال ذلك، أن قال الرسولρ: " **لا تبيعوا التمر حتى يبدو صلاحه**"[2]، فقال أهل الحديث: صلاحه معناه ظهور النضج وبدو الحلاوة، وأما أهل الرأي فقالوا: الصلاح معناه أمن العاهة والفساد[3].

فكان الخلاف واقعا من حيث الصلاح عند الفريقين، ولكن شقّة الخلاف صارت تزداد من حين لآخر، وظهرت المناظرات وتجاوز الناس حدود اللياقة أحيانا. والحقيقة أنّ هذا الخلاف في تفسير بعض النصوص كان زمن الصحابة مثلما ذكرنا سابقا.

وهكذا اشتد الـ اع بين المدرستين فكان أهل الحديث جامدين ضعيفي الفكر عند أهل الرأي، وهؤلاء تاركو السنة وتابعو الرأي عند أهل الأثر[4].

وخلاصة القول: أنّ المدرستين نجدهما تعتمدان على الكتاب والسنة في جميع استنباطا ا للأحكام، ولا يجوز أحد من الفقهاء تجنب الكتاب والسنة، إذا ظهر الحكم جليا، أما إذا لم يظهر الحكم بسبب اختلاف الأفهام أو عدم ورود الحديث أو لعلة فيه أو لمصلحة عابرة يجب تقديمها للفائدة العامة، فإنّ أهل الرأي أخذوا بالرأي فلامهم على ذلك أهل الحديث الذين رفضوا نظريا العمل بالقياس ولكنهم عمليا أخذوا به في مواطن كثيرة.

---

[1] الخضري بك: المرجع السابق، ص110.

[2] رواه أحمد في مسنده الحديث، رقم 5251، 168/2.

[3] صبحي المحمصاني: المرجع السابق، ص38.

[4] غيانة: المرجع السابق، ص141.

المبحث الرابع: الدور الثالث:

دور النضج والكمال " عصر ظهور المذاهب الفقهية"

ابتدأ هذا الدور منذ أواخر عهد بني أمية من أوائل القرن الثاني للهجرة إلى منتصف القرن الرابع للهجرة، أي منذ بدأت شمس الدولة الأموية تؤذن بالغروب، واكتمل بناؤه ونضجه وشمس بني العباس تتألق في سماء الأمة الإسلامية، وينتهي هذا الدور حينما تتجزأ هذه الخلافة وتنقسم إلى دويلات تابعة اسميا فقط للخلافة(1).

وفي هذا الدور ظهرت المذاهب الكبرى التي لا تزال معروفة شائعة، ومذاهب الزيدية(2) والإمامية(3) من الشيعة وكان فيه أصحاب المذاهب المستقلة التي عرفها التاريخ إلاّ أنها اندثرت بمضي الزمن حيث لم تجد من يقوم عليها(4)، ومدة هذا الدور مائتان وخمسون سنة هجرية(5).

لقد كان هذا الدور أهم أدوار الفقه والتشريع الإسلامي، لأنّ فيه نشط الفقه نشاطا عظيما، واتسعت دائرته وصار علما قائما بذاته، بعدما كان مقتصرا على الإفتاء والقضاء، فوقع فيه التخصص، وفي هذا الدور حدثت نهضة عظيمة في مجال الفقه من حيث البحث فيه وجمعه وتدوينه(6).

- **خصائص هذا الدور**: تميز هذا الدور بعدة خصائص لها أثرها على التشريع هي:

---

(1) شلبي: المدخل في التعريف، ص128؛ عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق، ص 86.

(2) الزيدية نسبة إلى زيد بن علي (80- 122هـ/ 696_739م)، حارب ولاة بني أمية بالكوفة يقال أنه جاءته طائفة قالوا نبرأ من أبي بكر و عمر فقال بل أتبرأ ممن تبرأ منهما فقالوا إذا نرفضك فسموا رافضة من يومئذ و سمية شيعته زيدية و كان ممن بايعه محمد بن عبد الرحمان بن أبي ليلى و مسعر و بن شبرمة (ابن عماد: المصدر السابق، ج1، ص158).

(3) هم الذين قالوا بإمامة علي (رضي الله عنه) بعد النبي ص نصا ظاهريا و تعيينا صادقا ثم تطورت الامامية إلى الطعن في الصحابة و تكفرهم و قد انقسموا إلى عدة فرق بمرور الزمن منها الباقرية و الجعفرية الواقفة و الناووسية و الأفضحية و الإسماعيلية و الإثناعشرية و غيرهم أنظر (الشهرستاني : الملل و النحل، دار المعرفة، بيروت، 1977، ج1، ص189؛أحمد محمد جلي: المرجع السابق، ص179).

(4) محمد يوسف موسى: المدخل لدراسة الفقه، ص 54.

(5) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص 124.

(6)شلبي: نفس المرجع ص128 ؛ أبو العينين: المرجع السابق، ص 136.

1-سقوط دولة بني أمية التي تميزت بكثرة الخلافات، وبروز الفرق الدينية كما تقـدم، ووقوع تجاوزات من قبل خلفائها أدى إلى نوع من النفرة من طرف المجتمع، وبرزت فيه الدولـة العباسية هذه الدولة التي بنيت على أساس الدين والولاء لآل البيت،وعليه فقد اهتمت هذه الأسرة العباسية بالعلم والعلماء، فها هو المنصور يطلب من الإمام مالك إنجاز كتـاب الموطـأ ليجعلـه دستورا للأمة، وهارون الرشيد الذي قرب إليه أكبر تلامذة أبي حنيفة، وهو أبو يوسف[1] فجعل له كتاب الخراج. وها هو المأمون يثري بيت الحكمة وينشئ المناظرات وغير ذلك[2].من خـلال هذا نسجل عناية الخلفاء العباسيين بالعلم وتشجيعهم العلماء والفقهاء بجميع الوسـائل فكثُـرت حركة الفقه ودونت العلوم، وبزغت المذاهب الفقهية وقويت بفعل هذا التحفيز والتشجيع.

إنّ عناية الخلفاء العباسيين بالعلم والفقه بالأخص كانت لتلك المبادئ والآراء التي تـبني الدولة وتزيد في قوتها، ولا تمس بأركان الدولة، أما إذا ما وقع المساس بأحد أركانها، فإنّ الـرأي يكون موضع ضجر وهجر ومنع، وقد يصل بصاحبه إلى الضرب والتعـذيب[3]، إذ الخليفـة لا يتسامح في ذلك[4].

2- اتساع رقعة الفتوحات: وقعت حركة الفتوحات الإسلامية قبل قيام دولة بني العباس، وحينما تأسست هذه الدولة وجدت العالم الإسلامي مستقرا وفي نفس الوقت واسعا وقد ضـم شعوبا كثيرة وأخلاطا من العادات والتقاليد، والنظم السابقة، وبفعل تحبيب الخلفاء للعلم والعلماء ظهرت عدة حواضر للعالم الإسلامي كانت مراكز للعلم. كانت أولاها عروس المـدائن بغـداد الذي تعاون في بنائها العقل العربي والفارسي[5]. ثانيها المدينة ومكة مهبطا الوحي ومنهما باشـر الرسول ρ والخلفاء الراشدون تسيير شؤون الأمة الإسلامية. ودمشق وفسطاط[6]مصر و ما

---

(1) هو يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي صاحب أبي حنيفة 113-182هـ / 731.798م. من حفاظ الحديث تولى القضاء أيام المهدي والرشيد، هو أول من دعي بقاضي القضاة. له كتاب الخراج وأول من صنف في أصول الحنفية.(شعبان محمد إسماعيل: أصول الفقه تاريخه ورجاله، دار المريخ، الرياض، ط1، 1981، ج1، ص54).

(2) محمد يوسف موسى: المدخل لدراسة الفقه، ص55.

(3) والتاريخ الإسلامي مليء بعدة أحداث وقعت للعلماء من قبل السلطان مثل فتنة سعيد بن جبير والحجاج، وفتن أخرى متعددة اضطهد فيها العلماء كفتنة الإمام مالك وفتنة احمد بن حنبل وغيرهما.

(4) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص 127.

(5) الخضري بك: المرجع السابق، ص 140.

(6) الفسطاط المدينة التي يجتمع فيها الناس، وكل مدينة فسطاط، ومنه قيل للمدينة التي بناها عمرو بن العاص بمصر الفسطاط، وقد تمّ فتحها في 20هـ بعدما استأذن عمرو بن العاص عمر بن الخطاب، وكان عمر بن الخطاب قد بعث إليه بكتاب يأمره= =بالرجوع إن لم يدخل أرض مصر ولكن عمرا كان قد دخلها. انظر القصة عند (ياقوت: المصدر السابق، ج4،ص262).

عليهما من تأثيرات رومانية والأندلس والقيروان[1]. وعليه فقد كان على العلمـاء أن يعتـبروا تلك العادات والتقاليد والنظم. فعرضت نظم الفرس على أبي حنيفـة في العـراق، وعـادات الرومان على الأوزاعي في الشام وعرضت عادات مصر على الليث، وردود هؤلاء كونت زخما من الفقه أطال عمر الدولة[2].

3-نمو الحركة العلمية: لقد نمت الحركة العلمية في العهد العباسي لعدة أسباب، كـان سببها الرئيسي هو مرونة الدولة وتشجيعها للعلم، ومن عوامل نموها أيضا:

أ- بروز حركة الترجمة والفلسفة من اليونانية والفارسية وحـتى الهنديـة إلى اللغـة العربية[*]، وإنك لن تجد علما من العلوم إلاّ كانت له أصوله في هذا العصر، كالطب والكيمياء والمنطق والآداب.

ب- دور الموالي من الحركة العلمية: والموالي قوم غير العرب اعتنقوا الإسلام عن طريق الأسر أو الفتوح من الشام والعراق ومصر، إذ كان منهم كبار الفقهاء والمحدثين والقراء[3].

4- شيوع الجدل و المناظرات[4] بين الفقهاء[5]: نشأت مع تكوين المذاهب الفقهية ثم عمت جميع ا الس، وكان الجدل يحتدم بين أتباع كلّ فكرة ومذهب، وقـد تـدوم هـذه المناظرات أياما. كما قد تكون بطريقة أخرى وهي المراسلات مثل نقد الأوزاعـي لـسير أبي حنيفة والرد عليها من طرف تلاميذ أبي حنيفة، وكذلك بين الإمام مالك والليث بن سعد[6].

وفي أثناء هذه ا ادلات كان كل طرف يبرز عبقريته ويحاول الدفاع عن فكرته، وعرض كل فريق طريقة استنباطه وعارض الطرق الأخرى.

---

[1] القيروان اسم معرب وهو بالفارسية كارون، مدينة مصرت في الإسلام على عهد معاوية بن أبي سفيان وعقبة بن نافع وبنى ا مسجدا سنة 55هـ (ياقوت: المصدر السابق، ج4 ،ص421).

[2] أبو العينين: المرجع السابق، ص 138.

[*] للاطلاع على موضوع الحضارة الهندية وأثرها على الحضارة العربية الإسلامية فيما يخص العلوم. ارجع إلى(علي زيعور: الفلسفات الهندية، دار الأندلس، ط1 ،1980؛ لمعرفة أشهر المترجمين من اليونانية و السيريانية و الهندية أنظر(محمد عبد الرحمان مرحبا: المرجع السابق، ص76، و ما بعدها لعدة صفحات).

[3] أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه ص 128.

[4] للمزيد من معرفة موضوع المناظرات وبالأخص بين الفرق الكلامية في هذا العصر، وأبرز الفرق المعتزلة ارجع إلى (محمد أبو زهرة :تاريخ المذاهب الفقهية، ص 140 وما بعدها).

[5] شلبي: المدخل، ص132.

[6] انظر الملاحق رسالة الليث إلى الإمام مالك ملحق رقم

5- الرحلات العلمية: لقد سافر فقهاء الصحابة والتابعين إلى الحواضر واصطدموا بطباع وعادات كان لابد من النظر فيها، كما أنّ الفقهاء في العهـد العباسـي قـاموا برحلات لأجل البحث عن العلم والتفقه فقلّما نجد فقيها لم يسافر، مثل رحلات الشافعي ورحلات الثوري، وأكبر الرحلات كانت نحو الحجاز بدافع الحج، فتقع المناقشات وتتفتق الأذهان[1]. لقد جلبت هذه الرحلات الثراء الكبير للفقه والحركة العلمية عموما.

6- تدوين العلوم[2]: والمقصود به نقل ما في الصدور وتقييده في أوراق ليبقـى محفوظا لا يذهب بذهاب أهله. وقد نشطت حركة التدوين في العهد العباسي في جميـع الفنون وساعد على ذلك إغراءات الخلفاء. وصار ذلك الفقيه الذي كان يذهب لجلـب الحديث من أفواه الرجال يجده في الكتب والمخطوطات.

7- ظهور الفقه الفرضي التقديري: كان في السابق ينتظر الناس النازلة تـ ل فيفتوا بشأ ا الفتوى اللازمة[3]، ولكن مع تطور الزمن ظهر الفقه التقديري الذي كان رائده أبو حنيفة وتفنن فيه أصحابه حتى فرضوا ما يندر وقوعه وقدروا له الحكم، إذ يقول أبو حنيفة في هذا الشأن: " إنا نستعد للبلاء قبل نزوله، فإذا وقع عرفنا الدخول فيه والمخرج منه"[4].

8- ازدياد حفظ القرآن والعناية به وبأدائه[5]: وهو علم اهتم بـه المـسلمون في العهد العباسي، وأشهرهم القراء السبعة و هم:

- في المدينة: نافع أبو نعيم (ت 167هـ/783م)قرأ على تلاميذ عبد الله بـن عباس وأخذ عنه عيسى بن مينا الملقب بقالون ت 205هـ/ 820م وأبـو عثمان بن سعيد المصري الملقب بورش ت 207هـ/822م.

- في مكة: عبد الله بن كثير مولى عمر بن علقمة. أخذ عن تلاميذ بـن عبـاس وأخذ عنه البزي وقنبل.

---

(1) أحمد فراج حسين :نفس المرجع، ص129.

(2) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه، ص132.

(3) أبو العينين: المرجع السابق، ص142.

(4) أحمد فراج حسين: نفس المرجع، ص 132.

(5) غيانة: المرجع السابق، ص149.

- في البصرة: ابن علاء المازني ت 154هـ/770م أخذ عن تلاميذ ابن عبـاس روى عنه أكثر أهل السودان.

- في دمشق: عبد الله بن عامر قرأ على تلاميذ عثمان بن عفان وعلى أبي الدرداء من تلامذته هشام بن عمار الدمشقي وعبد الله بن بشر بن ذكوان.

- في الكوفة:

- أبو بكر بن أبي النجود قرأ على تلاميذ عثمان وعلـي وابـن مـسعود ت 127هـ/744م.
- حمزة بن حبيب الزيات ت145 هـ/804م،قرأ على تلاميذ عثمان وابـن عباس فهؤلاء السبعة فاقوا غيرهم في الإتقان والضبط وحسن الأداء ويلـيهم ثلاثة آخرون هم:

  - أبو جعفر يزيد بن القعقاع المدني ت 130هـ/747م.
  - يعقوب بن إسحاق الحضرمي ت 205هـ/820م
  - خلف بن هشام البراز ت 229هـ/843م، هؤلاء العشرة المتواترة قراء م بالإجماع[1] .

---

[1] غيانة: المرجع السابق، ص149.ويأتي بعدهم، أربعة لم تبلغ قراءا م درجة التواتر ويسمو ا بالقراءات الشاذة. وهم:

- محمد بن عبد الرحمان المكي المعروف بابن محيصن قارىء مكة و قد اختلف في إسمه على عدة أقوال (ابن عماد: المصدر السابق، ج1، ص162)، يحي بن المبارك اليزيدي توفي في 202هـ/817م و هو نحوي و مقرىء بصري نزل بغداد عرف باليزيدي لصحبته يزيد بن منصور خال المهدي (ابن عماد: نفس المصدر، ج2، ص4) و سليمان بن مهران الأسدي الكوفي الأعمش ثقة و حافظ عارف بالقراءات 161_247هـ/777_861م (ابن حجر: تقريب التهذيب، دار الفكر، بيروت، ط1 1995، قسم1، ص229).

- كما برزت مظاهر أخرى في هذا الدور كالصراع بين أهل الحديث وأهل الرأي، وكذلك البحث عن الحديث ورجاله وروايته، وهم الذين يعرفون برجال الجرح والتعديل[1]، فمن عدلوه قبلت روايته، ومن جرح ترك حديثه[2].

ولذلك يعتبر هذا العصر " الدور " من أعظم العصور التي شهدها تاريخ الإسلام سواء من حيث كثرة العلوم وتفريعا ا، أو من حيث انتشار الحواضر والمكتبات، أو من حيث التدوين، أو من حيث التخصص والتبحر في الاختصاص، ومن حيث انتشار العلوم بين الموالي والعرب وكذلك بالنسبة للترجمات التي يجلبها المسلمون وغير المسلمين من بلاد بعيدة إلى بغداد، ويعد هذا العصر بحق العصر الذهبي للعالم الإسلامي.

أسباب الاختلاف وطرق الاستنباط: كان لكل مجتهد من فقهاء الصحابة والتابعين من أخذوا عنه واتبعوه وذلك عن طريق الحفظ، ولما صار التدوين دونت آراؤهم ، وأملى كل مجتهد على تلاميذه، وهكذا فمنذ عصر التابعين ظهرت المذاهب الفقهية[4]، ولقد تولى السلطة التشريعية جماعة من الأئمة الذين نالوا ثقة المسلمين، وكان في كلّ إقليم من أقاليم الدولة الإسلامية عدد منهم، رجعوا في الاستنباط إلى أساتذ م التابعين، ومن هؤلاء التابعين فقهاء المدينة السبعة[5]، و عليه فقد ازدهر التشريع و كثرت طرق الاستنباط و ازداد الفقهاء تبحرا في

---

(1) الجرح: هو ظهور وصف براوي الحديث يثلم عدالته أو يخل بحفظه وضبطه مما يترتب عليه سقوط روايته أو وضعها وردها والتجريح وصف الراوي بصفات تقتضي تضعيف روايته.

والتعديل: هو في أمر من لم يظهر في أمر دينه ومروءته ما يخل بما فيقبل لذلك خبره وشهادته إذا توفرت فيه بقية الشروط. وعلم الجرح التعديل هو العلم الذي يبحث في أحوال الرواة من حيث قبول روايا م أو ردها وهو من أجل العلوم وأهمها.

وأهم من قاموا به الإمام البخاري ت303هـ/915م والرازي 327هـ/938م وغيرهما مثل الذهبي في ميزان الاعتدال ت748هـ/1350م.

انظر(شرف الدين علي الراجحي: مصطلح الحديث وأثره على الدرس اللغوي عند العرب، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 1983م، ص109).

(2) أبو العينين: المرجع السابق، ص142.

(4) موسوعة جمال عبد الناصر للفقه، ج1، ص31.

(5) الفقهاء السبعة هم: *سعيد بن المسيب توفي سنة 93هـ/711م وعروة بن الزبير بن محمد بن أبي بكر توفي 108هـ/726م – عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود- سليمان بن يسار ت 100هـ/718، خارجة بن زيج بن ثابت فقيه الصحابة في الفرائض،وأبو بكر بن محمد بن عبدالرحمان بن حارث بن هاشم والقاسم بن محمد . ارجع إلى (أبي زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص265.266).

ميدان الإفتاء، و صارت وظيفة الإفتاء واجبا يؤديه كل من استشعر المقدرة[1].

لقد ظهر خلاف أدى إلى بروز المذاهب الفقهية وأهم أسبابه ترجع إلى كـون المـصدر دليلا أو غير دليل، واختلافهم في ثبوت المصدر أو عدم ثبوته[*]، واختلافهم في التـرجيح عنـد التعارض واختلافهم في أنواع الدلالات وسائر طرق الاستنباط، ثم يأتي بعد ذلك كله تفاو م في الإحاطة وفي الأفهام وفي ملكة الاستنباط، وكمال الذوق الفقهي وغيرها[2]، ثمّ إنّ الحوادث التي من شأ ا أن يصدر فيها الحكم وقعت في أربع حالات:

- فهناك حوادث مصادر أحكامها قطعية الدلالة وقطعية الثبوت.
- وهناك حوادث مصادر أحكامها ظنية الدلالة قطعية الثبوت.
- هناك حوادث لم يثبت فيها نص قطعي أو ظني بل تمّ الإجماع عليها.
- وهناك حوادث لم تدل على حكمها أي نصوص بما فيها الإجماع[3].

لا شك في أنّ الخلاف لم يكن في المسائل القطعية الثبوت والدلالة ولكن الخلاف كان علـى أشده – في إطار المعقول – في المسائل الأخرى الظنية أوالتي لم يرد بشأ ا نص أو إجماع.

" كما ارتبط الخلاف حول الأخذ بالرأي أوعدم الأخذ به بخلاف آخر ثار حول تفهـم مقاصد الشريعة، فمن قال بالرأي ذهب إلى أنّ الأحكام الشرعية شـرعت لتحقيـق مقاصـد وأغراض معينة وهي تلبية مصالح العباد في المعاش والمعاد، فالأحكام الشرعية معقولة المعاني لهـا أصول وقواعد وعلل يكشف عنها العقل للوصول إلى تلك الأحكام، ومن لم يأخذ بالرأي ذهب

---

(1) أنور العمروسي: المرجع السابق، ص41.

(*) أنظر محمد البيانوني: الاختلاف في ثبوت النصوص الشرعية و أثره في اختلاف الفقهاء، مجلة أضواء على الشريعة، كلية الرياض، العدد4، جمادى الأولى 1393هـ، ص61.

(2) موسوعة جمال عبد الناصر للفقه ج1 ص17. و يمكن حصر الاختلاف في أسباب كانت جلية هي: اختلافهم في القراءات، و عدم بلوغ النص، و ثبوت النص و عدم ثبوته(أحمد بن محمد عمر : أثار اختلاف الفقهاء في الشريعة، مكتبة الرشد، الرياض، ط1، 1996، ص19).

(3) إبراهيم زيد الكيلاني: دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الفكر، عمان، الأردن، ص144.

إلى أنّ الأحكام الشرعية غير ذلك ومن ثمّ لا يجوز إعمال العقل بل يجـب الوقـوف عنـد الـنص، فالأحكام الشرعية تعبدية محضة لا مجال للنظر فيها"[1]،

نماذج الخلافات الفقهية: لقد ظهر الخلاف بين الفقهاء في مواطن محددة حيث صار لكل فقيه أتباع أخذوا بنظرته في ما يخص مصادر الاستنباط و أبرز الخلافات هي:

1- ظهور الخلاف في السنة: فقد وجد قوم يرفضون السنة اعتبروا القرآن مبينا لكل شـيء وهناك من رد خبر الواحد وقبل التواتر، ومن حيث أولويته على عمل أهل المدينة.

2- كما اختلفوا في الأخذ بالقياس والاستحسان[2].

3- وكذلك الـ اع في الإجماع السكوتي وهو أن يفتي واحد بفتوى فيسكت الآخرون فقـال الحنفية حجة وقال آخرون غير حجة[3].

4- وقال آخرون وهم منكرو القياس أنّ في الأحاديث ما يكفي عن المعقـول وفي نـصوص الشريعة ما لا يحتاج معه إلى قياس أو استحسان وما لم نجد له نصا فذلك مما عفي عنه، وما دعم هذا المنحى هو ما ظهر في المعتزلة[4] وغيرهم من الجرأة في العقائد والتكلم في الـصفات وهـذا أدى إلى الافتتان في الدين[5]، و عليه فقد صار الناس يتحوطون في ما يخص الفتوى في وقت تجـرأ آخـرون و انتقل الخلاف الفقه إلى أن طعن فريق في الآخر و ذلك لاختلاط الأمور عند بعضهم بين الاختلاف الفقهي و الاختلاف العقائدي.

---

(1) محمد صالح موسى حسين: الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، دار طلاس، دمشق، ط1 1988 ،ص41.

(2) الاستحسان هو: " لغة عد الشيء حسنا أو اتباع الشيء الحسن في الحسيات وفي المعنويات، وفي الاصطلاح: هو العدول عن حكم اقتضاه دليل شرعي في واقعة إلى حكم آخر فيها لدليل شرعي اقتضى هذا العدول وهذا الدليل الشرعي المقتضي للعدول هو سند الاستحسان، (عبد الوهاب خلاف: مصادر التشريع الإسلامي، ط5، 1982 ص69 وما بعدها).وقد قسم عبد الكريم زيدان الاستحسان إلى مراتب انظر (عبد الكريم زيدان: الوجيز في أصول الفقه ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ، ط 7 ، 1997 ، ص230).

(3) للمزيد ارجع إلى أبو العينين: المرجع السابق، ص144 إلى 147.

(4) قال أبو الحسن الخياط، في كتابه الانتصار. وليس أحد يستحق اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة " التوحيد والعدل والوعد والوعيد، والمـ لة بين المـ لتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.." انظر(أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص126).

(5) الحجوي :المرجع السابق، ج3 ،ص46.47.

مصادر الاستنباط في **هذا الدور:** قبل التحدث عن هذه المصادر يجب الإشـارة إلى بعـض الملاحظات وهي:

-أنّ الحوادث ازدادت بخلاف ما كانت عليه في الأدوار السابقة.

- وأنّ للفرق الكلامية آثارا كان لها وقعها على الحياة العلمية والفقهية بالأخص.

-أنّ آثار مدرسة الحديث ومدرسة الرأي لها وقعها الخاص في عملية الاستنباط.

- ثمّ هناك دور السلطة الذي كان واضحا في إبراز الآراء أو إخمادها، بتقريب فقيـه علـى حساب الآخر

- ولاشك أنّ الفهم يتفاوت من شخص لآخر وهذا ينعكس على تقدير الأحكام والحـوادث معا.

وعلى العموم فإنه من الأمور الظاهرة في تعدد المذاهب الفقهية أنّ الطريقة التي اتبعها الفقهـاء في اجتهادا م واستدلالا م كانت مقسمة إلى طريقتين هما:

أ- الطريقة التحليلية: فيما يتعلق بالنصوص، أي أنّ الفقهاء كانوا يأخذون النص كقاعـدة ثمّ يفسرونه ويحللونه ويستخرجون منه النتائج والفروع.

ب- الطريقة الاستقرائية فيما يتعلق بالمسائل التي لا نص فيها، فإنهم كانوا حذرين يقظـين، خائفين في البدء من وضع القواعد العامة، لئلا يصطدمون بالنصوص، فكانوا يدرسون القـضية الـتي تعرض عليهم، أو التي كانوا يستعرضو ا أثناء بحثهم. ويجتهدون في استنباط الحل الـلازم بواسـطة القياس[1] أو الإجماع[2] أو غير ذلك من الأدلة الشرعية[3]،

كما أنّ الخطة التشريعية للمجتهد في هذا الدور كانت تقوم على ثقته بالسنة وتقديره لفتاوى الصحابة ومسلكه في القياس ونزعته في فهم النصوص وتأويلها وتعليلها[4].

---

(1) القياس: لغة هو التقدير واصطلاحا تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع لعلة متحدة لا تدرك بمجرد اللغة وهو الاجتهاد كما قال الشافعي،وسيأتي بيانه أكثر، انظر،(محمد محدة: أصول الفقه الإسلامي، دار الشهاب، ص229).

(2) الإجماع: لغة هو العزم والتصميم والاتفاق: واصطلاحا: هو اتفاق ا تهدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم بعد وفاته في عصر من العصور على حكم شرعي.وقد فصل فيه الكثيرون مما يفي بالحاجة (عبد الكريم زيدان :المرجع السابق ، ص179 ؛ محمد محدة: نفسه، ص122).

(3) صبحي المحمصاني: المرجع السابق، ص39.

(4) أنو العمروسي: المرجع السابق، ص44.

لقد كانت مصادر التشريع خمسة هي القرآن والسنة والإجماع والرأي والذي يتمثـل في القياس والاستحسان والمصلحة المرسلة[1] وسد الذرائع[2]، واعتبر العرف أيضا مصدرا لاتـساع الدولة الإسلامية[3]، و يجب التوضيح بأنه في هذا الدور لم يكن الخـلاف بين المـذاهب على المبادئ والتعاليم الأساسية، بل كان بوجه عام واقعا على الفروع[4]. وكيفية الاسـتدلال علـى الحوادث والأقضيات التي لم يرد بشأ ا نص،أما فيما ورد في شأ ا نص واضح قطعـي الدلالـة و الثبوت فان الأمر في ذلك كان محسوما.

ولقد كان لهذا الدور آثار على الحياة التشريعية بما حدثت فيه من مـستجدات و مـا ازدهرت فيه من علوم، و من أهم الآثار:

1- أنّ هذا الخلاف أدى إلى الجدال بين العلماء وعقـدت المنـاظرات والمـساجلات، وشجع على هذا اهتمام الخلفاء بالعلوم وخاصة الفقه ومشاركتهم ورعايتهم، وساعد انـشغال بعض الفقهاء بالفقه الفرضي التقديري على توسيع شقة الخلاف[5].

2- وقع الازدهار في الفقه واتسعت دائرته، وتكونـت المـذاهب ودونـت مبادؤهـا وأفكارها والمسائل التي تبنتها وآراؤها وظهرت المصطلحات[6] الفقهية[7].

---

(1) المصلحة :لغة هي المنفعة وفي الاصطلاح المنفعة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده لحفظ الكليات الخمس ودفع ما يضر بذه الأصول أو يخل ا. والمصلحة تكون معتبرة أمكن تحصيلها، ومصلحة ملغاة وهو ما قام الدليل على عدم اعتبارها وعدم التمسك ا وبطلا ا، ومصالح مرسلة وهي التي لم تشمل على صفات الاعتبار أو الإلغاء، وهي مطلقة مرسلة وهي تلك المصالح التي لم يشهد لها دليل جزئي يدل على اعتبارها أو إلغائها وإنما تدخل ضمن النص العام، وهي أنواع، انظر (عبد الكريم زيدان :المرجع لسابق ،ص245 ؛ محمد محدة: المرجع السابق، ص229).

(2) سد الذرائع: لغة هي الوسيلة المؤدية إلى الشيء، واصطلاحا قال الشاطبي: التوسل بما هو مصلحة إلى المفسدة (محمد محدة: نفس المرجع، ص269؛ أحمد محمود الشافعي: أصول الفقه الإسلامي، مؤسسة الثقافة الجامعية، الإسكندرية، ط 1983، ص204).

(3) شلبي :المدخل، ص135 ؛ أحمد فراج حسين :تاريخ الفقه الإسلامي، ص 143.

(4) المحمصاني: المرجع السابق، ص40.

(5) عمر سليمان الأشقر :المرجع السابق، ص87.

(6) المصطلحات الفقهية: تكونت المذاهب واختص كل مذهب بقواعد وتمايزت المطلوبات أمام أنظار الفقهاء، فاتخذ الفقهاء المصطلحات المختلفة للدلالة على هذه المطلوبات ، وإن كان بعضهم توسع فيها عن غيره فجمهور العلماء وضعوا الأسماء لأقسام الحكم الشرعي التكليفي واجب مندوب مباح مكروه حرام،(السريتي: المرجع السابق، ص444 وما بعدها لعدة صفحات).

(7) السيرتي: المرجع السابق، ص334.

3- كما كانت هذه الفترة " الدور" مزدانة بالأئمة الكبار على قلتهم بالنسبة للمائة الماضية بخلاف المائة الرابعة التي فشا فيها التقليد[1].. وما ورث هؤلاء الأئمة من حركة علمية وتلاميذ[2].

4- ونظرا للاعتناء بالحديث وتدوينه، ورث لنا هذا الدور العديد من الكتب التي دونت حفاظا على السنة والحديث وأصحابا الستة وهم:

- أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن ابراهيم بن المغيرة بن برزويه البخاري 194-256 هـ/809-869م[3].
- مسلم بن الحجاج بن مسلم بن ورد بن كوشان القشيري النيسابوري رحل إلى الحجاز و العراق و الشام سمع من الإمام أحمد و إسحاق بن راهويه ت عام 261هـ/874م [4].
- أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه الكبير الشأن القزويني كانت ولادته في 209هـ/824م، وتوفي في رمضان 273هـ/886م [5].
- سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير الأزدي أبو داود سليمان السجستاني توفي و له بضع و سبعون سنة عام 275هـ/888م[6].
- أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة بن موسى بن الضحاك السلمي الترمذي الضرير تتلمذ عن البخاري ت عام 279هـ/892م[7].
- أبو عبد الرحمان أحمد بن شعيب بن علي النسائي الخرساني النسب توفي عام 303هـ/915م[8].

---

(1) دور التقليد سنتحدث عنه في الدور الذي يلي هذا الدور ولكن بإيجاز شديد

(2) الحجوي: المرجع السابق، ج3 ص45.

(3) ابن عماد: المصدر السابق، ج2، ص134.

(4) ابن عماد :نفس المصدر، ج2، ص144.

(5) ابن عماد :نفسه، ج2، ص164.

(6) ابن عماد :نفسه، ج2، ص167.

(7) ابن عماد :نفسه، ج2، ص174.

(8) ابن عماد :نفسه، ج2، ص239.

إنّ هذا الدور يعد بحق من أهم الأدوار التي يعتز بها التاريخ الإسلامي لما فيه من حريـة الاجتهاد، وسماحة السلطان، و اافت ا تمع على العلم، وبروز المذاهب واستقرار الأوضاع، وأثر الحركة العلمية عامة، فلا نجد علما إلا وله أصوله وبداياته في هذا الدور.

كما حدث في هذا الدور صراع شديد بين المذاهب الفقهية يظهر ذلـك مـن خـلال المناقشات و ا ادلات و ما تضمنته المراسلات، فظهرت مذاهب قوية كتب لها البقاء و مذاهب لا تقل عنها قوة و لكن معاول الفناء قد طالتها فبادت و اندثرت، و هذا الصراع ورث ثـراء تجلى من خلال الآراء و الأفكار التي كان يرجع اليها المسلمون دوما إلى اليوم.

المبحث الخامس

دور التقليد[*]

بعد تكوين المذاهب الفقهية وتطور حركة الفقه ركدت حالة الاجتهاد المطلق، وعكف الراغبون في الفقه يقلدون المذاهب ويدعون الناس إلى الانتساب إليها والعمل بها، وبهذا ازدادت المنافسة بين أتباع تلك المذاهب، وابتعد الناس عن مصادر التشريع الأولى إذ انشغلوا بتفهم كلام الأئمة، وصارت الشريعة في نظرهم هي أقوال أولئك الأئمة[1].

ويبدأ هذا الدور بعد دور المذاهب الفقهية أي من منتصف القرن الرابع ويمتد إلى سنة 1286هـ ويشمل هذا الدور مرحلتين:

- الأولى من منتصف القرن الرابع إلى سقوط بغداد في 656هـ/1258م على يد هولاكو[2].
- والثانية من سقوط بغداد إلى سنة 1286هـ [3] أين تأسست مجلة الأحكام العدلية[4]

(*) التقليد لغة هو وضع الشيء في العنق مع الإحاطة به، و اصطلاحا هو القبول بقول الغيرو العمل به من غير دليل، و منه الجائز الممدوح و غير الجائز المذموم (أحمد بن محمد عمر: المرجع السابق، ص96 ؛ عبد الكريم زيدان:المرجع السابق ، ص410) و التقليد صور عديدة 1- تقليد عامي لعامي و هو محرم اتفاقا 2- تقليد مجتهد اجتهد في مسألة لمجتهد آخر في تلك المسألة و ممنوع اتفاقا 3- تقليد مجتهد لعامي و هو بعيد الاحتمال و ممنوع 4- تقليد مجتهد قبل اجتهاده في مسألة لضيق وقت أو غيره لمجتهد آخر في تلك المسألة و فيه خلاف و الراجح الجواز 5- تقليد عامي لمجتهد من غير دليل و هذا جائز و فيه عدة أقسام (أنظر حسن أحمد مرعي: المرجع السابق، ص147).

(1) شلبي: المدخل، ص 136.

(2) هولاكو قائد مغولي من خلفاء جنكيز خان عبر نهر جيحون غربا سنة 654هـ/1256م أخضع أمراء فارس و طرد الحشاشين منها، و أراد انشاء امبراطورية تابعة لأخيه منكو، استولى على بغداد سنة656هـ/1258م أنظر (بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، بيروت، ط12، 1993، ص390؛ و قد أفرد الباز العريني بحث شيقا حول عنصر المغول و حركتهم و انقساماتهم و توسعاتهم نحو الغرب و علاقاتهم و عن هولاكو و دوره أنظر(الباز العريني: المغول، دار النهضة، بيروت، ط1986).

(3) أبو العينين: المرجع السابق ص148.

(4) مجلة الأحكام العدلية: كلفت الحكومة العثمانية لجنة من كبار العلماء لوضع قانون في المعاملات المدنية يستمد من الشريعة الإسلامية، بمختلف مذاهبها، وكان هذا الأمر هو بداية اليقظة بعد سبات عميق، وتمّ صنع هذا القانون المسمى " مجلة الأحكام العدلية" وذلك بتاريخ 1286هـ وبدأ يعمل به عام 1292هـ ارجع إلى موسى إبراهيم الإبراهيم: المرجع السابق ص183.

ففي المرحلة الأولى انحصر الفقه في الاجتهاد داخل المذهب الواحد إذ أخـذ العلمـاء يفرعـون ويشرون، لكن في إطار تقليد صاحب المذهب، وصارت الفتوى تنسب إلى صاحب المذهب، كما ينـسب المفتي إليه لأنه أخذ بقواعد صاحب المذهب.

وفي المرحلة الثانية وقع الجمود تماما، وسُد باب الاجتهاد كلية، ذلك لأنهم وجدوا من لم يتأهـل للاجتهاد يدعيه، ويفتي الناس برأيه، فعمدوا إلى سد الطريق أمامهم ونادوا بقفل باب الاجتهاد، وادعـوا الإجماع منعا لأولئك المدعين، وسمي هذا الدور عموما بدور الكهولة والشيخوخة[1].

أسباب التقليد: عملت عدة أسباب على إفراز هذا الدور وإبراز هذه الظاهرة أهمها:

1- أنهم وجدوا مذاهبا مدونة كاملة فيها أحكام ما جد من الحوادث وما يمكـن أن يحـدث، وطبيعة النفوس تميل إلى الراحة.

2- ضعف الدولة العباسية وانقسامها إلى دويلات صغيرة، وغلبة الحالـة الـسياسية والتـدهور العام[2].

3- إنّ الخلفاء والولاة كانوا يختارون من المقلدين لإلزامهم بالحكم بالمذهب المتبع في الدولـة، و كذلك تمكين السلطان بأتباع المذهب الذي اعتنقوه و قد وصل هؤلاء إلى منصب القضاء فصار لا يفتى إلا بالمذهب الذي اعتنقه السلطان و القاضي.

4- إنهم وجدوا بعضا من لم يتأهل للاجتهاد، ويفتي الناس بدون دليل فسدوا باب الاجتهاد منعا لأولئك المدعين[3]، بلاضافة إلى ظهور الطمع و التحاسد بين العلماء و التعصب

مميزات هذا الدور:لقد تميز عصر الركود الفقهي والتقليد المذهبي بعدة مميزات كانت سـببا فيـه ومظهرا له وهي:

1- شيوع التقليد بين العلماء أدى إلى اضمحلال الاجتهاد المطلق من الأمة، وإن ادعاه أحد أُنكر عليه ونوزع فيه.

2- ظهور فساد أخلاقي حيث تكالب الناس على الرشوة والزور وآفات أخرى حرفـت الفقـه والقضاء والحسبة والشرطة، أدى إلى خراب المجتمع الإسلامي.

---

(1) أبو العينين: المرجع السابق، ص148.

(2) حينما يكون الاضطراب السياسي وعدم الاستقرار يؤدي حتما إلى انشغال الحاكم في تثبيت الاستقرار وتجاوز الفتن، وهذا يكون على حساب عدة التزامات اجتماعية وعلمية، وعليه فإنه تنعدم المحفزات وينعدم الإبداع والتطور وهي سنة من سنن الحياة.

(3)شلبي: المرجع السابق، ص 136؛ أحمد بن محمد عمر: المرجع السابق، ص101.

3- كثرة الجدل الذي لا طائل من ورائه إلاّ الشهرة والتطاول وإظهار النفس أمام الحاكم حتى ينال المكانة والشرف[1].

4- تقطع أوصال الدولة الإسلامية، وصارت كل منطقة الدولة لهـا أميرهـا للمـؤمنين متناحرة مع الأخرى، فضعف أمر الدولة بذلك و ضاع تشجيع الحكام للفقهاء، و عليه فقد تزامن ضعف الدولة مع ضعف الاجتهاد في الفقه[2].

وهكذا انتهى ذلك الدور الذي كان قد ظهرت فيه المذاهب الفقهية المتعددة، وانحـصرت بفعل العوامل المذكورة، وأغلبها العامل السياسي، الذي كان مشجعا على العلم سابقا، وصـار عاملا يدفع إلى فرض نوع من المذاهب السابقة، وبقيت المذاهب الأربعة فقـط، وزالـت روح التنافس البريء لإثراء هذا ا ال،و أغلق باب الاجتهاد[3].وما يمكن ملاحظته كذلك أنه ليس كل المذاهب تقول بالتقليد ،بل إن المذهب الظاهري لا يرى التقليد ويبطله ولا يرى اتباع إلا القرآن والسنة "الذكر" وحينما يقال:" اسألوا أهل الذكر "معناه ليس الرأي وإنما السنة ، وأن القـائلين بالتقليد للمذهب قد رفضوه وذموه [4].

ولعله لم يكن التدهور في الفقه فقط والجمود في مذاهب معينة، بل كانت الحالة العامـة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية كلها في انحطاط، إذ انتشر الفساد في كل النواحي.

---

(1) الحجوي: المرجع السابق، ج3، ص148.

(2) أبو العينين: المرجع السابق، ص148.

(3) قسم الباحثون تطور الفقه إلى عدة أدوار اختلفوا في تحديدها تبعا لاختلاف وجهات النظر، فمنهم من جعلها أربعة أدوار كالحجوي، و منهم من جعلها خمسة أدوار كعلي عبد القادر و منهم من جعلها ستة أدوار كالخضري بك و السايس، ومنهم من أوصلها إلى سبعة أدوار كالزرقا أنظر(عبد الله الزايد: نشأة الفقه، مجلة الدارة، الرياض، العدد الثاني، سنة الثانية، جمادى الثانية 1397هـ /جوان1977، ص42).

(4) ابن حزم : المصدر السابق ، ص52.

إننا إذ نلمس عملية انتقال الفقه من طور لآخر و من صفة إلى صفة، إلى أن نشأت المذاهب الفقهية كلها ثم اندثر بعضها، فإننا كذلك متيقنون من عدة أمور أهمها

- أن الفقه من مرحلة لأخرى كان ينتظم أكثر من حيـث ضـبطه و تدوينه و الاعتناء به، فصار علما منظما و مدونا له شروطه و ضوابطه لا يجب الحياد عنها.

- أن طرق الاستنباط للأحكام الفقهية صارت كذلك تزداد تنوعًـا و وضوحًا رغم أ ا كانت موجودة في عصر النبوة إلاّ أن النصوص كانت هـي الغالبة.

- كما أن عامـل البيئـة و اتـساع الرقعـة و كثـرة الحـوادث و المستجدات كان لها الأثر الكبير في تنوع هذه الأحكام و تنوع نظرة العلمـاء و الفقهاء إليها، فتنوعت الفتيا.

- و لا يمكن أن نشك في نية أي نظرة باعتبار أن كل فقيه كان يبذل قصارى جهده لتحقيق مصالح العباد و في نفس الوقت تطبيق الشريعة على الوجه اللائق.

- ثم إن الرحلات التي كانت منذ العهد الأول و الأسفار و دور العلم وحلق الفقه و أثر الصحابة عند انتشارهم إلى نواحي الخلافة المترامية كان له الأثر في الفقه الإسلامي، و في ظهور المذاهب، و صار لكل صاحب مذهب صحابي و تابعي يستند إليه.

و عليه فإن المذاهب الفقهية المندثرة لم تكن أقل من المذاهب الباقية من حيث الفقه و أثره في التشريع، إلاّ أن معاول الفناء كانت قد تمكنت منها فبادت.

و إننا لن نتطرق إلى هذه المذاهب كلها بل بعضها فقط كأمثلة بذكر شخـصيا ا وفقهها و أهم آثارها و أسباب زوالها.

الفصل الثاني

مذهب الإمام الأوزاعي

إمام أهل الشام

88-157هـ/707-774م

المبحث الأول:حيـ ـاتـه

المبحث الثاني:آراؤه ومواقفه

المبحث الثالث:فقهه ومنهجه

المبحث الرابع:آثاره وانتشار مذهبه

المبحث الأول

حياته

أجمع العلماء على إمامته ومقدرته وعلو مرتبته، وكمال فضله، وأقاويل السلف كثيرة شهيرة مصرحة بورعه وزهده وعبادته، وقيامه بالحق، وكثرة حديثه، وغزارة فقهه وشدة تمسكه بالسنة وبراعة فصاحته، وإجلال أعيان أئمة عصره من الأقطار له واعترافهم به[1].

إنه عبد الرحمان بن عمرو بن يحمد والأصل محمد[2]، وكان اسمه عبد العزيز ثم غير اسمه إلى عبد الرحمان[3] الأوزاعي.

وقد اختلف في أصله، هل هو عربي أم أعجمي، فقيل الأوزاع بطن من حمير[4] فهو عربي، وقيل هو من همدان[5] من سبي السند[6]. ولكن من المؤكد أنّ أصله ليس من بلاد الشام بل قدم إليها أجداده وفيها مسقط رأس أبيه.

أما كلمة الأوزاع فهي لغة: الفرق وهي اسم وقع على موضع مشهور بربض دمشق سمي بذلك لأنّ من سكنه هم بقايا من قبائل شتى[7].

---

(1) النووي محي الدين بن شرف: ذيب الأسماء واللغات إدارة الطباعة المنيرية دمشق قسم 1 الجزر 1 ص298.

(2) ابن حجر العسقلاني: ذيب التهذيب، دار صادر،بيروت،ط1،ج6،ص238؛ وابن النديم: الفهرست، مكتبة خياط بيروت لبنان ج1 ص227. ابن عماد الحنبلي: شذرات الذهب في أخبار من ذهب المكتبة التجارية بيروت لبنان مج1 ج1 ص21، وانظر أيضا والزركلي: الأعلام مطبعة كوستاتوماس وشركاؤه ط2 1955 ج4 ص93.

(3) جمال الدين يوسف المزي: ذيب الكمال في أسماء الرجال تحقيق بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة ط4 1994 مج17 ص313.

(4) حمير موضع غربي صنعاء باليمن، (ياقوت: المصدر السابق، ج3، ص306).

(5) ابن سعد: الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية بيروت ط1، 1990 ج7 ص339، وانظر أيضا النووي :نفسه، قسم1 ،ج1 ،ص 298؛ وهمدان من بلاد السند نسبة لهمذان بن فلوج بن سام بن نوح(عليه السلام) وهمذان وأصبهان أخوان بنى كل منهما بلدة كان فتحها سنة 24 هـ / م في عهدعثمان بن عفان على يد المغيرة بن شعبة (ياقوت: نفس الصدر ، ج5،ص410).

(6) الذهبي شمس الدين: سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، ط10، 1994، ج7.ص109، والسند من بلاد خراسان وهي بلاد بين بلاد الهند وسجستان، انظر(ياقوت: نفسه ج3 ص267).

(7) الذهبي :نفس المصدر ، ج7 ص109.

وقيل الأوزاع بطن من بطون العرب يجمعها هذا الاسم[1].

والقول أنه من همدان وسبي السند ضعيف الحجة،وحتى نفصل في الاسم هل هـو اسم قبيلة أم مكان نرجح بأنّ الأوزاع قرية[2] من جهة باب الفراديس سميت بقبيلة مـن اليمن نزلت بها واستوطنتها.

والقبائل هم بنو مرثد بن زيد بن سدد، وقيل شدد بن زرمة بن سبأ الأصغر، وقيل زرعة بن كعب بن زيد بن عريب بن سهل بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جشم بـن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن قطن بن عريب بن زهير بن أيمن بن هميسع بن حمير[3]، فهي قبيلة سكنت ظاهر باب الفراديس فسمي المكان الأوزاع، وهي محلة الأوزاع الـتي ينسب إليها الإمام الأوزاعي.

ولد إمامنا هذا سنة 88هـ /707م[4] ببعلبك[5]، ونشأ بالكرك[6] – قرية البقاع – ثم نقلته أمه إلى بيروت[7].

نشأته:عاش الأوزاعي في ظل العهدين الأموي والعباسي، وقد عاصر تسعة خلفاء أمويين وخليفتين عباسيين [8] .

---

(1) المزي: المصدر السابق، ج17 ،ص312.

(2) وهي العقيبة الصغيرة ظاهر باب الفرادس بدمشق، وباب الفرادس يقال له اليوم باب العمارة (انظر الذهبي:سير الأعلام، ج7 ص107).

(3) بطرس البستاني: دائرة المعارف. بيروت ط1880 ا لمد 4 ص643.

(4) ابن سعد :المصدر السابق ،ج7، ص339 ؛ الذهبي :تذكرة الحفاظ،دارإحياءالتراث،بيروت،ط1956،ج1ص178

(5) بعلبك مدينة قديمة قبر دمشق ينتسب إليها رجل له صنم، فبعل اسم صنم، وبك: هو اسم الرجل صاحب الصنم أوهي كلمة تعني الصنم أعطاني وينسب إلى هذه المدينة العديد من الشخصيات(ياقوت:المصدرالسابق،ج1،ص453).

(6) الكرك: بسكون الراء قرية في أصل جبل لبنان (ياقوت :نفسه ج4 ،ص452).

(7) الذهبي: سير الأعلام ،ج7 ،ص110 ؛وانظر الزركلي: المصدر السابق، ج4 ،ص93؛ الشعراني :الطبقات الكبرى ،دار الجيل بيروت ط 1988،ص45 .

(8) عاصر من الخلفاء الأمويين:

الوليد بن عبد الملك.96.86هـ /705-715م.سليمان بن عبد الملك 99.96هـ/715-717م.عمر بن عبد العزيز 100.99هـ / 717-718. يزيد بن عبد الملك 105.101هـ / 719-723.هشام بن عبد الملك 125.105هـ / 723-742م.الوليد بن يزيد بن عبد الملك 126.125هـ/ 742-743م.يزيد بن الوليد 126. 132هـ /744-749م ثم إبراهيم بن الوليد ثم مروان بن محمد.

وخلفاء بني العباس :أبو العباس السفاح 136.132هـ / 749-753م. المنصور 158.136هـ / 753-774م.

وتميزت هذه الفترة بالعلم والعلماء في مختلف الميادين والفنون الشرعية منها (علـوم القـرآن والحديث والفقه، والكلام والأدب والإدارة والتنمية)، وفيها عربت الدواوين، وانتشرت الترجمة وازدهرت حركة العمران[1].

والموطن الذي ترعرع فيه مشهور بمعالم الحضارة الرومانية، وقدكانت بـلاد الـشام آنذاك تضم جبل لبنان وساحله، كما تضم سوريا في الـداخل وفلـسطين والأردن جنوبـا، وكانت تشتهر هذه المنطقة بالتسامح الديني مع أهل الكتاب منذ أيام مؤسسها معاوية[2].

نشأ الأوزاعي في البقاع في حجر أمه[3]، وكانت تنتقل به من بلد إلى بلـد، فمولـده ببعلبك ورعايته بالبقاع وفتوته وعيشته في بيروت.

ولعل العصر الذي عاش فيه الأوزاعي ثمّ البيئة التي ترعرع وشب فيها، واليتم الذي رسم طفولته والجولات التي تعود عليها منذ صباه كل هذا جعل من شخصيته تتميز بالجدية والاهتمام بالأمور أكثر من غيره، إذ تقلد مسؤولية نفسه وأمه، فشب على تحمل الصعاب.

لقد تأدب بنفسه فلم يكن في أبناء الملوك والخلفاء والوزراء أعقل ولا أورع ولا أعلـم ولا أنصح وصفات أخرى منه، قال العباس بن الوليد بن مزيد العذري البيروتي وهو من كبـار المحدثين: " ما رأيت أبي يتعجب من شيء تعجبه من الأوزاعي فيقول: يا بني عجزت الملوك أن تؤدب أنفسها وأولادها أدبه[4].

إنه بالرغم من يتمه وفقره استطاع أن يتبوأ درجة رفيعة في العلم فصار إماما يقتدى به وفقيها يفد إليه الناس، وبلغ فصاحة اللسان وبلاغة البيان وحلاوة المنطق ما جعل المنصور يتمنى لو كان الأوزاعي يكتب له رسائله وخطاباته[5].

---

(1) مروان محمد الشعار :سنن الاوزاعي، دار النفائس، بيروت ،ط1993.ص6.

(2) صبحي المحمصاني: الأوزاعي وتعاليمه الإنسانية القانونية، دار العلم للملايين. بيروت ،ط1 ، 1978ص18

(3) ابن الأثير: المصدر السابق ،ج ،ص115.

(4) شكيب أرسلان: محاسن المساعي في مناقب الأوزاعي، دار الحياة ،بيروت ،ط1967 ،ص61.العباس بن الوليد هو بن زيد العذري البيروتي المحدث العابد توفي سنة 270هـ /883 م وله مائة سنة تامة قيل عنه أنه صاحب ليل وكان أبوه ثقة حدث عن الأوزعي وكتبه صحيحة توفي سنة 203هـ / 818 م وله سبع وسبعين سنة (ياقوت:المصدر السابق،ج1،ص525؛ ابن عماد:المصدر السابق ،ج2،ص160)

(5) عبد المنعم قنديل: حياة الصالحين دار الشهاب الجزائر ط1988 ص ،يذكر أن أباه بن يحمد كان من الطبقة الثالثةوهذايظهر أنه كان من أهل العلم وكان المربي الأول لعبد الرحمنإبنه(حسينمحمدالملاح:الأوزاعيمحدثا،بيروت،1993 ص 25)

كان رحمه الله فوق الربعة خفيف اللحية، به سمرة وكان يخضب بالحناء، ويلـبس الطيلسان الأخضر، والعمامة ويحض عليها، وكانت عمته مدورة بلا عذبه[1]

شيوخه : تتلمذ الأوزاعي عن كبار التابعين وأبرزهم عطاء بن أبي رباح[2] والقاسم بـن مخيمرة[3]،ومحمد بن المنكدر[4] ، وخلق كثير، وأبرز من تأثر بم هو شيخ اليمامة[5] يحي بن أبي كثير[6] وروى عنه العديد من التابعين رغم أنه من تابعي التابعين[7] .

---

(1) مروان محمد الشعار: المرجع السابق ص6.

(2) عطاء بن رباح أبو محمد توفي في رمضان 114هـ/ 732م هو فقيه الحجاز نشأ بمكة وتعلم با توفي وله 88سنة (ابن عماد : المصدر السابق ،ج1،ص148).

(3) هو أبو عروة الكوفي أحد الأئمة مات في خلافة عمر بن عبد العزيز(السيوطي:طبقات الحفاظ ، دار الكتب العلمية، بيروت ،ط1، 1983،ص58)

(4) هو بن عبد الله بن الهدير التيمي قال عنه ابن عيينه أنه كان من معادن الصدق يجتمع إليه الصالحون توفي سنة 131هـ/748م (السيوطي : نفس المصدر ، ص58).

(5) اليمامة هي منطقة معدودة من نجد قرب البحرين فتحت أيام أبي بكر الصديق وهي مقرونة بمقتل مسيلمة الكذاب فتحها خالد بن الوليد ، كان إسمها جوا ثم سميت اليمامة باليمامة بنت سهم بن طسم(ياقوت: المصدر السابق ،ج5 ،ص442).

(6) يحي بن ابي كثير اسمه صالح بن المتوكل الطائي أبو النصر اليمامي ، وهو إمام لا يحدث إلا عن الثقة توفي سنة 129هـ/746م كان من أهل البصرة ثم تحول إلى اليمامة (ابن سعد:الطبقات ،دار الفكر ،تحقيق سهيل كيالي، ط1 ،1984 ، ج4 ،ص283 ؛السيوطي :نفس المصدر ،ص58 ؛ابن عماد :المصدر السابق ،ج1،ص186).

(7) من الذين روى عنهم ورووا عنه شداد بن عمار وربيعة بن يزيد والزهري و محمد بن إبراهيم التيمي و أبي جعفر الباقر وعمرو بن شعيب ومكحول الدمشقي والحارث بن يزيد الحضرمي وعطاء الخرساني وعلقمة بن مرثد ونافع مولى بن عمر وخلق كثير، وحدث عنه كذلك تابعون أمثال شعبة وابن المبارك وهم تابعون وأبو اسحاق الفزازي وكذلك الثوري ومالك بن أنس و الوليد بن مسلم ويحي بن حمزة ويحي القطان ، ولمعرفة مشايخه ومن رووا عنه أنظر (الأصبهاني: حلية الأولياء ،دار الكتاب العربي ،ط1967،2،ج6،ص146؛ الذهبي:تذكرة الحفاظ،ج1،ص178؛ الذهبي:سير الأعلام،ج7،ص108؛الشيرازي:طبقات الفقهاء،دار الرائد العربي،بيروت،ط3، 1981،ص76) و الذين روى عنهم عددهم عشرون شيخامن علماء الشام وسبعة من علماء الحجاز وثلاثة من العراق وعلماء آخرون كبار.

وأبرز تلامذته الهقل بن زياد بن عبد الله الدمشقي ت 179 هـ ،والوليد بن مزيد البيروتي ت 207 هـ والوليد بن مسلم عالم الشام ت 194هـ ،واسماعيل بن عبد الله بن سماعة القرشي ،ويزيد بن السمط الصنعاني 160هـ ،وعقبة بن علقمة المعافري البيروتي ت 204هـ ،عبد الحميد بن حبيب بن أبي العشرين البيروتي (حسين محمد الملاح : المرجع السابق ،ص 129)

إن تتلمذ الأوزعي وروايته عن جمع من العلماء تظهر لنا أمرين إثنين هما :

أ-مدى كد ومثابرة الإمام في البحث عن العلم و العلماء والتلقي عنهم .

ب-تنوع علمه وغزارته حيث تلقاه من مصادر متنوعة شامية وعراقية وحجازية وغيرها ، وهذا ما أدى إلى تكوين شخصيته العلمية الفذة رغم فقره ويتمه.

كما كان الأوزاعي يعيش في أسرة تحب العلم وتسعى إليه بكل وسيلة،فلأوزاعي أخ أكبر منه اسمه عبد الله،وابن عم واحد وهو يحي السيباني أبو زرعة[1] ،وكان له من زوجاته ثلاث بنات وصبي[2].

نبوغه:

بنى الأوزاعي شخصيته منذ صغره، واتبع درب العلم وسيلة لذلك، فكان أن نال مجد العلم، وأثّر فيمن حوله وقد كان له نبوغ منذ صغره ،إذ أفتى في المسائل وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وفي الحدود وهو ابن سبع عشرة سنة وكان من أصحاب الحديث[3].

لقد تفرس فيه هذه الصفة-صفة العلم والنبوغ فيه- أحد أعلام تلك الفترة وهو يحي بن أبي كثير الذي أخذ عنه العلم حيث أنّ الأوزاعي خرج من بعث اليمامة فأتى مسجدها فصلى، وكان يحي بن كثير قريبا منه فجعل ينظر صلاته فأعجبته[4]، ثمّ جلس إليه وسأله عن بلده وغير ذلك فأعجبته شخصيته وعلمه، ونصحه بالبقاء لأخذ العلم، ولذا أقام الأوزاعي عنده مدة يكتب عنه[5]، ونظرا لرغبة لدى يحي بن أبي كثير في أن يزداد الأوزاعي علما نصحه أن يرحل إلى مواطن أخرى يأخذ العلم، فقد أرشده إلى الرحلة نحو البصرة ليسمع من الحسن البصري[6]،ومحمد بن سيرين[7] فسار إليهما ولكنه وجد الحسن قد مات منذ شهرين ، وابن سيرين مريضا، فبقي يترددعليه إلى أن ماتولم يسمع منه شيئا[8] .

---

[1] أبوزرعة يحي بن أبي عمرو السيباني الحمصي ابن عم الأوزعي روى عن أبيه والأوزاعي وابن المبارك وخلق كثير قيل عنه ثقة صدوق مات سنة 148هـ/765م وعمره خمس وثمانون سنة (بن حجر : تهذيب التهذيب،ج6،ص165).

[2] الشعار:المرجع السابق ،ص5.

[3] الشعار:نفس المرجع ،ص7.

[4] في رواية أخرى أنه قال لجلسائه مارآيت مصليا قط أشبه بعمر بن عبد العزيز بصلاته من هذا الفتى (الرازي:الجرح والتعديل، دار إحياء التراث العربي ،بيروت،ط1، 1952، ص186).

[5] الذهبي: سير الأعلام،ج7،ص111.إلتحق الأوزاعي بالديوان ولعله ديوان الرسائل قبل ذهابه إلى اليمامة ، وأهم الدواوين في العهد الأموي ديوان الخراج،والرسائل ، والمستغلات ، وديوان الخاتم (أنظر حسين محمد ملاح : المرجع السابق ، ص 69)

[6] هو بن أبي الحسن بن يسار ولد بالمدينة مولى زيد بن ثابت عاش بالعراق مدة توفي في 110هـ وعمره 88سنة وله نصائح تؤثرأنظر (الذهبي: سير الأعلام،ج4،ص563؛ابن عماد :المصدر السابق،ج1،ص137).

[7] هو مولى أنس بن مالك كان من السبي ولد في خلافة عثمان بن عفان كان فقيها عالما كثير الحديث مات سنة 110هـ (الذهبي:سير الأعلام ،ج4،ص622. ابن عماد :نفس المصدر ،ج1 ،ص138)

[8] ابن كثير : المصدر السابق ،ج10،ص116.

منذ صباه قام الأوزاعي بعدة رحلات زادت من علمه وحلمه وصبره، فها هو يسافر إلى اليمامة ثم يرشد إلى البصرة، فالكوفة وبذلك العراق عامة ثمّ إلى الحجاز حيث الحـج ولقائه بالعلماء أمثال الثوري ومالك، ويعود إلى دمشق بعد هذه الجولة، للدرس، فحدث با وصار يزار من طرف طالبي العلم. ومن المعلوم أن رحلة العلماء في طلب العلم كـان دف إلى تحقيق عدة أغراض أهمها طلب العلم ،وتوثيق الحديث وتحصيله والتثبـت منـه وطلب العلو في السند والبحث عن أحوال الرواة ومذاكرة العلماء في نقد الحديث (*)

علمه وفقهه: وفي علمه وريادته للحديث يذكر كثير من الناس أنه كان ممن تزعم الأمة في هذا الباب ويشهد له الجميع بذلك،فقد قال عنه صاحب الطبقات ابن سعد: " أنه كان ثقة مأمونا، صدوقا خيرا كثير الحديث والعلم والفقه"[1]، ويصنفه من أئمة العصر عبـد الرحمان بن مهدي[2] فيقول: " إنما الناس في زما م أربعة حماد بن زيـد[3] بالبـصرة، والثوري بالكوفة، ومالك بالحجاز والأوزاعي بالشام"، وأنه ما كان بالشام أحـد أعلـم بالسنة من الأوزاعي، إذ أجاب في سبعين ألف مسألة"[4]، وخير ما نستدل به على علمه هو ما كان من أصحاب المذاهب في اعترافهم بعلمه.

فيقول الإمام مالك " الأوزاعي إمام يقتدى به، ويقول الشافعي: ما رأيت رجلا أشبه فقهه بحديثه من الأوزاعي[5]، ويحكم عليه الإمام أحمد بن حنبل بأنه ثقة و إمام[6].

---

*حسين محمد الملاح : المرجع السابق ،ص64 .

(1) السيوطي: طبقات الحفاظ، مكتبة وهبة، عابدين ،مصر ،ط1 ،1973، ص37.

(2) عبد الرحمان بن مهدي يكنى أبا سعيد وكان ثقة كثير الحديث ولد سنة 135هـ / 752م توفي بالبصرة في جمادى الثانية سنة 198هـ/813م وهو لبن 63 سنة جعله ابن سعد في الطبقة الشابعة،(انظر ابن سعد: المصدر السابق ، ج7 ،ص218).

(3) حماد بن زيد بن درهم ويكنى أبا إسماعيل، وكان عثمانيا، وثقة ثبتا حجة كثير الحديث توفي يوم الجمعة في 10 رمضان 179هـ/795م وهو ابن 81 سنة (انظر ابن سعد: المصدر السابق ،ج7 ،ص210.ابن عماد :المصدر السابق،ج1، ص292).

(4) الرازي: المصدر السابق، ج1،ص184.الذهبي: العبر في خبر من غبر،الكويت ،1960 ، ج1،ص227.

(5) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج7 ص113.

(6) ابن حجر: ذيب التهذيب ج6 ص242.

إنّ هذه الشهادات لا تكمن قيمتها في تلك الأحكام التي صدرت فيه من حيث مكانته وعلمه بل أهميتها تكمن في قائليها وهم أئمة، ورجل يحكم في علمه وحديثه الشافعي – صاحب الأصول وجامع العلم والذي تتلمذ على الإمام مالك وعلى تلاميذ أبي حنيفة – رجل فريد زمانه، قوى فكره وفقهه، والأقوال في علمه كثيرة وفي حديثه وفقهه جمة لا يمكن حصرها.

إنّ الأوزاعي لم يكن بارعا في العلم فقط بل كانت له كتابة أكثر روعة فله في مجال الترسل رسائل تؤثر، فما سمعت كلمة فاضل إلاّ احتاج مستمعها إلى إثباتها عنه كالأوزاعي[1].

طريقته في العلم:

"حرص الأوزاعي على السماع من الشيوخ ومارس العرض قبل الإجازة، ووضع قواعد للحديث وارتضاها الخلف الأخيار ولا تزال قائمة إلى اليوم، وكان حجة ثقة حافظا، يحرص على الأخذ عن الثقات ويرى في الذهاب للإسناد ذهابا للدين، ودعا لإصلاح الخطأ واللحن في الحديث الذي يقع فيه الرواة[2]".

لقد كان الأوزاعي يحبذ الطريقة التقليدية في تلقي العلم وذلك مشافهة من رجل لرجل حتى لا يقع الخطأ والمقصود بذلك أن يحفظ الرجل العلم عن ظهر قلب فيقول: "كان العلم كريما يتلقاه الرجال بينهم، فلما دخل في الكتب دخل فيه غير أهله"[3].

إنّ السماع عن الرجال يقتضي السؤال والمناقشة، فتتفتق الأذهان، وتبرز الحجة، أما إن صارالعلم يؤخذ من الكتب فربما تقع كلمة غير مفهومة عن صاحبها فيتحرف القول خصوصا وأنّ النقط والشكل لم يكونا إلاّ جزئيا.

وهكذا يؤخذ العلم معاناة وصبرا، ورحلات إلى بلاده، أما إن كان العلم هو الذي يرحل إلى الرجل، فإنّ الدعة والكسل سيضربان أطنابهما.

---

(1) الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج1، ط 227.

(2) الشعار :المرحع السابق ،ص08.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص114.

تقديره للعلماء:

لقد كان الإمام يقدر رجال العلم ويبحث عن الحق فإن وجده أقربه ووقف عنده، يذكر ابن المبارك[1] أنه لما قدم بيروت سأله الأوزاعي عن البدعي الذي ظهر بالكوفة يقصد أبا حنيفة وهذا ما دفع بابن المبارك إلى العودة إلى بيته ليراجع كتب أبي حنيفة في بيته ثلاثة أيام ثم جاءه بكتبه فقرأها الأوزاعي فسر بما قرأ وقال: " هذا نبيل من المشايخ اذهب واستكثر منه" ولقد التقى بأبي حنيفة ولما افترقا قال الأوزاعي لابن المبارك " غبطت الرجل بكثرة علمه ووفور عقله. أستغفر الله لقد كنت في غلط"[2].

يعترف الأوزاعي بفقه وعلم أبي حنيفة، ويحفز الناس على التعلم والأخذ عنه رغم أنه يناقشه في مسائل ويناقش تلامذته، وفي كتاب الأم كثير من هذه المناقشات التي كان الشافعي قد أوردها وكان كثيرا ما يميل إلى قول الأوزاعي"[3].

عبادته وزهده:

لقد رصع الأوزاعي علمه بزهد وعبادة نادرا ما نجدهما عند غيره، فقد أثر عنه أنه حج فما نام على الراحلة، إنما هو في صلاة فإذا نعس وهو في صلاته استند، وكان يرى من شدة خشوعه أنه أعمى[4].

وكان يقول: " من أطال قيام الليل هون الله عليه وقوف يوم القيامة"[5]، ولذا فقد كان الأوزاعي يحيي الليل صلاة وقرآنا وبكاء[6].

---

(1) هو عبد الله بن المبارك قدم إلى بيروت في رحلة إلى الأوزاعي للأخذ منه توفي سنة 181هـ/797م من شهر رمضان، وهو عالم جليل تفقه عن سفيان ومالك والأوزاعي كان محبا للخلوة كثير الانقطاع شديد الورع (انظر عبد الله اليافعي: مرآة الجنان، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت ،ط2، 1970 ج1 ،ص379.ابن عماد :المصدر السابق ،ج1 ،ص290).

(2) المحمصاني:الأوزاعي ،ص21.

(3) انظر الملحق رقم 03 لتجد فيه سير الأوزاعي والرد عنها.

(4) ابو نعيم الأصبهاني: المصدر السابق ،ج6، ص 143.

(5) الذهبي: سير أعلام، ج7،ص119.

(6) الذهبي :التذكرة ،ج1، ص179.

ومع العبادة كان زاهدا في الدنيا ورعا طول حياته، فقد أثر أنه كان يتـهيب مـن الأعطيات ولا يقبلها يقول ابنه محمد: " قال لي أبي لو قبلنا من الناس كلّما أعطونا لهنـا عليهم"، وذكر أنّ نصرانيا أهدى إلى الأوزاعي جرة عسل فقال له، يا أبا عمرو تكتب لي إلى والي بعلبك قال الأوزاعي: إن شئت رددت الجرة وكتبت لك، وإلاّ قبلت الجـرة ولم أكتب فرد الجرة وكتب له فوضع عنه ثلاثين دينار(1).وقدم عليه أحدهم من مكة فأهدى له هدية، فقال له: إن شئت قبلت منك ولم تسمع مني حرفا، وإن شئت فضم هـديتك واسمع(2).وكان يذكّر الناس ويذكّر نفسه فيقول: " من أكثر ذكر الموت كفاه اليـسير، ومن عرف أنّ منطقه من علمه قلّ كلامه"(3).

لقد بلغ الأوزاعي درجة من العلم والزهد والعبادة ما يحسده عليهـا كـل قـارئ لسيرته، وهذا ما جعل خلفاء عهده، وتلامذته، ورجال العلم يعتبرونـه ويقتـدون بـه ويحتجون بكلامه.إ ا صفات شخصية أدت إلى رواج فقهه وذيوع صيته في أرجاء البلاد الإسلامية كما جعلته يرقى كذلك إلى مصاف فقهاء عصره ،وهـو مدرسـة في الفقـه والعبادة إذ كان في الشام لاينازعه أحد في الفتوى والقضاء على رأيه ،فيأخذ القضاة برأيه ويستند إليه الأمراء ويستأنس به الخلفاء في وجوده بالشام .

(1) الأصبهاني :المصدر السابق، ج1 ،ص179.

(2) أحمد فريد: من أعلام السلف، دار الإيمان ،الإسكندرية، ط1 ،1998 ،ج1 ،ص 248.

(3) الذهبي: سير الأعلام ،ج7، ص 117.

الآراء:

تتجلى شخصية الأوزاعي أكثر من خلال المواقف التي كانت له تجاه عدة مسائل كانت بدايات نقاشا ا في عصره، وسوف يفصل فيها، ويؤجل تأججها بالمنطقة التي كان إماما با، وهو في كل ذلك يسلك مسلك أهل السنة والجماعة، وهذا ما نلمسه من خلال مواقفه وآرائه الفكرية.

ففي العلاقة بين المسلمين: رأى الأوزاعي وعايش الاقتتال بين المسلمين منذ نعومـة أظافره، وكانت نفسه تشمئز من هذا التناحر خصوصا عند انتقال الخلافة من بني أمية إلى بني العباس، وكذلك في عهد بني أمية ومتابعا م لآل البيت، ومتابعة بـني العبـاس لآل البيت، وقد كان يورد عدة أحاديث في هذا الشأن حتى يحد من الخلاف والاقتتال فقـد روى: أنّ رسول الله ρ خرج وقال: تزعمون أني من آخركم وفاة ألا وإني أولكم وفاة، وتتبعوني أفناء يهلك بعضكم بعضا أو يضرب بعضكم رقاب بعض[1]" ، وفي هذا تحـذير لبني جلدته من سوء العاقبة وتنصل الرسول ρ ممن يتعدى على حرمة المسلم.

ثم هاهو يدافع عن الصحابة رضوان الله عليهم ويحث على ذلك كل من جالسه بأن لا يذكر هؤلاء إلا بخير، حيث كان يتجنب الخوض في أحاديث الفتن في هـذا الـشأن مركزا على الخلاف بين بني أمية وآل البيت، ومركزا كذلك على فتنة الخوارج فيقـول: "لا يجتمع حب علي وعثمان رضي الله عنهما إلا في قلب مؤمن"[2].

وفي مجال العقيدة وأحاديث الصفات التي دار عليها الخلاف آنذاك واشتد فيما بعد، يقول الأوزاعي: "كنا - والتابعون متوافرون – نقول أنّ الله تعالى فوق العرش ونؤمن بما وردت به السنة من صفاته"[3].

وقد نشأ الخلاف في هذا العهد فيما يخص أحاديث الصفات، وهي صفات الله عـز وجل، إذ صار الناس يقولون فيها بغير قول أهل السنة، فمنهم المشبه لهذه الصفات بالبشر

---

(1) الشعار: المرجع السابق، ص 640.

(2) الذهبي: سير أعلام ،ج7، ص120.

(3) الذهبي: التذكرة، ج1 ،ص179، الذهبي :سير أعلام النبلاء ،ج7 ،ص121.

ومنهم المعطل لها ومنهم المؤول، ولذا نجد الأوزاعي ينهج ج السنة في الكف عن الكلام في هذا ا ال، لأنّ التابعين والصحابة لم ينظروا فيها وتحدثوا با كما جاءت في النصوص.

كما اتبع أهل السنة في قضية الإيمان والعمل، فيقول ناصحا الناس جميعـا " اصـبر نفسك على السنة وقف حيث وقف القوم وقل ما قالوا، وكف عما كفّوا واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم، ولا يستقيم الإيمان إلاّ بالقول، ولا يستقيم القول إلاّ بالعمل، ولا يستقيم الإيمان والقول والعمل إلاّ بالنية الموافقة للسنة وكان من مضى من سلفنا لا يفرقون بين الإيمان والعمل، والعمل من الإيمان، والإيمان من العمل، وإنما الإيمان اسم جامع كما يجمع هذه الأديان اسمها، ويصدقه العمل فمن آمن بلسانه وعرف بقلبـه وصدق بعمله فتلك العروة الوثقى التي لا انفصام لها، ومن قال بلسانه ولم يعرف بقلبه ولم يصدق بعمله، لم يقبل منه وكان في الآخرة من الخاسرين[1].

لقد رأى الأوزاعي أنّ المخالفة للسنة النبوية هو اتباع للرأي وأنّ القول بغير قول أهل السنة هو اتباع لهوى، حتى وإن كان الغالب على الأمة، فانظر إليه و يشخص الزيغ عـن الملة والنجاة منه فيقول:" عليك بآثار السلف وإنّ رفضك الناس، وإياك ورأي الرجال وإن زخرفوه لك بالقول، فإنّ الأمر ينجلي وأنت على طريق مستقيم[2].

كان الإمام من أشد المدافعين عن السنة والناكرين للبدعة، وبذل كل ما في وسـعه، علما ونصيحة حتى يحد من انتشار البدع في الدين فيكون لها الغلبة على النـاس، وقـد ظهرت بوادرها على ا تمع آنذاك بظهور الزنادقة والفرق الكلامية وتطـرف المـذاهب السياسية، إذا وصلت إلى التكفير كالخوارج بل ومرقت عن الدين فرق كثيرة كان مبدؤها

---

(1) الأصبهاني: المصدر السابق، ج6، ص143 .

(2) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج1 ،ص180. والرأي المقصود في هذا القول هو الرأي الخارج عن النصوص والقائل في العقيدة دون مذهب السنة أما الرأي في الفقه والذي ذهب إلى القول به أبو حنيفة فقد استحسنه الأوزاعي مثلما ذكرنا سابقاص91.

التشيع فوصلت إلى تأليه الأشخاص، لقد غلّظ القول في وجه المخالفين للسنة بل وأفتى في حضر الخليفة هشام بن عبد المالك بقتل غيلان[1] القدري، فقتل الخليفة غيلان[2].

والقصة أوردها شكيب ،يقول صاحب المخطوط: "كان على عهد هشام بن عبد الملك رجل قدري، فبعث إليه هشام وقال له: قد كثر كلام الناس فيك: قال نعم يا أمير المؤمنين، أدع من شئت فيجادلني، فإن أدركت بسبب فقد أمنتك من علاوتي (يعني رأسه) فقال هشام قد أنصفت، فبعث هشام إلى الأوزاعي، فلما حضر قال له هشام: يا أبا عمرو ناظر لنا هذا القدري، فقال له الأوزاعي: اختر إن شئت ثلاث كلمات، وإن شئت أربع كلمات وإن شئت واحدة، فقال القدري بل ثلاث كلمات. قال الأوزاعي: أخبرني عن الله عز وجل قضى على ما ى؟ قال القدري: ليس عندي في هذا شيء، قال الأوزاعي: هذه واحدة، ثم قال أخبرني عن الله عز وجل، هل حال دون ما أمر؟ قال القدري: هذه أشد من الأولى ما عندي شيء، فقال هذه اثنتان. وقال أخبرني عن الله عز وجل هل أعان على ما حرم؟ فقال القدري: هذه أشد من الأولى والثانية ما عندي من هذا شيء. فقال الأوزاعي: يا أمير المؤمنين هذه ثلاث كلمات، فأمر هشام فضرب عنقه"[3].

كان الأوزاعي يرىأن لا إيمان لصاحب بدعة، ذلك أنّ البدع تؤدي إلى الحيدة عن الدين فيقول: " ما ابتدع رجل بدعة إلاّ سلب ورعه"[4].

وكان حكمه على أهل البدع أن لا توبة لهم ولذلك نجده يقضي بقتل غيلان ويصرح قائلا: " أبى الله أن يأذن لصاحب بدعة بتوبة ذلك أنه ما ابتدعت بدعة إلا ازدادت مضيا ولا تركت سنة إلاّ ازدادت هربا"[5].

---

(1) غيلان القدري: هو غيلان الدمشقي كان يدعو إلى مذهب القدرية في دمشق والشام كلها ظهر أيام عمر بن عبد العزيز، وقد كتب إلى عمر يبين فيها مذهب، فاستدعاه عمر فرجع عن فكره ثم عاد إليها بعد موت عمر بن عبد العزيز.(انظر أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ،ص 113).

(2) الشعار: المرجع السابق، ص8.

(3) والقصة طويلة يبين فيها الأوزاعي الإجابات على هذه الأسئلة من السنة ويفخر به هشام بن عبد الملك الأمير الأموي الذي كان لا محال سيضرب عنق غيلان الدمشقي لأنه عاد إلى ما اه وحاجه فيه عمر بن عبد العزيز وما تدخل الأوزاعي إلاّ بحجة أكثر لإثبات الجرم والزيغ. (انظر شكيب: المرجع السابق ، ص 104 وما بعدها).

(4) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج1 ،ص 180.

(5) الشعار: المرجع السابق، ص 643.

وقد أخذ هذا الحكم من قوله ρ الذي يرويه الأوزاعي"[1]يقول: "**إنّ مجوس هذه الأمة المكذبون بأقدار الله، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم، وإن لقيتموهم فلا تسلموا عليهم** "[2].

لقد كان للأوزاعي تدخلات كثيرة فيما يخص الفرق آنذاك، يعطي رأي الدين فيها حتى لا يكون على الناس التباس رغم ما يزخرفه أصحاب البدع، فها هو يفصل في فكر وملة المرجئة[3]، إذ يقول فيهم ليس من الأهواء شيء أهلك بالأمة و لا أفتك بها من المرجئة[4].

ولعلّ قوله في المرجئة لايختلف كثيرا عن رأيه في الخوارج[5] الذين عدهم من الملل الخارجة عن الإسلام، ويورد فيهم أحاديث ووقائع تعود إلى عهد النبوة التي كانت تنذر بوقوع هذه الطائفة وانتشار فكرها وخطرها على الأمة.

ورأيه فيهم القتال والقتل، حيث أنّ الأوزاعي يروي عن التابعين والصحابة عن رسول الله ρ [6] قال: " **سيكون** في **أمتي اختلاف وفرقة، قوم** يحسنون **القيل ويسيئون الفعل، يقرأون القرآن لا يتجاوز تراقيهم، يمرقون من الدين مروق السهم من الرّمية، لا يرجعون** حتى **يرتدّ على فوقه، هم شر الخلق والخليقة طوبى لمن قاتلهم وقتلوه، يدعون** إلى **كتاب الله وليسوا منه شيء، من قاتلهم كان أولى** بالله **منهم، قالوا يا رسول الله ما سيماهم؟ قال: التخليق**"[7].

---

[1] رواه ابن ماجة في المقدمة الحديث رقم 92، 35/1.

[2] الشعار :المرجع السابق ، ص 648.

[3] الإرجاء على معنيين، أحدهما: بمعنى التأخير، والثاني: إعطاء الرجاء، أما إطلاق اسم المرجئة على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح، لأنهم كانوا يؤخرون العمل عن النية والعقد، وأما المعنى لثاني فظاهر: لأنهم قالوا لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تضر مع الكفر طاعة، وقيل الإرجاء تأخير صاحب الكبيرة – حكمه – إلى يوم القيامة والمرجئة أصناف أربعة. (الشهرستاني: المصدر السابق، ج ،ص 139).

[4] الشعار: المرجع السابق، ص 649.

[5] للمزيد من معرفة الخوارج آراءهم وطوائفهم ارجع إلى أبي زهرة: تاريخ المذاهب ص 65 وما بعدها.

[6] الشعار :نفس المرجع، ص644 .

[7]رواه أبو داود /كتاب السنة/ باب في قتال الخوارج، الحديث رقم 4765، 243/4.

لقد كان للأوزاعي في كل مسألة رأي وقول، يرد البدع ويحارب الطوائف والفرق، ويظهر السنة ويرشد الناس إلى اتباع السلف، يفتي الناس بما تعلمه عن التابعين الذين أخذوا عن الصحابة، وهؤلاء كانوا مبلغين عن الرسول ρ يقول الأوزاعي: " إذا بلغك عن رسول الله ρ فإياك أن تقول بغيره فإنه كان مبلغا عن الله"[1].

مواقفه تجاه السلطة:لم تكن مواقفه تجاه السلطة تختلف عن مواقفه تجاه الأفكار الهدامة المارقة عن الدين بل كان يصدع بالحق في أي مكان،ويبينه بالحجة والدليل، وبالسماحة والليونة التي لا تخدش كرامة السلطان أو تنال من مكانته، رغم أنه عايش الخلافتين الأموية والعباسية.

وما يلاحظ حول العلماء في هذه الفترة والتي تليها مباشرة، هو سلوكهم مسلكين تجاه السلطة آنذاك، فمن العلماء من سلك الطريقة الإيجابية في التعامل معهم بحيث احتك بهم ووصلهم حينما طلبوه، وراسلهم حينما استشاروه، وعرض عليهم أفكاره بطريقة أكثر لطافة تجعل الحاكم يلجأ إلى هذا العالم أثناء حدوث الحوادث أو انشغاله بمسائل معينة ومن هؤلاء العلماء إمامنا الأوزاعي، وغيره كأبي حنيفة والشافعي.

ومنهم من سلك مسلكا سلبيا، وهو التنكر لهم ومحاربتهم قولا وحتى فعلا، فطلبوه وفر منهم ومن هؤلاء الإمام الثوري الذي تدارك نفسه وحاول اتخاذ الطريقة الإيجابية في أواخر أيامه إلاّ أنّ المنية اختطفته.ولذلك نجد الأوزاعي يتصل بالحكام والأمراء، ويستعمل حنكته العلمية ليحقق للحاكم والناس أجمعين الخير في اتباع الحق.

" لقد كان الأوزاعي من بطانة الخير والمعروف، كان يرى من واجب العلماء أن يشيروا على الخلفاء والولاة بإقامة العدل بين الناس ويشفع لديهم لرفع الظلم عن المظلومين، إنه جريء في المجاهدة بهذه المبادئ[2].وتلك هي إيجابية العلماء في الذود عن الحق بالموعظةالحسنة ولايصدر ذلك إلا عن فهم عميق لمعاني الدين السمحاء وتعاليمه التي تصب في إطار مصالح العباد .

كانت تدخلات الأوزاعي وعلاقته مع الحكام تصب في ثلاث قنوات وتحقق ثلاثة أهداف:

---

(1) الذهبي: التذكرة ،ج1 ،ص 180.

(2) صبحي المحمصاني: الأوزاعي، ص61.

الأولى: أنه كان ينصح لهم أيما نصح لتحقيق العدل وإشاعة شريعة الإسلام السمحة بين جميع الفئات" المسلمين وغير المسلمين"، ومثال ذلك قصته مع أمير المؤمنين أبي جعفر المنصور الذي كتب إلى الأوزاعي أن يبعث إليه بما يرى فيه المصلحة، فكتب إليه الأوزاعي يقول: " أما بعد فعليك بتقوى الله وتتواضع يرفعك الله يوم يضع المتكبرين في الأرض بغير الحق، واعلم أنّ قرابتك من رسول الله ρ لن تزيد حق الله عليك إلاّ عظما ولا طاعته إلا وجوبا..."[1].

وفي لقائه مع المنصورأيضا يقول له: " ... إنّ أشد الشدة القيام لله بحقه وأنّ أكـرم الكرم عند الله التقوى، وأنه من طلب العزة بطاعة الله رفعه الله، ومن طلبه بمعصية الله أذله الله ووضعه..."[2]، وبعد نصيحته هذه أراد الانصراف وطلب من أمير المؤمنين أن يعفيه من لبس السواد (وهي راية العباسيين وشعارهم) فيأذن له الخليفة..."[3]،لمكانة الأوزاعي عند الخليفة .

الثانية: أنه كان يراسل الخلفاء و الأمراء حتى يقضوا حوائج الناس وييسروا علـيهم حيث كان الأوزاعي بفضل علمه وورعه وأدبه ومكانته الاجتماعية يلجأ إليه الناس لطلب الشفاعة لدى الأمراء والخلفاء وهؤلاء الناس مسلمين كانوا أو أهـل ذمـة لا يتراجـع الأوزاعي عن التشفع لهم و إصلاح حالهم.

ومثال ذلك أنّ ملك الروم أسر بعض أهل الثغور وطلب الفدية فأبى أبـو جعفـر، فتدخل الأوزاعي بحكمة وجرأة وأرسل إليه برسالة هي موعظة ارتدع بها المنصور ودفـع الفدية جاء فيها: " ... إنّ الله استرعاك أمر هذه الأمة لتكون فيها بالقسط قائما وبنبيه ρ في خفض الجناح والرأفة مشتبها... فإنّ المشركين است لوا العوائق والذراري من المعاقـل

(1) والقصة في ذلك طويلة انظر الذهبي: سير أعلام النبلاء ،ج7، ص125 وما بعدها.

(2) الأصبهاني: حلية الأولياء ،ج6، ص140 وفي الحلية المواعظ التي كان يقول بها الأوزاعي وهي كثيرة ومراسلاته مع المنصور كذلك (ارجع إلى الأصبهاني : نفس المصدر،من ص136 إلى ص140).

(3) القصة أوردها أصحاب الطبقات ومنهم الذهبي: سير أعلام النبلاء ،ج7 ،ص126.

والحصون، ولا يلقون لهم نصرا ولا عنهم مدافعا، فليتق الله أمير المؤمنين وليبتغ بالفدية بهم من الله سبيلا"[1].

ولم تكن هذه هي الرسالة الوحيدة التي بعث بها الأوزاعي إلى المنصور بل كان يكاتبه دائما ويذكره بمسؤولياته أمام الله عن كل رجل وامرأة وطفل ويروي له صورا ومواقفـا من حياة الرسول ρ ليتخذ منها الأسوة والقدوة[2].

وقد أورد الرازي عدة رسائل إلى الخلفاء والأمراء يتوسط فيها للناس منها:

- رسالة إلى أبي عبيد الله وزير الخليفة[3] في موعظة وحاجة، ورسالة إليه في تخليـة محبوس.

-رسالة إلى المهدي في الشفاعة لقوم ورسالة أخـرى في الـشفاعة لأهـل مكـة وتقويتهم.

- ورسالة أخرى في زيادة أرزاق أهل الساحل،وهي رسـائل عديـدة إلى أوليـاء الأمور[4]تذكرهم بحال الرعية وواجبات الراعي .

الثالثة: ذكر الحق أمام الخلفاء والأمراء وعدم مداراتهم رغم الهالة التي كان يـضفيها بعض الولاة على أنفسهم خصوصا في أمور الشرع، وقصته مع عبد الله بن علي[5] عـم السفاح في دمشق معروفة إذ لما قدم الشام سأل الأوزاعي: ما تقول في دماء بني أمية؟ قال الأوزاعي: قد كانت بينك وبينهم عهود، وكان ينبغي أن تفي بها، قال: ويحـك، قـال

---

[1] الأصبهاني: المصدر السابق ، ج6 ،ص136.

[2] عبد المنعم قنديل: المرجع السابق، ص 336.

[3] عبد الله وزير الخليفة هو(انظر الملحق رقم :04 تجد فيه بعض تدخلات الأوزاعي)

[4] لمعرفة ما جاء في هذه الرسائل وغير من الرسائل الرازي :المصدر السابق،ج1، ص 187 وما بعدها، وانظر أيضا كتاب محاسن الساعي في مناقب الأوزاعي وفيه ما أثر عنه من مواقف وسير والكتاب عبارة عن مخطوط حققه وذيله بهوامش مهمة الأمير شكيب أرسلان: وهو موجود في المكتبة الوطنية تحت رقم 3984.

[5] عبد الله بن علي قد مر معنا في المدخل عن قصته في إعطاء الأمان لبني أمية حتى إذا وثقوا به وجمعهم قتل منهم أزيد من سبعين رجلا بعد أن دعاهم إلى طعام ولذلك قال له الأوزاعي قد كانت بينك وبينهم عهود.

الأوزاعي: دماؤهم عليك حرام، فغضب وانتفخت أوداجه وعيناه ثم قال ويحك ولم؟! قال الأوزاعي: قال رسول الله ρ: " **لا يحل دم امرئ مسلم إلاّ بإحدى الثلاث: ثيـب زان ونفس بنفس وتارك لدينه**"[1]،فقال الأمير، ويحك أو ليس الأمر لنا ديانة(يعني الخلافـة) قال الأوزاعي: كيف ذلك؟ قال عبد الله بن علي: أولم يكن رسول الله ρ قـد أوصـى لعلي؟ قال الأوزاعي: لو أوصى إليه ما حكم الحكمين. فسكت وقد أجمع غضبا وجعلت (يقول الأوزاعي) أتوقع رأسي يسقط بين يدي، فقال بيده هكذا، وأومـأ أن أخرجـوه فخرجت[2].

والقصة قد تدلّ على أنه كان لا يزال يميل إلى بني أمية، ولذلك اتخذ بنو أمية مذهبه على قضاء الشام في أواخر عهدهم، ولعلّ هذا الذي يشفع لانتشار مذهبه بالأندلس حينما هاجر إليها بقايا بني أمية[3]، ولكنها (القصة) تدل أكثر على صلابة موقف الأوزاعي في الحق والدفاع عن كليات المسلمين الخمس(النفس ،الدين ،الدم ،العرض ،المال).

إنّ هذه المواقف جعلت الأوزاعي مهيب الجانب من قبل الولاة، وكانت له الكلمـة لدى الخليفة يسمع منه ويعزل إذا كتب الأوزاعي في واحد من الولاة.

فقد أثر على أمير كان بالساحل(بيروت) وقد دُفِن الأوزاعي والناس عنـد قـبره يقول: " رحمك الله أبا عمرو فقد كنت أخافك أكثر ممن ولاّني..."[4].

وخلاصة القول فإنّ مواقف الأوزاعي تجاه أهل الملل والنحل أو أهـل الـسلطان أو الرعية، لم تكن لتخرج عن عمل أهل السنة والجماعة وطريقتهم في ذلك النهي عن المنكر والأمر بالمعروف وبالموعظة الحسنة[5].

---

(1) رواه البخاري/ كتاب الديات باب قول الله تعالى أنّ النفس بالنفس... الحديث رقم 6484، 2521/6، ومسلم كتاب القسامة والمحاربين والقصاص والديات /باب ما يباح به دم المسلم الحديث رقم 1676، 1302/3.

(2) الذهبي: التذكرة ،ج1، ص181؛ ابن كثير: المصدر السابق ،ج10 ،ص 113.

(3) سنناقش هذا الرأي في أثناء دراستنا لانتشار مذهبه وأسباب ذلك.

(4) المزي: المصدر السابق، ج17 ،ص314.

(5) لقد أفرد بعض الكتاب من أهل لبنان عملا رائعا في شخصية الأوزاعي وقاموا على نشر علمه ومواقفه انظ مجلة الفكر الإسلامية الصادر في بيروت في المقالات التالية:

- طه متولي: علماء مسلمون من لبنان عبد الرحمان الأوزاعي، مجلة الفكر الإسلامي ،بيروت، العدد 5، السنة الثانية، ربيع أول 1391هـ- أيار ،1971 ص103؛طه متولي: عبد الرحمان الأوزاعي شيخ الإسلام ،مجلة الفكر الإسلامي، بيروت، العدد 7 ،السنة الثانية ،جمادى الأولى 1391 تموز 1971 ،ص 66.

لقد عم فقه الأوزاعي أرجاء البلاد الإسلامية، وانتشر أكثر في الشام والأندلس وتأثر به فقهاء أمثال الإمام الشافعي الذي كان كثيرا ما يميل إليه،" إنه وحيد زمانـه، وإمـام عصره وأوانه[1]".

برز الأوزاعي في الفقه إذ أنّ صفاته الخلقية السالفة الذكر جعلت لشخصيته العلمية وقارا واحتراما يندر أن ترى في آخر غيره ومع ذلك كان رجل عامة واسع الصدر يتلقى شكاوى المظلومين ويسعى لمساعد م لدى أولي الأمر،وكان يستقبل المستفتين فيفتـيهم، وطلاب العلم والدين فيعلمهم ويهديهم[2].

أقوال العلماء في **فقهه** : تبرز مكانة الأوزاعي وتأثيره في الآخرين من خلال تلـك الأقوال التي كانت تصدر على شكل أحكام في شأنه إذ تصنفه من كبار العلماء والفقهاء.

فيقول عنه ابن كثير: " كان رجلا زاهدا عالما ذا دين وخلق وفصاحة وكـرم ولـه رحلات في طلب العلم"[3].

وقال آخر رأيت الأوزاعي وسفيان الثوري يطوفان بالبيت، فلو قيل لي اختر أحـد الرجلين للأمة لاخترت الأوزاعي لأنه كان أحلم الرجلين"[4].

وقال أبو إسحاق الفزازي[5]: " كان الأوزاعي رجل عامة، وكان الثـوري رجـل خاصة، ولو خيرت لهذه الأمة لاخترت لها الأوزاعي لأنه كان أكثر توسعا"[6].

ويجعله الثوري في مصاف العلماء بإجماع الأمة فيقول: " انعقد الإجماع على جلالته وإمامته وعلو مرتبته، وكمال فضله، ومقالات السلف مشهورة كثيرة في ورعه وزهـده

---

(1) الأصبهاني: المصدر السابق، ج6 ،ص135.

(2) المحمصاني: الأوزاعي ،ص33.

(3) مصطفى إبراهيم الشيني: مدرسة التفسير في الأندلس مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1 ،1986، ص53.

(4) الرازي: المصدر السابق، ج2 ،ص206 لعله يقصد الحلم هنا في تعامل الرجلين مع الحكام فالأوزاعي كانت له صلات وكلامه مسموع لرأفته وحسن تقديمه والثاني لفتوته ونفور الحكام منه.

(5) أبو إسحاق الفزازي: إبراهيم محد بن الحارث بن إسماعيل بن خارجة، إمام أهل الشام في المغازي، وغيرذلك أخذ عن الثوري والأوزاعي، و توفي سنة 188هـ/803م (ابن كثير :المصدر السابق ،ج10،ص200).

(6) المحمصاني:نفس المرجع ، ص30.

وعبادته وقيامه بالحق وكثرة حديثه، وفقهه وفصاحته واتباعه للسنة وإجلال أعيان أئمة زمانه في جميع الأقطار له واعترافهم بميزته"[1].

ولعلّ وقوف الإمام الشافعي إلى جانب قول الأوزاعي في أثناء مناقشته لسير الحنفية وسير الأوزاعي ما يبرز مكانة هذا الإمام وأثره الفقهي[2].فقد أورد الإمام الشافعي في كتابه الأم خمسا وثلاثين مسألة اختلف فيها الأوزاعي مع غيره من الفقهاء، فكان الشافعي يورد الآراء ثم يبين رأيه ثمّ يؤيد من رأى رأيه كالأوزاعي[3].

من فتاويه : ومن أبرز فتاوى الأوزاعي:

كان يرى أنه يحلّ للمسلمين أخذ ما وجدوا في أرض الحرب، إلاّ أنه ى عن قطع أشجار العدو،وكان يرى بقتل الجواسيس والخونة سواء أكانوا من أهل الذمة أم لم يكونوا، إلاّ أنه كان يرى بعدم قتل الرهائن،ويقول: " لا تقتل الرهن بغدرهم" كما أنه يرى عدم قتل الأسرى بل بيعهم لأنّ عمر بن الخطاب أتى بأسرى فقسمهم ولم يقتل منهم أحدا، وهو بذلك يرجح عملين لعمر بن الخطاب، قال الأوزاعي سائلا الزهري: ما كان يصنع عمر بالأسرى؟ قال: " ربما قتلهم وربما باعهم"، كما كان يرى أنه يجب الكف عن قتال المتترسين بالمسلمين، والنهي عن ظلم المعاهدين[4].

وهناك مسألة أخرى جرى حولها النقاش، وهي المرأة السبي ثم يسبى زوجها هل يعتبران على نكاح أم لا، وقد اختلف مع الأحناف فيها إذ يقول: ما كان في المقاسم فهما على نكاح وإلاّ فلا[5].

وهناك مسألة أخرى يبرز فيها فقه الأوزاعي وأثره على الحياة التشريعية ما ذهب إليه في مسألة التناقض في مسائل الإثبات.

---

(1) الحجوي: المرجع السابق، ج2 ،ص145.

(2) ارجع إلى كتاب الأم للشافعي ففيه عن سيرة الأوزاعي والرد عنها من طرف الحنفية. وكتاب الرد على سير الأوزاعي لأبي يوسف صاحب أبي حنيفة .

(3) خليل داود الزرو: الحياة العقلية في الشام في القرنين الأول والثاني الهجري، دار آفاق الجديدة ،بيروت ،ط1 ، 1971، ص110.

(4) للاستزادة من معرفة هذه الفتاوى ارجع إلى الشعار: المرجع السابق، ص 393 وما بعدها.وانظر الملحق رقم

(5) أبو يوسف يعقوب الأنصاري: الرد على سير الأوزاعي ،تعليق أبو الوفا الأفغاني، دار الكتب العلمية، بيروت، ص53 وللمزيد من معرفة اختلاف الأحناف والأوزاعي ارجع إلى نفس المصدر ،ص 65 إلى ما بعدها.

" والتناقض على نوعين، تناقض الشهود، وتناقض المدعي، ففي تناقض الشهود وهي عند رجوع الشهود عن شهادتهم، قال العلماء: لا حجة مع التناقض، وأنّ عدم فسخ الحكم بداعي الرجوع عن الشهادة متفق عليه عند جمهور الفقهاء، وتعليل ذلك أنّ الحكم قد ثبت بقول عدول وبسبب شرعي، ودعوة الشهود يعد ذلك الكذب والاعتراف منهم أنهم فسقة، والفاسق لا ينقض الحكم بقوله، فيبقى الحكم على ما كان عليه. ولكن شذّ عن هذا الإمام الأوزاعي وكذلك أهل الظاهر، إذ قالوا ينتقض الحكم عند الرجوع عن الشهادة في جميع الأحوال لأنّ الحكم ثبت بشهادة، فإذا رجع الشهود زال ما ثبت به الحكم، وكذلك مسألة الحدود و القصاص لا ينفذ الحكم إذا رجع الشهود قبل التنفيذ لأنّ الحدود تدرؤ بالشبهات"[1].

واختلف الأوزاعي في الفقه مع الثوري بمنى[*] فقال الأوزاعي للثوري، لم لا ترفع يديك في خفض الركوع والرفع منه؟ فقال حدثنا يزيد بن أبي زياد[2] فقال الأوزاعي: أروى لك الزهري عن سالم عن أبيه عن الرسول ρ وتعارضني بيزيد رجل ضعيف الحديث، وحديثه مخالف للسنة فاحمر وجه سفيان[3].وهذا إنما يدلّ على شدة تمحيصه للحديث إسنادا ومتنا، ثمّ إنّ الإمام الثوري أمير المؤمنين في الحديث، إلاّ أنّ الأوزاعي كان اكثر تثبيتا، وهو ما جعل الرجال تحكم له بالإمامة لو اختارت بين الثوري والأوزاعي لفقهه الحديث.

ومن غرائب الفتاوى التي انفرد بها الأوزاعي أنه كان يرى بأنّ الفخذ ليست في الحمام بعورة، وأنها في المسجد عورة[4]. وهنا ربما يورد الأوزاعي هذه الفتوى لأجل التوسعة على الناس في مكان تعم فيه البلوى.

كما سئل عن رجل معه من الماء ما يوضئه ومعه أبوه، قال: " يتوضأ أبوه فإنه من ماله"[1]، قد يكون هذا السؤال من الفقه الافتراضي والمسائل التقديرية، فهو قد حكم

---

(1)صبحي المحمصاني :فلسفة التشريع، ص376.

(*) منى مكان على بعد فرسخ من مكة طولها ميلان تعمر أيام الحج وتخلو بقية السنة إلا مما يحفظها، سميت كذلك لأن آدم تمنى فيها الجنة ، ولأن الكبش مني بها أي ذبح (ياقوت : المصدر السابق ،ج5،ص198).

(2) وتمام مسند الثوري في نفس الحديث، أن يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمان بن أبي ليلى عن البراء أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم: " كان إذا افتتح الصلاة رفع يديه إلى قريب من أذنيه ثم لا يعود" أخرجه أبو داود وإسناده ضعيف لضعف يزيد.

(3) ابن كثير :المصدر السابق، ج10 ،ص116؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء ،ج7 ،ص112.

(4) الذهبي: نفسه، ج1 ،ص117.

(1) الذهبي: تذكرة الحفاظ ،ج1 ،ص182.

بالرأي وهنا يكون الأوزاعي قد استعمل الرأي وحكم قياسا بنص سابق للرسـول ρ " **أنت ومالك لأبيك**"[2].

منهجه الفقهي :

لقد اختلف دارسوا تاريخ الفقه وكتاب الطبقات حول منهج الأوزاعي فمنهم من عده من أهل الحديث ومنهم من عده من أهل الرأي، ومنهم من قال أنه توسط بين الأخذ بالحديث والأخذ بالرأي، ويمكن لنا أن نتبين هذه الآراء فيما يلي:

الأوزاعي وأهل الحديث: عده كثيرون بل أغلب الناس من مدرسة الحديث باعتبار تمسكه بالسنة النبوية والحديث الشريف، حيث بنى أحكامه على كتاب الله وسنة رسـول الله ρ وما كان يقدم على الحديث شيئا حتى أنه يروي عن الذهبي أنه قال: " إذا بلغـك عن رسول الله حديث فإياك أن تقول بغيره فإنه كان مبلغا عن الله"[3].ويستدل الرجـال أيضا على أنه من أهل الحديث فيما روى أنه قال: " اصبر على السنة وقف حيث يقـف القوم وقل ما قالوا، وكف عما كفوا وليسعك ما وسعهم"، وقال: "العلم ما جاء بـه أصحاب محمد ρ وما لم يجئ فليس بعلم"[4].

ثم إنّ الأوزاعي في كثير من أحاديثه ودروسه وفي أثناء سرد آرائه يكثر من جمل مثل مضت السنة، وعملت به أئمة المسلمين، وعلى ذلك أهل العلم، وبه عملت الأمة، " ومما تمسك به السلف"[5]، وهذا يظهر مدى تمسك الأوزاعي بالأثر والسنة.وكان الأوزاعـي كثيرا ما يقول – وبه تمسك وعليه سار -: " خمسة عليها أصحاب محمد ρ لزوم الجماعة واتباع السنة وعمارة المسجد وتلاوة القرآن والجهاد في سبيل الله"[6].

وفي رأي الأوزاعي في السنة وموقعها من القرآن وجدناه يقضي بـأنّ الـسنة لا تخالف القرآن وهي شبهة ظهرت، وصار بعض الناس يتشدقون بها، فيقول: " السنة قاضية

---

[2] رواه أحمد في مسنده ، الحديث رقم 6863، 415/2 .

[3] مصطفى شلبي: المدخل في التعريف بالفقه، ص 205.

[4] ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص117.

[5] خليل الزرو: المرجع السابق، ص 111.

[6] الأصبهاني: المصدر السابق، ج6، ص142.

على القرآن وليس القرآن بقاض على السنة، إذ ي ل جبريل على النبي بالسنة كما يـ ل عليه بالقرآن، حيث كان الوحي ي ل على الرسول ρ ويحضره جبريل بالسنة التي تفـسر ذلك"[1]، و كان يقول أيضا " الكتاب أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب"[2].

والسنة عند الأوزاعي يقسمها إلى قسمين: إذ يروي عن مكحول الدمشقي[3]قـال: "السنة سنتان، سنة الأخذ با فريضة وتركها كفر، وسنة الأخذ با فضيلة وتركها إلى غـير حرج"[4]، وبذا اخذ الأوزاعي من شيخه وصار يقدر السنة ويشدد في الأخذ با مثلها مثل القرآن.ذلك أنه ليس من السنن الصحيحة ما تخالف القرآن بل السنة مع القرآن ثلاث منازل: الأولى موافقة وشاهدة بنفس ما شهد الكتاب ومؤكدة، والثانية مفسرة للكتـاب والثالثـة متضمنة لحكم سكت عنه الكتاب[5].

وما يؤاخذ عليه الأوزاعي من قبل العلماء أنه كان يأخذ بالمراسيل[6] والمقاطيع[7]

---

(1) الشعار: المرجع السابق، ص 56.

(2) الحجوي: المرجع السابق، ج1 ،ص 33.

(3) مكحول الدمشقي: هو فقيه الشام أبو عبد الله مكحول مولى بني هذيل سمع من طائفة من الصحابة، وأرسل عن طائفة منهم ، كان من سلالة الأكاسرة، ابن كثير: المصدر السابق ،ج9 ،ص305، (اليافعي: المصدر السابق، ج1،ص 243)انظر ترجمته ص238.

(4) الشعار: نفسه، ص57.

(5) الحجوي: المرجع السابق، ص33.

(6) الحديث المرسل: هو ما رفعه التابعي إلى الرسول صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو تقرير صغيرا كان التابعي أو كبيرا أي أن سقط من إسناده الصحابي أو اتصل سنده إلى التابعي دون ذكر الصحابي، على أن يقول التابعي أو غير الصحابي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(7) والمقطوع هو الذي تقف سلسلة إسناده عند التابعي قولا أو فعلا وقد عرفوه بأنه ما روي عن التابعي موقوفا من أقوالهم أو أفعالهم.

والحديث الموقوف هو الذي تقف سلسلة إسناده عند الصحابي أي ما روى عن الصحابي متصلا كان أو منقطعا.

والمنقطع هو ما سقط من سنده راو واحد في موضع أو أكثر أو ذكر فيه راو مبهم (شرف الدين علي الراجحي: مصطلح الحديث وأثره، دار النهضة العربية، بيروت ،ط1 ،ص91 وما بعدها).

من الأحاديث فقد حكم عليه ابن حنبل بالضعف من حيث أنه يحتج بمقاطيع ومراسيل أهل الشام"[1]،ولذلك كان الحنابلة يتحرجون من الأخذ بأحاديثه وربما هذا سبب من أسباب تلاشي مذهبه فيما بعد.

وهذا الحكم يرده آخرون بقولهم: " أما حكم أحمد على الأوزاعي بأنّ حديثه ضعيف، فهو محمول عند المحققين على أنه كان يحتج في بعض مسائل الفقه بالروايات الضعيفة، وهذا لا يضيره في الفقه ولا في الحديث. أما الفقه فلأن للعلماء في طرق استدلالهم على الأحكام مسالك مختلفة وكثيرا ما يستدلون بالأحاديث المرسلة والمنقطعة والموقوفة، لا سيما إذا تعددت طرقها أو كانت لها شواهد تؤيدها، أما في الحديث فقد كان المحدثون يذكرون الموضوع لبيان حاله والضعيف لجواز الاعتبار به، أو الاحتجاج إذا تعددت طرقه وأيدته شواهد أو لغير ذلك من المقاصد[2].

ولعل سبب كثرة المراسيل والمقاطيع في أحاديث أهل الشام تعود إلى الثقة المتبادلة التي كانت موجودة بين التابعين هناك، ثمّ أنّ الوضع في الحديث كان ضعيفا مقارنة مع ما كان في العراق وأول من نبه أهل الشام على ضرورة الأخذ بالسند هو الإمام الزهري[3] حينما زار الشام[4].

الأوزاعي والرأي: أما فيما يخص الرأي أو القياس فقد ذهب أكثر الناس إلى اعتبار أنّ الأوزاعي يكره القياس وعد مذهبه من مذاهب أهل الحديث والأثر[5].

---

(1) الذهبي :سير أعلام النبلاء ،ج7 ،ص114.

(2) محمد محمد أبو زهو :الحديث والمحدثون ،دار الفكر العربي ،ط 1978 ،ص 296.

(3) الزهري بن شهاب الزهري توفي في رمضان من عام 124هـ/741م، أحد الفقهاء الأعلام التابعين حفظ علم الفقهاء السبعة، ورأى عشرة من الصحابة وسمع من سهل بن سعدوأنس بن مالك ، وروى عنه جماعة من الأئمة المسلمين منهم الإمام مالك وسفيان الثوري (اليافعي: المصدر السابق، ج1 ،ص 260).

(4) خليل داود الزرو: المرجع السابق ،ص122.

(5) الخضري بك: المرجع السابق ،ص 212 ؛ محمد يوسف موسى :المدخل لدراسة الفقه ،ص17؛إبراهيم المشيني: المرجع السابق، ص53؛ أبو العينين: المرجع السابق، ص235.

وقد أخذوا بذا الحكم حينما رأوا قوله في الرأي، إذ يأخـذ الأوزاعـي بقـول الرسول"[1] ρ: "لم يزل أمر بني إسرائيل معتدلا حتى نشأ فيهم المولدون أبناء سبايا الأمم السابقة فقالوا بالرأي فضلوا وأضلوا "[2].

ويذهب فريق آخر إلى أنّ إنكار الأوزاعي للرأي، هو إنكاره للرأي الذي يخـالف السنة والذي كانت الفرق الكلامية تتبعه أما الرأي الذي يحقق مصالح العباد فيما لا نص فيه، والذي يدعم مقاصد الشريعة فإنّ الأوزاعي يأخذ به.

إنه لم يحبذ الاجتهاد إلاّ فيما لا نص فيه من قرآن أو سنة[3]، خصوصا في المسائل ذات الصبغة الإنسانية والمتعلقة بأهل الذمة، ومعاملة الأسرى والرهن[4]، حيث إنه كـثيرا ما يستعين الأوزاعي بأفعال الرسول ρ في غزواته وحروبه ويقيس عليها فتاويـه، وهـو يستعمل القياس دون استعمال عبارة القياس[5].ومن الشواهد على ذلك ما جاء في سـنن الأوزاعي والتي تدل على أنه كان يأخذ بالرأي فيما لا نص فيه ما يلي:

قال الأوزاعي: كتب عمر بن عبد العزيز أنه لا رأي لأحد في كتاب وإنمـا رأي الأئمة فيما لم يـ ل فيه كتاب ولم تمض به سنة، ولا رأي لأحد في سنة سنها الرسول ρ، وكان يقول أيضا خذوا الرأي ما يصدق من كان قبلكم، ولا تأخذوا ما هو خلاف لهـم فإنهم خير منكم وأعلم، ويقول أيضا نعم وزير العلم الرأي الحسن[6].

وإذا وجدناه يؤاخذ أهل الرأي على رأيهم، نجده في وقت آخر يصرح فيما لا يدع مجالا للشك بأنه يأخذ بالرأي حيث يقول: " إننا لا ننقم على أبي حنيفة أنه رأى، كلنا نرى ،

---

(1) الشعار: المرجع السابق، ص 58
(2) رواه ابن ماجه في المقدمة ،الحديث رقم 56 ، 4/1 .
(3)الشعار : نفسه، ص7.
(4) صبحي المحمصاني:الأوزاعي ،ص45.
(5) خليل الزرو: المرجع السابق ،ص113.
(6) الشعار:نفس المرجع ، ص58.

ولكنا ننقم عليه أنه يجيئه الحديث عن النبي ρ، فيخالفه إلى غيره"[1]، ثمّ إنه حينما يلتقي بأبي حنيفة وابن المبارك وينصرف أبو حنيفة يقول لابن المبارك ما أحكم عقل هذا الرجل.

وعليه نخلص الآن إلى نتيجة أنّ الأوزاعي كان يأخذ بالكتاب والسنة، وكـان لا يتردد في أن يصدر حكما بعد اجتهاد فيما لا نص فيه.

لقد سطّر الأوزاعي لنفسه اتجاها فقهيا يبتعد فيه عن أهل الرأي وعن أهل الحديث، ويحاول أن يمزج بينهما، ولذلك نجد الإمام الشافعي يتأثر بـه ويجعـل أصـول فقهـه واستنباطاته تقوم على أصول أخذ بها أهل الرأي وأصول أخذ بها أهل الحـديث دونمـا حرج، يقول الأوزاعي: " نتجنب من قول أهل العراق خمسا ومن قول أهل الحجاز خمسا، فمن قول أهل العراق شرب المسكر والأكل في الفجر في رمضان، ولا جمعة إلاّ في سبع أمصر، وتأخير صلاة العصر حتى يكون ظل كلّ شيء أربعة أمثاله، والفرار يوم الزحـف، ومن أقوال الحجاز، استماع الملاهي، والجمع من الصلاتين من غير عذر والمتعة بالنـساء والدرهم بالدرهمين والدينار بدينارين يدا بيد، وإتيان النساء في أدبارهن[2].

ويؤكد هذا المسلك فيقول: لا نأخذ من قول أهل العراق خصلتين ولا قول أهـل مكة خصلتين ولا من قول أهل المدينة خصلتين ولا من قول أهل الشام خصلتين.

فأما أهل العراق فتأخير السحور وشرب النبيذ، وأما أهل مكة فالمتعة والـصرف، وأما أهل المدينة فإتيان النساء في أدبارهن والسماع، وأما أهل الشام فبيع العصير وأخـذ الديوان[3].

ونجد أنّ الأوزاعي يأخذ بأقوال الصحابة والتابعين فيقول: العلم ما جاء به أصـحاب محمد ρ وما لم يجيء عن الصحابة فليس بعلم"[4] ويقول خمسة كان عليها أصحاب

---

[1] خليل الزرو: المرجع السابق، ص103.

[2] الذهبي: سير أعلام النبلاء ،ج7 ،ص131.

[3] يعقب ابن عساكر الذي أخذ عنه الشعار فيقول: أما بيع العصير فليس في الشام اليوم عالم يبيحه وإنما يفعل ذلك أهل الفسوق، وأما الديوان فقد منعه السلطان، وهو يماثل اليوم مركز التسجيلات الشخصية والمالية للجنود على اختلاف اختصاصا م انظر (الشعار: المرجع السابق ، ص 295).

[4] خليل الزرو: نفس لمرجع ، ص103.

محمد ρ و التابعون: لزوم الجماعة، واتبع السنة، وعمارة المساجد والتلاوة والجهاد"[1].

ومن هذا التحليل نخلص إلى أنه كان مستقلا بمذهب يقيمه وفق ما وصل إليه من طرق استنباط على أسس هي :

- التزام كتاب الله وسنة نبيه ρ في الأحداث التي صدر نص واضح بشا ا .
- الأخذ بالإجماع إذ لا يمكن لأي إمام أن يخرج عن إجماع الأمة فيما هو واضح.
- العمل بالمراسيل والمقاطيع التي سند بعضها البعض والتي تأتي من أهل الثقة.
- الأخذ بأقوال الصحابة والتابعين" أي فتاويهم" الموثوق فيها.
- ثم القياس على النظائر والأشباه تأثر بمدرسة أهل الرأي الذي قال فيه نعم وزير العلم الرأي الحسن، وهو يستعمله أكثر في السير و يقلل منه في الأمور الأخرى.

كما لاحظنا بعض الذين قرأنا لهم يشيرون إلى تأثر الأوزاعي بالقوانين الرومانيـة التي كانت سائدة آنذاك، حيث كانت المنطقة تحت الحكم الروماني قبل دخول الإسـلام إليها، إلاّ أننا نؤكد بأنّ الشريعة كانت دوما تقرر الحسن مهما كان أصله بل وتجعل لـه نصوصا وتنبذ ما هو مخالف لتعاليمها، فما كان من تدبير حسن و عقل راجح رجحتـه، وما كان غير ذلك حرمته، وربما كان أصل شرع ما قبلنا دالّ على ما ذهبنا إليه[2].

إنّ الأوزاعي فقيه الشام وعالمها الذي أقام السنة هناك ونصح الولاة، واستأنس به الناس سواء كانوا أهل ذمة أو مسلمين استحق بشرف قيـادة الأمـة في مجـال الفقـه والتمذهب بطريقة خاصة به، جعلت الإمام أحمد يورد هذه القصة وهي:

أنّ سفيان الثوري والأوزاعي دخلا على مالك: "فلما خرجا قال: أحدهما أكثـر علما من صاحبه ولا يصلح للأمة، والآخر يصلح للإمامة يعني الأوزاعي، والإمامة تعني

الإمامة في الفقه والحديث" (3)،فرجل يشهد له الإمام مالك واحمد بـن حنبـل ويأخذ برأيه في السير الإمام الشافعي يحق أن يكون إمام مذهب ومصدر فقه .

---

[1] الأصبهاني: المصدر السابق، ج6 ،ص142.

[2] يقول الملاح ودعوة تأثره بالقوانين الرومانية مرفوضة لاعتبارات هي

- أنه لم يعثر على أي قضية قد أشار إشارة ولو صغيرة إلى القوانين الرومانية ولم يكونوا يعرفون لغة الرومان
- أنه كان يميل إلى مدرسة الحديث ومدلاسة الحديث أكثر حيطة وابتعادا عن القوانين الرومانية .
- أن مدرسة بيروت للقانون الروماني كانت قد خربت بفعل الزلزال الواقع سنة 551 هـ/ 1156 م وكان أساتذ ا وطلبتها قد تحولوا إلى صيدا كما تحطمت المدرسة كذلك سنة560 هـ /1164 م إثر حريق .(الملاح :المرجع السابق، ص213)

[3] الذهبي: سير أعلام النبلاء ج7 ص112.

المبحث الرابع: آثاره وانتشار مذهبه

آثار الإمام الأوزاعي :

لم يصل إلينا من آثاره الفقهية والعلمية إلا الشيء القليل مقارنة مع باقي الأئمة، وذلك لأسباب نذكرها أثناء سردنا لأسباب اندثار مذهبه، إلاّ أنّ بعضا منها ذكر في كتب الطبقات وأهم آثاره ما يلي:

- كتاب السنن في الفقه وكتاب المسائل كذلك في الفقه[1]، وهي فتاوى يقدر ما سئل عنه بسبعين ألف مسألة أجاب عنها كلّها[2].

- وصنف كتابا في السير في علاقة المسلمين بغير المسلمين زمن الحرب إذ يعتـبر الإمام أبو حنيفة أقدم من ألف في السير وأملاه " كتابه في السير" على تلامذته فرووا عنه وهذبوه حتى نسب إليهم نحو كتاب السير الصغير للإمام محمد بن الحسن[3]، وقيل لما وقع السير الصغير في يد الأوزاعي نظر فيه وقال: لمن هذا الكتاب؟ فقيل له: لمحمد العراقي قال الأوزاعي: ما لأهل العراق والتصنيف في هذا الباب، فإنهم لا علم لهم بـسير ومغـازي الرسول ρ وأصحابه كانوا من جانب الشام والحجاز دون العراق، فصنف الأوزاعي كتابا في السير ردا على ذلك، فأثار محمد بن الحسن فألف كتابه المعروف بكتاب السير الكبير، وألف أبو يوسف كتابا في الرد على سير الأوزاعي، وكتاب أبو يوسف نـادر جـدا لا توجد نسخة منه إلاّ واحدة في الهند[4].

---

(1) ابن نديم : المصدر السابق ،ص284.

(2) الزركلي: المصدر السابق ،ج4 ،ص93 ،ويمكن القول أنه لو وصلنا هذا الكتاب في الفقه لعرفنا منهج الأوزاعي الفقهي دون تحليل لآرائه الموجودة في الكتب الأخرى لعلماء آخرين، إلاّ أنّ الزمن فعل فعلته.

(3) محمد بن الحسن: 131-189هـ/ 748-804م: صاحب أبي حنيفة سمع منه ونشأ في الكوة وانتقل إلى بغداد، تولى القضاء أيام الرشيد، مات في الري في رحلة إلى خرسان مع الرشيد له الجامع الكبي والصغير والمبسوط والزيارات والآثار والسير والموطأ وغيرها انظر(شعبان محمد إسماعيل: أصول الفقه تاريخه ورجاله ، ص 56).وانظر الملحق رقم03 ففيه نماذج من هذه الردود .

(4) أبو يوسف الأنصاري: المصدر السابق، ص2.

وقد روى ذلك الإمام الشافعي في كتاب الأم وعقب على كل مـسألة برأيـه، فكان ينتصر للأوزاعي وأكثر الإجابات عمد ا السنة[1].

- كما أنّ هناك بعض الرسائل كتبها الإمام الأوزاعي إلى وزراء وخلفـاء وولاة تتضمن هذه الرسائل آراءه الفقهية، وبعض القضايا، منها توسطاته لأهل بلده[2].

- ومن أوسع ما كتب في موضوع فقه الأوزاعي رسالة صـغيرة هـي محاسـن المساعي في مناقف الإمام أبي عمرو الأوزاعي وهي لابن عباس أحمد بن محمد بن أبي بكر بن يزيد الحنبلي المتوفى في 870هـ/1465[3].

- وكتاب آخر بعنوان مقـام الأوزاعـي عنـد الملـوك، في كتـاب مكـارم الأخلاق،لمؤلف مجهول في القرن الرابع الهجري وهو موجود في البنغال[4].

- كما كانت للإمام الأوزاعي دار ببيروت يدرس فيها الفقه ويأتيه الطلبة فكانت بحق مدرسة وزاوية وأثناء الحروب الصليبية دمرت كلّ المساجد والزوايا ببيروت، إلاّ هذا البيت ربما نظرا لوساطته لنصارى جبل لبنان، ووفاء لحرمة الأوزاعي الذي كان يشفع لهم لدى الحاكم صالح بن علي العباسي[5]، إلاّ أنّ المكان دمر أثناء الحملة الفرنسية إليها وأقيم فيه حوانيت ولم يبق سوى غرفة كبيرة بنيت مؤخرا فوق حوانيت يصعد إليهـا بالـسلم للصلاة كتب عليها اسم جامع الأوزاعي[6].

---

(1) الخضري بك: المرجع السابق ، ص229.

(2) وهي موجودة في الكتب مثل الرازي الجرح والتعديل ج2 وقد جمعها فؤاد سزكين في تاريخ التراث العربي ا لمد الأول الجزء الثالث، كما مضى بعضها أثناء ذكرنا لمواقفه وآرائه،(فؤاد سزكين: تاريخ التراث العربي، السعودية ،ط1983، مج1، ج3 ،ص 244 وما بعدها).

(3) وهي نسخة موجودة ببرلين 25 ورقة ونشرها شكيب أرسلان في سنة 1352هـ/1933م.

(4) فؤاد سزكين: المرجع السابق، مج1، ج3 ،ص245.

(5) هو الجامع الوحيد في بيروت الذي تجاوزته أحقاد الصليبيين وتركوه على حاله، فمن حسن الحظ أنّ وحدة العقيدة الدينية بين نصارى لبنان والفرنجة جعلت المسجد يبقى آثارا خالدة. انظر(طه متولي: تاريخ المساجد والجوامع الشريفة، ببيروت، مجلة الفكر الإسلامية ،بيروت ،السنة الأولى، العدد11رجب 1390 أيلول 1970 ،ص 90).

(6) صبحي المحمصاني: الأوزاعي،ص25.

- وتوجد آراؤه وفتاويه في كتب الطبقات والتراجم واختلاف الفقهـاء والفقـه المقارن وكتب الحديث...

انتشار مذهبه:

كان الأوزاعي إماما فذّا عارفا بالحديث وله مواقف وآثار كثيرة، نبغ في حفظ الحديث ،وفرض فتواه على الناس لما تحمل من قوة طرح ومصدر استنباط ورجحان عقل، فكان لابد أن يحوز المكانة التي وصل إليها ابتداء من منطقته التي ترعرع فيها ونبغ ثم إلى المناطق الأخرى التي سار إليها تلامذته وأخذت فتواه إليها.

ذاع صيت الأوزاعي وانتشر فكره واعترف له العلماء بالفضل في الفتيا والعلم، مما جعل الإمام الشافعي يقدمه على الإمام مالك، كذلك من خلال رد الأحناف على سيره، فقد وصلهم فقهه واعتبروه، وذلك ما يظهر من خلال ردهم عليه.

إنّ الأوزاعي كان إمام أهل الشام بإجماع المؤرخين، وقد لبث أهـل الـشام إلى أواسط القرن الرابع الهجري (العاشر ميلادي) يعملون بمذهبه[1]، فكان لا يلي القضاء ولا الخطابة بجامع بني أمية إلاّ من كان على مذهب الأوزاعي[2]،وكان آخر من عمل بمذهب الأوزاعي القاضي أحمد بن سليمان بن حذلم المتوفى سنة 347هـ/958م[3].

ويروى أنّ مذهبه بقي منتشرا في بلاد الشام، ولم يقض عليه إلاّ بعد أن تطور مذهب الإمام الشافعي وانتشر في العراق والحجاز ومصر ووصل إلى الشام، وصار قضاء الـشام شافعيا، وتولى أبو زرعة محمد بن عثمان[4] وهو من أتباع الشافعي فعمل على نشره.

---

(1) النووي: تهذيب الأسماء واللغات، قسم1،ج1 ،ص198؛ شكيب أرسلان: المصدر السابق،ص20، أي أنّ مذهبه بقي نحوا من مائتين وعشرين سنة إلى أن غلب المذهب الشافعي أي إلى غاية 347هـ/958 م.

(2) المحمصاني:الأوزاعي، ص40.

(3) الشعار: المرجع السابق، ص8.

(4) محمد بن عثمان أبو زرعة بن ابراهيم بن زرعة الثقافي مولاهم أبو زرعة قاضي دمشق ، كانت داره بنواحي دار البريد ،وولي قضاء مصر سنة 284 هـ/897م ،ولم يل بعده قضاء مصر ولاالشام إلا شافعي المذهب غير أن ابن حذلم قاضي الشام كان على المذهب الأوزاعي ثم لم يزل الأمر للشافعية في مصر والشام ،توفي بدمشق سنة 302 هـ/914م (السبكي :طبقات الشافعية ،مطبعة البابي الحلبي ، ط1، 1965 ،ج3، ص196).

وأنّ هذا القاضي الشافعي عمل على نشره " وكان يهب لمن يحفظ مختصر المـزني[1]، مائة دينار، وكثرت الدعوة للمذهب الشافعي فانقرض مذهب الأوزاعي هناك بالشام[2].

كما انتشر المذهب الأوزاعي في أماكن أخرى أهمها بلاد المغـرب والأنـدلس إذ دخل المسلمون بلاد الأندلس فاتحين أيام موسى بن نصير[3]، وكان معه نفر من الصحابة والتابعين،وبدخول الإسلام إليها بدأت العلوم الإسلامية وصار روادها هؤلاء الفـاتحين، وقد كان أهل الأندلس يفخرون بؤلاء الصحابة والتابعين ومنهم حـنش الـصنعاني[4]، وعلي بن رباح[5]، والمنيدر الإفريقي[5].

دخل المسلمون الأندلس وكانوا متأثرين بالفقهاء هنا وهناك،وكانت هذه المنطقة مفتوحة على كل الاتجاهات باعتبار أنها بلاد جديدة لم تستقر بعد وأنها منطقة ثغور،وأنّ سبب دخول مذهب الأوزاعي إلى الأندلس كان دخول الأمويين إليها: أي أنّ المـذهب" دخل في أعقاب الأمويين الذين ذهبوا إليها من الشام بعد ذهاب دولتهم"[6].

---

[1] المزني: 175هـ -264هـ / 791م-978م: هو إسماعيل بن يحي بن إسماعيل أبو إبراهيم المزني، صاحب الإمام الشافعي، من أهل مصر، قال عنه الشافعي: لو ناظر الشيطان لغلبه من مؤلفاته: المختصر، الجامع الكبير، والجامع الصغير، توفي في مصر، انظر(شعبان محمد إسماعيل :المرجع السابق، ص89).

[2] مصطفى شلبي: المدخل ،ص206 ؛موسوعة عبد الناصر للفقه، ج1 ،ص34.

[3] موسى بن نصير: اختلف في نسبه اختلافا شديدا بين بكر بن وائل من عرب الشمال، وقول أنه من اليمن، وأنه من طبقة التابعين كان أبوه قائدا خاصا لمعاوية في الشام. كان معاديا للأمويين ومشايعا لابن الزبير. كان موسى بن نصير يفتح الأندلس تدريجيا وقد بدأت حملاته التمهيدية لفتح الأندلس ابتداء من طنجة سنة 91هـ وكان أن ندب مولاه طارق بن زياد فانتصر في سنة 92هـ / م انظر(موسى لقبال: المرجع السابق ،ص82 وما بعدها لعدة صفحا)..

[4] حنش الصنعاني: كان والي إفريقية وبلاد المغرب، وتوفي بإفريقية غازيا، وله روايات كثيرة عن الصحابة انظر(ابن كثير: المصدر السابق ،ج9 ،ص187).

[5] علي بن رباح اللخمي: وأما أهل مصر فيقولون علي بن رباح اللخمي، كان ثقة معروفا عند أهل العراق ومصر، روى عن عمرو بن العاص وغيره،(ابن سعد: المصدر السابق ،ج7 ،ص 354).

[6]لمنيدر الإفريقي: يقال أنه صحب الرسول صلى الله عليه وسلم دخل الأندلس مع التابعين انظر (المشيني: المرجع السابق ،ص39).يقول أحمد أمين :بدأت العلوم الدينية بالأندلس بانتقال الصحابة والتابعين إليها،فحينما هم موسى بن نصير بغزوها كان معه هؤلاء ونذكر منهم المنيذر أو المنذر على اختلاف فيه وهو صجابي دخلها مع التابعين (أحمد أمين :ظهر الإسلام ،دار الكتاب العربي ،بيروت،ط5،ج3،ص48)

[7]الخضري بك: المرجع السابق، ص 212.

ويذكر أنّ انتقال المذهب إلى الأندلس كان بمجيء صعصعة بن سلام الدمشقي[1] الذي انتقل من دمشق إلى قرطبة[2]، وتقلد منصب الإفتاء فيها وبقي هذا المذهب غالبـا فيها أربعين سنة ساد خلالها الفتيا والقضاء حتى اية القرن الثاني للهجرة وذلـك زمـن الأمير الأموي الثالث الحكم بن هشام[3] حيث غلب مذهب الإمام مالك[4]. أي أنه ساد الأندلس منذ زمن الأمير الأمـوي الأول عبـد الـرحمن بـن معاويـة بـن هـشام (172.113هـ/788.731م) إلى زمن ثالث أمرائهم الحكم بن هشام (180-206 هـ/796 -822 م)[5].

وقد انقرض مذهب الأوزاعي بالأندلس بعد دخول مذهب الإمام مالك إليهـا، وكان أول من ادخله – مذهب مالك – إلى الأندلس زياد بن عبـد الـرحمن اللخمـي المعروف بشبطون المتوفى سنة (193 هـ/808م)، وذلك بأنّ جلب لها موطأ مالك ثم تلاه يحي بن يحي[6]، وهكذا انتشر علم مالك بنصرة الأمـير في قرطبـة وسـائر بـلاد الأندلس[7].

---

(1) صعصعة الدمشقي: هو صعصعة بن سلام الشامي يكنى أبا عبد الله، روى عن الأوزاعي كانت الفتيا دائرة عليه أيام عبد الرحمن بن معاوية، وأيام هشام بن عبد الرحمن روى عنه عبد الملك بن حبيب توفي سنة 192هـ/807م.، انظر(ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري ،دار الكتاب اللبناني ،بيروت ،ط2، 1989، ج1 ،ص354.

(2) قرطبة: هي في اللغة العدو الشديد، وفي الاصطلاح هي من أعظم بلاد الأندلس وليس في المغرب شبيه لها في كثرة الأهل وسعة الرقعة ويقال إنها كإحدى جانبي بغداد وهي حصينة بسور من حجارة، (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص 324).

(3) الحكم بن هشام: ولي الحكم في صفر سنة 180هـ/ 796م وتوفي في ذي الحجة 206هـ/821م وكان مولده سنة 154هـ/770م لبث في الخلافة 26 سنة وعشرة أشهر وثمانية عشر يوما بلغ من السن عند وفاته 52 سنة ،(ابن الفرضي: نفس المصدر ، ج1، ص28).

(4) شكيب: المصدر السابق ،ص21 ؛المشيني :المرجع السابق، ص54؛ اسماعيل سامعي: دور المذهب الحنفي ببلاد المغرب، رسالة ماجيستير، جامعة الجزائر قسم التاريخ، ص240 .

(5) المحمصاني صبحي: الأوزاعي ،ص41.

(6) يحي بن يحي الليثي: يحي بن يحي بن كثير سمع من زياد بن عبد الرحمن " الموطأ" ومن يحي بن مضر، رحل إلى المشرق وهو ابن 28 سنة سمع من مالك بن أنس ومصر من الليث بن سعد، وعبد الله بن وهب وغيرهما، عاد إلى الأندلس وصار يفتي بمذهب مالك، ترك القنوت لرأي الليث، ورحل رحلة ثانية إلى المشرق فوجد مالكا عليلا، واختلف في وفاته بين 847/233م أو 848/234م، انظر(ابن الفرضي: نفس المصدر ، ج2 ،ص900).

(7) المحمصاني: نفس المرجع ، ص41.

والسبب الحقيقي لانتشار مذهب مالك على حساب الأوزاعي أنّ رجـالا مـن المغرب كانوا يريدون الحج، ويرغبون في عالم المدينة وإمامها مالك وذلك قبل وفاة الإمام مالك، ومنهم عبد الله بن فروخ[1] ت172هـ/ 788م، وأسد بن الفرات[2] المتوفى في حصار صقلية شهيدا 213هـ ـ/828م، ويحـي بـن يحـي الليثـي المتـوفى سـنة 234هـ/835م وعبد السلام بن سعيد المعروف بسحنون[3] المتوفى 238هـ/852م، وعيسى بـن دينـار القـرطبي[4] ت220هـ ـ/835م، وشـبطون المتـوفى سـنة 193هـ/808م[5]، وعندها أخذوا موطأه وعرفوا آراءه واستبشروا به عندما رجعوا إلى المغرب والأندلس، وزينوه للأمراء الأمويين فساد مذهب مالك[6].

---

(1) عبد الله بن فروخ هو أبو محد الفارسي فقيه القيروان الإمام المحدث الفقيه الأمين رحل إلى المشرق ولقي أعلاما كالأعمش والثوري ومالك وأبا حنيفة. وكان اعتماده في الفقه على مذهب مالك، رجع إلى قيروان، وكان يكاتب مالكا فيجيبه، تولى قضاء قيوان مكرها، سمع منه يحي بن سلام وحبيب أخو سحنون رحل إلى المشرق ثانية وتوفي بمصر سنة 172هـ/788م، كان مولده سنة 110هـ/728م، (محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1349هـ، ص 60).

(2) أسد بن الفرات: هو أبو عبد الله أسد بن الفرات أصله من نيسابور قدم مع أبيه إلى تونس، رحل إلى المشرق وسمع مالكا ثم إلى العراق وإلى مصر، كان على مذهب أهل العراق ثم عاد إلى المدينة ثم صار مالكيا، تولى قضاء القيروان سنة 204هـ/819م مولده سنة 762/145، وتوفي محاصرا لسرقوسة في غزو صقلية سنة 213هـ/828م.(محمد بن محمد مخلوف: نفس المصدر ، ص62).

(3) سحنون: أبو سعيد عبد السلام بن سعيد بن حبيب التنوخي القيرواني أصله من حمص أخذ عن أئمة من أهل المشرق والمغرب، وكانت رحلته إلى المشرق سنة 188هـ/ 803م وأخذ عنه كثيرون ولد سنة 160هـ/776 تولى القضاء أيام محمد بن الأغلب سنة 234هـ/848م ومات وهو قاض سنة 240هـ/854م(محمد بن محمد مخلوف: نفس المصدر ،ص69).

(4) عيسى بن دينار القرطبي بن وافد الغافقي أصله من طليطلة وسكن قرطبة يكنى أبا عبد الله سمع من ابن القاسم وصحبه ثم انصرف إلى الأندلس فكانت الفتيا تدور عليه، كان أفقه من يحي بن يحي، ا م فاستخفى ثم أمنه الحكم بن هشام فرجع، كان عابدا فاضلا وربما مجاب الدعوة، توفي سنة 220هـ/835م بطليطلة ،(ابن الفرضي: المصدر السابق ،ج2 ،ص556).

(5) شبطون هو زياد بن عبد الرحمن للخمي القرطبي أدخل الموطأ الأندلس بالسماع أنظر (محمد بن محمد مخلوف :نفس المصدر ، ص63).

(6) عبد الرحمن الجيلالي :كيف رسخ المذهب المالكي بالمغرب ،مجلة الموافقات ،جامعة قسنطينة ،العدد 3،ذو الحجة 1414 هـ،جوان 1994 م ،ص 229 .

ويعزى هذا الانتقال من المذهب الأوزاعي إلى المالكي في الأندلس حسب رأي ابن خلدون إلى البداوة التي كانت تغلب على أهل الأندلس إذ لم يكونوا يعانون الحضارة التي كانت بالعراق فكانوا إلى أهل الحجاز أقرب من أهل العراق، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضا عندهم، ولم يأخذه عندهم تنقيح الحضارة و تهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب، ولسان حالهم يقول لا نعرف إلاّ كتاب الله وموطأ الإمام مالك، فإن ظهروا على حنفي أو شافعي نفوه وإن عثروا على معتزلي أو شيعي قتلوه[1].

كما يرجع آخرون أنّ السبب هو ذلك الصراع الذي كان قائما بين العباسيين في المشرق وكان مذهبهم الحنفي، والأمويين في الأندلس وكان مذهبهم الأثر، وبذلك مذهب الإمام مالك حيث مال الأمويون بالأندلس لمذهب مالك لتجنب المذهب الحنفي[2].

وحسب القول الأخير نرى بأنّ الأوزاعي ومالك تشابهت مصادر استنباطهما في ميلهما إلى الحديث، فكانت دولة العباسيين تعتمد الرأي والأمويين تعتمد الأثر.

إلاّ أننا لا نأخذ بهذا الرأي في دراستنا لصراع المذاهب بالمغرب لسبب بسيط هو أنّ أهل المغرب عامة يعتزون بالعلم والعلماء، ولكن إذا ظهر فيهم عالم المدينة والحجاز وهي ديار النبوة ومهبط الرسالة فإنهم لا يتمالكون أشجانهم، ويميلون كل الميل بل ويتطرفون في الأخذ بالمذهب ذاك لأنّ مصدره محضن الرسول ρ.

ومثال ذلك نجدهم يحتضنون دولة الأدارسة بالمغرب وفي نفس الوقت يؤسس الأغالبة دولتهم بتونس ويقيم الشيعة أسس دولتهم بالمغرب الأوسط، ولا يزال إلى يومنا مذهب مالك لا ينافسه مذهب وتصوفهم لا يجاريه أحد، فهم بالسنة متمسكون وبالرسول مقتدون ولجميع خارج عن هذا محاربون.

وهكذا فقد اندثر المذهب الأوزاعي بالمغرب والأندلس بالأخص واندرس بوفاة العارفين به واحتراق كتبه ورغبة الحكام في اعتماد مذاهب أخرى، وتحول تلاميذ من مذهبه

---

(1) ابن خلدون : المقدمة ، دار الفكر ،ط 2003،بيروت، ص429 ؛المشيني :المرجع السابق ،ص57.

(2) حسن إبراهيم حسن:المرجع السابق ، ص272.

طلبا للعلم عند أئمة آخرين كانوا لا يزالون على قيد الحياة[1]، وكذلك نظرا للصراع الدائم البريء بين الأفكار، وهو صراع لا ينتهي إلاّ بانتصار فكرة وزوال الأخرى.

وفاته:

بعد عطاء كبير تميز به الأوزاعي يظهر لنا في ما ترك من الآثار التي لم يـصل منـها إلاّ اليسير، توفي الأوزاعي إمام أهل الشام الذي انتشر فقهه وعلمه إلى أمصار كثيرة منها المغـرب والأندلس.

ولقد تضاربت الأقوال حول وفاته إلى روايتين:

فتذهب الأولى إلى أنه ذهب إلى الحمام وفي أثناء اغتساله ذهب صاحب الحمام لقضاء حاجة وأغلق الباب، ولم يكن للحمام جار فمات في الحمام[2].

والثانية تروي أنه دخل الحمام في بيته، وأدخلت معه زوجته كانونا فيه فحم ليدفأ به ثم أغلقت عليه وتشاغلت فهاج الفحم فمات، فوجدوه متوسدا ذراعيه إلى القبلة رحمـه الله ولم تكن زوجته عامدة، فأمروها أن تعتق رقبة[3].

ونجد الذهبي يورد الروايتين[4]، ولكن مهما تعددت الأسباب فالموت واحد وأنّ الله قد قضى بوفاته في الحمام وأنه توفي فيه وحيدا بِسُمّ الفحم وضيق التنفس وتلـك هـي الآجـال تنقضي وتبقى آثار الرجال.

وقد توفي الإمام الأوزاعي ببيروت في صفر 157هـ/774م في آخر خلافـة أبي جعفر المنصور وهو ابن سبعين سنة[5].

---

(1) الشعار: المرجع السابق ،ص8.كما أن منطقة الشام لم تكن مستقرة ،حيث كانت طرابلس طوال العصر الأموي أحد ثغور الشام الحصينة إحتياطا من أي غزو صليبي ،ثم جاء الحكم العباسي ،والطلوني في 264 هـ/877م واستولى عليه الفاطميون سنة 361 هـ/971م كما تعرضت المنطقة لغارات بحرية قام با البيزنطيون ففي 358 هـ/969م غزا الروم الساحل السوري ،واكتسحوا نواحي طرابلس وأعادوا الكرة سنة 361هـ/971مو بوا بيروت وغيرها وهكذا إلى أن سقطت في أيدي الصليبيين للمزيد من الإطلاع ارجع إلى (عبد العزيز سالم :بحوث إسلامية ،دار الغرب الإسلامي ،بيروت ،ط1، 1991 ،ص229)

(2) المزي: المصدر السابق ،ج17 ،ص315 ؛ الشعراني :المصدر السابق ،ص46.45.

(3) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج1، ص182 ؛ابن كثير:المصدر السابق ، ج10 ،ص120.

(4) الذهبي :سير أعلام النبلاء ،ج7، ص127.

(5) ابن سعد: المصدر السابق ،ص 339 ؛ الطبري :المنتخب من كتاب الذيل المذيل، ج8 ،ص140.

ويذكر أنه لما سمعت الصيحة بوفاته عم الأسى جميع الأهالي من مسلمين ونصارى ويهود، وقد روي أنّ بعض النصارى شوهدوا يذرون الرماد على رؤوسهم اعترافا بفضله وحزنا عليه، وشيعه الألوف من النصارى[1].

وذكرت رواية بأنّ رجلا سأل سفيان الثوري عن تفسير رؤيا رآها كأنّ ريحانة قلعت من الشام فذهب بها إلى السماء، فقال سفيان إن صدقت رؤياك فقد مات الأوزاعي، قيل فجاء نعي الأوزاعي في ذلك اليوم[2].

مات الأوزاعي ودفن في قرية حنتوش على الساحل الجنوبي من بيروت تعرف الآن بمحلة الأوزاعي، ولا يزال مقامه ومسجده إلى اليوم مزارا يتبرك الناس بها[3].

وقد رثاه الكثيرون بشعر منه:

جاد الحيا بالشام كل عشية — قبرا تضمن لحده الأوزاعي

قبر تضمن فيه طود شريعة — سقيا له من عالم نفاع

عرضت له الدنيا فأعرض مقلعا - عنها بزهد أيما إقلاع[4]

---

(1) المحمصاني: الأوزاعي ،ص27.

(2) الرازي: المصدر السابق ،ج ، ص210.

(3) ابن الوردي: تتمة مختصر أخبار البشر، دار المعرفة، بيروت، ط1 ، 1970، ج1 ،ص229.

(4) اليافعي: المصدر السابق ،ج1 ،ص333.والأبيات كما رواها ابن عماد هي :

جاد الحيا بالشام كل عشية — قبرا تضمن لحده الأوزاعي

قبر تضمن طود كل شريعة — سقيا له من عالم نفاع

عرضت له الدنيا فأقلع معرضا — عنها بزهد أيما إقلاع

ابن عماد :المصدر السابق ،ج1 ،ص241 .

كان الإمام الأوزاعي إمام أهل الشام حيث ترعرع ببيروت و ذاع صيته في الشام كله، كما وصلت آراؤه و فتاويه إلى أرجاء الخلافة.

و لقد استفاد الإمام الأوزاعي من عدة عوامل عملت على إظهار شخصيته العلمية كوجود عاصمة الخلافة الأموية بالشام قبل انتقالها إلى العراق. و كذلك تقريب الـولاة و الخلفاء له و الاعتبار بفكره و الأخذ بآرائه. ثم إن رحلاته منذ صغره و تعلمـه علـى التابعين و الالتقاء ببعضهم أثر في علم الأوزاعي.

لقد ظهر فقهه في مناقشته للأحناف و أثناء ردهم عليه في موضوع السير. و كانت الغلبة في صفه و هو ما أدى بالإمام الشافعي إلى الانتصار له و الأخذ بآرائه.

كما برز لنا فقه الأوزاعي في تعامله مع السلطان، و مع أهل الذمة و كذلك مـع الفرق الدينية.

و في أثناء ذلك ظهرت طرق استنباطه التي اعتمدت الكتاب و السنة. و لم يهمـل الاجتهاد بالرأي وفق ضوابط شرعية متينة.

و نخلص إلى أن فقه الأوزاعي الذي يجتهد اليوم العديد من الناس في بعثه لم يكـن أقل تأثيرًا من فقه المذاهب الأربعة، بل نافسهم و غلبهم و لكن عوامل كـثيرة جعلتـه ينقرض و يزول.

الفصل الثالث

مذهب سفيان بن سعيد الثوري

الفقيه الزاهد

97-162هـ /716- 777م

المبحث الأول: حياته

المبحث الثاني: آراؤه و مواقفه

المبحث الثالث: فقهه و منهجه

المبحث الرابع: آثارهو انتشار مذهبه

المبحث الأول

حياته

نسبه و مولده: إنه سفيان الثوري بن سعيد بن مسروق بن حبيب بن رافع بن عبد الله بن موهبة بن أبي بن عبد الله بن منقذ بن نصر بن الحارث بن ثعلبة بن عامر بن ملكان بن ثور بن عبد مناه بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، ويكنى أبا عبد الله[1] وأصله من ثور[2]، ولد بالكوفة سنة 97هـ/716م و فيها نشأ و عاش أربعا وستين سنة[3]، ولد ومالك بن أنس في خلافة سليمان بن عبد الملك[4] (96 -99هـ/715-717م). وقد عاصر هذا الإمام العهدين الأموي والعباسي، فصغره وتعلمه كان في العهد الأموي وتعليمه ومواقفه ومعارضته في العهد العباسي، و قد قال عنه الذهبي أنه كان رأسا في الزهد والخوف، رأسا في معرفة الآثار و رأسا في الفقه لا يخاف في الله لومة لائم، من أئمة الدين، واغتفر له غير مسألة اجتهد فيها، وفيه تشيع يسير[5].

نشأته و رحلاته: عاش الإمام الثوري في حضن عائلة محبة للعلم مهتمة به، ولذلك فقدكان أكثر حبا للعلم. فأمه سيدة صالحة تقدر العلم حق قدره، وهي تتشوق إلى أن

---

(1) ابن سعد: الطبقات الكبرى، ج6، ص350 ؛ الطبري: المنتخب من الذيل المذيل، المكتبة التجارية مصر، ط1939، ج8، ص141، ابن خلكان: وفيات الأعيان، دار الثقافة، بيروت، ج2، ص386، النووي: المصدر السابق، قسم1،ج1، ص292، ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج4، ص111، الزركلي: المصدر السابق، ج3، ص158.

(2) ثور اسم جبل بمكة فيه الغار الذي اختفى فيه النبي صلى الله عليه وسلم يقال له أطحل، وثور هو أطحل وهو ثور بن عبد مناه بن أد بن طابخة، ولد ثور بهذا الجبل فسمي الجبل ثور، بمعنى أنّ الجبل ينسب إلى شخص (انظر ياقوت: المصدر السابق، ج2، ص86).

(3) ابن نديم: الفهرست، تحقيق رضا المازندراني، دار المسيرة، ط1986 ص282، الداودي: طبقات المفسرين، مكتبة وهبة، مصر، ط1، 1972، ج1، ص189 وفي مولده اختلاف بين95وقيل96 هـ و قيل97 هـ / 715 م. (انظر ابن خلكان: نفس المصدر، ج2، ص390؛ الشيرازي: المصدر السابق، ص84).

(4) إسماعيل البخاري: التاريخ الكبير، دار الكتب العلمية، بيروت، ج4، ص92.

(5) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص241.

يكون ابنها أحد العلماء الذين يقودون عصرهم ويضيئون زمانهم بالعلم[1]. كانت سيدة تقية ذات عقل ودين، إذ تنصح ابنها فتقول: " يا بني اطلب العلم وأنا أمولك بمغزلي، وإذا كتبت عشرة أحرف، فانظر هل ترى في نفسك زيادة في الخير، فإن لم تزد، فلا تتعبن نفسك"[2].

ومن خلال هذه النصيحة القيمة نستنتج أحكاما، أبرزها مدى حرص الأولين آنذاك على حث أبنائهم للتفقه في الدين وبذل الجهد في العلم، وأنّ الثوري كان في محضن دافئ بنور العلم وكنف الرعاية السليمة، كما يظهر أنّ الأسرة كانت تحت رعاية الأم التي تعولها لفقدان الأب، وأنّ هذه الأسرة لم تكن ميسورة الحال، وذلك ما يظهر من خلال كلمتها أعولك بمغزلي، ومع ذلك لم ترد الأم لولدها التوجه نحو المال والجاه ولكن نحو العلم والعبادة، لأنّ شرفاء العصر كانوا يتميزون بغزارة العلم، وسلطانهم كان أقوى من سلطان المال والحكم، وهذا ما يجب أن يكون.

أما والده فقد كان محدثا، وهو سعيد بن مسروق الثوري من أصحاب الشعبي[3]، وخيثمة[4] بن عبد الرحمن من ثقات الكوفيين، وعداده في صغار التابعين روى له الجماعة الستة[*] في دواوينهم وحدث عنه أولاده سفيان الإمام وعمر ومبارك وآخرون كثيرون[5].

أما جده فهو مسروق بن حبيب بن رافع كان من أصحاب علي بن أبي طالب رضي الله عنهما وقد كان في صفّه وشهد وقعة الجمل[6] معه[7].

---

[1] عبد المنعم قنديل: المرجع السابق، ص396.

[2] عبد الحليم محمود: أقطاب التصوف، دار المعارف، مصر، ط 1976، ص14.

[3] الشعبي: هو أبو عمرو عامر بن شراحيل الهمداني الكوفي، من شعب همدان، ولد في أثناء خلافة عمر بن الخطاب كان إماما حافظا فقيها، روى عن علي، وعمران بن حصين، وجرير بن عبد الله، وأبي هريرة وعائشة وابن عباس وابن عمر، وروى عنه الأعمش وأبي حنيفة وهو علامة التابعين (انظر: الذهبي: التذكرة،ج1، ص79 وما بعدها).

[4] خيثمة بن عبد الرحمن بن أبي سبرة واسمه يزيد بن مالك بن عبد الله بن الذؤيب بن سلمة بن عمر بن ذهل بن مران بن جعفر بن سعد العيشرة من مذحج. روى عن ابن عمر سماعا وأدرك ثلاثة عشر رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم،(ابن سعد: المصدر السابق، ج6، ص293).

[*] المحدثون الستة هم مسلم و بخاري و النسائي و ابن ماجة و الترمذي و أبو داود.

[5] أحمد فريد: المرجع السابق، ج1، ص281.

[6] وقعة الجمل: وقعت في صفر 37هـ /657م، وهي وقعة بين معاوية بن أبي سفيان الذي رفض المبايعة لعلي بن أبي طالب، حيث ألّب أهل الشام في المطالبة بدم عثمان وقد استعان بعمرو بن العاص، وانتهت المعركة برفع المصاحف فوق الرماح والدعوة إلى كتاب الله حكما بينهما، وقعت صفين قرب الفرات شرق بلاد الشام(عصام محمد شبارو: الدولة العربية الإسلامية الأولى، دار النهضة العربية، بيروت ط3، 1995، ص 359).

[7] الذهبي :سير أعلام النبلاء، ج6، ص242.

وعلى هذا فإنّ سفيان سيتأثر في توجهه السياسي ويذهب إلى أن يعارض سياسة بني أمية ولكن معارضته تبرز أكثر في عهد بني العباس.

ولم يكن الثوري الوحيد الذي سار في درب العلم في هذه الأسرة، بل كان له أخوة ترعرعوا مثله على حب العلم وقد دفعتهم الأم إلى هذا المسلك، فعمر بن سعيد كان من العلماء الرواة للحديث وقد روى له مسلم وغيره، وترجم له في تهذيب التهذيب وغيره، والمبارك بن سعيد كان لغويا وتتلمذ على الأصمعي[1] ومن رواة الحديث أيضا روى له الترمذي وأبو داود والنسائي. وكانت له معرفة بأحوال أخيه عندما كان مختفيا وتوفي المبارك سنة 180هـ/796م كما كانت له أخت أيضا تحبه[2].

تزوج سفيان الثوري في الكوفة بامرأة ولدت له جميع أولاده، كما تزوج مرات أخرى إلاّ أنه لم ينجب إلاّ من الأولى، ولكن أولاده توفوا قبله وهم صغار[3]

كما كانت لسفيان عدة رحلات لعدة أغراض، فكان يسافر إلى اليمن للتجارة ويخرج إلى مكة للحج، ويفر منها إلى البصرة هروبا من السلطان[4]. وعموما فإنّ ما بين مولده بالكوفة ونشأته بها إلى اختفائه بالبصرة ووفاته بها، كانت له عدة أسفار حقق منها عدة غايات:

الأولى: هي تحقيقه لغاية عائلية بالقيام على شؤون الأسرة، وذلك " حينما سافر إلى خرسان لأخذ نصيبه من ميراث عمه الذي توفي في[5] بخارى[6] .

---

(1) الأصمعي عبد الملك بن قُريب بن أصمع بن مظهر أبو سعيد الباهلي إمام في النحو واللغة والأشعار والأخبار والملح. كان متحرزا في التفسير، مات سنة 210هـ/825 وقد اختلف في وفاته لكن مولده كان سنة 125هـ/742م (الفيروز آبادي: البلغة في تاريخ أئمة اللغة، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ط1972 ص129).

(2) محمد رواس قلعه جي: موسوعة فقه سفيان الثوري، دار النفائس، بيروت، ط1، 1410هـ/1990م، ص8.

(3) نفسه ،ص10.

(4) البخاري: المصدر السابق، ج4، ص92؛ وانظر أيضا في قصة رحلاته ابن سعد: المصدر السابق، ج6، ص35 وما بعدها.

(5) قلعه جي :نفسه، ص13.

(6) بخارى: من أعظم مدن ما وراء النهر وأجلها ُيعبر إليها من آمل الشط كانت قاعدة ملك السامانية هي مدينة قديمة كثيرة البساتين، وليس بما وراء النهر وخرسان بلدة، أهلها أحسن قياما بالعمارة على ضياعهم من أهل بخارى. وهي قرب جيحون العابر إلى سمرقند وخوارزم ببلحظها وهي بخراسان انظر (ياقوت: المصدر السابق، ج1، ص353 وما بعدها).

وهذه الرحلة كانت في صغره، وأثناء ذلك كان يمر بالقرى والحواضر ويرى ما فيها من تطور وعلوم ويستقر في بعضها ويستمتع بجمالها وبراعة علمائها، فتكونت لديه هواية التجوال ونزع عن نفسه هيبة السفر.

الثانية: وهي البحث عن الفقه والحديث والعلم عامة، إذ أنّ ميزة ذلك العصر السفر طلبا للعلم بعد أخذ علم المنطقة التي يترعرع فيها التلميذ، ثم تفتح أمامه آفاق أخرى ينطلق إليها ويجلب منها العلم، ويرتشف الأخبار والآثار، وكثيرا ما تكون هذه الرحلات بدافع من الشيوخ، ولذلك نجده سير نحو الحجاز وما جاورها في رحلات لا تحصى.

الثالثة: أنه كان ذا تجارة يمارسها، ويعمل على قوت نفسه وعياله خصوصا حينما صار شابا يافعا، ولعل مهنة التجارة، جلبت له أمرين، أولهما: الابتعاد عن عطايا الملوك حتى لا يقع في شراكهم كما يقول، والثاني أن التجارة تقتضي التجوال والسياحة، وبذلك يتحقق له التعرف على العلم والعلماء،والأخذ والعطاء، والترويح عن النفس، ومعرفة طباع الناس والاحتكاك با تمعات، ومعرفة ثقافا م.

ثمّ إنها (التجارة) قبل كل شيء مهنة الرسول ρ فأراد سفيان الاقتداء به.

والرابعة: أنه كان يحج وبذلك يحقق هدف العبادة، والحج مجمع العلماء من كل حدب وصوب يلتقون عنده وتثار المسائل، فيزداد العلماء علما، وتخرج إلى الوجود أحكام في مسائل كان الناس في حيرة من أمرهم فيها.

والخامسة: أنه كان يفر ويتوارى عن الخلفاء وعمالهم لأنه كان يميل لآل البيت ويعارض منحى العباسيين.

شيوخه و تلامذته: أما عن شيوخه الذين روى عنهم وتلامذته الذين رووا عنه فهم خلق كثير لا يمكن إحصاؤهم وهذا لكثرة تجواله.

ولكن ذكر ابن حجر فقال أنه: " روى عن خمس وعشرين عالما في الكوفة، منهم الأعمش[1] وعياش[2] وحصين بن عبد الرحمن[3]، وعن أهل البصرة، وسليمان التيمي[4] وخالد الحذاء[5] وداود بن أبي هند[6] وخلق كثير عددهم أربعة عشر عالما، وعن أهـل الحجاز عبد الله بن دينار[7] وابن عجلان[8] وابن المنكدر، ويحي بن سعيد بـن عقبـة[9] ويقال مائة شيخ.

---

(1) هو سليمان بن مهران الأسدي الكوفي كان محدث أهل الكوفة في زمانه توفي في 148هـ/765 م ، و له 88سنة (السيوطي: طبقات الحفاظ ص74؛ ابن عماد: المصدر السابق، ج1، ص120.).

(2) ذكره ابن سعد في الطبقة الرابعة تحت اسم عياش بن عياش القتابي (ابن سعد: المصدر السابق، ج5، ص419).

(3) حصين بن عبد الرحمان السلمي أبو الهذيل الكوفي روى عن خلق كثير قال عنه ابن حنبل أنه ثقة مأمون من كبار أصحاب الحديث توفي سنة 136هـ/ 753 م ، (السيوطي: نفس المصدر، ص68).

(4) سليمان بن بلال التيمي مولى أبي بكر الصديق قال عنه ابن سعد أنه كان بربريا حسن الهيئة عاقلا كان يفتي و ولي خراج المدينة و أنه ثقة كثير الحديث توفي سنة 172هـ/ 788 م، (ابن سعد: المصدر السابق، ج4، ص205؛ السيوطي: نفس المصدر، ص140؛ ابن عماد: نفس المصدر، ج1، ص280).

(5) هو بن مهران أبو المنازل البصري روى عن الحسن البصري و ابن سيرين، و لم يكن حذاء بل كان يجالس الحذائين، كان ثقة مهيبا كثير الحديث توفي سنةذ141هـ/ 758 م ، و قيل سنة142هـ/759 م ، (السيوطي: نفس المصدر، ص71؛ ابن عماد: نفس المصدر، ج1، ص210).

(6) يكنى أبا بكر كان من أهل سرخس و با ولد، كان ثقة كثير الحديث قيل توفي سنة139هـ/756 م ، و قيل سنة140هـ/757 م ، و يذكر أنه كان مفتي أهل البصرة كان رأسا في العمل و العلم و قدوة في الدين، جعله السيوطي في رجال الطبقة الرابعة صغار التابعين و قال عنه الثوري أنه من حفاظ البصريين (ابن سعد: نفس المصدر، ج5، ص279؛ السيوطي: نفس المصدر، ص69؛ ابن عماد: نفس المصدر، ج1، ص208).

(7) عبد الله بن دينار مولى عمر بن الخطاب يكنى بأبي عبد الرحمان توفي سنة 127هـ/744 م ، كان ثقة كثير الحديث و ثبتا متقنا (ابن سعد: نفس المصدر، ج4، ص147؛ السيوطي:ة نفس المصدر، ص57؛ ابن عماد: نفس المصدر، ج1، ص173).

(8) هو محمد بن عجلان القرشي مولاهم المدني أحد الفقهاء العباد روى عنه سفيان و مالك جعله السيوطي في الطبقة الخامسة توفي سنة 148هـ/765 م ، بالمدينة(السيوطي: نفس المصدر، ص79).

(9) هو أبو سعيد المدني تولى القضاء بالمدينة أيام المنصور روى عنه مالك و سفيان و أبو حنيفة و الليث و خلق كثير قال عنه بن سعد أنه ثقة كثير الحديث و حجة توفي بالهاشمية قبل أن تبنى بغداد سنة 143هـ/760 م (السيوطي: نفس المصدر، ص64 ؛ابن عماد: نفس المصدر ، ج1، ص212).

أما الذين رووا عنه باعتباره محدثا وأمير المؤمنين(1) في الحديث، خلق كثير منهم أقرانه الأوزاعي ومالك بن أنس وعبد الرحمن بن مهدي وابن المبارك(2) والفضيل(3)بن عياض(4) وروى عنه أيضا خلق كثير(5).

لقد اكتسب سفيان الثوري شخصية من خلال رحلاته ولقاءاته بالمـشايخ وتتلمـذه عنهم. ومن خلال مواقفه من السلطة فتميز عن باقي العلماء. وتبرز لنا سمات هذه الشخصية في مجالات عدة أهمها:

1-علمه و أقوال الناس فيه: كان سفيان يقدر العلم ويحث عليه، ويـشعر بمـسؤولية تجاهه تندر عند غيره، فقد كان يقول دائما: " لا نزال نتعلم – رغم كبر وعلو شأنه بين الناس – ما وجدنا من يعلمنا"(6).

---

(1) أمير المؤمنين في الحديث: يطلق هذا الإسم على من اشتهر في عصره بالحفظ و الدراية، حتى أصبح من أعلام عصره و أئمته، وقد لقب بذا اللقب عبد الرحمان بن ذكوان المدني و سفيان الثوري، و شعبة بن الحجاج، و الامام مالك، و البخاري و غيرهم (محمد عجاج الخطيب: الوجيز في علوم الحديث و نصوصه، المؤسسة الوطنية، الرغاية، ط1989، ص396).

(2) ابن المبارك: هو عبد الله يكنى أبا عبد الرحمن ولد سنة 118هـ/736م روى رواية كثيرة وصنف كتبا في أبواب العلم، وقال الشعر والزهد والحث على الجهاد، قدم العراق والحجاز والشام ومصر واليمن وسمع علما كثيرا كان ثقة مأمونا إمام حجة كثير الحديث، مات منصرفا من الغزو سنة 181هـ/797م وله 63 سنة انظر(ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص263).

(3) الفضيل بن عياض التميمي هو أحد بني يربوع يكنى أبا علي ولد بخرسان بكورة أبيورد وقد لكوفة وهو كبير فسمع الحديث... ثمّ تعبد وانتقل إلى مكة ف ل با إلى أن مات سنة 187هـ/802م في خلافة هارون وكان ثقة ثبتا فاضلا عابدا ورعا كثير الحديث.(ابن سعد: نفسه، ج6، ص43).

(4) ابن حجر: ذيب التهذيب ج4 ص111، وللمزيد من معرفة الشيوخ والتلاميذ وهم كثيرون انظر (الذهبي :سير أعلام النبلاء ،ج7، ص230).

(5) منهم يزيد بن أبي حكيم، وعبد اله بن الوليد العدني، وإبراهيم خالد الصنعاني وعبد الملك الحدي، ومن أهل اليمن الحسين بن حفص الأصفهاني، وروى عنه أيضا غسان بن عبيد، والأشجعي، والمعافى بن عمران الموصلي، والقاسم بن يزيد الجرمي وغيرهم (ابن نديم: المصدر السابق، ص282).

(6) عبد الحليم محمود :المرجع السابق، ص21.

وقد جعل ذلك دستورا لحياته، فها هو يتعلم في العراق والحجاز واليمن ويؤكـد مقولته: " الرجل في العلم أحوج منه إلى الخبز واللحم"[1].

وكان يقول: " الملائكة حراس السماء وأصحاب الحديث حراس الأرض، وددت أنّ يدي قطعت ولم أطلب الحديث، ما أخاف على نفسي غير الحديث"[2]، وهو بـذلك يعظم المسؤولية تجاه ما يحمله من علم ويشعر با، وربما كان يخاف من الحديث باعتبار أنه كان يحدث عن الضعفاء وكان يدلس[3] عنهم.

إنّ العلم عند سفيان أمانة يجب القيام با أيما قيام والحرص عليه وتأديته على وجه الكمال، ولذلك وجدناه يقول في أعباء العلم: " من يزدد علما يزدد وجعا، لو لم أعلـم كان أيسر لحزني"[4]، ومع هذا فوجع العلم لذّة لا يشعر بحلاوته إلاّ من ذاقها واكتـوى بنارها وهو يحرص على أن يبعث هذا الشيء في جميع الناس فيصرح حاثا الآباء على تعليم أبنائهم " ينبغي للرجل أن يكره ولده على العلم فإنه مسؤول عنه"[5].

وفي العلاقة بين العلماء يضع الثوري قانونا، حتى لا يكون الخلاف أكبر فيما بينهم فيقول: " يؤخذ بقول العلماء والقراء في كلّ شيء إلاّ قول بعضهم في بعض، وأن لا تجوز شهادة القارئ على القارئ يعني العلماء، لأنهم أشد الناس تحاسدا وتباغضا"[6].

---

(1) عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص21.

(2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص274.

(3) التدليس في الحديث طريقان:

تدليس الإسناد: أن يروي الرواي عمن عاصره، ولم يلقه، أو عمن لقيه ولم يسمع منه على وجه توهم سماعه.

وتدليس الشيوخ: وهو أخفها لأنّ الراوي لا يعمد إلى إسقاط واحد من السند أو إلى إيهام سماع ما لم يسمع بل يسمي الراوي شيخه أو يكنيه أو ينسبه أو يصفه بما لا يعرف به ولذلك كان تدليس الشيوخ مكروها، وهناك أنواع أخرى للتدليس انظر(شرف الدين الراجحي: المرجع السابق، ص92)، و هناك شرح مهم للتدليس جاء به ابن عماد يوضح كل أوجهه أنظر (ابن عماد: المصدر السابق، ج1، ص221) و فيما يخص التدليس و حكمه عند المحدثين أنظر (حارث سليمان الضاري: التدليس و حكمه عند المحدثين، مجلة كلية الإمام الأعظم، العراق العدد 3، 1977، ص125).

(4) الذهبي: المصدر السابق، ج7، ص255.

(5) الذهبي نفسه ،ص 273.

(6) طاش كبرى زادة :المرجع السابق، ج2، ص264.

كما يرسم سفيان طريقة في التعلم، ينبغي لكل متعلم أن يأخذ بها ويتبع منـهجها فيقول: " إنما هو طلبه – العلم – ثم حفظه ثم العمل به ثم نشره"، ويذكر بـأنّ : " أول العلم الصمت ثم الاستماع إليه وحفظه والثالث العمل به والرابع نشره وتعليمه"[1].

إنها الطريقة التقليدية في التعليم التي أنجبت فطاحل العلماء في جميع الميادين العلمية وهي تعتمد على الإنصات والحفظ ويتدرج الطالب في هذا المجال حتى يصير له زاد مـن معرفة الأصول والفروع، عن شيخه ثم إلى شيوخ آخرين، وفي أثناء ذلك العمل بهذا العلم حتى يزداد ترسيخا أي الانتقال من الميدان النظري إلى التطبيقي الجـاد، لأنّ العلـم دون تطبيق سرعان ما يتبخر، فإذا بلغ التلميذ هذه الدرجة أخذ الإجازة في نشر العلم وتعليمه.

إنّ أقوال الناس في علم سفيان وحديثه ونبوغه أكبر مما نتصور، وفضله في هـذا المجال أوسع، وأثره أعمق، لا يمكن أن نظهر ذلك إلاّ من خلال اعتراف العلماء أمثالـه، وتقديم إياه على غيره في كثير من الأمور. لقد حكم له أنداده وتلامذته والـذين جـاءوا بعدهم.

يقول سفيان بن عيينة: أصحاب الحديث ثلاثة: ابن عباس [2]في زمانه والشعبي في زمانه والثوري في زمانه" و يقول أيضا: " جالست خمسين شيخا من أهل المدينة – وذكر منهم ثم قال – ما رأيت فيهم مثل سفيان"[3]، ويقول أيضا ما بـالعراق أحـد يحفـظ الحديث إلاّ سفيان الثوري، وكان يقدمه على مالك[4]، كما كان عبـد الـرحمن بـن مهـدي يقـول:"ما رأت عيناي مثل أربعة -ذكر منهم – الثوري أحفـظ للحديث"،

---

[1] عبد الحليم محمود: المرجع نفسه، ص21.

[2] ابن عباس: هو عبد الله بن عباس بن المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي أبو العباس ابن عم الرسول صلى الله عليه وسلم، أمه أم الفضل الهلالية، ولد قبل الهجرة بثلاث وقيل خمس سنوات والأول أثبت، كان قد غزا مع عبد الله بن أبي سرح إفريقية وسنه سبع وعشرون سنة، وكان سنه عند وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث عشرة سنة، قدم البصرة وولي عليه أيام علي بن أبي طالب، دعا له الرسول صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل".(ابن حجر العسقلاني: الإصابة، دار الكتاب العربي، ج2، ص 322 وما بعدها لعدة صفحات).

[3] المزي: المصدر السابق، ج11، ص166 ؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص134.

[4] الرازي: المصدر السابق، ج1، ص63.

وقال شعبة[1]: " سفيان أحفظ مني"[2].

وحكم علماء آخرون أنّ كلّ من خالف سفيان فالقول ما قال الثوري[3]، ويجزم الأوزاعي أنه لم يبق من تجمع الأمة بالرضى والصحة إلاّ سفيان[4]، ويقصد هنا في مجـال الحديث، كما يشيد الأمام أحمد بن حنبل بعلم سفيان ويقدمه على كل علماء الحـديث ويقول: "سفيان لا يتقدمه أحد في قلبي"[5].

وهكذا يكون المتقدمون والمتأخرون و غير واحد قد فصلوا بأنّ سفيان الثوري أمير المؤمنين في الحديث وقد سمي محدث العرب[6]، وأنّ أحسن إسناد الكوفـة كمـا قـال العلماء: سفيان عن منصور عن إبراهيم بن علقمة عن عبد الله[7]، كما كان لا يـسمع حديثا إلا حفظه، حتى أنه جلس مجلسا قبل خروجه إلى البصرة واستقبل الكعبة ثم كتـب ثلاثمائة حديث[8].

وتزداد مكانة سفيان إلى أن يطلب منه الناس – بعدما كبرت حلقته وصار يـؤتى إليه من كل حدب وصوب – أن يتفرغ للعلم ويأخذ أجره، فيرفض سفيان هذا العـرض لورعه وخوفه من اتخاذ هذا الباب وسيلة لرزقه[9].

---

(1) شعبة بن الحجاج بن ورد من الأزد، يكنى أبا بسطام، كان ثقة مأمونا ثبتا صاحب حديث وحجة، وكان أكبر من الثوري بعشر سنين، وكان يقول أنا في الشعر أسلم مني في الحديث، توفي بالبصرة سنة 160هـ/776ن، وهو ابن 75 سنة، (ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص207؛ الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص144).أنظر ترجمته ص 242.

(2) المزي :المصدر السابق، ج1، ص165.

(3) النووي :المصدر السابق، قسم 1، ج1، ص222.

(4) الداودي: المصدر السابق، ج1، ص187.

(5) الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج1، ص236؛ ابن عماد الحنبلي: المصدر السابق، مج1، ج1، ص250.

(6) الرازي :المصدر السابق، ج1، ص118 ؛ الذهبي: نفس المصدر، ج1، ص236؛ المزي: المصدر السابق، ج11، ص164؛ والسيوطي: المصدر السابق، ص88.

(7) أحمد فريد: المرجع السابق، ج1، ص282.

(8) الرازي: نفس المصدر، ج1، ص66؛ الحجوي؛ المرجع السابق، ج ،ص146.

(9) عبد المنعم قنديل: المرجع السابق، ص397، و العلماء لا يقولون بعدم اتخاذ الأجرة على التعليم بل هذا العمل من زهد سفيان و جهاده بالعلم و أنه كان يسترزق من جهة أخرى و هي التجارة.

كما أنّ سفيان كان يُستفتى في كثير من المسائل، فحينما كان بـالري[1] كـان قاضيها يبعث إليه بعض المسائل و يستعين به في بعض القضايا فيقضي بما قال سفيان[2].

وخلاصة القول أنّ علماء عصره قد أجمعوا على أنّ سفيان الثوري كان إماما من أئمة المسلمين وعلما من أعلام الدين[3]، يحرص على نشر العلم إلاّ أنه كثيرا مـا عـرف بالحديث أكثر من غيره من ميادين العلم حتى صار اسم الثوري يقترن بالحديث.

2 زهده وورعه :

يقترن اسم سفيان الثوري بالزهد والعبادة أيضا، فهو في الزهد مدرسة يقتدى بـه والأخبار عنه كثيرة في هذا الميدان، فقد ذكر كثيرون أنه ما من أحد جلس إلى سفيان إلاّ وذكر الموت، وليس أحدا أكثر ذكرا لها مثله"[3].

وسفيان الثوري يقدم الزهد والعبادة عن العلم فيقول: " لا يتعلم أحد العلم حتى يتعلم الأدب عشرين سنة[4].

وقد أثر الزهد في حياة الثوري حتى صار يحبذ العزلة وهذا ما يظهر لنا من خلال علاقته مع ذوي السلطان فهو يكره الجلوس إليهم ويقول: " النجاة الآن ترك الناس فإياك ومخالطة الأمراء يقال لك تشفع، وتدفع عن المظلوم أو ترد مظلمة، فإنه من خديعة إبليس، إنما اتخذ العلماء سلما للقرب منهم واصطياد الدنيا[5].

---

(1) الري: بفتح الراء وتشديد ثانية، وهي مدينة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات وهي محط الحاج عن طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال. تقع قرب نيسابور وقزوين وهي بلدة بناها فيروز بن يزدجر وسماها رام فيروز مدينة بنيت بالآجر المنمق الملمع بالزرقة وهي مدينة ليست بعد بغداد في المشرق أعمر منها، انظر(ياقوت: المصدر السابق، ج3، ص116 وما بعدها).

(2) الرازي: المصدر السابق، ج1، ص 83.

(3) الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج9، ص152.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص240.

(4) زين الدين محمد المناوي: الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية، تحقيق محمد أديب، دار صادر، بيروت، ط 1999، ج1، ص304.

(5) المناوي :نفسـه، ص305.

ونظرة سفيان إلى الزهد تختلف عنها عند زهاد آخرين، وهو الزهد الذي ظهر في القرون الأخيرة، فيقول: " ليس الزهد بأكل الغليظ ولبس الخشن، ولكنه قصر الأمل وارتقاب الموت"[1]. وبذا فهو يقطع الطريق أمام من يتطرف في هذا المجال فيمنع نفسه كل حلال مباح حتى وصل بعضهم إلى العزوف عن الزواج وزيارة الأقارب... إنما الزهد عند سفيان يكون بعلم ووفق سنة سابقة.

يقول سفيان: " الزهد زهدان، زهد فريضة وزهد نافلة، فالفرض أن تدع الفخر والكبر والرياء والسمعة والتزين للناس، وأما زهد النافلة، فأن تدع ما أعطاك الله من الحلال، فإذا تركت شيئا من ذلك، صار فريضة عليك ألاّ تتركه إلاّ لله"[2].

تمثل زهد سفيان في قناعته بحياة التقشف وعزوفه عن المناصب التي عرضت عليه، ولأجل ذلك تعرض للعنت والاضطهاد ويقول: " ما رأيت في شيء أقلّ منه في الرياسة، ترى الرجل يزهد في المطعم والمشرب والمال والثياب، فإذا نوزع في الرياسة حامى عليها وعادى..."[3].

3 **عبادته**: كان إماما فاضلا زاهدا وعابدا يطبق تعاليم الشريعة ويحرص على أن يؤدب نفسه يجتهد في العبادات إلى ما لا تطيقه أي نفس أخرى بعيدا عن كل الشهوات آخذا بكل الالتزامات فريضة كانت أو نافلة، يقول عبد الرحمن بن مهدي: " ما عاشرت في الناس رجلا أرق من سفيان الثوري، وكنت أرمقه في الليلة بعد الليلة ينهض مذعورا ينادي النار النار شغلني ذكر النار عن النوم والشهوات"[4].

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص243، وفي عبارة أخرى يقول: " الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الغليظ ولبس العباءة" انظر(الرازي: المصدر السابق، ج1، ص101).

(2) الذهبي: نفسه، ج7، ص244.

(3) عبد المنعم قنديل :المرجع السابق، ص397، وللثوري في هذا الباب وصايا جمة ونوادر يمكن الرجوع إليها فهي جيدة، إذ من نوادره في الزهد أنه قال: إذا تزوج الرجل فقد ركب البحر فإذا ولد له انكسر به المركب انظر(المناوي: المصدر السابق، ج1، ص305 وما بعدها).

(4) الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج9، ص159.

وفي يوم أكل سفيان فشبع ثم قال: " إنّ الحمار إذا زيد في علفه زيد في عمله، فقام حتى أصبح"[1].

4 عمله وكدّه: إنّ زهد وعبادة سفيان الثوري لم يجعلانه متفرغا لهما فقط بل كان ينظر إلى الزهد على أن يزهد الإنسان فيما في يد الناس والعبادة كل العبادة في العمل والكد، ولذا نجد زهده يختلف عن باقي المتصوفة المتأخرين، ويظهر هذا من خلال نظرته للمال، يقول: " كان المال فيما مضى يكره، فأما اليوم فهو ترس المؤمن"، ونظر إليه رجل -وفي يد سفيان مال- فقال يا أبا عبد الله تمسك هذه الدنانير؟ قال اسكت، فلولا هذه الدنانير لتمندل بنا الملوك[2]، وكان يقول أيضا: " عليك بعمل الأبطال واكتساب الحلال والإنفاق على العيال"[3].

ولما سئل عن الحلال قال: " تجارة بره أو إعطاء إمام عادل، أو صلة من أخ مؤمن أو ميراث لم يخالطه شيء"[4]، ولذلك لم ير سفيان عيبا في أن يقوم على نفسه، فنجده يسافر هنا وهناك لأجل التجارة والكسب الحلال، فقد كان سفيان يأتي اليمن فيتجر ويفرق ما عنده على القوم، فيتجرون له، ويلقاهم في الموسم يجالسهم ويأخذ الربح[5].

كما كان يكره الوقوف عند الخلفاء والأمراء، ولذلك كان يكل ويجد حتى لا تصيبه الفاقة ويقع في أيدي الأمراء وربما هو سبب جعل خلفاء بني العباس ينكرون عليه ويقتفون أثره للضغط عليه.

إنّ زهد سفيان جعله يكتفي بالمال القليل، ولو أراد الكثير لكان بوسعه من خلال أعطيات أبي جعفر التي رفضها سفيان، ولكانت عنده خزائن مملوءة بالذهب والفضة[6].

---

(1) الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج9، ص157 وما بعدها.

(2) الذهبي :سير أعلام النبلاء، ج6، ص241.

(3) الرازي :المصدر السابق، ص85.

(4) عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص16.

(5) عبد الحليم محمود نفسه ،ص18.

(6) عبد المنعم قنديل: المرجع السابق، ص398.

5 تواضعه: يضيف سفيان مع العلم والعبادة، التواضع للناس، رغم ما يملك مـن وقار وهيبة. إذ كان يرى نفسه مثل بقية الناس، لا يحب الظهور لأنه رياء، فقـد رئـي الثوري بمكة فكثر عليه الناس، فقال: " إنا لله، أخاف أن يكون الله قد ضيع هذه الأمـة، حيث احتاج الناس إلى مثلي ثم قال: لولا أن أستدلّ لسكنت بين أناس لا يعرفونني " وقد كان مستكينا في لباسه[1].

وذكرت قصة في تواضعه أثناء سفره إلى مكة، "إذ آجر نفسه من جمال، فأمروه أن يعمل لهم خبزه، فلم تكن حسنة فضرب بها، فلما قدموا مكة، دخل الجمال فإذا سـفيان قد اجتمع عليه الناس فسأل الجمال فقالوا: هذا سفيان الثوري، فتقدم الجمال وقـال: لم نعرفك يا أبا عبد الله قال: من يفسد طعام الناس يصيبه أكثر من ذلك"[2].

إنّ الدارس لمناقب سفيان كلها يجدها تنبعث من شيء أساسي ارتكـزت عليهـا شخصيته وهو طريقته في الزهد والتصوف، فالزهد جعله أكثر عبادة وخـشية، وجعلـه يعمل حتى لا يطمع فيما في يد الناس، والتواضع هو أرقى ما يصل إليـه الإنـسان مـن صفات النبل التي حثّ عليها الدين، تلك هي طريقة سفيان في الزهد[3] عموما، و تلـك هي مدرسة سفيان في التصوف إذ صار إماما ليس في الفقه و الحديث فحسب، بـل في التصوف كذلك، فكان بهذا المنحى أمة وقدوة للسـائرين في درب الفـقه و الحديث و الزهد.

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص275.

(2) نفسـه ، ص275 وما بعدها.

(3) يورد المناوي صاحب الكواكب الدرية جملة جمع فيها مناقب وصفات سفيان فيقول: " الإمام الرضي والورع الزاهد الدري، له النكت الرائعة والاستنباطات الشريفة الفائقة الهمم التائقة والنفس الشائقة، العلم حليفه، والزهد أليفه، والفقه عريفه، والفقر تشريفه والقناعة حريفه، كان يقول من من أنفق من الحرام في طاعة الله كان كمن طهر الثوب بالبول انظر (المناوي: المصدر السابق، ج1، ص304) و يعتبره من كبار الصوفية ومن أوائل من انتهجوا التصوف.

المبحث الثاني آراؤه و مواقفه

1. آراؤه:

يعتبر الإمام الثوري من أوائل الأئمة الذين حاربوا الأفكار الهدامة الـتي كانـت تروج آنذاك بغية تحقيق مصالح معينة، وهي بداية الانحراف الذي صار ينتشر في جـسد الأمة، ولذلك فقد كان يطرح أفكاره وآراءه دائما حتى يتبين الصواب الذي يتساير مـع الشريعة، وينبذ تلك الآراء التي ضربت صميم العقيدة ووحدة الأمة الإسلامية آنذاك ومن آرائه ما يلي:

- رأيه في الإيمان: لقد كان سفيان الثوري يذهب مذهب أهل السنة والجماعة في الإيمان، فقد سمع يقول الصلاة والزكاة من الإيمان، والإيمان يزيد وينقص[(1)]، والناس عندنا مؤمنون مسلمون ولكن الإيمان متفاضل، وجبريل أفضل إيمانا منك"[(2)].

وقال لا يستقيم قول إلا بعمل، ولا يستقيم قول وعمل إلاّ بنية، ولا يستقيم قول وعمل ونية إلا بموافقة السنة، وسئل أأصلي وراء إمام يقول الإيمان قول بلا عمل: فيجيب ولا و لا كرامة"[(3)]، إنّ الإيمان في نظر سفيان لا يكون إلاّ موافقا للشريعة إذ يؤكـد في كلّ مرة أنّ الإيمان قول وعمل يزيد وينقص[(4)]، وينصح بقوله:" عليكم بما عليه الحمالون والنساء في البيوت، والصبيان في الكتاب من الإقرار والعمل"[(5)]، ويصدر حكما فيقـول العمل شرط الإيمان وهما موافقان للفطرة، ولا ينكر أحدهما إلا خارج عن السنة، والإيمان والإسلام واحد عند الثوري"[(6)].

---

(1) الذهبي :سير أعلام النبلاء، ج7، ص273.

(2) عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص43.

(3) الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص27، ويقصد في هذا القول نفي قول المرجئة التي تؤخر الحكم عن العمل إلى الله إلى يوم الآخر حينما تؤكد أن لا تضر معصية مع إيمان.

(4) الذهبي: نفس المصدر، ج7، ص252.

(5) عبد الحليم محمود: نفس المرجع، ص44.

(6) الأصبهاني: نفس المصدر، ج7، ص32.

وفي مسألة خلق القرآن، وهي الفتنة التي تبدأ في الظهور حينما يبدأ النقاش حول مسألة الصفات يجزم سفيان ويصرح دون غموض أو فلسفة يقول: " من زعم أن " قـل هو الله أحد" مخلوق فقد كفر بالله عز وجل"[1].

كما سئل سفيان عن أحاديث الصفات وهي تلك الآيات والأحاديث الواردة في يد الله ووجه الله ورجل الله.. فقال: " أخذ با كما جاءت"[2]، أي خذوها واقرأوهـا، قولوا با كما جاءت بدون تأويل أو تشبيه أو تعطيل، وهو قول أهل السنة والجماعة.

أما فيما يخص الفرق الدينية التي صارت تنتشر آنذاك:

ففي القدرية[*]: كان السلف يؤمن بالقدر خيره وشره، ويقول: " أتـدرون مـا تفسير " لا حول ولا قوة بالله" فيقول: " لا يعطى أحد إلاّ ما أعطيت، ولا يقي أحد إلاّ ما وقيت"[3]، ومن هنا ذهب إلى أنه على المرء أن يعتقد في القدر[4]، وحكم سفيان على القدرية كفرقة فقال: " الجهمية[5] كفار والقدرية كفّار"[6]، وعن موقفه مـن المكـذبين بالقدر سئل سفيان عن رجل يكذب بالقدر أأصلي وراءه، فقال: " لا تقدموه، قالوا هو إمام القرية ليس لهم إمام غيره قال لا تقدموه... لا تقدموه... وجعل يصيح"[7].

أما عن المرجئة: فقد اتبع الثوري منحى أهل السنة إذ المرجئة مذهب مثبط ولذلك

---

(1) الذهبي: سير الأعلام ، ج7، ص273، و هذا الحكم يطرح أمرا آخر مفاده أن فكرة خلق القرآن لم تظهر أيام المأمون بل كانت أسبق من ذلك و أن سفيان قد حكم فيها بحكم موافق للإمام أحمد.

(2) الذهبي: نفس المصدر، ج7، ص274.

(*) القدرية قالوا أن كل فعل للإنسان هو إرادته المستقلة عن إرادة الله سبحانه و أخرجوا فعل الإنسان عن نطاق قدرة الخالق و قد تطرفوا أكثر من ذلك (أبو زهرة: تاريخ المذاهب، ص111).

(3) الأصبهاني: المصدر السابق، ج6، ص 390.

(4) دائرة المعرف الإسلامية، ج11، ص453.

(5) الجهمية: وهي نسبة إلى جهم بن صفوان وهو أبو محرز السمرقندي المبتدع رأس الجهمية القائل بخلق القرآن قتله نصر بن يسار 128هـ/745م وله كلام كثير في مسألة الصفات والقدر وغيرها انظر (ابن حزم الظاهري: الفصل في الملل والأهواء والنحل، دار الجيل، بيروت، ج2، ص265).

(6) الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص28.

(7) عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص45.

حمل عليهم سفيان وحاربهم، قال خالفتنا المرجئة في ثلاثة: نحن نقول الإيمان قول وعمل، وهم يقولون الإيمان قول بلا عمل ونحن نقول يزيد وينقص وهم يقولون لا يزيد ولا ينقص، ونحن نقول نحن مؤمنون بالإقرار وهم يقولون نحن مؤمنون عند الله[1].

ويذكر قلعة جي أنّ سفيان يقسم الإرجاء إلى نوعين: إرجاء السنة، وهو إرجاء كل ما لا يعلمه إلى الله، قال: أرج كل شيء مما لا تعلم إلى الله ولا تكن مرجئا، وإرجاء البدعة[2]، وقال بعد أن قسمه ليس أحد أبعد عن كتاب الله من المرجئة، وكان لا يصلي عليهم[3]، وكان يقول: " من كره أن يقول أنا مؤمن إن شاء الله فهو عندنا مرجئ يمد بها صوته"[4].

ولقد كانت أكبر فتنة ابتلي بها المسلمون آنذاك هو الصراع بين السنة والشيعة، وهو صراع كان سياسيا وانتهى عقديا، بدأ بالخلافة وانتهى بالاختلاف في العقيدة، كما أنها فتنة ومهمة كان الثوري يتابع لأجلها، وقد اختلف الناس في توجهه، فأهل الشيعة يجعلونه من أعيانهم ويصفونه في تاريخهم، وأهل السنة يقولون أنه تراجع عن ذلك.

يذكر الشيعة أنه كان يجتمع مع شيوخهم بالكوفة خفية وأنه كان زيدي المذهب، ولا يتقي منهم ولا يتقون منه[5]. وقد ذكر الذهبي وابن قتيبة أنّ إمامه هو جعفر[6] الصادق[7]. كما يذكر الطبري أنّ الثوري بالفعل كان يميل إلى التشيع، ولكنه حينما

---

(1) الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص29.

(2) قلعةجي: المرجع السابق، ص37،

(3) الأصبهاني: نفس المصدر ، ج7، ص29.

(4) عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص47.

(5) السيد محسن الأمين :أعيان الشيعة، حققه حسن أمين، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، ط1403، 1983، مج7، ص264.

(6) جعفر الصادق بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي العلوي، أبو عبد الله أمه فروة بنت القاسم، روى عن خلق منهم عطاء وعروة والزهري وروى عن مالك وابن جريج وغيرهما وقيل لم يرو مالك عن جعفر حتى ظهر أمر بني العباس وهو ثقة مأمون ولد سنة 80هـ/680م وتوفي سنة 147هـ/764م، (ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج1، ص385).

(7) دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص454.

خرج إلى البصرة لقي أناسا وعلماء بها، وحدثهم وحدثوه فترك التشيع منذ دخوله البصرة إلى وفاته[1]، وربما يظهر تشيعه حينما يقول: " ما قاتل علي أحدا إلاّ كـان علـي أولى بالحق منه"[2].

لقد اتبع سفيان الثوري التشيع في بداية حياته لأسباب عدة أهمها:

- انتشار التشيع بالكوفة وتقديمها لعلي على الخلفاء الآخرين، وأنّ عليا كان أولى بالخلافة منهم " أبو بكر وعمر وعثمان".

- وكذلك أنّ جده "مسروق" قاتل مع علي بن أبي طالب في حادثة الجمل وهذا ما أكسبه نوعا من العاطفة أو لنقل جذوة من عصبية.

- وربما معاشرته لذلك الوفاق الذي كان بين بني العباس وآل علي الشيعة أيام بني أمية ثم رأي انفصام الوفاق بعد ثورة بني العباس وانقلابهم على بني عمومتـهم الـشيعة فاستنكر فعلهم ومالت عاطفته إلى آل علي على حساب أعمـال الـسفاح والمنـصور والمهدي.

إلاّ أنّ الثوري تراجع عن فكرته هذه وميوله بفعل عدة عوامل هي:

-أثر أسفاره هنا وهناك بهدف التجارة أو الحج أو طلب العلم وما للسفر في تغيير الأفكار.

- نضج فكره وتقدمه في السن عن سن العاطفة إلى سن العقل والكمال.

- التقاؤه بعلماء من كافة الملل والنحل والمذاهب والأفكار.

-وربما أنه رأى منحى الشيعة يزداد ميلا وتطرفا إلى ضرب اجتهاد الأمة بعـدما كان خلافا سياسيا فصار التجريح في الصحابة، وإدخال الأحاديث الموضوعة في ذلك.

---

(1) الطبري محمد بن جرير: المنتخب من كتاب الذيل المذيل، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، ط1358هـ-1939م، ج8، ص142.

(2) عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص48.

وحسما للخلاف وعلاجا لهذا الداء ثمّ توضيحا لفكر الثوري يصرح بقولـه: "إذا كنت في الشام فأذكر مناقب علي، وإذا كنت بالكوفة فأذكر مناقب أبي بكر وعمر"[1]، ذلك أنّ الشام كانت ضد الشيعة، والكوفة ضد الخليفتين، وهذا يبعد أي نزاع بين الأمة.

وقد سئل عن أقوام لا يقولون في أبي بكر وعمر إلاّ خيرا، ولكن عليا أولى بالخلافة منهما، فقال: " من قال ذلك فقد خطّأ أبا بكر وعمر وعليا والمهاجرين والأنصار،لست أدري أترتفع أعمالهم إلى السماء أم لا"[2].

وقال سفيان لرجل يزعم أنّ عليا أفضل من أبي بكر رضـي الله عنـهما، رغـم احترامه لهما " أنت رجل منقوص"، وقال لآخر " أنت رجل بك داء ينبغـي أن تـسقى دواء"[3].

والروايات التي كانت تروى في المفاضلة بين علي كرم الله وجهه، والخليفـتين أبي بكر وعمر كان سفيان يتقزز منها وينكر على صاحبها المفاضلة تلك، بل كان يقـول: " أئمة العدل خمسة: أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وعمر بن عبد العزيز رضـي الله تعـالى عنهم من قال غير هذا فقد اعتدى"[4].

وفي الخلاف بين الشيعة والأمويين السنه قال: " لا يجتمع حب علي وعثمان إلا في قلوب نبلاء الرجال"[5].

وهكذا فصل الثوري في الخلاف بين الشيعة والسنة ويبين موقفه في أواخر أيامـه، حيث كان كل طرف يريده إلى صفه، لثقل وزنه وعلو كعبه.

ولعل ما يبرز آراء الثوري وانتماؤه لأهل السنة، هو جوابه لأحد السائلين حيـث يسأله أن ينفعه بشيء يقابل به ربه،فيقول سفيان الثوري:

---

[1] عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص48.

[2] الذهبي: سير الأعلام، ج7، ص253.

[3] عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص49.

[4]عبد الحليم محمود نفسـه، ص50.

[5] الذهبي: نفس المصدر، ج7، ص273.

"اكتب بسم الله الرحمن الرحيم: القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، من قال بغير هذا فهو كافر، والإيمان قول وعمل ونية يزيد وينقص، ثم قال لا ينفعك مـا كتبت حتى ترى المسح على الخفين، وترى إخفاء بسم الله الرحمن الرحيم أفضل من الجهر بها، وحتى تؤمن بالقدر، وحتى ترى الصلاة خلف كل بار وفاجر، والجهاد ماض إلى يوم القيامة، والصبر تحت لواء السلطان جار أو عدل، فقال السائل يا أبـا عبـد الله وحـتى الصلاة، قال كلاّ صلاة الجمعة والعيدين صل خلف من أدركت، وأما سائر ذلك فأنـت مخير لا تصل إلاّ خلف من تثق به وتعلم أنه من أهل السنة"[1].

إنّ هذه الوثيقة تبرز بحق مذهب التفكر والتعبد والعقيدة عند سفيان الثوري أواخر أيامه، فهي وصية جامعة واضحة.

2- موقفه من السلطة: لقد تميزت علاقات الثوري بالسلطة منذ العهد الأموي إلى آخر أيامه – أيام العباسيين – بثلاث فترات:

الفترة الأولى: أيام الحكم الأموي وقد كان لا يلتفت إلى الحكام بل كـان همـه الوحيد هو العلم والبحث عن العلماء، ولم تكن له قوة شخصية بحيث يعطي حكما على خليفة أو أحد عماله.

الفترة الثانية: وهي أيام العباسيين – السفاح والمنصور والمهدي – وقد كان شديد المعارضة والتنكر والانتقاد لأعمالهم.

والفترة الثالثة: وهي أواخر أيامه أي أيام حكم الخليفة المهدي، وتميـزت بـاللين والتراجع عن المواقف.

لقد عاصر سفيان العهدين الأموي والعباسي[2]، ولكن لا يذكر أي صدام بينه و بين الخلفاء أيام الأمويين، أما عند مجيء العباسيين فقد تصادم معهم مرات عديدة ويعود ذلك إلى أسباب أهمها:

---

[1] الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج2، ص207.انظر الملحق رقم 06 .

[2] الخلفاء الذين عاصرهم هم: سليمان بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز، يزيد الثاني، وهشام، والوليد الثاني، ويزيد الثالث، وإبراهيم بن الوليد ومروان بن محمد والعباسيون السفاح والمنصور والمهدي.

- الأول: سبب السن: إذ كان لا يتجاوز سنه الأربعين سنة أيام الأمويين ثم تبلورت الأفكار ونضج وكمل الذهن أيام العباسيين فصار أكثر تمييزا.

- الثاني: أنّ الخلفاء السابقين لم يهيجوا سفيان، بل تركوه، أما أبو جعفر فقد أهاجه وبعث في طلبه، وصعب على الثوري ذلك فرفضه وهذا ما أغاض أبا جعفر[1].

ويمكننا أن نضيف أسبابا أخرى جعلت الثوري ينفر من الحكام العباسيين:

الأول: أنّ سفيان الثوري استشاط غضبا حينما رأى بأم عينيه انقلاب العباسيين على أبناء عمومتهم واضطهاد الشيعة.

الثاني: نظرا لطبيعة شخصيته المتميزة بالترحال والتجوال من جهة، وبالتصوف وترك الدنيا من جهة أخرى، جعلته ينفر من السلطان والأمراء، وبالأخص حينما رأى حياة البذخ والغنى تزداد من فترة لأخرى.

الثالث: بروز الفتن والفرق آنذاك من خلال انتشار الزندقة والأفكار السياسية دفعته إلى الابتعاد عن أمور السلطان ويحاول المحافظة على نفسه وشخصيته وتجنب الفتن والتنحي جانبا.

ويظهر نفور الثوري من السلطة من خلال أقوال كثيرة إذ يقول:

" النظر إلى وجه الظالم خطيئة"، ويقول: " من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله"[2]، وسئل سفيان لما لا تدخل على الولاة فتتحفظ وتعظهم وتنهاهم، فقال: " أتأمروني أن أسبح في البحر ولا تبتل قدماي، إني أخاف أن يترحبوا بي فأميل إليهم فيحبط عملي"[3].

والحقيقة أنّ شخصية سفيان الثوري هي التي دفعته إلى عدم مقابلة السلطان، فانظر إليه وهو يتساءل ويقول: " لا أدري أي البلاد أسكن؟ فقيل له خرسان، قال: مذاهب مختلفة وآراء فاسدة، فقيل الشام قال يشار إليك بالأصابع – أراد الشهرة – فقيل العراق

---

[1] قلعةجي: المرجع السابق، ص17.

[2] أحمد فريد: المرجع السابق، ص294.

[3] الشعراني: المصدر السابق، ص50.

قال بلد الجبابرة، فقيل مكة قال: يذيب الكيس والبطن"[1]، وهذا ما يجعلنا نجزم بأنه كان يحبذ العزلة خوفا من الفتن، وهو مذهب أهل التصوف ومادام أنه نشأ في العـراق فـلا عجب أن يتأثر بمتصوفتهم.

وتظهر معارضة سفيان أكثر في عهد أبي جعفر المنـصور 136هـ ـ/753م إلى عصر المهدي ت158هـ/774م حيث كان سفيان لا يتودد إليهما ولا يحب لقاءهمـا. فخرج من الكوفة وسكن مكة والمدينة وهم المنصور بقتله في مكة فما أمهله الله ثم طلبـه المهدي فتوارى عنه ودخل اليمن ثم البصرة وبها توفي[2].

كان سفيان كثير المعارضة والانتقاد، حيث يلوم الخلفاء والأمراء على أخطـائهم، ويضجرهم ويطالبهم بالإصلاح، وكان هذا كثيرا ما يضايق الحكام[3]، لاعتقادهم أنه يثير الخصوم والفتن ويقوض الاستقرار فنجدهم يطالبون به الولاة.

إلاّ أنّ ما يجب الإشارة إليه أنّ سفيان رغم معارضته الشديدة ورفضه التـصرفات تلك كان يقبل بخلافة بني العباس ولا يرى الخروج عن الحاكم بل ويسمي الحاكم أمـير المؤمنين.

كان له أول صدام مع المنصور حينما طلبه للعمل فرفض العمل معه، ولم يكتـف بهذا بل صار ينتقد ولاته ويرفض مقابلتهم، كما كان يحرض الناس والعمال علـى أن لا يعملوا مع الخليفة.

ولعل أكبر عقاب لهؤلاء الحكام أن لا يقابلهم ولا يجالسهم أمثال الثـوري، لأنّ العمل والوقوف إلى جانبهم يكسبهم مودة الناس، ويبقيهم على طريقهم الفاسدة، ولـذا كان الثوري يرى العقوبة بهذه الكيفية حتى تستوي أحوالهم، فلقد كان لسلطان العلمـاء ضغط كبير على الأمراء والخلفاء في الزمن الغابر.

---

(1) طاش كبرى زادة: المرجع السابق، ج3، ص78.

(2) عادل نويهض: معجم المفسرين، مؤسسة نويهض الثقافية، ط2، 1409هـ/ 1988م، ج1، ص211.

(3) قلعةجي: المرجع السابق، ص22.

وتعتبر رسالته إلى عباد بن عباد[1] دليلا حيا على مسلك الثـوري وطريقتـه في التعامل مع السلطان[2]، وربما تعتبر دستورا صريحا واضح المعالم يمكن للولاة أن يتقيدوا به في إدارة أعمالهم وعلاقا م مع الرعية.

وإليك بعض الأمثلة على سوء علاقته بالخلفاء والأمراء:

فقد أراده المنصور لتولي القضاء فكتب إليه كتابا يتولى به قضاء الكوفة على أن لا يعترض عليه في حكم فأخذ الكتاب وخرج ثم رمى به في ر دجلة[3] وهرب[4]. كمـا ُيذكر أنّ المنصور دعا أبا حنيفة والثوري وشريكا[5] ومسعرا[6]، فقال الإمام: أمـا أنـا فأحتال، والثوري يهرب، ومسعر يتجنن وأما شريك فلا آمن عليه أن يقع فيها. وكـان الجندي يذهب بم، فقال سفيان أريد البراز فتوارى بالحائط، فإذا السفينة مملوءة بالشوك فقال للملاح: خلف الحائط رجل يريد أن يذبحني – يقصد القـضاء – فـستروه تحـت

---

(1) عباد بن عباد الرملي الأرسوفي "نسبة إلى أرسوف مدينة على ساحل بحر الشام" أبو عتبة الخواص روى عن الأوزاعي وابن عون، وكان من فضلاء أهل الشام، وعبادهم وكتب إليه سفيان الرسالة المشهورة في الوصايا والحكم قيل عنه رجل ثقة وصالح وهو من الزهاد كا ممن غلب عليه التقشف والعبادة حتى غفل عن الحفظ والضبط(ابن حجر: ذيب التهذيب، ج3، ص68).

(2) انظر الملحق رقم 05 رسالة سفيان إلى عباد بن عباد (الأصبهاني: الحلية، ج6، ص376).

(3) دجلة: ر بغداد وهو يخرج من جبال من أرض أرمينية وتصب فيه عدة وديان ويمتد إلى الموصل ثم بغداد ثم واسط ثم البصرة ثم عبادان ثم يصب في البحر انظر(ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج2، ص440 وما بعدها).

(4) شلبي: المرجع السابق، ص206، وفي ذلك قال الشاعر:

تحرز سفيان وفر بدينه وأمسى شريك مرصد الدراهم.

أي أنّ الذي تولى القضاء شريك انظر (اليافعي: المصدر السابق، ج1، ص345).

(5) شريك هو الحارث بن أوس بن الحارث يكنى أبا عبد الله ولد ببخارى بخرسان جده شهد القادسية تولى قضاء الكوفة أيام أبي جعفر المنصو مكرها، ولم يزل با حتى توفي أبو جعفر وجاء عهد المهدي وعزله توفي سنة 177هـ/793م. كان ثقة ،(ابن سعد: المصدر السابق، ج6، ص355).

(6) مسعر بن كدام بن ظهير بن عبيد بن الحارث بن عامر بن صعصعة أخذ عنه الثوري وهو حجة صدوق توفي سنة 155هـ/771م، (ابن حجر:نفس المصدر ، ج5، ص418؛ ابن عماد: المصدر السابق، ج1، ص238).

الشوك، وأما مسعر فقال للخليفة، كيف داوبك وغلمانك فتركوه وقـالوا مجنـون[1].. ووقع شريك.

ويذكر أيضا أنّ المنصور بعث الخشابين حين خرج إلى مكة وقال إذا رأيتم سفيان فاصلبوه قال: فجاء النجارون ونصبوا الخشب، ونودي سفيان، فـإذا رأسـه في حجـر الفضيل بن عياض[2] ورجلاه في حجر ابن عيينة، فقال له: يا أبا عبـد الله اتـق الله ولا تشمت بنا الأعداء فتقدم إلى الأستار فأخذها ثم قال برئت منه إن دخلها أبو جعفر، قيل فمات قبل أن يدخل أبو جعفر مكة، فأخبر بذلك سفيان فلم يقل شيئا"[3].

ومن مواقفه مع الولاة موقفه مع والي المنصور عبد الصمد بن علـي الهـاشمي[4]، وكان أميرا على مكة و كان يكن للثوري المودة و الاحترام فمرض الثوري و توجه عبد الصمد لعيادته، وهو يعلم أنه لن يسلم من لسانه، فلما دخل عليه حول سفيان وجهه إلى الحائط ولم يرد السلام، فقال عبد الصمد أظن أنّ أبا عبد الله نائم، فقال أحد الحاضرين: أحسب ذلك، فقال سفيان: لا تكذب، لست بنائم، فقال عبد الصمد: يا أبا عبد الله لك حاجة؟ فقال: نعم، ثلاث حوائج لا تعد إليّ ثانية، ولا تشهد جنازتي، ولا تترحم علـي، فخجل عبد الصمد وقام، فلما خرج قال: والله لقد هممـت أن لا أخـرج إلاّ ورأسـه معي[5].

---

[1] بطاش كبرى زادة :المرجع السابق، ج2، ص190 إلاّ أننا لا نجد لهذه الرواية أثر في المصادر الأخرى.

[2] الفضيل بن عياض سبق ترجمته ص126 .

[3] المزي: المصدر السابق، ج11، ص167 ولكن لا نظن أن يصل سفيان الثوري إلى مثل هذا القول، وإنما هي روايات تبين مدى ثقة سفيان بنفسه وزهده وورعه، والدرجة التي بلغها، وحب الناس له، فأرادوا أن يجعلوا له كرمات، فيما لم يصدر عنه، وهي بداية شطحات الصوفية الفكرية والروحية.

[4] عبد الصمد علي الهاشمي هو عم المنصور الذي ولاه مكة والطائف سنة 146هـ/763م.

[5] قلعةجي: المرجع السابق، ص20. وهو موقف كذلك لا نظن من خلاله أنّ الثوري جاف وحاد عن الطبع إلى هذه الدرجة، منفّر لمن قابله، بل هو بطبيعة شخصيته زاهد رقيق الخلق بكّاء، وإنما نظر إلى صفات عبد الصمد هذا وأعماله فقابله بمثل هذا الخلق الذي يقلّ بكثير عما فعله من متابعة المعارضين، وضرب أعناقهم وعدم قيامه بواجبه، ومحاولته تدارك ذلك وتغطية أعماله بزيارة العلماء حتى يقال: ها هو يصل العلماء فترضى الرعية.

والقصة هذه ترد كذلك في رواية أخرى، إذ كان معه الأوزاعي، وطرق الباب عبد الصمد بن علي فقالوا من؟ قال الأمير، فدخل سفيان المخدع ثم جاءه الأوزاعي فقال: إنّ هذا الرجل ما قصد إلاّ مقصدك – وذلك حينما سأل الأمير عن سفيان – فخرج إليه سفيان، وقال له: ألا أدلّك على ما هو أنفع؟ تدع ما أنت فيه، ويكفيك الله أبا جعفر، فلم يرضِ الأوزاعي هذا القول. فقال سفيان: يا أبا عمرو إنا لسنا نقدر على أن نضر بهم، وإنما نؤذيهم بمثل هذا الذي ترى، فقال الأوزاعي لصاحبه: " قم بنا من هنا، فإني لا آمن من هذا الرجل(يقصد الأمير) يبعث من يضع في رقابنا حبالا، وأنّ هذا (يقصد سفيان) ما يبالي"[*].

ولما استخلف المهدي بعث إلى سفيان، فلما حضر قال له: يا أبا عبد الله هذا خاتمي فاعمل في هذه الأمة، فقال سفيان: يا أمير المؤمنين أتكلم على أني آمن؟ قال نعم، قال: لا تبعث إليّ حتى آتيك، ولا تعطني حتى أسألك، فغضب المهدي من ذلك وهم به، ثمّ أمره بالخروج[1].

ويروى أنه كذلك دخل على المهدي فسلم عليه وجلس ثم قال: حج عمر بن الخطاب فأنفق في حجه ستة عشر دينارا، وأنت حججت فأنفقت في حجك بيوت الأموال، قال فأي شيء تريد؟ تريد أن أكون مثلك؟ قال الثوري: فوق ما أنا فيه ودون ما أنت عليه، فقال وزيره، قد كانت كتبك تأتينا فننفذها، فقال الثوري؟ أحذر هذا فإنه كذّاب، إني ما كتبت إليك ثم قام سفيان، فقال المهدي إلى أين يا أبا عبد الله؟ قال أعود، وكان قد ترك نعله حين قام، فعاد فأخذها ثمّ مضى[2]. فانتظره المهدي فلم يعد، فقال وعدنا أن يعود فلم يعد، فعلم أنه عاد لأخذ نعله، فغضب وقال: قد أمن الناس إلا سفيان، وإنه لفي المسجد الحرام، فذهب فألقى نفسه بين النساء، فخبأنه، فقيل له لم فعلت؟ قال: إنهن أرحم ثم خرج إلى البصرة، فلم يزل بها حتى مات[3].

---

[*] عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص30

[1] الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص40 ؛ أحمد فريد: المرجع السابق، ص290.

[2] تلك هي مزايا العراقيين الذين سيتطور فقههم على يد أبي حنيفة في استعمال الحيل للخروج من المأزق، وهذا ينم على قوة ذكاء، وحسن تصرف في أثناء وقوع الحرج.

[3] ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص387 وقصص سفيان مع المنصور والمهدي عديدة لا تحصى في ميدان المعارضة لهما وكيفية هربه منهما.

إنّ صلة سفيان بخلفاء بني العباس كانت فيها كثير من التوترات، ولقد حاول كل مـن المنصور والمهدي أن يجلباه لصفهما، فحاول المنصور أن يوليـه القـضاء. وأراد المهـدي أن يستشيره في أمور المسلمين إلاّ أنّ سفيان تنكر لهما، وآثر العزلة عنهم عن الاختلاط بما، وهي وسيلة من وسائل الضغط على الحكام آنذاك حتى يرتدعوا. إنّ سفيان آثر الزهد والتقشف على حياة البذخ والنعيم وذلك لإعلاء كلمة الحق.

لقد كانت الأوامر ترد إلى الولاة بالقبض على سفيان حينما كان باليمن أو بالبصرة أو مكة إلاّ أنّ الولاة كانوا يعرفون مكانه ويلتقون به، بل وصل البعض منهم إلى أن يقول لـه: " أنت بغية أمير المؤمنين، إن كنت تريد القوم فاظهر حتى أبعث بك، وإن كنت تريد غير ذلـك فتوار"[1].

ويعتقد البعض أنّ المنصور والمهدي لم يكونا جادين في البحث عنه، وإنما كانا يفعلان ذلك حتى يحدا من نشاطه ويربكاه، وهي رسالة للرعية حتى تنصاع، والحقيقـة غـير ذلـك، فموقف العباسيين تجاه المعارضة واضح هو قتل متهم تستوي به الأمور أولى من تـرك متمـرد تضطرب به الأحوال، بل أنّ الولاة كانوا غير مقتنعين بما يفعله الخليفتان تجاه الثوري، وهو من هو في الجاه والعلم، فلقد كان لسلطان العلماء قوة على النفوس وا تمع أكثر مـن سـلطان الملوك.

إلاّ أنّ سفيان قد تراجع آخر زمانه عن فكرة الصدام مع الولاة والخلفاء، ذلك أنّ هذه الطريقة غير مجدية،وأقر بأنه من اللازم أن تكون هناك علاقة بين العالم والراعي، حتى تـصلح الأمور. فقد دخل عليه عمر بن حوشب[2] الوالي فسلم عليه فأعرض الثوري عنه فقال:" يـا سفيان – نحن والله – أنفع للناس منك، نحن أصحاب الديات، وأصحاب الحملات، وأصحاب حوائج الناس والإصلاح بينهم، وأنت رجل نفسك، فأقبل عليه سفيان، فجعل يحادثه ثم قـام، فقال سفيان: لقد ثقـل علي حين دخل، ولقد غمـني قيامه من عندي حين قـام"[3]،

---

(1) قلعةجي :المرجع السابق، ص24؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص451.

(2) عمر بن حوشب الوالي الصنعاني مجهول من الطبقة السابعة و تدل الروايات أنه كان ذا علم و روى عنه أكثر من واحد و لكنه لم يوثق و يشار إليه بلفظ مجهول الحال أو مستور (ابن حجر: تقريب التهذيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1996، ص14).

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص246.

وهي قصة تدلّ على تراجع موقف سفيان، وانتباهه.

ومما يدل أيضا على اعتدال موقفه من السلطان في أواخر أيامه لما كان بالبصرة، إذ دخل عليه حماد بن زياد[1]، وكلمه في تخفيف وطأته عن السلطان وناقشه، وأقنعه، واتفقا على أن يقدما بغداد على المهدي، وقد كتب سفيان إلى المهدي و إلى وزيـره يطلـب الأمان[2]، فبدأ بنفسه، فقيل إنهم يغضبون من هذا فبدأ بهم، وأتاه الجواب بما يجب مـن التقريب والكرامة والسمع منه والطاعة. فلما أراد الخروج إليه حم ومرض وحضره الموت فجزع[3].

وتروى قصص أخرى أن سفيان كانت له مواقف مع هارون الرشيد، حيث لمـا ولي الرشيد الخلافة زاره كل العلماء إلاّ سفيان فكتب إليه هارون كتابا ينصحه ويطلـب منه الزيارة[4]. إلاّ أننا لم نجد هذه المرسلات في كتب أخرى، ذلك أنّ سفيان كان قـد توفي قبل خلافة هارون الرشيد.

إنّ محنة سفيان وعلاقته السيئة مع الحكام وتجواله في مواطن كثيرة، وعدم استقراره كان سببا من أسباب اندثار مذهبه، وآثار هذه المحنة تظهر من خلال تقلص التلاميذ وعدم وجود الأتباع، وكذلك نقص في نسخ مؤلفاته، خصوصا وأنّ الطباعة كانت منتشرة في بغداد دار الخلافة.

---

(1) حماد بن زياد: قد يكون هو حماد بن زيد وذكر زياد، هو الإمام البارع أبو إسماعيل حماد بن زياد بن درهم الأزدي الجهمي البصري، سمع خلائق كثيرين من التابعين، روى عن الثوري وابن عيينة وابن المبارك وقد قيل إذا أردتم العلم فاطلبوه من حمادين، يعني حماد بن زياد وحماد بن سلمة ولد سنة 98هـ وتوفي سنة 179 بالبصرة(السيوطي :طبقات الحفاظ ،ص103).

(2) قلعةجي: المرجع السابق، ص25. و الوزير هو يعقوب بن داود يقال أن المهدي استوزره لأنه كان يقول بما تقول به الشيعة الزيدية، و لأنه اشترك في ثورة محمد النفس الزكية، فكان ملما بأخبارهم، و المهدي حينما استوزره أراد أن يأنس العلويون بحكمه من جهة، و ليعرف أخبارهم بواسطته من جهة أخرى(أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص70، 71).

(3) الذهبي: سير الأعلام، ج7، ص245؛ دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص451.

(4) بطرس البستاني: دائرة المعارف، بيروت، ط1980، ج9، ص631، وكذلك هناك قصص أوردها صاحب الحلية حينما أراد هارون الرشيد الزواج، إلاّ أننا نؤكد أنه لم يكن الثوري أيام الرشيد انظر(الأصبهاني: المصدر السابق، ج6، ص 378).

المبحث الثالث: فقهه ومنهجه

عوامل تكوينه:

كان سفيان الثوري صاحب مذهب اختفى فيما بعد[1]، وعلمه واسـع، فهـو المحدث الذي بلغ درجة أمير المؤمنين فيه، وهو الفقيه الذي صار له مدرسة، كما أنه كان من زعماء الزهد والتصوف وله مدرسة في ذلك... وكان سفيان معتنيا بـالقرآن عنايـة كبيرة، ولا يتأتى أن يكون الأمر على غير ذلك، فالقرآن حياة المسلم، إذ كان سفيان يديم النظر في المصحف، فيوم لا ينظر فيه يأخذه ويضعه على صدره، يقول أحـد أصـحابه: "صحبت سفيان في طريق مكة فكان يقرأ في المصحف كل يوم،فإذا لم يقرأ فيه، فتحـه فنظر فيه"[2].

من خلال هذه الصفات وهي مراجعته وفقهه للقرآن وحفظه وعنايته بالحـديث كانت لسفيان القاعدة الأساسية التي ينشئ عليها أي مذهب فقهي، إذ هو يحفظ الأصول التي يبنى عليها الفقه، ولقد ساهمت عدة عوامل في بروز شخصيته الفقهية وبذلك مذهبه أهمها.

-_ملكة الحفظ التي تمتع بها، فهو لا يقرأ أو يسمع شيئا إلاّ حفظه يقـول: "مـا استودعت قلبي شيئا قط فخانني"، ويقول عنه ابن مهدي: "ما رأيت صـاحب حـديث أحفظ من سفيان"، ويقول ابن المبارك: كنت إذا أعياني الشيء أتيت سفيان أسأله فكأنما أغترف من بحر"[3].

-_نشأته وتتلمذه على مدرسة أهل الرأي بـالعراق، وزعيمهـا عبـد الله بـن مسعود[4]، وفقهاء العراق عامة، واجتهادهم بالرأي هو نتيجة للمستجدات التي كـانت

---

[1] دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص 453.

[2] عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص109.

[3] عبد الحليم محمود :نفسـه: ص53،.

[4] عبد الله بن مسعود صحابي جليل من كبار البدريين أرسله أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الكوفة معلما ووزيرا كتب إليهم قائلا: " أما بعد فإني بعثت إليكم عمارا أميرا وعبد الله معلما ووزيرا، وهما من النجباء من أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم فاسمعوا لهما واقتدوا بهما، وإني قد آثرتكم بعبد الله على نفسي أثرة. توفي سنة 32هـ: (محمد مصطفى الأعظمي: دراسات في الحديث النبوي تاريخه وتدوينه، المكتب الإسلامي، بيروت، ط1980، ج1، ص125).

ترد عليهم دوما، لأنها بلاد حضارة.

_جولاته ورحلاته التي كانت دائمة غير منقطعة سواء بحكم التجـارة أو بحكـم الحج أو عامل آخر وهو متابعة الخلفاء له فكان يتهرب من سطو م، وفي جولاته كـان ينظر في طبائع الناس وحاجا م إذ سافر إلى اليمن وإلى الحجاز و غيرهما.

-_زهده في الدنيا وهو مسلك يؤثر في طبيعته ومنهجه الفقهي المتميز بـشيئين، الأخذ على النفس بالعزيمة وا اهدة، والتوسيع على الناس وعدم التنكر عليهم في آرائهم، وبذلك الابتعاد عن الخلاف والفرقة، والعمل على ما يجمع الناس[1].

-_تأثير فقهاء عصره على فقهه وهم الأوزاعي الذي لقيه في الحج وأبو حنيفـة الذي كان صاحب ديار العراق ومالك شيخ المدينة.

بعض آرائه الفقهية: مما يجعلنا نصنف سفيان الثوري من بين فطاحلة عصره وأئمة زمانه هو اعتراف العلماء عامة بفضله وعلمه وحديثه، ولا يحدث أن يروى أحد حـديثا في باب من الأبواب إلاّ ويذكر سفيان في سنده، وآراء سفيان الفقهيـة، وإن كانـت لم يُدون أغلبها ولم يصلنا منها إلاّ الشيء النادر، فإننا نجدها مبعثرة هنا وهنـاك في كتـب العلماء، منها كتب الطبقات، وقد وصل بعض علماء عصرنا إلى جمع فتاويه وأحاديثـه سوف نذكرها فيما بعد عند التحدث عن آثاره.

و من آرائه التي ذكر ا الكتب في مجال الفقه:

- أنه سئل عن رجل قصار (من يدق الثوب ويبيضه) إذا اكتسب درهما كانت كافية ما يقوته ويقوت عياله ولم يدرك صلاة الجماعة، وإذا كسب أربع دوانيق أدرك

---

[1] كان رجل ضرير يجالسه، وكان إذا جاء شهر رمضان، خرج إلى الوادي فيصلي بالناس، فيكسى ويعطى فقال سفيان: إذا كان يوم القيامة يقال لمثل هذا قد تعجلت ثوابك فقال له الضرير:" تقول هذا و أنا أجالسك فقال سفيان: " كي لا يقال لي يوم القيامة كان جليسك ولم تنصحه" والقصة هذه دليل على تأثير زهده على فقهه انظر(الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص16).

الصلاة في جماعة، ولم يكن فيه ما يقوته ويقوت عياله أيهما أفضل؟ قال: يكسب الدرهم ويصلي وحده"[1]. وسئل كذلك عن رجل عليه دين أيأكل اللحم قـال "لا"[2] وقال كذلك من جاع ولم يسأل الناس فمات دخل النار"[3].

ومن آرائه الفقهية أيضا أنه كان يقول: " أسفروا بصلاة الفجر، فإنه أعظم للأجر" وقال أيضا من صلى الجنازة في المسجد فلا شيء عليه"[4].

كما كان يرى أنه يصح للمرء أن يصلي الجمعة والعيدين خلف أي إمام، أمـا في الأوقات الأخرى فينبغي عليه أن يختار الإمام الذي يثق في ورعه ويعلم أنه من أهل السنة، ويقول الاجتهاد باق إلى يوم القيامة"[5].،وهو بذلك يريد أن يحقق مـصلحة وغايـة في أحكام الشرع وهي أنه مهما تكن الخلافات فلابد من شيء جامع للناس والجمعة جامعة.

وكان يقول وهو في العراق: " من لم يشرب النبيذ، ولم يأكل الجدي، ولم يمسح على الخفين فا ـموه على دينكم، والنبيذ إذا كان يسكر فلا تشربوه" أي أنه كان علـى مذهب أهل العراق في النبيذ[6].

منهجه الفقهي: نجد سفيان مثله مثل بقية الفقهاء الآخرين، يعتمد القرآن والسنة أصلين ثابتين في إصدار الأحكام الشرعية، إذ أنه من أهل السنة والجماعة، ولا يمكـن أن نجد أحدا من فقهاء المسلمين، يأتيه نص من قرآن أو حديث ثم يميل إلى الإفتاء برأيه، فهو كما يقول النووي " من أصحاب المذاهب السنية المتبوعة"[7] .

---

(1) عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص80.

(2) الأصبهاني: المصدر السابق، ج6، ص390.

(3) الأصبهاني :نفسـه، ج7، ص19.

(4) عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص80.

(5) دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص453.

(6) الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص32، غير أنّ الذهبي يورد قولا آخر ذكره عبد الرحمن بن مهدي قال: يزعمون أنّ سفيان كان يشرب النبيذ، أشهد لقد وصف له دواء فقلت: نأتيك بنبيذ: قال لا إئتني بعسل وماء"انظر (الذهبي :سير أعلام النبلاء، ج7، ص275).

(7) النووي: المصدر السابق، قسم1، ج1، ص223.

وما يؤكد هذا المعنى قوله الذي كان يصرح به دائما: " إنما العلم الآثار"[1].

وفي القرآن والسنة كان سفيان يعمل برأيه ويلتمس منهما ما قصد الشارع، وذلك ميدان الفوارس.

إنّ سفيان تأثر كثيرا بمدرسة أهل الرأي بالعراق إلاّ أنه لم يترك الحديث إذا صح عنده ليعمل بالرأي الذي لا سند له في القرآن والسنة، ذلك أنه كان إذا جاءه الحديث عن الثقة الحافظ الواعي، أخذ به ولم يهتم هل أرسله أو أسنده لأنّ من أرسل تحمل المسؤولية[2]، وهذا ما كان يؤاخذ عليه سفيان خصوصا وأنّ الوضع آنذاك صار ينتشر وبالأخص في العراق.

وفي الحديث كان لا يأخذ بالحديث إذا ورد في موضوع قد عالجه القرآن، إذا كان الحديث زيادة على ما في القرآن، لأنّ الزيادة عنده تقتضي النسخ" والأضعف لا ينسخ القوي"[3]، والسنة غير ناسخة لحكم عالجه القرآن تفصيلا.

ولذلك كان لا يأخذ بحديث الآحاد الذي يحمل زيادة عما في القرآن، وهو في ذلك يتبع مدرسة الرأي، وعليه فلم يأخذ بفرضية النية في الوضوء، ولم يقبل بفرضية البسملة فيه مع أنّ الحديث ورد أن لا وضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه[4]، وذلك لأنها زيادة عما في النص[5]: " يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم إلى الكعبين"[6].

ويتبع أهل الرأي أيضا في عدم العمل بحديث الآحاد إذا ورد فيما تعم به البلوى، لأنّ ما تعم به البلوى من شأنه أن يتكرر وإذا تكرر وقعت كثرة السؤال عليه، وبذلك

---

(1) الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص57.

(2) قلعةجي: المرجع السابق،، ص56،.

(3) نفسه: ص58.

(4) رواه أبو داود والترمذي

(5) قلعةجي: نفس المرجع، ص58.

(6) سورة المائدة الآية 6.

يكون الجواب عليه، وهذا يستلزم أن يكون فيه حكما مكررا، أما إذا سكت عنه فإنه مما تعم به البلوى، وأنّ الخبر إذا لم يكن، دلّ على فساد أصله[1].

وقد مر معنا في السابق حكايته مع الأوزاعي في رفع اليد[2]، أنه لم يرفع يديه عند كل تكبيرة وفي الانتقال في الصلاة لأنّ الحديث آحاد، وكذلك الجهر بالبسملة، إلاّ أنـه يخالف أهل الرأي في تقديمهم القياس على حديث الآحاد. ومثال ذلك رأيه في حـديث المصراة حيث أخذ به[3].

ومما يؤخذ على سفيان الثوري أنه كان يدلس[4] في روايته، وربما دلّس عن الضعفاء، وقد كان سفيان بن عيينة مثله مدلسا ولكن ما عرف له تدليس عن ضعيف[5].

إلاّ أنّ هذا لم يمنع من أن يصفح الأئمة عن تدليسه لكونه من الشخصيات البارزة وبسبب قلّة التدليس[6]، إذ هو أمير المؤمنين في الحديث اهتم به وحمل نفسه على حفظـه والاعتناء به.

كان سفيان الثوري يعمل بالقياس تأثرا بمدرسة أهل الرأي التي ترعرع فيها وشب على طريقتها ولذلك يجعله بعضهم من أهل الرأي وليس من أهل الحديث كما سيأتي.

وهذا ما يلاحظ من خلال فتواه التي تقول بوقوع طلاق المكره، بدليل الحـديث: "**لا طلاق ولا عتاق** في **إغلاق**"[7]، والإغلاق هو الإكراه.

---

(1) قلعةجي: المرجع السابق، ص59، كما كان يقول من مس قبله لم ينتقض وضوءه، لأنّ الحديث في نقض الوضوء آحاد، ومس الذكر أو القبل مما تعم به البلوى.

(2) انظر الفصل الثاني في ذكر فقه الإمام الأوزاعي ص103 .

(3) حديث المصراة: هو قوله صلى الله عليه وسلم " من اشترى غنما مصراة فاحتلبها، فإذا رضيها أمسكها، وإن سخطها ففي حلبتها صاع من تمر " رواه البخاري ومسلم باب المصراة. وهو مخالف للقياس، إذ يقتضي القياس الأصول الضمان بالمثل فيما له مثل، وبالقيمة فيما ليس له مثل.."، وكذلك خالف في ذكاة الجنينين، فقال ذكاة الأم ذكاة الجنينين مع العلم أنه مخالف للقياس فكيف بذكاة نفس واحدة ذكاة نفسين" انظر(قلعةجي: المرجع السابق، ص60).

(4) أنظر تعريف التدليس صفحة127 .

(5) الذهبي :سير أعلام النبلاء، ج7، ص241.

(6) دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص452.

(7) رواه ابن ماجة/ كتاب الطلاق/ باب طلاق المكره والناسي، الحديث رقم 2046، 660/1.

وقد ذهب الثوري وأبو حنيفة زعيم مدرسة الرأي إلى وقوعه، وقاسوا المكره على الهازل وقالوا: إنه قصد إيقاع الطلاق من منكوحته في حالة أهليته وأنه عرف الشرين واختار أهونهما[1].

بنى الثوري مذهبه وقواعد استنباطاته للأحكام على النظر في القرآن والسنة وما يريد تحقيقه الشارع الحكيم، ويذهب إلى التيسير في الأحكام وفي العمل بها، فكان إذا ظهر حكمين في حادثة واحدة، ما كان يأخذ إلاّ بالأيسر منهما، وبذلك يأخذ بالرخصة ولا يتشدد وهو مذهب الشريعة في السماحة ورفع الحرج.

لقد كان يقول دائما: " إذا بلغكم عن موضع رخص فارتحلوا إليه، فإنه أسلم لدينكم، وأقل لتهمتكم"[2]، ويقول أيضا: " إنما العلم عندنا الرخص عن الثقة فأما التشدد فكل إنسان يحسنه"[3].

كماكان الثوري ينشد مصلحة العباد في تطبيق أحكام الله، وقصة مروره وأصحابه على شرطي حينما كان هذا الأخير نائما، وأراد أحدهم أن ينبهه وقد أذن للصلاة فقال الثوري: " دعه فما استراح الناس حتى نام هذا، دليل على أخذه بالرخص، فقد رفع عنه حرج التنبيه والنصيحة حتى يستريح الناس ويأمنوا شره حيث –ربما عرف هذا الشرطي بالبطش[4].

لقد كان سفيان يأخذ بالرأي فيما لا نص فيه ويجتهد على ضوء القرآن والسنة وتحقيق مصالح الناس واعتماد الرخصة، ذلك أنّ الرسول ρ يقول: "إنّ هذا الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلاّ غلبه، فسددوا وقاربوا وأبشروا واستعينوا بالغدو والروحة وشيء من الدلجة"[5]، ويعمل بقوله تعالى: " يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر"[6].

---

(1) مصطفى سعيد الخن: المرجع السابق، ص161،.

(2) الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص17.

(3) نفسه :ج6، ص367.

(4) نفسه، ج7، ص41.

(5) رواه البخاري والنسائي

(6) سورة البقرة الآية 185.

كما كان يقبل بالخلاف وبالقول الآخر ولا يطعن فيه، ذلك أنّ ا تهدين على ضـوء الكتاب والسنة، لهم آراؤهم المعتبرة ولا يجوز أن ينكر أحدهم على الآخر.

قال الثوري: " تعلموا هذه الآثار فمن قال برأيـه فقـل رأي مثـل رأيـك"[1]، وفي الاختلاف يقول: " إذا رأيت الرجل يعمل بالعمل الذي اختلف فيه وأنت تـرى غـيره فـلا تنهه"[2]، وهكذا علم سفيان الناس سعة الصدر في الإفتاء، وهو في ذلك حكيم كل الحكمـة، فإنّ الذي يحجر واسعا ويضيقه لا يتساير مع سماحة الإسلام وسعتها[3].

اعتمد سفيان الثوري على الأصول التي اعتمدت عليها مدرستا أهـل الفقـه وأهـل الحديث آنذاك، فهو متأثر بمدرسة الحديث فبنى أصوله على القرآن والسنة وحتى الآحاد منها. وهو من حفاظ الحديث له باع فيه كبير، كما أنه اعتمد على أصول أهل الرأي وهي المدرسة التي تتلمذ عليها وأخذ بالقياس وأخر حديث الآحاد على ما تعم به البلوى، وهذا مـا يجعلنـا نقول أنّ سفيان وقع بين مدرستين وهي المدرسة الحقة في الاتباع بالاعتماد على الغايـة الـتي دف إليها الشريعة، ومن الملاحظ أيضا أنه قيل عن مذهب سفيان الثوري أنه كان زيديا[4]، نسبة إلى زيد بن علي – وذلك لكثرة الحالات التي كانت مطابقة لآراء الزيدية[5].

إلاّ أننا نقول بأنّ المدرسة الزيدية كانت لها آراء أهل العراق وكانت متفقهة في كـثير من الحالات مع ذلك مثلما كانت لها آراء تتفق مع أهل المدينة. إلاّ أنّ التشيع الذي ألصق بـه جعل آراءه الفقهية توصف كذلك.

---

[1] الأصبهاني: المصدر السابق، ج6، ص367.

[2] نفسـه: ج6، ص368.

[3] عبد الحليم محمود: المرجع السابق، ص62.

[4] الزيدية: مذهب فقهي من معتدلة الشيعة، ينسب إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين قتل شهيدا عام 122هـ وكان مولده على الأرجح 80 للهجرة، ويوم مقتله لم يتجاوز الثانية والأربعين، أوذي زيد في المدينة وفي العراق، كان فقيها ومحدثا وعالما بقراءات القرآن، له م لة بين العلماء والقراء، وأنّ المأثور من آراء الإمام زيد لا يخرج عن آراء الفقهاء في الجملة وهي وإن خالفت رأي إمام تتفق مع رأي آخر، ومنهاجه في الاستنباط لا يبعد أيضا عن منهاج الأئمة الذي عاصروه كأبي حنيفة وعبد الرحمن بن أبي ليلى وعثمان البتي والزهري وغيرهم من علماء المدينة أو العراق، انظر في موضوع زيد بن علي وفقهه(أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص650 وما بعدها لعدة صفحات).

[5] دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص454.

المبحث الرابع آثاره و انتشار مذهبه

آثـاره:

إنّ شخصية الثوري متميزة عما سواها من الفقهاء، من حيث عدة أمور أهمها نفوره من الخلفاء والأمراء، ولذلك نجد لم يستقر في مكان بل كان كثير التجوال يختلف ترحالـه عن باقي الفقهاء، إذ كان لا يستقر في مكان إلاّ وقتا يسيرا ثم يسافر، وكان دائـم التـستر وهذا ما جعل مؤلفاته تتميز بما تميزت به شخصيته من التستر.

ومع ذلك يعتبر الثوري من الأوائل الذين صنفوا الكتب ودونوا الأحاديـث عـن الضعفاء، وقد سبق القول بأنه يدلس، ولا يستبعد أنّ كتبه كانت منتشرة في كل مكان[1].

ألّف الثوري كتبا كثيرة ولكن نظرا لأمرين:

الأول: فراره واختفاؤه وتستره من السلطان أدى إلى طرح كتبه وإخفائها، فلما أمن أرسل من يخرجها فجعل القوم يخرجو ا، ويقول يا أبا عبد الله وفي الركاز الخمس، وهـو يضحك فأخرجت تسع قمطرات، كل واحد إلى ههنا وأشير إلى أسفل من ثدييه[2].

والثاني: أنه أمر بإحراقها في أواخر أيامه وذلك لمّا رأى ما فيها من أحاديث ضـعيفة عاتبه عليها العلماء.

وهذان الأمران – أثر السلطان والسياسة وأثر الزهد والخـوف – كانـا الـسببين الرئيسيين في عدم وصول ما كتب سفيان من الآثار، وقد ورد في كتب عديدة أهم آثاره:

- الجامع الكبير: ألفه بالكوفة ووضعه على طريقة المحدثين فيه من فقـه الـصحابة والتابعين رواه جماعة عنه، مثل يزيد بن أبي حكيم، وعبد الله بن الوليد العدي، وإبراهيم بن خالد الصنعاني.

- الجامع الصغير: كتاب في الحديث رواه عنه الأشجعي[3] وغسان بن عبيد.

---

(1) قلعةجي: المرجع السابق، ص61.

(2) محمد مصطفى الأعظمي: المرجع السابق، ص257.

(3) انظر ترجمته ص157 .

- كتاب الفرائض وجد في القرن السادس الهجري محفوظ في المكتبـة الظاهريـة بدمشق[1].

- كتاب التفسير: وهو من كتب التفسير بالمأثور لم يفسر فيه جميع آي القـرآن برواية ابن جعفر محمد عن أبي حذيفة النهدي عنه صححه ورتبه وعلق عليه وقام بنـشره امتياز علي عرشي مدير مكتبة رضا، رامبور بالهند.

-كتاب الاعتقاد بتنقيح تقي الدين بن تيمية[*] محفـوظ في المكتبـة الظاهريـة بدمشق[2].

- وله رسائل في الزهد والنصائح والتوجيهات، كرسالته إلى عباد بن عبـاد بـن حبيب العتكي المتوفى في 181هـ/797م، ورسالة إلى شخصيات أخرى[3].

- كما أنّ له آثارا موجودة في كتب المحدثين والفقهاء، وآراؤه معتبرة تدل علـى رأي راجح.

- وتظهر آثاره أيضا من خلال المدرسة التي كو ا، ولو لم يكن لها الأثر الكـبير، وقد اندثرت، ويظهر أثرها في ما خلفته من تلاميذ أخذوا برأيه لمدة طويلة.

وله أقوال مشهورة في الزهد والتصوف مما جعله من مؤسسي التصوف بـالعراق، ويحكى أيضا أنه كان عالما بالرياضيات[4] ربما تأثير التجارة والجولات أعطته هذه الصفة.

---

(1) وهو موجود تحت رقم 38 (25 أ- 37 أ).

(*)هو تقي الدين أبو العباس أحمد بن المفتي شهاب الدين عبدالحليم بن الإمام مجد الدين عبدالسلام بن أبي القاسم الحراني ولد سنة 661 هـ/ م،برع في الحديث واعتنى به وبرجاله وعلله وفقهه وفي علم الكلام وغيره الف ثلاثمائة مجلدتوفي في 728 هـ/ م(السيوطي :الطبقات ،ص520).

(2) وهو موجود بذه المكتبة في ا موع: 14/139 من 191 أ –192 أانظر الملحق رقم 06.

(3) ابن نديم: المصدر السابق، ج1، ص225 ؛ الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج1، ص387؛ والداودي: المصدر السابق، ج1، ص189، عادل نويهض: المرجع السابق، ج1، ص211، دائرة المعارف الإسلامية، ج11، ص452، فؤاد سركين: المرجع السابق، مج1،ج3، ص248، قلعةجي: مرجع سابق، ص63. محمد مصطفى الأعظمي: المرجع السابق، ج1، ص285انظر الملحق رقم 05.

وفي رسائله انظر: الرازي: المصدر السابق، ص86، وما بعدها؛ الأصبهاني : المصدر السابق، ج6، ص376، وما بعدها، وج7، ص82 وما بعدها؛ ابن نديم: المصدر السابق، ص275.

(4) فؤاد سزكين: نفس المرجع، ص247.

وهذا قليل من كثير مما وصلنا من تراث سفيان الثوري، وسبب ذلك كما سلف أنه أوصى إلى عمار بن سيف في كتبه فمحاها وأحرقها[1]، كما أنّ تلامذة سفيان كانوا يهتمون أكثر بالحفظ بدل الاعتماد على الكتابة ، وفي ذلك يقول أحدهم: " لا أبـالي أن يسرق مني كتاب سفيان، إني أحفظه كله..."[2]، وحينما ذهب هؤلاء ذهبـت معهـم الكتب والأحاديث التي حفظوها عنه.

وسفيان مثله مثل علماء عصره كانت له ملكة الشعر يستعملها في تقديم النصح، والحث على الزهد، ومناجاة لربه عز وجل، ومن شعره[3]:

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد الموت من قد تزودوا

ندمت على أن لا تكون كمثله وأنك لم ترصد كما كان أرصدا

وقال:

يسر الفتى ما كان قدم من تقى إذا عرف الداء الذي هو قاتله

وقال:

أرى أشقياء الناس لا يسأمو ا على أنهم فيها عراة وجوع

أراها وإن كانت قليلا كأنها سحابة صيف عن قليل تقشع

وقال:

ما ضر من كانت الفردوس مسكنه ماذا تجرع من بؤس وإقـتار

تـراه يـمشي كئيبا خائفا وجلا إلى المساجد يمشي بين أطمار

وقال:

يا نفس مالك من صبر على النار قد حان أن تقبلي من بعد إدبار

---

(1) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه، ص165؛ السريتي: المرجع السابق، ص374.

(2) محمد مصطفى الأعظمي: المرجع السابق، ص260.

(3) أحمد فريد: المرجع السابق، ج1، ص297 وهناك أشعار أخرى لسفيان الثوري أنظر(الأصبهاني: المصدر السابق، ج6، ص374).

وقال:

أرى الرجال بدون الدين قد قنعـوا   وليس في عيشتهم يرضون بالدون
فاستعن بالدين عن دنيا الملوك كما   استغنى الملوك بدنياهم عن الدين

انتشار مذهبه:

كان لسفيان الثوري مذهب يقلده ويتبعه الناس، وبحسب جولاته هنـا وهنـاك، ورحلاته التجارية المتعددة نجد مذهبه ينتشر في بقاع متعددة من البلاد الإسلامية فانتـشر شرقا إلى أصبهان وجنوبا إلى اليمن ووصل أثره إلى المغرب الذين أخذوا بمذهبه مدة مـن الزمن ولكن توارى بسبب مضايقة مذهب عالم المدينة مالك بن أنس.

وقد أوصله تلامذته إلى هذه البلدان، وكان أكثر تركزا بالموصل[1] واليمن[2].

وكان من أبرز تلاميذه الذين أصبحوا يفتون بمذهبه، الأشجعي[3] والمعافى[4] بـن عمران بن نفيل والحسن بن حي الزولي[5] ويحي بن آدم[6] وغيرهم[7].

---

(1) الموصل: هي باب العراق ومفتاح خرسان ومنها يقصد إلى أذربيجان، وسميت الموصل لأنها وصلت بين الجزيرة والعراق، وبين دجلة والفرات وقيل أنّ الملك الذي أحدثها اسمه موصل وهي مدينة قديمة على طرف دجلة يقابلها شرقا نينوى وبا قبر جرجيس النبي انظر (ياقوت: المصدر السابق، ج5، ص223).

(2) أحمد فراج حسين: المرجع السابق، ص165 ،و انظر السريتي: المرجع السابق، ص 374، وموسوعة جمل عبد الناصر: ج1، ص34

(3) الأشجعي: هو عبيد الله بن عبيد الرحمن ويكنى أبا عبد الرحمن روى كتب الثوري على وجهها وروى عنه الجامع، وكان من أهل الكوفة فقد بغداد ولم يزل با حتى توفي انظر (ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص237).

(4) المعافى الأزدي الفهمي الموصلي الفقيه الزاهد، كان يقول له الثوري: أنت معافى كاسمك روى عن الأوزاعي كذلك انظر(ابن حجر: ذيب التهذيب، ج5، ص473).

(5) الحسن بن حي يذكره ابن حجر باسم الحسن بن صالح وهو من ثور همذان روى عن خلق كثير وكان الثوري سيئ الرأي فيه قال أحمد بن حنبل حسن ثقة وقال آخر صحيح الرواية. وهو أثبت من شريك كان ورعا تقيا. انظر(ابن حجر: ذيب التهذيب، ج1، ص493، وما بعدها).

(6) يحي بن آدم بن سليمان الأموي روى عن الثوري وخلق و عنه روى يحي بن معين وخلق قيل عنه: ثقة كثير الحديث انظر ('ابن حجر: ذيب التهذيب، ج6، ص113).

(7) الحجوي: المرجع السابق، ص147.

ويذكر أنّ من أتباعه الذين أدخلوا جامعه إلى المغرب هو علي بن زياد العبسي[1]، الذي روى عن الثوري،و قد كان في المغرب علماء ومفتون يأخذون بفتاويه، وفي بغداد كان آخر من أفتى بمذهبه عبد الغفار بن عبد الرحمن أبو بكر الدينوري[2]، وقد جـاء في النجوم الزاهرة أنه توفي في 405هـ/1014م وهو آخر من أفتى على مذهب الثوري في جامع المنصور[3].

بقي المذهب الثوري وعمل به الناس مدة ثلاثة قرون ثم أخذ عدد أتباعه يتضاءلون حتى لم يبق منهم أحد و هكذا انقرض مذهبه[4] بإحراق كتبه وتستره في أكثـر حياتـه، ودور السلطان الذي – بطريقة غير مباشرة – حاصر انتشار مذهبه[5].

إنّ انتشار المذهب – أي مذهب – وبقاءه على قيد الحياة يجب أن تتوفر فيه عـدة شروط إذا تحققت بقي المذهب وإذا اختل منها شرط تلاشى وزال، ولعل أغلـب هـذه الشروط لم تكن متوفرة في مذهب الثوري ليس من حيث بناء أصوله ولكن من حيـث طريق تطبيقه وأدوات تثبيته.

---

(1) علي بن زياد هو أبو الحسن علي بن زياد التونسي الثقة الحافظ سمع جماعة منهم الليث و الثوري و مالك و هو أول من أدخل الموطأ إلى المغرب سمع منه بهلول بن راشد و سحنون و أسد بن الفرات ت 183هـ/799 م (محمد بن محمد مخلوف: شجرة النور الزكية، دار الكتاب العربي، بيروت، 1349، ص60) وقد ذكر أن زيادا والبهلول بن راشد نقلا جامع سفيان إلى إفريقية كما نقله عنه آخرون، ودخل المذهب الثوري إلى المغرب الأقصى قبل قيام دولة الأدارسة، ومن أعلامه هناك القاضي عمر بن محمد بن سعيد القيسي (اسماعيل سامعي: المرجع السابق،ص28).

(2) عبد الغفار

(3) قلعجي: المرجع السابق، ص60.

(4) نفسـه: ص61، يقول ابن رجب: وجد في آخر القرن الرابع الهجري سفيانيون أخذ بمذهب سفيان، وهذا تعزيزا للمدة المذكورة في بقاء مذهبه انظر(النووي: المصدر السابق، مج1، ج1، ص251).

(5) وروى أيضا عن أسباب اندثار مذهبه تأثير زهده وخوفه. حيث يحكى عنه أنه أوصى بدفن كتبه، وكان يندم على أشياء كتبها عن الضعفاء، وقال: حملني عليها شهوة الحديث. فكأنه لما عسر عليه التمييز بين الصحيح وغيره أوصى أن تدفن كلها، انظر (ابن الملقن: طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريبة، مكتبة الغانجي، القاهرة، ط1415 / 1994، ص32).

وفاته:

لقد قام سفيان الثوري بالرسالة كاملة، إذ سافر إلى مناطق كثيرة يأخـذ العلـم ويعلم، في خوف وتستر من الولاة والسلطان بالأخص، وترك تراثا من الفتاوى والأحكام وجاهد في سبيل قول كلمة الحق في وجه ذوي السلطان

كان سفيان يمثل المعارضة الحقيقية دون إعلان الخروج عن السلطان، إذ كـان لا يرى الخروج عن السلطان، ويقول للمنصور أمير المؤمنين، رغم ما لقيه منـهم ، وبقـي سفيان كذلك إلى أن توفي بالبصرة، - مقامه الأخير- سنة إحدى وسـتين بعـد المائـة للهجرة، وقد كان يقول سنه ثمان وخمسين ومائة لي إحدى وستون سنة. أي أنه تـوفي وسنه كان أربعة وستين عاما وقد توفي متواريا من السلطان ايام خلافة المهدي في منتصف شعبان[1].

ويروى قلعه جي وفاته فيقول: " مرض سفيان فكان يخدمه عبـد الـرحمن بـن مهدي، ولما طالت علته وشعر بقرب أجله، أمر أن يؤتى بأهل بلده، فأتى بعبد الرحمن بن أبجر[2] والحسن بن عياش[3]، فأوصى إلى الحسن في تركته، وأوصى إلى عبـد الـرحمن بالصلاة عليه، وقال يا موت.. يا موت.. لا أتمناك ولا أدعو بك، ثم نزل من فراشـه إلى الأرض وقال: الموت والله شديد، ثم قال روح المؤمن تخرج رشحا، وأنا أرجو الله أرحـم من الوالدة الشفيقة، إنه جواد كريم... مرحبا برسول ربي... ثم أغمي عليه، فلما أفاق قال لعبد الرحمن اذهب إلى حماد بن سلمة[4] فادعه لي، فإني أحب أن يحضرني، فجـيء بـه مسرعا،وقبله ابن عيينة وقال: بارك الله فيك أبا عبد الله، أبشر فقد نجوت مما كنت تخاف،

---

(1) البخاري: المصدر السابق، ج4، ص93 ؛النووي: المصدر السابق، مج1، ج1، ص251.

(2) عبد الرحمان بن عبد الملك بن أبجر صاحب سفيان و أحد الصالحين لم نجد له ذكر في كتب الطبقات.

(3)الحسن بن عياش: مولى بني أسد الكوفي أخو أبلي بكر سمع الثوري، أنظر(إسماعيل البخاري: التاريخ الكبير، مجلد2، قسم2، جزء2، ص302).

(4) حماد بن سلمة بن دينار البصري أبو سلمة مولى تميم ويقال مولى قريش روى عن خلق كثير منهم أنس بن سيرين وروى عنه خلق كثير منهم الثوري وابن جريج وشعبة وغيرهم، وهو صحيح السماع وكان من العباد ا ابين الدعوة في الأوقات، توفي سنة 167هـ/783م(ابن حجر: ذيب التهذيب، ج2، ص9 وما بعدها).

وتقدم على رب كريم، ففتح عينيه وقال: أي أخي مرحبا، يا حماد خذ حذرك، واحـذر هذا المصرع، يا أبا سلمة أترى الله يغفر لمثلي؟ قال أي والله الذي لا إله إلاّ هـو، فإنمـا سري عنه، ثم قال: يا عبد الرحمن اقرأ علي سورة " يس " فإنه يقال يخفف على المـريض فقرأت، فما فرغت حتى طفئ، فغمضت له عينيه، ثم إنّ السلطان - يقصد الوالي - دخل فقبله بين عينيه ثم قال: دعوني أكفنه، فقالوا إنه أوصى أن يكفّن في ثيابه التي كانت عليه، فكفنه السلطان بعد ذلك بستين دينارا، وقيل ثمانين دينارا[1].

غسله وكفنه وقبره حسن بن الربيع[*] وصلى عليه عبد الرحمن بن عبد الملك بـن أبجر الكوفي، بوصية من سفيان لصلاحه، ودفن في مقابر بني كلـب بالبـصرة وقـت العشاء[2].

وهكذا كانت حياة سفيان التستر والتخفي وحتى في موته دفن ليلا في غير ضـوء الشمس، ولكن العظماء شمسهم بازغة دوما، رغم كل عوامل الظلمة والتستر، يـذهب الرجال ويبقى العلم والأثر.

قال أبو جعفر التفيلي عن معاوية بن سعير بن الخمس: " رأيت سفيان الثوري في المنام وهو يطير من نخلة إلى نخلة[3] وهو يقرأ الآية: " الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين"[4]

---

(1) قلعةجي: المرجع السابق، ص12.

(*) هو أبو علي الحسن بن الربيع البجلي البوراني القصبي الكوفي روى عن قيس بن الربيع و طبقته، و هو من شيوخ البخاري، كان ثقة ثبتا و عابدا توفي سنة 221هـ/835 م،(ابن عماد: المصدر السابق، ج2، ص48).

(2) قلعةجي: نفس المصدر، ص12.

(3) المزي: المصدر السابق، ج11، ص269.

(4) سورة الزمر الآية 74.

كان سفيان الثوري يتميز بصفات و معاملات جعلته يختلف عن باقي الفقهاء عصره، و هي ميزات شخصية كان لها القسط الكبير في اندثار مذهبه.

فلقد تميزت حياته بتحبيذ طريقة العزلة عن السلطان و نقده و التحريض على عدم الالتقاء به. إلا أن هذا الموقف لم يستمر إلى آخر أيامه بل نجده يتراجع عن ذلك.

و طريقة سفيان و معاملته لأولى الأمر بقدر ما كانت جد قاسية تجاههم، إلا أنه لم تكن لتأمر الناس بالخروج عنهم و هذا شيء إيجابي.

اعتمد سفيان الثوري في معيشته على التجارة. و هي وسيلة جعلته ينحى طريقة المحدثين في البحث عن الحديث و رواته و التثبت منهم، و بذلك حفظ الحديث ثم تدريسه و تدوينه كذلك، فلقد تألق الثوري في هذا الميدان و كان له الأثر فيه حتى سمي بأمير المؤمنين في الحديث، و هي مرتبة لا يرقى إليها إلاّ من كانت له الريادة في حفظ الحديث.

كما كانت له مدرسة في الزهد، إذ اعتبر من الزهاد العباد الذين أسسوا هذا المنحى فاقتدى الناس به و بمن على طريقته، و ربما يعود توجه سفيان إلى هذا المنحى إلى اختفائه من السلطان طوال حياته، و علمه و خشيته كذلك.

إلا أن أبرز تأثير لسفيان نشره للحديث تدوينا و تدريسا في منطقة اشتهرت بالرأي والتبحر في القياس، فكان بذلك صمام أمان لهذه المدرسة. حيث صان الحديث من الوضع خصوصا بالعراق، و هو بلد اشتهر بالحرية الفكرية وبروز الفرق الدينية و التأثر بما كان للفرس من ثقافة و موروث حضاري خصوصا و أن هذه الفترة بدأت تشهدت صراعات حادة بين الفرق التي حاولت استعمال هذا الميدان (الحديث) لفرض سيطرا و بث سمومها و الانتصار لسياستها.

الفصل الرابع

الليث بن سعد

فقيه مصر

175.94هـ /791.712م

المبحث الأول: حياته

المبحث الثاني: آراؤه و مواقفه

المبحث الثالث: فقهه و منهجه

المبحث الأول

حيـــاتـــــــه

نسبه و مـولـده:

هو الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمي بالولاء، يكنى بأبي الحارث المصري[1]، مولى عبد الرحمن بن خالد بن مسافر، وقيل مولى بن ثابت بن ظاعن جد عبد الرحمن بن خالد بن مسافر[2]،و هو إمام أهل مصر و ما جاورها المحدث الفقيه.

في نسبه يقول أهل بيته: نحن من الفرس من أهل أصبهان، و عليه فأصله فارسي أصبهاني[3]، وفي أصله قال غير واحد أنه من أهل أصبهان من ماربين[4]، وكان سُبي مـن أصبهان ونزل الفسطاط بمصر، وتبنك بها (أي أقام وتمكن) وحُمل عنه علم كـثير[5]، وقد سمع الليث يقول: نحن من أصبهان فاستوصوا بها خيرا[6].

وسعد أبو الليث مولى لقريش ، ونسب إلى فهم، وفهم من قيس عيلان[7]، فهـو مولى لقيس[8].

ونحن نقول بأنّ الليث بن سعد أهله وأصله من أصبهان، أي من سبي أصـبهان مـن ماربين ثم جاءت الفتوح وانتشر الناس، وكان أهله بالفسطاط وهناك ولد الليث بن سـعد في

---

(1)ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص358 ؛المزي: المصدر السابق، ج24، ص255؛ ابن حجر: ذيب التهذيب ، ج8، ص459؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص301؛ الزركلي: المصدر السابق، ج6، ص115.

(2) المزي: نفسه، ص255.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص137.

(4) أبو الشيخ الأنصاري بن حيان: طبقات المحدثين بأصبهان، تحقيق عبد الغفور البلوشي، مؤسسة الرسالة، ط2، 1992، ج1، ص 405 ؛ الذهبي،: التذكرة، ج1، ص224؛ الزركلي: نفسه، ج6، ص115؛ ابن عماد: المصدر السابق، مج1،ج1، ص285، وماربين هي قرية قرب أصبهان على نصف فرسخ. انظر (ياقوت: المصدر السابق ،ج5، ص34).

(5) أبي الشيخ الأنصاري بن حيان: نفسه، ج1، ص405.

(6)إبن حيان: نفس المصدر، ص 405 ؛ الأصبهاني: المصدر السابق، ج،7 ص321.

(7) المزي: نفس المصدر، ص255.

(8) ابن سعد: نفس، ج7، ص358.

أحضان دولة الإسلام بمصر بقلقشندة. إحدى قرى القليوبية من محافظات مصر ولا تـزال إلى اليوم[1].

وإذ كان قد اتفق على أنّ أصله من أصبهان وأنه مولى لقيس وأنه ولد بقلقـشندة بمصر، فإنّ مولده قد اختلف فيه، بين 93هـ ـ/711م و94 هـ ـ/712 م[2]، إلاّ أنّ القول الراجح والذي عليه الناس أنه ولد سنة 94هـ/712م، وتوفي في النـصف مـن شعبان يوم الجمعة سنة خمس وسبعين ومائة 175هـ/791م وعمره إحـدى وثمـانون سنة[3]، وقد قال الليث بن سعد في تحديد ميلاده: حججت سنة ثلاثة عشر، يعني ومائة، وأنا ابن عشرين سنة. (113 ـ/731م)[4].

قال ابن سعد:" كان ثقة كثير الحديث صحيحه، وكان قد اشـتغل بـالفتوى في زمانه بمصر، كان سريا من الرجال نبيلا سخيا له ضيافة، وهو محدث مـصر ومحتـشمها ورئيسها، ومن تفتخر بوجوده الأقاليم، بحيث أن متولي مصر وقاضيها وناظرها من تحت أوامره، يرجعون إلى رأيه ومشورته"[5]، ولـد في خلافـة الوليـد بـن عبـد الملـك (86هـ/96هـ/705م/715م)، من العهد الأموي وتوفي في خلافة هارون الرشـيد (170هـ/193هـ/786م/808م) في العهد العباسي[6].

عوامل نبوغه:

(1) المزي: المصدر السابق، ج24، ص255؛ وانظر الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص137؛ الزركلي المصدر السابق، ج6، ص115.

(2) ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص358.

(3) المزي: نفسه، ص 278؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص 137، الزركلي، نفسه، ج6، ص115؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص301 ،ويذهب أبي الشيخ الأنصاري (ابن حيان) إلى أنّ وفاته كانت يوم الخميس لأربع وعشرة من شعبان سنة 175هـ وليس يوم الجمعة انظر (أبي الشيخ الأنصار: المصدر السابق، ج1، ص406).

(4) المزي: نفس المصدر، ج24، ص265.

(5) ابن سعد: نفسه، ج7، ص 358؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص 143؛ والذهبي: العبر في خبر من غبر، ج1، ص267؛ السيوطي: المصدر السابق، ج1، ص30؛ الزركلي: نفسه، ج6، ص115.

(6) الخلفاء الأمويون هم: الوليد بن عبد الملك ثم سليمان بن عبد الملك ثم عمر بن عبد العزيز ثم يزيد بن عبد الملك ثم هشام بن عبد الملك ثم الوليد بن عبد الملك ثم يزيد بن الوليد بن عبد الملك و مروان الثاني، والخلفاء العباسيون هم: أبو العباس ثم المنصور ثم المهدي ثم الهادي و هارون الرشيد، كل هؤلاء عاصرهم الليث.

لقد ساهمت عدة عوامل في نبوغ شخصيته، وقوة فكره، وإمامته للناس، وأهـم هذه العوامل:

1- عرقه ومعدنه فهو من الموالي أصله من أصبهان وولد في أرض عربية، وعنصر الموالي تميز دوما بالذكاء وحب العلم والعمل والإخلاص - ربما لتعويض النقص الذي كان عندهم آنذاك وهو النسب غير العربي، فظهرت صفات لهم تعوضهم ذلك، وهي العلـم وحب الدين - والموالي أكثر تمسكا بالدين ودفاعا عنه.

2- الوضعية العلمية التي كانت مصر تمتاز بها، إذ تأثرت مصر بامتزاج العقليـة العربية بغير العربية وبالأخص البيزنطية ، وارتفع مستوى الثقافة بين العلماء[1]، بفـضل ذلك الامتزاج، وذلك الزخم الذي ورثته مصر بدخول الفاتحين إليها ووجود آثار بقيـت منذ العهد القديم بها، ولقربها من بلاد الروم واتصالها بالمغرب.

3- تشجيع الخلفاء للعلماء والفقهاء والأدباء والشعراء[2]. وهذا التشجيع زاد من حركة العلم والتنافس بين العلماء. وهي الوضعية العامة التي احترم فيها السلطان والمجتمع العالم.

4- رحلات الإمام الليث إذ سافر إلى كثير من بلاد العالم الإسلامي في رحلات علمية، إذ رحل إلى الحجاز ثم إلى العراق وحتى إلى الشام والتقى بكثير من العلماء وكبار الفقهاء، فأخذ عنهم وناظر بعضهم[3].

5- المراسلات التي كانت بين الليث والعلماء الآخرين وما فيها مـن مناقـشات لبعض الآراء التي كانت تثار آنذاك. ومالها من أثر في إثراء الحركة العلمية والفكر، فهـي تدعم المقبول وتقوض ما لا تقبله أصول العلم، ومن أمثلة ذلك، مراسلاته مع الإمام مالك إمام ديار المدينة[4].

---

[1] سيدة إسماعيل كاشف: المرجع السابق، ص 304.

[2] سيدة إسماعيل كاشف :نفس المرجع، ص304.

[3] أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه، ص165.

[4] هناك رسالة بعث بها إلى الإمام مالك ينتقد فيها أخذ الإمام مالك بعمل أهل المدينة انظر الملحق رقم 2

لقد أدت كل هذه العوامل وغيرها إلى المساهمة في تكوين شخصية الليث بن سعد، وتقوية موقعه مما جعل المنصور (الخليفة العباسي) يطلبه أن يلي له مصر فامتنع الليث[1]، وكان نائب مصر وقاضيها من تحت أوامر الليث[2] يخافه هؤلاء حيث أنه كان إذا كتب إلى الخليفة في الوالي أو القاضي عزله.

شيوخه:

كان لشيوخ الإمام الليث الأثر في تفتق ذهنه وعلو كعبه، وبروز مدرسته. ففي أسفاره كان يلتقي بؤلاء الشيوخ يأخذ عنهم ويناقشهم ويأخذوا عنه كذلك،ولعل مزاحمته للعلماء كانت منذ سفره إلى الحج لأول مرة وهو في سن الثلاث عشرة سنة أي سنة 107هـ/725م ، إذ في هذه السنة حج الليث وكان على الحج سليمان بن هشام[3]، وفي مكة علماء كبار جلس إليهم الليث والجماعة التي سافر معها[4]، فكسفت الشمس بعد العصر، فقاموا قياما يدعون في المسجد فسأل الليث أيوب بن موسى[5]، ما يمنعهم أن يصلوا صلاة رسول الله ρ التي صلاها في الكسوف؟! فقال أيوب بن موسى: ى

---

(1) الذهبي: العبر، ج1، ص267.

(2) الذهبي: العبر، ج1، ص267؛ السيوطي: حسن المحاضرة، ج1، ص301، والزركلي: المصدر السابق، ج6، ص115.

(3) هو سليمان بن هشام بن عبد الملك كان على الحج ولكن قيل بأن الذي كان على الحج هو إبراهيم بن هشام، والأصح الأخير، لأنّ سليمان كان على الحج سنة 113هـ، انظر (الطبري: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992، مج4، ص148، 149).

(4) هؤلاء العلماء الذين جلس إليهم الليث بمكة عند كسوف الشمس هم ابن شهاب،وعطاء، وابن أبي مُليكة، وعمرو بن شعيب وقتادة بن دعامة، وعكرمة بن خالد وأيوب بن موسى، وإسماعيل بن أمية، يعتبر هؤلاء العلماء من أبر من أخذ عنهم فقهاء المذاهب الإسلامية، وهم رواد عصرهم.أنظر (المزي: المصدر السابق، ج24، ص265).

(5) أيوب بن موسى بن عمرو بن سعيد بن العاص بن سعيد بن أمية مات في خلافة أبي جعفر المنصور وهو من الثقات، وثقه أحمد وابن معين وأبو زرعة والنسائي، (خليفة بن خياط: كتاب الطبقات، بغداد، ط1، 1967، ص 282؛ أبي حفص عمر بن شاهين، تاريخ أسماء الثقات، دار الكتب العلمية، بيروت، 1986، ص56).

عن الصلاة بعد العصر، والنهي يقطع الأمر[1].

وهذا السؤال في مثل هذا السن والجلوس إلى العلماء يدل دلالة واضحة على رجحـان عقل الليث منذ صغره ونبوغه الفكري، حيث أنّ مجالسة العلماء بالحجاز وفي مكة لن يتأتى إلاّ من وصل درجة في العلم تخوله السؤال والرد عليه بما يناسبه.

إنّ مجالسة الليث للعلماء وهو في سن التكوين جعلته يتطلع إلى أمور لم يكن لينتبه إليها أقرانه كما جعلته يرسم طريقه المستقبلي نحو العلم والسيادة فيه، إذ اهتم بتكوين شخصيته منذ صغره ولكن على أيدي كبار العلماء الذين ستظهر مسحتهم الفقهية على هذه الشخصية.

ومن أبرز المشايخ الذين أخذ عنهم الليث هم العلماء المصريون والحجازيون وغيرهـم، فقد روى عن عطاء بن أبي رباح وابن أبي مُليكة[2] وابن شهاب الزهري ونافع مـولى ابـن عمر[3] وعياش بن عياش وأيوب بن موسى و عمرو بن الحارث[4] و أبـو الـزبير المكـي[5] و هشام بن عروة[6] و خالد بن يزيد[7] و صفوان[8] بن سليم وخلق كثير[9] أخذ عنهم الليث

---

(1) المزي : المصدر السابق، ج24، ص 265.

(2) هو عبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة و إسمه زهير بن عبد الله بن جدعان القرشي التيمي أبو بكر و يقال له أبو محمد المكي كان قاضيا لعبد الله بن الزبير و مؤذنا له توفي سنة 117هـ/735 م ، (السيوطي: الطبقات، ص48).

(3) نافع و يكنى عبد الله كان من أهل أبر شهر أصابه عبد الله في غزواته، و بعثه عمر عبد العزيز إلى مصر يعلمهم السنن روى عن ابن عمر و أبي هريرة و أسلم مولى عمر بن الخطاب كان ثقة كثير الحديث، توفي بالمدينة سنة 117هـ/ 735 م، في خلافة هشام بن عبد الملك (ابن سعد: المصدر السابق، ج4، ص97؛ السيوطي:الطبقات، ص47).

(4) عمرو بن الحارث المصري الفقيه حدث عن بن أبي مليكة و طبقته، قال أبو حاتم الرازي كان أحفظ الناس في زمانه و قال ابن وهب: ما رأيت أحفظ منه، و لم يكن له نظير في الحفظ (ابن عماد: المصدر السابق، ج1، ص223).

(5) أبو الزبير المكي محمد بن مسلم بن تدرس الأسدي روى عن جابر و ابن عمر و ابن عباس و ابن الزبير و عائشة، وثقه ابن المديني و ابن معين و النسائي و ضعفه ابن عيينة، توفي سنة 128هـ/745 م، (السيوطي: الطبقات، ص58).

(6) هشام بن عروة بن الزبير بن العوام الأسدي المدني روى عن أبيه و عمه عبد الله له أربعمائة حديث قال عنه ابن سعد: كان ثقة ثبتا كثير الحديث حجة توفي سنة 145هـ/762 م، (السيوطي: نفس المصدر، ص69)، و قيل أنه توفي ببغداد سنة 146هـ/763 م. (ابن عماد: نفس المصدر، ج1، ص218).

(7) هو خالد بن يزيد المصري الفقيه روى عن الزهري و عطاء توفي سنة 139هـ/765 م، (ابن عماد: نفس المصدر، ج1، ص207

(8) صفوان بن سليم مولى حميد بن عبد الرحمان بن عوف الزهري، يكنى أبا عبد الله كان ثقة كثير الحديث عابدا توفي سنة132هـ/749 م، (ابن سعد: نفس المصدر، ج4، ص152)، و قيل توفي سنة 124هـ/741 م،(السيوطي: نفسه، ص61).

(9) الذهبي: العبر، ج1، ص266؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص137، والذهبي: التذكرة، ج1، ص224، وابن حجر: المصدر السابق، ج8، ص459، ابن عماد: المصدر السابق، مج1، ج1، ص 285،

وتتلمذ على أيديهم وهم من هم في العلم والفتيا ، وكان الليث أشد تأثرا بيزيد بـن أبي حبيب[1].

تلامذته: أما من أخذ عنه،و نشر آراءه وفقهه فهم كثيرون، ومنهم من اتخذ مذهبا آخـر غير مذهب الليث إلاّ في بعض الفتاوى وهؤلاء الذين أخذوا عنه أبرزهم:

ابن وهب[2] وسعيد بن مريم[3]، عبد الله بن صالح[4] وهو كاتبـه، ويحـي بـن بكير[5]، وقتيبة بن سعيد[6]، وابن المبارك، وابن لهيعة[7]، وآدم بن أبي إياس[8]، وأحمد بن يونس[9]، وخلق كثير[10] أخذوا عنه وربما لم يكونوا من أتباع مذهبه، ولكن نظرا لعلمه وجهاده في ذلك أخذ عنه حتى بعض شيوخه إذ رووا عنه الأحاديث، وربمـا روى هـو كذلك عن بعض تلامذته وتلك هي حالة العصر آنذاك.

---

(1) يزيد بن أبي حبيب: مولى عامر بن لؤي مات سنة 128هـ/745م يكنى أبا رجاء وهو من الطبقة الثانية، (خليفة خياط: المصدر السابق، ص294).

(2) عبد الله بن وهب مولى قريش كان كثير العلم ثقة و كان يدلس توفي سنة 197هـ/812 م، (ابن سعد: المصدر السابق، ج5، ص420؛ السيوطي:الطبقات، ص132).

(3) سعيد بن أبي مريم هو ابن الحكم بن محمد بن سالم المصري الحافظ روى عن مالك و الليث، كان فقيها ولد سنة 144هـ/761 م، و توفي سنة 224هـ/838 م، (السيوطي: نفس المصدر، ص171،).

(4) عبد الله بن صالح يكنى أبا صالح كان كاتب الليث و راويته توفي بمصر سنة 223هـ/737 م، (ابن سعد: نفسه، ج5، ص420؛ السيوطي: نفسه، ص 172).

(5) يحي بن يحي بن بكير التيمي الحنظلي النيسابوري روى عن مالك و الليث قال عنه ابن راهويه: ما رأيت مثل يحي. توفي سنة 226هـ/840 م، (السيوطي: نفس المصدر، ص182).

(6) قتيبة بن سعيد بن جميل بن طريف البلخي أبو رجاء الثقفي أحد أئمة الحديثروى عن مالك و الليث و ابن لهيعة و ابن عوانة هو آخر من سمع عن ابن لهيعة توفي سنة 240هـ/856 م، و له نحو تسعين سنة (السيوطي: نفس المصدر، ص198).

(7) عبد الله بن لهيعة يكنى عبد الرحمان، كان ضعيفا و عنده حديث كثير توفي بمصر سنة 174هـ/790 م، في خلافة هارون الرشيد (ابن سعد: المصدر السابق،، ج5، ص419).

(8) هو عبد الرحمان بن محمد الخرساني المروزي أبو الحسن العسقلاني نشأ ببغداد و استوطن عسقلان إلى أن توفي با عن ثمان و ثمانين سنة في سنة 220هـ/836 م، (ابن سعد: نفس المصدر، ج5، ص406؛ السيوطي: نفس المصدر، ص172).

(9) أحمد بن يونس بن عبد الله بن قيس التميمي اليربوعي أبو عبد الله الكوفي كان ثقة متقنا توفي بالكوفة سنة 227هـ/841 م، (السيوطي: نفس المصدر، ص177).

(10) الذهبي: التذكرة، ج1، ص224؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص138، ابن حجر: ذيب التهذيب، ج8، ص 460، السيوطي:الطبقات، ص301، ابن عماد، المصدر السابق، مج1، ج1، ص285.

شخصية الليث وأقوال الناس:

تميز الليث بشخصية قوية فرضت وجودها في زمانها، وجلبت الانتباه إليها بقوة طرحها وحسن مذاكرتها، فهو أحد الأعلام الأثبات ثقة وحجة بلا منازع[1]، تكلم عنه معاصروه والأئمة الأفذاذ، ومن جاء بعدهم من الأتباع فقالوا فيه قولا كريما يرقى به الليث إلى مصاف العلماء العاملين.

يقول يحي بن بكير[2]: أنه كان فقيه البدن، عربي اللسان، يحسن القرآن والنحو، ويحفظ الشعر والحديث، حسن المذاكرة، ومازال يذكر خصالا – يقول ابنه – جميلة، ويعقد بيده حتى عقد عشرة لم أر مثله[3].

وبهذه المواصفات تبرز لنا صفاته الشخصية التي تميز بها عن غيره منها.

---

[1] الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، مطبعة السعادة، مصر، ج2، ص361.

[2] يحي بن بكير أبو زكريا يحي بن يحي التميمي النيسابوري الإمام العلامة الثبت والأمين الثقة قرأ على مالك الموطأ ولازمه وروى عن الليث وابن عيينة وغيرهم وعنه روى البخاري ومسلم وخرجا له في الصحيحين وابن راهويه والذهبي وغيرهم توفي سنة 226هـ/840م.(السيوطي:الطبقات، ص182؛ ابن عماد: المصدر السابق، ج2، ص59).

[3] المزي: المصدر السابق، ج24، ص268؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص147، والذهبي: التذكرة، ج1، ص226، السيوطي: حسن المحاضرة، ج1،ص301.

علمه:

لقد اعترف له الكثيرون في هذا المجال وقدروا منزلته وحفظوا عنه واستدلوا به، قال شرحبيل بن جميل بن يزيد[1] مولى شرحبيل بن حسنة: " أدركت الناس، زمن هشام ابن عبد الملك والناس إذ ذاك متوافرون – ويقصد الناس هنا العلماء – وكان بمصر يزيد ابن أبي حبيب وعبد الله بن أبي جعفر[2]، وجعفر بن ربيعة[3] وغيرهم من أهل مصر، ومن يقدم علينا من علماء أهل المدينة وعلماء الشام للرباط، والليث يومئذ شاب حديث السن، رأيتهم يعرفون لليث فضله وورعه، وحسن إسلامه ويقدمونه ويشار إليه عن حداثة سنه[4].

وقد حاز الليث ثقة وتزكية الإمام مالك من المدينة إذ بعث إليه برسالة مشهورة جاء فيها: " وأنت في إمامتك وفضلك، ومنزلتك من أهل بلدك، وحاجة من قبلك وبعدك، واعتماد ما جاء منك"[5].

وقال الشافعي في علمه أيضا: " ما فاتني أحد أسفت عليه ما أسفت على الليث، وابن أبي ذئب[6]، والليث أفقه من مالك إلاّ أنّ أصحابه لم يقوموا به، كان أتبع للأثر من مالك[7].

---

(1) شرحبيل بن جميل بن يزيد مولى شرحبيل بن حسنة لم نجد له ذكرا.أما شرحبيل بن حسنة فهو كندي الأصل نسب إلى أمه ، وأبوه عبد الله بن مطاع هاجر إلى الحبشة واستعمله عمر على بعض الشام مات بالطاعون سنة 18 هـ (ابن عماد :المصدر السابق ،ج1 ،ص30).

(2) عبد الله بن أبي جعفر مولى بني أمية كان ثقة بقية زمانه توفي سنة 135هـ/752 م أو 136هـ /753 م أنظر (ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص514).

(3) جعفر بن ربيعة بن عبد الله بن شرحبيل بن حسنة حليف بني زهرة بن كلاب وهو شرحبيل بن عبد الله بن المطاع بن عمرو بن عبد العزى بن قطن بن الغوث بن مره، وحسنة أم شرحبيل ولاؤها لمعمر بن حبيب الجمعي توفي سنة 135أو 136هـ/752-753م. (خليفة خياط: المصدر السابق، ص295).

(4) المزي: المصدر السابق، ج24،ص268.

(5) المزي: نفس المصدر، ج24، ص269؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص156.

(6) ابن أبي ذئب هو من بني عامر بن لؤي، من الطبقة الرابعة من قريش، (خليفة خياط: المصدر السابق، ص262).

(7) المزي: نفس المصدر، ج24، ص270؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص156.

ويؤكد قوله في أهل مصر والليث بالأخص يقول: " ليس فيهم أصح حديثا من الليث، فهو كثير العلم صحيح الحديث"[1].

وهكذا يظهر لنا تقدير أصحاب المذاهب المشهورة لفقه الإمام الليث بن سعد واعتمادهم على روايته والوقوف عند رأيه - واعتباره - ولن يعترف علماء أمثال هؤلاء بفضل وعلم وورع إلاّ لشخص أكبر منهم علما، اقتداء به وانبهارا بآرائه.

ويذكر ابن سعد والذهبي أنه كان ثقة كثير الحديث، صدوقا، قد استقل بالفتوى... وهو إمام قد أوجب الله علينا حقّه - أي في الاتباع والذكر الحسن -[2].

وتلاميذ المذاهب الأخرى اعترفوا له بالفضل والزعامة إذ أنّ ابن وهب[3] كان مرة يقرأ مسائل الليث، فمرت مسألة، فقال رجل من الحاضرين الغرباء، أحسن والله الليث، كأنه كان يسمع مالكا يجيب فيجيب، فقال ابن وهب للرجل: بل كان مالك يسمع الليث يجيب فيجيب والله الذي لا إله إلا هو ما رأينا أحدا قط أحفظ من الإمام مالك[4]، ونظرا لعلمه واهتمامه بالحديث فقد جعل في الطبقة الخامسة من أهل مصر[5].

---

(1) المزي : المصدر السابق، ج24، ص262.261.

إلاّ أنّ الإمام أحمد يؤاخذ عليه بعض الأمور، إذ يقول في أخذه سهولة، ولعلّ سبب الأخذ بالسهولة يرجع إلى قرب عهده بالصحابة ومعاشرته للتابعين كما لم يكن هناك في مصر الوضع والكذب في الأحاديث مثلما كان بالعراق..

وقد قال أيضا يحي بن معين أنّ الليث يتساهل في الشيوخ والسماع وكان من أهل المعرفة إلاّ أنّ عبد الله بن أحمد بن حنبل يرد على ذلك فيقول: " ما هو بدون مالك ولا سفيان وما تساهل الليث فهو دليل على الجواز لأنه قدوة، (الذهبي: ميزان الاعتدال، ج2،ص361).

(2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص155؛ السيوطي:حسن المحاضرة، ج1، ص301.

(3) ابن وهب. أبو محمد عبد الله بن وهب بن مسلم القرشي. الجامع بين الفقه والحديث، أثبت الناس في مالك، روى عن أربعمائة عالم منهم الليث ، وابن أبي ذئب وغيرهما، وصحب مالك 20 سنة سمع منه، الموطأ والجامع الكبير، روى عنه سحنون وابن عبد الحكم، (محمد بن مخلوف: المصدر السابق، ص59،58.

(4) الشيرازي: المصدر السابق، ص78.

(5) المزي: المصدر السابق، ج24، ص261.

كانت حجته دامغة لما يزخر به من حسن استماع وحسن ذود عن الحق وإبطال حجج معارضيه، وذلك ما نلاحظه من خلال بعض ا ادلات التي كانت بمصر، إذ أنـه ناظر ربيعة بن عبد الرحمن[1] في مسائل وقد فرفر أهل الحلقة (أي كسر أهـل الحلقـة وغلبهم حجة)[2].

ومن خلال أقوال هؤلاء العلماء نخلص إلى أنّ الليث كان صاحب علم في الحديث وأحكام القرآن واللغة والنحو، وهي ركائز تجعل صاحبها يمتاز بحسن الأداء في الفقه، ولذا فقد اعترف له من جاء بعده وعلى رأسهم الشافعي إذ تحسر على عدم ملاقاته حتى يسمع ويأخذ عنه علم مصر.

ولعل أثره الفقهي يظهر أكثر حينما يستقر الإمام الشافعي بمصر[3] فيطّلع على علم الليث وآرائه التي بقيت إلى ذلك الزمان، فيغير الشافعي الكثير من آرائه وفتاويه التي كان عليها في العراق والحجاز إلى فتاوى جديدة، ولذلك فقد قسم العلماء فقه الـشافعي إلى قسمين القديم والجديد، بل ويعمد الشافعي إلى تحرير أصول الفقه التي يجب على كلّ فقيه اعتمادها في أثناء استنباطاته للأحكام وينتصر للإمام الليث أمام فقيه المدينة " دار الهجرة" الإمام مالك.

---

(1) ربيعة بن عبد الرحمن أبو عثمان فروخ مولى المنكدر المدني المعروف بربيعة الرأي مفتي المدينة الإمام الجليل الثقة أدرك جماعة من الصحابة، وأخذ عنهم، منهم أنس بن مالك وأخذ عنه أئمة منهم مالك، توفي سنة 136هـ/753م، (محمد بن محمد مخلوف: المصدر السابق، ص46)، وقال خليفة بن خياط أنه توفي سنة 130هـ/747م، (خليفة بن خياط: المصدر السابق، ص268).

(2) المزي: المصدر السابق، ج24، ص267.

(3) بعد إقامته (الشافعي) ببغداد للمرة الثانية رحل إلى مصر ووصل إليها سنة 199هـ/814م، رغم أنّ بغداد عاصمة الخلافة إلاّ أنّ الفتنة التي اندلعت بعد وفاة هارون الرشيد بين ولديه جعلت الشافعي يفكر أكثر في السفر إلى مصر، انظر أسباب الحادثة وأثرها على هجرة الشافعي،(أبو زهرة: تاريخ المذاهب، ص 447).

ثراؤه وسخاؤه:

كان الليث في أوائل أيامه يهتم بالعلم ويجتهد في الأخذ من أفواه العلماء، خصوصا وأنه قريب عهد من التابعين، فقام برحلات وناظر علماء وراسل آخرين، فصار له علـم كثير وفقه وفير، ولكن الليث لم يهتم بالعلم فقط بل اجتهد في الأمور الدنيوية فصار غنيا ثريا ذا مال كثير إذ يمكن أن نسميه الفقيه الغني.

ومن أبرز أسباب ثرائه عدة أمور أهمها:

- الأعطيات التي كان الولاة والخلفاء يصلونه بها من حين لآخر تشجيعا للعلمـاء على بذلهم وللطلبة على اجتهادهم، وتحفيزات كانت لا تغني العلماء عن السؤال فحسب بل تزيد من مكانتهم في المجتمع وتثري رصيدهم المالي.

- وهناك قصة في ثرائه، ذلك أنّ الليث كانت له دار بقلقشندة بـالريف بناهـا، فهدمها ابن رفاعة[1] عنادا له، ثم بناها الليث ثانية فهدمها ابن رفاعة، فلما كانت الثالثـة أتاه آت في المنام وقال له: "قم يا ليث" ثم قرأ قوله تعالى: " ونريد أن نمنّ على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين"[2]، فأصبح وقد فلج ابن رفاعة فأوصى إليه – إلى الليث في التركة – ومات بعد ثلاث[3]، كان هذا مـصدر استرزاق الليث وسببا من أسباب ثرائه إذ صار له مال كثير ومع ذلك جود كبير.

- وقد كان يعمل بهذه التركة في التجارة، ووصل رأسماله إلى أزيد من عـشرين ألف دينار في كل سنة وقال آخرون أنّ دخله كان ثمانين ألف دينار، إلاّ أنه ما وجبـت عليه زكاة درهم قط[4].

---

[1] ابن رفاعة هو أمير مصر أيام الليث بن سعد وهو ابن عمه (ياقوت:المصدر السابق ،ج4 ،ص328 .

[2] سورة القصص آية 05.

[3] ياقوت: نفس المصدر ، ج4، ص328.

[4] الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص148.

- ثم هو حسن التدبير والتصريف لهذه الثروة، بما له من عقل راجح و مـسؤولية تجاه هذا المال الذي يعرف أنه سيسأل عنه من أين جلبه و فيما أنفقه؟.

لم يكن الليث من المتقشفين البخلاء، بل كان يكرم نفسه ويظهر في مظهر لائـق بعالم غني، فهو يحب أن يرى أثر نعمة ربه عليه، ويعمل بالآيـة "وأما بنعمة ربّك فحدّث"[1].

فلقد خرج الليث يوما فقوموا ثيابه ودابته وخاتمه وما عليه ثمانية عشر ألف درهم إلى عشرين ألفا، فقال أحدهم لكن خرج علينا شعبة يوما فقوموا حماره وسرجه ولجامـه ثمانية عشر درهما"[2].

ومن مظاهر ثرائه أنه كان يركب في جميع الصلوات إلى الجامع ويتـصدق علـى ثلاثمائة مسكين كل يوم، ولكن مع هذا الثراء لم يغتر الليث بالدنيا التي فتحـت عليـه وأمامه، بل كان المال في يديه يتحكم فيه، حسن التصرف، وليس بسفيه، فهو يتمتع بـه ويوزعه على الناس سخاء، ويبعث به إلى ذوي الحاجة، ويصل العلماء، والقصص كـثيرة لا تخفى تذكر جوده وكرمه بما ملك من أموال وتجارة وعسل.

فقد سألته امرأة منا من عسل، فأمر لها بزق[*]، فقال له كاتبه أنها سـألت منـا؟ فقال الليث: " إنها سألتني على قدرها، فأعطيناها قدر السعة عندنا"[3].

---

(1) سورة الضحى، آية 11.

(2) أحمد فريد: المرجع السابق، ص316، تدل الرواية بأن الليث كان إنسانا غنيا نظرا لحالة اليسر التي كان يعيشها، كما تدل على أنّ الناس ينظرون إلى مثل هذه المظاهر، وربما جعلتهم يقارنون بين هؤلاء فيـ عون إلى طرف دون آخر قياسا على المظهر وليس على المخبر.

(*) الزق :السقاء ،وكل وعاء اتخذ للشراب ونحوه ،وقال أبو حنيفة الزق الذي ينقل فيه (ابن منظور:لسان العرب ،دار لسان العرب ،بيروت، ج2 ،مادة زقق ،ص33).

(3) المزي: المصدر السابق، ج24، ص274؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص149، وفي رواية أخرى أنها سألته أن يعطيها عسلا لابنها المريض، فأعطاها مرطا من عسل، والمرط عشرون ومائة رطل، (أحمد فريد: نفسه ج1 ص320).

كان الليث يطعم الناس في الشتاء الهرائس بعسل النحل وسمن البقر، وفي الصيف سويق اللوز في السكر انظر (الذهبي: سير الأعلام، ج8، ص150).

كان الليث سخيا صاحب ضيافة[1]. وقد بلغ سخاؤه العلماء، إذ كان يـوزع المـال والأقوات على أهل العلم استغناء منه وتورعا[2]. حيث وصل علماء عصره وأنفق على تلاميذ حلقته، ومن بين صلاته أن أعطى ابن لهيعة[3] ألف دينار، وأعطى مالكا ألف دينـار وأعطـى منصور بن عمار[4] ألف دينار وجارية تساوي ثلاثمائة دينار[5].

وهذا العمل يظهر لنا مدى سخاء الليث من جهة، ومدى اعترافه بأهل العلم من جهة أخرى، وأنّ العلاقات بين العلماء لم تكن عبارة عن مراسلات وكتابات فحسب، بل كانـت كذلك أعطيات يأخذها هذا من ذاك، وهو ما تبينه لنا قصته مع الإمام مالك،"إذ بعـث إليـه مالك بطبق رطب حين قدم المدينة فجعل على الطبق ألف دينار ورده إليه"[6]، كما أنّ الإمام مالك طلب من الليث أن يساعده في تزويج ابنته، فبعث إليه الليث بمال كثير، كفاه لمدة[7].

وقصص سخائه كثيرة جدا، تبرز مدى ثراء الليث، ومدى كرمه سواء على العلماء أو طالبي العلم أو الفقراء، أو حتى المساجد التي كانت بحاجة إلى عناية، وإذ التقى الثراء بالـسخاء في شخص واحد فاعلم أنه زاهد في الدنيا، فربما الزهد لا يكون له معنى عند الفقير أكثر ممـا يكون له عند الغني.

وهكذا اكتملت صفات الليث بين العلم والورع من جهة، والمال والسخاء من جهـة أخرى فهو الفقيه الغني.

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء ،ج8، ص156.

(2) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام دار الجيل، بيروت، ط13، 1991،ج2، ص271.

(3) ابن لهيعة هو عبد الله بن عقبة الحضرمي، يكنى أبا عبد الرحمن مات سنة 174هـ/790م وهو من الطبقة الرابعة بمصر صاحب الليث، (خليفة خياط: المصدر السابق، ص296)، وقد ذكره حسن إبراهيم حسن بأنه أول قاض بمصر (154هـ/164هـ) حضر الاحتفال لإثبات رؤية الهلال، (حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج2، ص281).

(4) منصور بن عمار الواعظ بن كثير بن السري السلمي من أهل خرسان سكن بغداد و حدث با عن الليث و غيره يقال أنه من أهل مرو، و من أهل أبيورد و غير ذلك، جاء مصر و أقطعه الليث خمسه عشر فدانا، أنظر(الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج13، ص 71).

(5) أبو نعيم الأصفهاني ي: المصدر السابق، ج7، ص322؛ الذهبي: نفسه، ج8، ص148.

(6) الذهبي: نفسه، ج8، ص150.

(7) نفسه: ج8، ص148.

المبحث الثاني: آراؤه ومواقفه تجاه السلطان

أ- آراء الليث

كان الليث بن سعد إمام الديار المصرية، وقد بلغ منزلة لم يبلغها عالم آنذاك في الأمصار من حيث حب الرعية له وقربه من الولاة، بل كان والي مصر بلا تقليد ولا منازع، كما كان ذا حنكة في توجيه الراعي والرعية إلى الرأي السديد والعمل وفق الكتاب والسنة. وكان أمراء مصر لا يقطعون أمرا إلاّ بمشورته حتى قال الشاعر في ذلك، ووصل إلى المنصور هذا الشعر:

لعبد الله عبد الله عندي نصائح حكتها في السر وحدي

أمير المؤمنين تلاف مصرا فإنّ أميرها ليث بن سعد (1)

إنّ الليث لم يبلغ هذه الدرجة إلاّ بعد أن عرف الناس صدق نيته، وحسن تصرفه، وربما السخاء الذي كان منه، جعله أقرب للناس، وأنفذ كلمة فيهم، ثمّ ما زاد من قوة الليث في التأثير كده في تعليم الناس والجلوس إليهم.

في إصلاح الأمة

لقد كان لليث بن سعد أربعة مجالس يجلسها، أولها مجلس لنائبة السلطان فيحكم ويقضي، ويشير في نوائبه وحوائجه، وقد كان الليث يغشاه السلطان، ولذلك إذا أنكر شيئا عن قاض أو أمير كتب فيه إلى أمير المؤمنين فعزله، ويجلس لأصحاب الحديث، فيقول لهم:" نبهوا أصحاب الحوانيت فإنّ قلوبهم معلقة بأسواقهم، ويجلس للمسائل كذلك فيغشاه الناس فيسألونه ويجيبهم، ويجلس مجلسا أخيرا لحوائج الناس، فلا يسأله أحد إلاّ وأعطاه حاجته كبرت أم صغرت[2].وفي مجلسه للولاة والقضاة كان يراجع فيها أعمالهم ويقيسها على الكتاب والسنة فإن وافقت قبلها وإن خالفت أرشد إلى الصواب أو كتب إلى أمير المؤمنين[3].

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص188.

(2) المزي: المصدر السابق، ج24، ص275-276؛ الذهبي: نفسه، ج8، ص150.

(3) أبو العينين: المرجع السابق، ص238.

وبالنظر إلى هذه المجالس التي كان يجلسها يظهر لنا حرص هؤلاء العلماء على الولاة والقضاة من جهة وعلى الرعية من جهة أخرى.

كما تبرز لنا هذه المجالس طريقة إصلاح الليث بن سعد لحالة الأمة، لأجل بلوغ الأهداف السامية التي رسمها الشرع وهذه الطريقة تقوم على ثلاثة أسس هي:

1 - إسداء النصيحة لولاة الأمور وتقويم أعمالهم، وإرشاد الخلفاء، إلى ما يصلح الرعية، وترشيح من يقوم عليها من ولاة وقضاة، من ذوي الكفاءة والنزاهة والعلم بأحوال الناس وأحكام الشرع، والتعقيب والتقويم للقضاة الذين كانوا يستشيرونه في أمور عدة لمكانته، وفي ذلك عدة أمثلة أهمها: " أنه التقى بهارون الرشيد الذي سأل الليث فقال: ما صلاح بلدكم يا ليث؟ فأجاب الليث: صلاح بلدنا يا أمير المؤمنين، بإجراء النيل وإصلاح أميرها ومن رأس العين يأتي الكدر، فإذا صفا الرأس صفت السواقي فقال هارون: صدقت يا أبا الحارث"[1].

2 - جلوسه إلى العلماء هو ترشيد للعقل المفكر والمؤثر في الرعية والسلطان، ذلك أنّ العالم آنذاك - وفي كل زمان ومكان - كان له تأثيره الخاص ونفوذه الواسع على الرعية والسلطان فإذا انفتح الفكر وازدهر كان ازدهار الدولة. وقد وصل به الأمر إلى أن يصل العلماء بالعديد من الأمور المادية - أموال وبضائع - كعربون مودة ووسيلة كسب الثقة، و إصلاح حالهم لأجل التفرغ لمهمة التعليم و التنوير، و إصلاح حالهم هو إصلاح للرعية.

3- توعية الرعية وتعليمها والقيام عليها ماديا ومعنويا، فتراه يقدم المساعدات والهبات ويجلس لسماع مسائلهم وأقضيا م، والنفقة عليهم.

وبذه الوسائل يمكن أن تزدهر أية دولة وتحقق رغبها فتنال شرف الريادة.

إنّ الليث يبرز طريقة شاملة في إصلاح الأمة تقوم على وسائل سياسية وعلمية واجتماعية واقتصادية، إنه الأسلوب الراقي الذي لا يدع شأنا من الشؤون إلاّ أدرجه في عملية الإصلاح ليكون أكثر شمولية وتأثيرا.

---

[1] أبو نعيم الأصبهاني: المصدر السابق ج7 ص322.

ولعل المدارس اليوم في طريقة التنمية وكيفية النهوض بالدول تختلف في نظر ا، فمنهم من يعتمد الأسلوب السياسي، ومنهم من يعتمد الأسلوب الاجتماعي ومنـهم مـن يعتمـد الأسلوب الاقتصادي، إلاّ أنّ الليث سبقهم في ذلك بإشارته إلى شمولية المنهج والارتقاء بوسائله بطريقة علمية وتوعية شاملة، وهو الأسلوب الذي قدمه الـشارع في ذلـك، إذ لا يقتـصر الإصلاح على مجال واحد فحسب، بل يعتمد الشمولية.

وكان نتيجة هذه الجهود التي قدمها الليث وأمثاله أنّ الأهواء والبدع في زمنه كانـت قليلة والسنن عزيزة ظاهرة، فأما الزمن الذي جاء بعده فإنها قد صـارت أكثـر انتـشارا، إذ ظهرت الفتن وامتحن أهل الأثر ورفع أهل الأهواء رؤوسهم[1]، ويظهر ذلك من خلال كثـرة الجدل بالكتاب والسنة أولا ثم بالمعقول وعندها اشتد الـ اع.

أما من حيث الآراء التي طرحها الليث بن سعد في المسائل الرائجة آنذاك، فيما يخـص الكلام في خلق القرآن وصفات الله وغيرها، مما كانت تروجه الفرق التي ظهرت أكثر في العهد العباسي نظرا لحرية الرأي المكفولة – ونظرا كذلك – لطبيعة الشعوب التي دخلت الإسـلام بعادات وتقاليد بل وأفكار لم تتنصل عنها، بالإضافة إلى الخلاف الموجود منذ ايـة العهـد الراشدي حول الإمامة فيمكننا أن نوضح بأنّ الليث بن سعد – بحكم طبيعة شخصيته – كان مربيا قدوة، ولذا كانت آراؤه تصب في إطار المحافظة على ا تمع الإسلامي مع مراعاة عـدة أمور كانت تحكم مصر وتميزها، وتتجلى لنا آراء الليث البناءة كذلك فيما يلي:

-أنه عمل على محاربة هؤلاء الذين ينتقصون من قيمة الصحابة وضـربهم بنعـوت لا تليق، والتشنيع ببعضهم نظرا لمواقف سياسية. فلقد كان أهل مصر ينتقصون عثمان بن عفـان حتى نشأ فيهم الليث وحدثهم بخصاله وفضائله فكفوا، مثلما كان أهل حمص ينتقصون عليـا فنشأ فيهم إسماعيل بن عياش فحدثهم بخصال علي فكفوا كذلك[2]. أي أن الليث و من على شاكلته كان لايرى المفاضلة بين الصحابة التي تؤدي إلى التفرقة في الدين و ضـرب

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص144، وأمثلة ذلك ما وقع أيام المأمون من فتنة خلق القرآن وطغيان أصحاب الأهواء وسجن الإمام أحمد بن حنبل وما أصابه من ضرب شديد و ديد بالقتل وامتد هذا إلى زمن المعتصم ثم الواثق، انظر (ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص330 وما بعدها).

(2) المزي: المصدر السابق، ج24، ص270 ؛ الذهبي: نفسه، ج8، ص148، والظاهر أن أمر الشيعة بدأ يدب في مصر التي فر إليها الكثير من الشيعة أيام العباسيي، فمنهم من يبقى في مصر ومنهم من يفر إلى المغرب وهناك تؤسس الدولة الفاطمية وتظهر رايتها في مصر فيما بعد.

المصادر التي أخذت عن الرسول صلى اله عليه وسلم ويعتبر هذا ضرب للدين خـصوصا وأنّ عثمان بن عفان كان أمير المؤمنين[1] وصحابيا جليلا.

ومن هنا فقد كان لا يرى التشيع إلى صحابي بقصد ضرب الصحابة الآخـرين، وإثارة الفتنة بين المسلمين. وهذا يظهر لنا الموقف السياسي للإمام الليث تجـاه الـشيعة الذاهب فيه مذهب أهل السنة والجماعة، وهو إذ يظهر هذا الاتجاه، فهو يبتعد كذلك عن فكرة الخوارج الذين انتقصوا من بعض الصحابة، بل وصل بم الأمر إلى تكفير الناس.

- أما في الأخبار التي في الصفات - صفات الله - والتي كان مدار الخلاف فيهـا كبيرا، وللفرق الدينية فيها مذاهب، فإنّ رأي الليث كان صريحا، إذ يقـول: " خـذوها كما جاءت" وقال أيضا: " ما أدركنا أحدا يفسر هذه الأحاديث ونحن لا نفـسرها"[2]، وهو مذهب أهل السنة والجماعة في قضية أحاديث الصفات.

- كما تبرز لنا آراء الليث وشخصيته النافذة ورؤيته البصيرة أكثر في الفصل فيما كانت تتميز به مصر إلى يومنا وهو موضوع النصارى، إذ أنّ الإسلام دخل مصر وقـد كانت تابعة للروم وانتشرت با النصرانية، وكان من الضروري أن يحافظوا على كنائسهم أو يرمم بعضها أو يبنى البعض الآخر نظرا لتهدمها، ولذلك فقد أذن الوالي[3] للنـصارى ببناء الكنائس التي دمت سابقا. مع العلم أنّ الوالي لم يتخذ هذا الإجراء ولم يـأذن إلاّ بعد استشارة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة فقيها مصر، وقالا: هو من عمارة البلاد، واحتجا بأنّ عامة الكنائس التي بمصر لم تُبن إلاّ في الإسلام في زمن الصحابة والتابعين[4]. إن موقف الليث في مثل هذه الحوادث تظهر مدى التسامح الذي عبر عنه، بل يتجـاوز

---

(1) حكم الخليفة عثمان بن عفان من سنة 23هـ /641م إلى سنة 35هـ/653م حيث قتل بعد حصار انظر(ابن كثير: المصدر السابق، ج7، ص144).

(2) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص162، ومن صفات الله في القرآن والسنة مثلا، كيد الله وعين الله ووجه الله ووضع الله رجله في النار يوم القيامة، حيث امتنع الجمهور عن الخوض فيها ومنهم الليث في حين ذهب آخرون إلى تأويلها وتفسيرها فوقعوا في المحظور وانشطر الناس إلى فرق، انظر (عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، المكتبة العصرية، بيروت،ط1993، ص225).

(3) الوالي هو موسى بن عيسى في ولايته الأولى على مصر (171-172هـ/788،787م).

(4) سيد إسماعيل كاشف: المرجع السابق، ص187.

التسامح إلى عدم الإنكار على الأمير واعتبار تشييد الكنائس من عمارة البلاد، فهو بـذلك لا يظهر الاهتمام بالمسلمين فحسب، بل حتى بغير المسلمين الذين يرى لهم حقوقا يجب أن تكفل وعقائد يجب أن تعتبر ومصالح يجب أن تحقق.

وما نستشفه من خلال هذه الآراء الثلاثة الأساسية،أنّ الليث كان يحرص كل الحرص على أن يبقى المجتمع المصري ثم الإسلامي عامة متمسكا بالسنة الصحيحة والمنهج السليم، بعيدا عن كل ما يشين هذا المنهج – أهل السنة والجماعة – من فرق كلامية أو شطحات صـوفية. وعليه فقد بقيت مصر مدة طويلة بعيدة نسبيا عن النزاعات التي كانت تميز العراق أو غيرها.

مـواقـفـه:

-أما موقفه من السلطان " أي السلطة آنذاك – المتمثلة في الخليفة و الـوالي – فقـد عاصر الليث بن سعد في قمة عطائه أربعة خلفـاء عباسـيين منـذ 136هـ /756، إلى 175هـ /791[1]

وما يمكن ملاحظته من خلال تعامل الليث مع الخلافة عموما، عدة أمور أبرزها:

1- أنه كان لا يرى الخروج عن الخليفة – وهو أمير المؤمنين – يجـب أن يطـاع، بدليل علاقاته الطيبة مع الخلفاء والأمراء والولاة وانكاره على الخوارج والشيعة وغيرهم[2]

2- أنه كان يسدي لهم النصائح والآراء ويوجه سياستهم، خصوصا حينما يطلبـون مشورته ورأيه.

3- وربما تدخل بقوة الحجة ومتانة العلاقة مع الخلفاء لتنحية وال أو قاض خرج عـن الحدود أو أثار الرعية.

---

[1] الخلفاء العباسيين الذين تعامل معهم الليث الذين عايشهم أثناء فتوته وعطائه هم: أبـو جعفـر المنـصور (136-158هـ /753-774م)، محمد المهدي (158-169هـ/774-785م)، موسى الهادي (169-170هـ/785-786م)، هارون الرشيد (170-19مهـ/786-808م)، إلاّ أننا لم نجد له موقفا أو علاقة مع موسى الهـادي ويعـود السبب إلى أنّ خلافة الهادي لم تدم إلاّ فترة قصيرة ليخلفه أخوه هارون الرشيد سنة 170هـ.

[2] حينما انتصر حنظلة بن صفوان والي افريقية من قبل هشام بن عبد الملك على الصفرية التي أرادت إحتلال القيروان سـنة 125 هـ ووضع حدا لكل من عكاشة بن ايوب الصفري البربري في موقعة القرن و عبد الواحد في موقعة الأصنام وسرت بشائر الإنتصار إلى مصر قال الليث :ما من غزوة كنت أحب أن أشهدها بعد غزوة بدر أحب إلي من غزوة القرن والأصنام انظر (موسى لقبال :المغرب الإسلامي ،ص162)

4- لم يكن الليث من النافرين أو المعارضين، بل كان يدخل على الخلفاء، والولاة ويغشونه أيضا، ويتعامل معهم، وفي نفس الوقت لا يتوسل إليهم أو يخضع لهم، بل كـان يتعفف عن أعطيا م ويتهرب من المناصب، إلاّ إذا رأى حرجا أو ضـغطا كـبيرا فإنـه يستجيب حتى لا تثار الفتن.

5- ويلاحظ إعجاب الخلفاء بشخصية الليث وتوددهم إليه، وهي علاقة طيبـة يجب أن تكون بين العالم والراعي.

- فعلاقته مع المنصور معروفة، حيث سمع المنصور بفضل الليث بن سعد و مدى حرصه على العامة وتنبيهه للولاة، وقد وجد المنصور في ذلك إعانة له في إقلـيم مـصر، وهذا ما جعله حينما لقي الليث ببيت المقدس[1]. يقول له: أعجبني ما رأيت من شـدة عقلك، والحمد لله الذي جعل في رعيتي مثلك، فأتقي الله في الرعية [2]

ولقد وصل إعجاب المنصور بالليث إلى أن يطلب منه أن يلي له مصر فكـان رد الليث أن قال: " يا أمير المؤمنين إني أضعف عن ذلك، إني رجل من المـوالي[3]، فقـال المنصور: ما بك ضعف معي، ولكن ضعفت نيتك"[4] .

ويظهر من هذه القصة أنّ الليث – ربما – كان يتعفف عن المـسؤولية، أو أ ـا تشغله عن مهام العلم و التفقه و قد أقبلت عليه، وذلك أنّ الخليفة أظهر الإعجاب بـه، وأنّ الناس في مصر كانوا تبعا له في الفتيا، وأنّ الولاة يخشونه إلاّ أنه تحجج باعتباره مـن

---

(1) دخل المنصور بيت المقدس وزار الشام سنة 154هـ/770م، (ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص111).

(2) المزي: المصدر السابق، ج24، ص265؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص151.

(3) من خلال هذه الحجة " اعتباره رجلا من الموالي، نستدل بأنّ الليث بالفعل أصله غير عربي، وأنه من بلاد فرس كما سبق.

(4) الذهبي: العبر في خبر من غبر، ج1، ص267؛ الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار الكتب العربية، بيروت، ط1955، ج1، ص225، ويذكر أنّ المنصور قال له " دلني على رجل أقلده مصر" ، فأشار الليث بعثمان بن الحكم الجذامي الذي توفي سنة 163هـ /780 م ونقل عن ابن وهب أنه أول من أدخل مسائل مالك إلى مصر، وقال عنه الليث إنه رجل له صلاح وله عشيرة، فبلغ ذلك عثمان، فعاهد الله ألا يكلم الليث. انظر (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص 156).

الموالي. وهذا سبب من أسباب اندثار مذهبه، فلو أخذ الولاية لصار مذهبه أكثر انتشارا، وما زاد في التعجب أكثر أنه يؤثر بالولاية شخصا آخر هو عثمان بن الحكم الجـذامي. وهو تلميذ الإمام مالك الذي كان يعارضه الليث في كثير من المسائل. فهل كان الليـث يدري بمذهب عثمان بن الحكم؟ أم أن تقاطع مدرسته بمدرسة الإمام مالك كان له نقاط عدة تصب في مدرسة الأثر جعلت الليث يرضى به واليا؟.

إنّ الليث لم يسع إلى تولية عثمان بن الحكم فقط، بل كانت له الكلمة في تثبيت أي وال لمصر، إذ يندر أن يولي الخليفة أحدا بدون استشارة الليث، وقد تولى ــ الليث - كذلك ثلاث ولايات لصالح بن علي[1]، إذ يذكر أنّ صالحا هذا وعد أن لا يـدع الليث حتى يتولى له، فقيل له لا يفعل فقال صالح: لأضربن عنقه، فسمع الليـث ذلـك، فتولى ديوان العطاء وتولى الجزيرة[2] أيام المنصور مثلما سيتولى الديوان أيام المهدي[3].

وكان المهدي معجبا به أيضا، مما دفعه إلى أن يوصي وزيره[4]، إذ قال له: " ألزم هذا الشيخ فقد ثبت أنه لم يبق أحد أعلم بما حمل منه"[5].

ويُظهر هذا القول بأنّ الليث كانت له مكانة رفيعة لدى العباسـيين، يتـشرفون بلقائه ويسمعون منه وينفذون آراءه ويبرز أكثر هذا المنحى في عهد المهدي، حيـث أنّ

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص157، وصالح بن علي بن عبد الله بن عباس بن هاشم الأمير عم السفاح والمنصور أول من ولي مصر من قبل خلفاء بني العباس سنة 133هـ/750م، وضمت إليه ولاية الجزيرة، ولد سنة 93هـ/ 711م، وتوفي بقنسرين سنة 151هـ/768م.، (أبو نعيم الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص319).

(2) الجزيرة: هي محلة من محال الفسطاط سميت جزيرة لأنّ النيل إذا فاض أحاط بـا الماء حال بينها وبين عظم الفسطاط واستقلت بنفسها، وبـا أسواق وجامع، ومنبر، وهي من متـ هات مصر، فيها بساتين وللشعراء في وصفها أشعار كثيرة، انظر (ياقوت: المصدر السابق، ج2، ص139).

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص157.

(4) يعقوب بن داود بن طهمان، أبو عبد الله، مولى عبد الله بن حازم السلمي، استوزره المهدي وحظي عنده جدا ثم سجنه المهدي لوشاية جارية مدة 15 سنة في البئر حتى عمي وأخرجه هارون الرشيد وأكرمه، وتوفي بالبصرة سنة 182هـ/798م(ابن كثير: المصدر السابق، ج10،ص182).

(5) المزي: المصدر السابق، ج24، ص269؛ الذهبي: التذكرة، ج1، ص226.

وزيره يعقوب بن داود أشار بإسماعيل بن اليسع الكندي على أن يتولى قضاء مصر، فكان أن تولى القضاء وكان واليها إبراهيم بن صالح[1]، وإسماعيل الكنـدي الكـوفي حنفـي المذهب، ولم يكن أهل البلد يعرفونه، بل كان محمودا عندهم، وكان سبب عزله أن كتب الليث فيه إلى المهدي، يشتكيه ويطلب عزله وقال: " يا أمير المؤمنين إنك وليتنا برجـل يكيد سنة رسول الله ρ بين أظهرنا مع أنا ما علمنا في الدينار والدرهم إلاّ خيرا، فكتـب بعزله، ورد غوث بن سليمان[2] على القضاء[3]، وسبب العزل هذا كان حينمـا أبطـل إسماعيل بن اليسع الأحباس[4] (الأوقاف)، فثقل ذلك على أهل مصر وشنئوه، وكان لليث مناظرة مع إسماعيل بن اليسع في هذا الشأن[5].

ولقـد التقى الليث كـذلك بـهارون الـرشيد، واستشاره الـرشيد فقـال: مـا صـلاح بلـدكم؟ قـال الليث: يـا أمير المؤمنين صـلاح بلـدنا بإجـراء النيـل، وإصـلاح أميـرها، ومن رأس العين يـأتي الكـدر، فـإذا صفا الرأس صفت السواقي. فقال هارون: صدقت يا أبا الحارث"[6]. وذُكـر أنّ مناقشة وقعت بين هارون

---

(1) إبراهيم بن صالح بن عبد الله بن عباس تولى مصر أيام المهدي سنة 165هـ/ 781م إلاّ أنه تراخى عن بعض المعارضة فعزله المهدي عزلا قبيحا سنة 167هـ/783م ثم تولى ولاية ثانية أيام الرشيد 176هـ/794م وتوفي في نفس السنة، (ابن عمر الكندي: تاريخ ولاة مصر وقضاة، مؤسسة الكتاب الثقافية، ط1، 1987، ص100).

(2) غوث بن سليمان ولي القضاء بمصر سنة 167هـ/783م من قبل المهدي، توفي سنة 168هـ/784م جاء بمكيدة من الوالي إبراهيم بن صالح وسراج بن خالد صاحب البريد بمصر انظر القصة في (الكندي: نفس المصدر، ص281).

(3) محمد بن خلف بن حيان (وكيع)، أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت، ج3 ص236.

(4) إبطال الأحباس، أنه يمكن لمن وقف معينا إن أراد أن يسترجعه أن يأخذه، وهو مذهب الأحناف، وخالف ذلك الليث بن سعد كما سنرى في مبحث فقهه، و يقول الشاطبي أن أهل العراق لايبطلون الأحباس هكذا على الإطلاق، و من حكى عنهم ذلك فإما على غير تثبت أو أنه كان قولا لهم رجعوا عنه، بل مذهبهم يقرب من مذهب مالك، وفيه جواز تعويض الأحباس، أنظر (الشاطبي: الإعتصام، دار المعرفة، بيروت، ج2، ص179).

(5) الكندي: نفسه، ص280، ولما جاء الخبر بعزله، قال إسماعيل بن اليسع: " يا أبا الحارث وما كنت تصنع بذا، أما والله لولا أمر السلطان ثم أمرتني بالخروج لخرجت،(الكندي: نفس المصدر، ص281).

(6) أبو نعيم الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص322.

الرشيد وزوجته[1]، وفي عرض الكلام قال هارون: " أنت طالق إن لم أكن مـن أهل الجنة" ثم ندم على قوله، فجمع العلماء وسألهم عن هذا اليمين، فاختلفوا ولم يـصلوا إلى شيء. وكان لكل دوره ، فجاء دور الليث، وطلب منه الدنو، كما طلـب الليـث إخلاء ا لمس، وأمر الليث أن يأخذ الرشيد مصحفا، وأن يقرأ من سورة الـرحمن إلى أن وصل إلى قوله تعالى " ولمن خاف مقام ربّه جنتان"[2] ، فقال الليث توقف، وقـال: " يقول أمير المؤمنين والله...، فقال " والله" وأكمل القسم، قال الليث: " إنك تخاف مقـام ربك" قال هارون كذلك، فقال الليث: ولمن خاف مقام ربه جنتان فلك جنتان وليست جنة واحدة، ففرح هارون، وصفقت زبيدة، وكانت وراء الستار، وأمـر لـه بجـوائز وخلع،وأمور أخرى[3]، بعد أن وجد المخرج الشرعي للخليفة من المأزق الـذي وضـع نفسه فيه ، وقد تكون هذه الفتوى ناتجة عن تأثره بالفقه الحنفي الذي عرف بأنه يعتمـد على الحيل الفقهية، وقد تأثر بذا المنحى فقهاء المذاهب فيما بعد.[*]

ومن خلال آراء الليث ومواقفه تجاه السلطان، تبرز لنا حنكته العلميـة، وتدينـه الكبير، وعلاقته الحميمة، والمبنية على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بطرق لبقة ذكية، وفي يسر وليونة لا تدع لصاحبها مجالا للمناورة أو التذمر، فلقد كان لكلام الليث وقعه على السلطان والرعية، وكانت معارضته إيجابية بناءة، مثله مثل الأوزاعـي، وهمـا يختلفان تماما عن الثوري العنيد، وعلى هذا فقد تقرب الحكام العباسيون إليهما مـن دون الثوري الذي طلبوه وحرضوا على القبض عليه وا موه بالتشيع وإثارة الفتن.

---

(1) وهي زبيدة أم جعفر بنت عم الرشيد، جعفر بن أبي جعفر المنصور، تزوجها سنة 165هـ/781 في حياة أبيه المهدي، ولدت له محمد الأمين وماتت سنة 216هـ/831م. (ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص222).

(2) سورة الرحمن: الآية 46.

(3) أبو نعيم الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص323.

(*) انظر في قضية الحيل الفقهية أحكامها وتطورها عند المذاهب ، عبد ا يد محمود :الإتجاهات الفقهية ،مكتبة الغانجي ،1979، ص613.

المبحث الثالث: فقهـه ومنهجـه

فقهـه:

كان الليث بن سعد صاحب مدرسة فقهية معتبرة في زمانه، وكان أن انتهى فقه الصحابة والتابعين إليه بمصر إلاّ أنه لم يدون فقهه في الكتب، بل اندثرت جميع كتبه، ولا نجد لفتاويه وأقواله جامعا إلاّ ما وجدناه في كتب الطبقات، وكتـب الفقـه المقـارن، والأحاديث المروية في السنن عن طريقه.

كما أنّ تلامذته لم يبقوا على مذهبه، وإنما الكثير منهم سار إلى مذهب الإمـام مالك، وذلك نظرا لأنّ الليث كانت له علاقات طيبة مع الإمام مالك[1]، ولأنّ الإمـام مالكا كان من مدرسة أهل الحديث والليث كذلك، والبعض الآخرمن تلاميذه تأثر بالفقه الحنفي من خلال مجيء بعض القضاة الحنفية إلى مصر،وقد كان أول من ولي القضاء مـن الحنفية القاضي إسماعيل بن اليسع الكندي (167/164هـ/783،780م) هو الـذي كتب فيه الليث إلى المهدي كما سبق [2]، والأغلبية التي كانت على مذهب الليث بـن سعد تحولت فيما بعد إلى اتباع المذهب الشافعي الذي رحل إلى مصر وكان له تقـارب كبير مع منهج الليث، وإنّ أتباع الليث سيجدون ضالتهم في الشافعي الذي سينتصر لهـم أمام انتشار المالكية إجتماعيا وانتشار الأحناف قضائيا. وقبل هذا كله كلام الشافعي عن الليث إذ ندم على عدم الأخذ عنه.

إلاّ أنه من حيث العلم والورع والزهد والعطاء، فإنّ جهود الليث واضـحة مـن خلال تصريحات العلماء وكتاب الطبقات والأئمة الكبار في شأنه، فقد قال عنه الإمـام

الشافعي — وهو من هو في من العلم والإمامة — الليث أفقه من مالك إلاّ أنّ أصحابه لم يقوموا به[3]، وهو من أسباب اندثار المذهب.

---

[1] ويشاع أنّ الليث بن سعد كان على مذهب الإمام مالك ثم تحول عنه وهذا غير صحيح إذ لم نجد له أثرا في قراءاتنا إلاّ تلك العلاقة الحميمة والمعارضة الرفيقة فيما يخص أخذ مالك بعمل أهل المدينة وجعلها أصلا من أصول استنباطاته، ومطالبة الأمصار باتباع عمل أهل المدينة التي هاجر إليها الرسولρ.

[2] سيده إسماعيل الكاشف: المرجع السابق، ص309.

[3] الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج1، ص224.

وقال عنه ابن حجر العسقلاني أنه كان ثقة كثير الحديث، وقيل عنه أنه أصح الناس ممن رووا عن سعيد[1] المقبري[2].

ونظرا لكثرة حديثه وتمسكه بالنصوص قبل كل شيء، بل وتشدده في ذلك، فإنّ الكثيرين يصنفونه من أهل الأثر (الحديث) أخذا بقول الشافعي، " الليث أتبع للأثر من مالك "[3].

ولقد أثّرت عدة عوامل في فقه الليث ومنحاه الاستنباطي أهمها تجواله الكثير النافع، فإنك تجده يسافر إلى الحجاز والحج وهي مرتع المحدثين ومكان الفقهاء، أو إلى أماكن أخرى حيث يبحث عن هذا العلم، فحيثما سمع بأحدهم ممن له العلم فر إليه، إذ سمع علم أهل بغداد والحجاز وأهل مصر[4]. وأنه سافر إلى بيت المقدس، ويروى أنه أدرك نيفا وخمسين رجلا من التابعين ومن دونهم مائة وخمسين نفسا[5].

لقد كان الليث يجد في البحث عن الحديث شرقا وغربا، وله مراسلات مع العلماء وأهمها مراسلاته مع الإمام مالك في مسائل الفقه[6]. وبالإضافة إلى هذه الرحلات والمراسلات، ملكته الشخصية ونباهته التي جعلت منه الإمام الملم بعلم الصحابة والتابعين، والمتأثر بحضارة مصر وما وجد من عادات كان قد تركها الروم.

---

(1) سعيد المقبري بن أبي كيسان مولى بني جندع كان مجاورا للمقبرة فنسب إليها، المدني الإمام الصادق المتفق على توثيقه روى له جمع وكان أن سمع منه مالك وغيره قبل الاختلاف، وأخذ عن أبي هريرة وأبي شريح توفي 133هـ/750م، محمد بن محمد مخلوف المصدر السابق ص47، (خليفة خياط: المصدر السابق، ص 248).

(2) ابن حجر: تهذيب التهذيب، ج8، ص468.

(3) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8 ص156؛ الذهبي: التذكرة، ج1، ص225، ابن حجر: نفس المصدر، ج8 ص463 كما قال عنه البعض، أنّ الليث حنفي المذهب. انظر(محمد فريد وجدي: دائرة معارف القرن العشرين، دار المعرفة بيروت، ط3، مج8، ص376)، وهذا بالنظر إلى فتاويه وطريقة استنباطه ومخالفته للإمام مالك، إلاّ أنه لم يكن مذهب الأحناف بل تأثّرا ببعض فتاويهم.

(4) المزي: المصدر السابق، ج24، ص 265، 266، وذكر أنه خرج إلى بغداد سنة 161هـ/777م وروى عنه جماعة من البصريين ببغداد، وأنه التقى مع نافع وسافر إلى الإسكندرية بحثا عن الأعرج الذي حدث عن أبي هريرة إلاّ أنه وجده قد مات فصلى عليه.(المزي: نفسه، ج24، ص265).

(5) أبو نعيم الأصبهاني: المصدر السابق، ج7، ص224.

(6) وقد انتصر له الإمام الشافعي، إذ حينما دخل الشافعي مصر بدأ يبحث عن فقه الإمام الليث وآرائه، فوجد المتعصبين... قد أخفوا كل كتبه تحت التراب، أو أحرقوها، وظلّ الشافعي يبحث عن كتب الفقه، وكتب التاريخ وكتاب في التفسير والحديث، وكتبه في منابع النيل وتاريخ مصر قبل الإسلام. فلم يعثر إلاّ على بعض المسائل والآراء حفظها تلاميذ الليث، وقد تأثر الشافعي به أيما تأثّر. انظر(الشرقاوي عبد الرحمن: شخصيات إسلامية، دار اقرأ، بيروت، ط1، 1981 ص123).

كما أنّ الليث بن سعد عاصر فترة هامة من الخلافة العباسية، وقد كان خلفاء بني العباس يجلونه ويأخذون برأيه، ولذلك وجد حرية في التفقه والـتفكير دون خـوف أو تستر، وهذا يعتبر من تحفيزات الخلفاء التي جعلت عبقرية الليث تنمو ، ويعلو شأنه.

أهم آرائه الفقهية:

لم يصلنا من فقه الليث إلاّ ما نجده مدونا في بعض الكتب من فتاوى، أو ما وصلنا من مراسلاته مع الإمام مالك، حيث تبين لنا بعض آراء الليث وطرق اعتماده في استنباط أحكام الشريعة، وقد انفرد الليث ببعض الفتاوى التي اعتبرت غريبة، ولكن فتاويه عموما تظهر ما لليث من علم غزير أخذه عن التابعين الكبار والشيوخ الأفذاذ، إ ا فتاوى ناتجة من التقائه بالعلماء و تأثره بم في الأمصار التي رحل إليها.

-فقد أثر عنه أنه صلى المغرب فقرأ بالـشمس وضـحاها فقـرأ، "**فلا يخاف عقباها**"[(1)] وأنه يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، ويسلم التسليمة تلقاء وجهه[(2)].

- كما كان يرى أنّ ذبائح أهل الكتاب و أطعمتهم حلال للمسلمين وإن ذكروا عند ذبحها اسم المسيح، وهو في هذا يقرر صراحة أنّ الإسلام جاء وأهل الكتـب علـى عادا م من الذبائح وقد أقرهم عليه[(3)].

- ومن غرائب فتاويه وشواذها أنه كان يرى بالجواز للمـرأة وصـل شـعرها بالصوف والخرق وما ليس بشعر، وقد قال الجمهور أنّ الرسول ρ حرم وصـل الـشعر "**لعن الله الواصلة والمستوصلة والواشمة والمستوشمة**"[(4)]، وبذلك يعتبر الليث قد خالف الجمهور وقول الرسول [(5)]ρ.

---

(1) سورة الشمس الآية 15.

(2) المزي: المصدر السابق، ج24، ص272؛ الخطيب لبغدادي: المصدر السابق، ج13، ص10.

(3) أبو العينين: المرجع السابق، ص238.

(4) رواه البخاري/كتاب اللباس/باب الوصل في الشعر، الحديث رقم 5589، 246/5، وأبو داود/كتاب الترجل/باب في صلة الشعر، الحديث رقم 4168، 77/4.

(5) محمود سعد : فقه الإمام الليث بن سعد في ضوء الفقه المقارن، الإسكندرية، ص351 و لا نعلم هل هذه الفتوى أهي صادرة عنه أم أ ا ملفقة حتى يتجنب الناس مذهبه؟، خصوصا و أن التعصب كان قد دب في جسم الأمة بعد وفاته أو ربما كان يرى رأيا في السند.

- ومن شواذ فتاويه أنه كان يرى " أنه من قال: إن تزوجت فلانة فهي طالق،وأنّ كل امرأة أتزوجها من بني فلان أو بلد كذا فهي طالق، صح الطلاق ووقع[1].

وذهب الجمهور أنه لا يقع . . . والأحق أنه لا يصح قبل النكاح، قال ρ فيما يروى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده،" **لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، ولا عتق فيما لا يملك، ولا طلاق فيما لا يملك**"[2].

-ومن آراء الليث الفقهية ما وقع له مع إسماعيل بن اليسع، الذي أرسله الخليفة قاضيا على أهل مصر، وقد كان على فقه العراق الأحناف، و خاصمه في قضية إبطال الأحباس، فقال الليث: " قد حبس الرسول صلى الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير فمن بقي بعد هؤلاء؟ " وكتب الليث إلى الخليفة بعزله فعزله[3].

- و في النكاح بغير المسلمات كان يميل إلى رأي ابن عمر فيه، إذ سئل ابن عمر عن نكاح النصرانية أو اليهودية فقال: " إنّ الله حرم المشركات على المسلمين. ولا أعلم من الإشراك شيئا أكبر من أن تقول المرأة أنّ ربها عيسى"[4]، وهو أثر ذكره الليث[5]، قد يكون هذا تأثرا بابن عمر.

منهجه في الاستنباط

إنّ أهم ما أثر عنه هي تلك المراسلات التي كانت له مع الإمام مالك، إذ يُظهر فيها براعة في الفقه والاستنباط، ويحاجج خصمه بآداب كبيرة، يمكن أن تدرج ضمن

---

(1) محمود سعد: المرجع السابق، ص350.

(2) رواه الحاكم/ كتاب الطلاق/باب الطلاق، الحديث رقم 2820، 246/2، قد تكون فتوى الليث هذه بوقوع الطلاق ردعا لهؤلاء الذين يلعبون بأمور مصيرية كالزواج والطلاق، وهم لا يبالون بذا الأمر الخطير، واعتبار أنّ الزواج يجب أن تتوفر فيه نية الديمومة.

(3) محمد بن موسى الكندي: المصدر السابق، ص281، إذ أنّ إسماعيل بن اليسع كان يرى جواز رجوع الواقف إن شاء وذلك مذهب أبي حنيفة، لأنه عقد تبرع لا عقد معارضة ولذلك كانوا يقيمون دعوى صورية على ناظر صورية على ناظر الوقف ومتوليه ليثبتوه بحكم القاضي. انظر (علي الطنطاوي: رجال من التاريخ، دار المنارة،جدة، ط8، 1990، ص128).

(4) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص141.

(5) وهي فتاوى منثورة هنا وهناك في الكتب قام بجمعها في كتاب قيم الدكتور محمود سعد يذكر أغلب آراء الليث وخلافه مع الأحناف والمالكية تحت عنوان: فقه الإمام الليث بن سعد في ضوء الفقه المقارن.

رسائل الإخوان النافعة لقارئها، وهي مراسلات بين العلماء والأدباء نادرة، وفيها يعترف الإمام مالك بفضل الليث في الفقه و الحديث والإمامة.

وقد أورد الإمام ابن حجر رسالة الليث بن سعد إلى الإمام مالك[1] نذكر منـها: أنه قال: " وأنه بلغك أني أفتي الناس بأشياء مخالفة لما عليه الناس عندكم، وإنه يحق علـي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتم به، وأنّ الناس تبع لأهل المدينة الـتي إليها كانت الهجرة، وبا نزل القرآن، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله، ووقع مني بالموقع الذي تحب. وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني والحمـد لله

رب العالمين . . . فإنّ كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله، فجندوا الأجناد، واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيكم كتاب الله وسنة نبيه، ولم يكتموا شيئا علموه، وكان في كل جند طائفة يعلمون كتاب الله وسـنة نبيـه ويجتهدون رأيهم فيما لم يفسر لهم القرآن والسنة، وتقديمهم عليه أبو بكـر وعمـر وعثمـان والذين اختارهم المسلمون لأنفسهم، ولم يكن أولئك الثلاثة[2] مضيعين الأجناد المسلمين، ولا غافلين عنهم، بل كانوا في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من الاختلاف بكتاب الله وسـنة نبيه..."[3]. من خلال هذا يتبين لنا مدى فقه الليث، وأنه يخالف الإمام مالك في الأخـذ بعمل أهل المدينة حيث يشرط الإمام مالك في الخلاف الرجوع إلى عمل أهـل المدينـة ويحتج به[4]

ولكن لا يختلف عنه في الأخذ بالأصول الأولى وهي القـرآن والـسنة وإجمـاع الصحابة، إنما يختلف فيما دون هذه الأصول.

---

[1] لم تكن المراسلات والكتابات فقط بين الفقيهين، وإنما كان الليث لثرائه يصل الإمام مالك بالأعطيات في كثير من الأحيان، وقد مر معنا ذكر شخصيته وثرائه.

[2] ولسنا ندري ما سبب ذكر الثلاثة من الخلفاء " أبي بكر وعمر وعثمان" وإهمال الإمام الخليفة علي بن أبي طالب، هل هو تحرج ابتعد عنه الليث، أم أنّ الاختلاف دب أكثر في عهد علي بن أبي طالب خصوصا وأنّ مصر كانت معدودة من نفوذ معاوية بن أ[ي سفيان الأموي، في أثناء خلافة علي بن أبي طالب.

[3] ابن قيم الجوزية: أعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الجيل، بيروت، ج3، ص83-84؛ الخضري بك: المرجع السابق، ص154، وانظر أيضا الملحق رقم:05

[4] وقد شرح هذه الرسالة شرحا مفصلا ومقارنا بين فقه الليث والإمام مالك الأستاذ محمود سعد ص32 وما بعدها لعدة صفحات مبرزا رأي الليث والانتصار له.

وهناك كتابات أخرى أرسلها مالك إلى الليث*، جاء في بعضها: " بلغني أنك تأكـل الرقاق وتلبس الزقاق وتمشي في الأسواق" فكتب إليه الليث يصد عن نفسه[1] ويدافع بقولـه تعالى: " قل من حرّم زينة الله التـي أخـرج لعبـاده"[2]، وهذا يدلّ على مدى فقه الليث وتمسكه بالنصوص، ولذا عد من أهل الحديث، ويعيب الليث على مالك أخذه بالرأي فيقول: " أحصيت على مالك بن أنس سبعين مسألة كلها مخالفة لسنة النبي ρ مما قاله مالك فيها برأيه وقد كتبت إليه"، وتدل هذه المراسلات والملاحظات بين الفقيهين على أمور عديدة أهمها:

- أنّ معارضة الليث للإمام مالك كانت معارضة علمية.
- وأنّ هناك صلة وثيقة بينه و الإمام مالك، وما يدل عليها صلات الليث الغني لمالك الإمام.
- تدل كذلك على مدى سعة اتطلاع الليث وعلو كعبه في الفقه.
- إنه حينما يعارض الإمام مالك فإنما يعارض وينتقد أحد أصحاب المذاهب الكبرى، وعليه فإنّ الليث يعد من كبار الفقهاء، إذ لا يصدر هذا إلاّ من فقيه ضليع.
- تبين مدى تواضع الليث وحسن آدابه، دون تجريح أو ويل أو استهانة.
- و أنه كان متمسكا بالأثر و السنة، إذ أراد الإمام مالك جمع الكلمة على عمل أهل المدينة وأهل الحجاز، لكن الليث عارض ذلك لانتشار الصحابة في الأمصار، وتعليمهم للناس الـدين وفق ما عرفوه من الرسول ρ وما أقرهم عليه، - وحثّهم عليه كذلك – مع العلم أنّ رغم ما آخذه الليث على مالك من تعصب لأهل المدينة ورواياتهم، إلاّ أنّ الليث" كان يرجح قـراءة أهل المدينة على غيرها من القراءات الأخرى ولم يسو بينها وبين الأمصار الأخرى[3].

---

* هناك رسالة مشهورة من مالك بن أنس إلى الليث بن سعد يبين موقفه عندما خالفه في عمل أهل المدينة إرجع إليها، مناع القطان: الإمامان أبو حنيفة ومالك، مجلة الدارة، الرياض، العدد الثاني، السنة الثالثة 1977 ص 79.

(1) ابن تغري بردي الأتابكي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، مصر، ج2، ص82.

(2) سورة الأعراف، الآية 32، إنه الفقه بعينه و فهم للنصوص فهما حقيقيا، ذلك أن الله خلق ما في السموات و الأرض لينعم بها المسلم و يشكر و يعبد لا أن يعزف عنها عزوفا تبدو و كأن هذه النعم نقما خلقها الله ليفتن عباده.

(3) أبو العينين: المرجع السابق، ص238.

ومع تمسك الليث بن سعد بالكتاب والسنة، فإنه لم يخف أعماله للعقل والـرأي، فقد تكلم الليث بن سعد في مسألة، فقال له رجل، يا أبا الحارث في كتابك غير هـذا، قال: كتابنا (أو في كتبنا)، ما إذا مر بنا هذّبناه بعقولنا وألسنتنا"[1].

وقد ذكر بعض الكتاب طرق استنباط الأحكام عند الليث بن سعد وهي فيمـا يلي:

1- أنه يحتج مثلما يحتج جميع الفقهاء، بالكتاب(القرآن الكريم)، وهـو المـصدر الأول الذي نجده لدى جميع الفقهاء، يختلفون فقط في فهم بعـض النـصوص حـسب براعتهم في اللغة، وملكة الفقه عندهم.

2- السنة النبوية، والترجيح بين المرويات بناء على الراوي، وأمانته ودقته[2]، وقد اشترط الليث في الأخذ بالسنة إذا صحت الرواية عن النبي ρ ولو كان الراوي واحـدا، فمتى روى الحديث عدل ضابط، صح الاحتجاج به، إذا كان متصل السند[3]، أي خـبر الواحد، وقد أجاز الليث الرواية بالمعنى إذا استكملت شروطها وتوافرت لديه أسبابا[4]. ولكن لا يأخذ بعمل أهل المدينة الذي يعتبرون مطبقين للسنة في أعمالهم، إلاّ أنّ الليـث بنكرانه لعمل أهل المدينة لم يقبل الأخذ بالأحاديث الضعيفة، وهو عكس ما ذهب إليـه الحنفية[5].

---

(1) أحمد فريد: المرجع السابق، ج1، ص323.

(2) أبو العينين: المرجع السابق، ص 238.

(3) غيانه: المرجع السابق، ص 154.

(4) أبو العينين، نفسه، ص238. وقد تأثر الإمام الشافعي حينما دخل مصر وقرأ فقه الليث بذا الأمام وأخذه بالخبر الواحد الصحيح ودافع عنه دفاعا شديدا، حتى سمي بناصر السنة، ولكننا لا نجده يأخذ بخبر الواحد إلاّ إذا توفرت فيه شروط يقول الشافعي في الرسالة لا تكون حجة، إلاّ أن يكون من حدث به ثقة في دينه معروفا بالصدق في حديثه، عاقلا لما يحدث به، عالما بما يحيل معاني الحديث من اللفظ، وأن يكون ممن يؤدي الحديث بحروفه لما يسمع، ولا يحدث به على المعنى، انظر في تثبيت حجة الخبر الواحد، (الشافعي: الرسالة الأصولية، تحقيق محمد سيد كيلاني، مطبعة مصطفى بابي، القاهرة، ط1، 1969 ص 175).

(5) و مثال ذلك، يرى الليث مثلما يرى المالكية والشافعية والحنابلة في أنه لا يجوز تغسيل ولا الصلاة على الشهيد، وهو عكس ما ذهب إليه الحنفية الذين احتجوا بحديث ضعيف في مذهبهم. انظر (محمود سعد، المرجع السابق، ص347).

إذ كان الليث باحثا عن الحديث حافظا له وممحصا، ومشهرا بالأحاديث الضعيفة يحث على تجنبها، ومحاربا للأحاديث الموضوعة، فقد كان في مجلس وذكر العدس، فقـال أحدهم بارك فيه سبعون نبيا، فالتفت إليه الليث وقال: ولا نبي واحد، إنه بـارد مـؤذ، وكذلك قال ابن المبارك وهو حديث موضوع[1].

3- الأخذ بالإجماع: إذ يلتزم الليث بإجماع الصحابة ويقول في رسالته للإمـام مالك: " . . . فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب الرسول ρ بمصر والشام والعراق علـى عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا حتى قُبِضوا، لم يأمروهم بغيره فلا نـراه لأجنـاد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب الرسول ρ [2].

4- الأخذ بقول الصحابي، إذ يأخذ بأقوال الصحابة الـذين انتـشروا في بـلاد الإسلام الشام والعراق ومصر، ويرجح فيما يراه أقرب إلى الـصواب، فربمـا اختلـف الصحابة بحسب معاشر م للرسول ρ أو عدم ورود الحديث إليهم، فيأخذ الليث بحديث صحابي معين.

وقد أورد محمود سعد أصولا أخرى ذهب الليث بن سـعد إلى الأخـذ بـا في استنباط الأحكام من خلالها إلاّ أنه يوضح بأنّ هذه الأصول كانت قليلة في فتاويه ومنها

5-القياس.

6- سد الذرائع.

7- شرع من قبلنا، ويأخذ هذا من حكم الأضحية[3].

ومن خلال هذه الأصول التي اعتمدها الليث بن سعد في استنباط الأحكام، والتي لم يصل منها " من الفتاوي" إلاّ الشيء القليل. نرى بأنّ الليث كان أكثر أخذا بالنصوص

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص161.، نظن أنّ الأحاديث الموضوعة في هذا الباب " باب الغذاء والأكلات والألبسة أنها كانت من صنع التجار وأصحاب البضاعة، وذلك لأجل ترويج بضاعتهم فينعكس هذا على أصحابا ربحا ماديا وخصوصا وأنّ ا تمع آنذاك كان يتعبد بالعمل بالأحاديث مقبلا عليها. والأحاديث الموضوعة في هذا الباب كثيرة.

(2) ابن قيم الجوزية:إعلام الموقعين، ج3، ص84.

(3) للمزيد من الاطّلاع في الموضوع وأهم الأدلة من أحاديث نبوية على هذا المنحنى وهذه الأصول انظر محمود سعد: المرجع السابق، ص439 وما بعدها لعدة صفحات.

إلاّ أنه لم يهمل الاجتهاد بالرأي تأثرا بمدرسة العراق، فأعمل القياس. وهي الطريقة التي مهدت للإمام الشافعي محمد بن إدريس – الذي قدم مصر فغير فتاويه السابقة – فأقام علم أصول الفقه، ودون لأول مرة في تاريخ التشريع الإسلامي، وقد تأثر بالليث بن سعد وانتقد الإمام مالكا في أخذه بعمل أهل المدينة، " حيث أنّ الشافعي اهتدى إلى أنّ عمل أهل المدينة ليس بحجة على المسلمين في كل البلاد، فقد انتشر الصحابة في الأمصار، علموا الناس، وقد وجد في عمل أهل مصر – حيث فقه الإمام الليث – ما هو أقرب للعدل وروح الشريعة، كاستحقاق الزوجة نصف المهر عند الطلاق"[1].

ولذا نجد الشافعي يغير الكثير من آرائه يعيد التمحيص للكثير مما كتبه سواء في الشام أو الحجاز أو العراق بالأخص، فصارت له فتاوى في العراق وهو مذهبه القديم، وفتاوى في مصر وهو مذهبه الجديد.

ولقد انفرد الليث بأحاديث غريبة[2] لا نجدها عند غيره، منها: أنّ من الحنطة خمرا ومن الشعير خمرا، ومن الزبيب خمرا، ومن التمر خمرا، ومن العسل خمرا، وأنا أنهى عن كل مسكر[3]، وكذلك حديثه عن الزهري عن أنس بن مالك[4] " **من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النّار**" [5].

ولم ينفع الليث علو كعبه في الفقه[6]، ولا حتى علاقته مع الحكام الذين كانوا يعزلون باسمه، بل إنّ الخليفة أراده على القضاء والولاية، ولم يمكث في القضاء إلاّ قليلا ثم

---

[1] عبد الرحمن الشرقاوي: المرجع السابق، ص 159.

[2] الحديث الغريب: هو ما انفرد بروايته واحد، أو برواية زيادة فيه عمن يجمع حديثه.. وينقسم إلى غريب صحيح كالإفراد والمخرجة في الصحيح، وإلى غير صحيح وهو الغالب من الغرائب، وهناك الغريب متنا وسندا، وغريب الإسناد لا المتن.(ابن جماعة: المنهل الروي، دار الفكر، دمشق، ط2، 1986، ص55).

[3] أبو نعيم: المصدر السابق، ج7، ص227 وهو حديث خالد بن كثير.

[4] رواه البخاري/كتاب العلم/باب إثم من كذب على النبي، الحديث رقم 110، 52/1.

[5] الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص143.ذكره الذهبي بأنه غريب ،ويذكره أصحاب الأصول بأنه حديث متواتر وهو من المتواتر اللفظي القليل جدا (محمد محدة:المرجع السابق ،ص89).

[6] الخضري بك: المرجع السابق، ص257.

تنحى، كما لم تنفع معارضته للإمام مالك، ووقوفه الند للند من خلال تلك المراسـلات التي كانت بينهما أن يبقى مذهبه منتشرا سائدا بل اندثر، وانتهت مصر إلى الفقه الشافعي والمالكي الذين تقاسما مصر بعد وفاة الليث[1] وفي القضاء إلى فقه الإمام أبي حنيفة بدافع من الخلفاء، حيث أنّ أهل مصر كانوا لا يعرفون المذهب الحنفي حـتى تـولى القـضاء إسماعيل بن اليسع الكوفي من قبل المهدي وهو أول قاض حنفي بمصر [2].و أن أول مـن نشر مذهب الإمام مالك في مصر هو عبد الرحمان بن القاسم[3].

وهناك عوامل أخرى ساهمت في اندثار مذهب الإمام الليث بن سعد مثل عـدم تدوين مذهبه وفتاويه... وغيرها[4].

---

(1) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه، ص165؛ السريتي: المرجع السابق، ص175.

(2) أحمد تيمور باشا: نظرة تاريخية في حدوث المذاهب، دار القادري، بيروت، ط1، 1990، ص51.

(3) عبد الرحمن بن القاسم أبو عبد الله العتقي المصري الحافظ الحجة أثبت الناس عن مالك وأعلمهم بأقواله، صحب مالكا 20 سنة، روى عن الليث ومالك وأخذ عنه يحي بن يحي الأندلسي وابن عبد الحكم وسحنون وأسد بن الفرات مولده سنة 133هـ/750م توفي بمصر وقبره بالقرافة سنة 191هـ/806م، (محمد بن محمد مخلوف: المصدر السابق، ص 58)، و قيل أن من أدخل المذهب المالكي إلى مصر كذلك عبد الرحيم بن خالد بن يزيد بن يحي مولى جمح و ذكر ابن حجر في التهذيب أن أول من قدم مصر بمسائل مالك هو عثمان بن الحكم و عبد الرحمان بن خالد بن يزيد بعد ما أخذا العلم عن الإمام مالك. (أحمد تيمور باشا: نفس المرجع، ص62، 63).

(4) سنفصل أسباب الاندثار في الفصل الأخير ارجع إليه.

وفـاتـه:

كان الليث بن سعد من الكرماء الأجواد، والفقهاء الأفذاذ والعلمـاء الربـانيين عملوا على نشر العلم واتباع السنة وتوجيه الناس إلى التمسك بروح الشريعة، وبعد عطاء كبير توفي الليث بن سعد يوم النصف من شعبان يوم الجمعة سنة خمس وسبعين ومائـة 175هـ/791[1] وعمره إحدى وثمانين سنة وقد تـوفي بمـصر بالقـاهرة[2] ودفـن بالقرافة[3] الصغرى، وقبره يزار إلى اليوم[4] وقد سمع قائل يقول يوم مات الليث:

ذهب الليث فلا ليث لكم ومضى العلم غريبا وقبر[5].

وإنه لمن المؤسف أن يذهب علم دون أن يترك وراءه آثارا كانت قد أحرقت أو لم تدون خصوصا لفقيه مثل الليث الذي يعد بحق ممن مهدوا الطريق لتأسيس علم أصـول الفقه.

---

(1) المزي: المصدر السابق، ج24، ص278؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص161.

(2) الزركلي: المصدر السابق، ج6، ص125.

(3) القرافة هي في الفسطاط كانت لبني غصن بن سيف بن وائل بن المعافر، وقرافة بطن من المعافر نزلوها فسميت بهم، وهي اليوم مقبرة أهل مصر وبها أبنية جليلة ومحال واسعة وسوق قائمة، ومشاهد للصالحين مثل ابن طولون، وبها قبر الإمام الشافعي، ونسب إليها العديد من المحدثين والعلماء باسم القرافي، (ياقوت الحموي: المصدر السابق، ج4، ص317).

ومعافر هي اسم قبيلة من اليمن وهي نسبة لمعافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرة بن أدد بن هميسع بن عمرو بن يشجب بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ (ياقوت: نفسه، ج5، ص153).

(4) محمد فريد وجدي: دائرة المعارف، مج8، ص376.

(5) ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص166.

كان الليث عالم مصر و زعيمها، حيث ترعرع و نشأ في كنفها، فعرف طباع سكانها، و أخذ العلم عن رجالها ممن دخلها من التابعين المعروفين بفقههم و حديثهم وتفسيرهم.

كما عاش الليث في بيئة كانت قد عرفت قبل الفتح بأنها من قلاع الروم وما لذلك من أثر في عادات الناس و تقاليدهم، كما أن مصر مهد الحضارة الفرعونية، فهي ذات تقاليد حضارية و هذا ما لم يكن في الحجاز و لا الشام. كما رحل الليث إلى الحجاز حيث الحج و فقه أهل المدينة، و رحل إلى الشام حيث مقر الخلافة الأموية و فقه الأوزاعي الذي يشبه إلى حد ما فقهه، و رحل إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية و فقه أهل الرأي ... إن كل هذه الأمور قد أثّرت على فقه الليث بن سعد فتميز.

- بالتوسع و الرأفة و يظهر هذا من خلال الأصول التي يعتمدها في استنباط الأحكام و الفتاوى التي نتجت عن ذلك.
- انه يتمسك أكثر بالأثر، شهد له بذلك الإمام الشافعي.
- أنه يخالف الإمام مالك في أخذه بعمل أهل المدينة و يوافق أبا حنيفة في القياس.
- و هو بذلك يؤسس مدرسة جديدة تقوم على أساس العمل بالرأي والأثر، ليتأثر بها فيما بعد الإمام الشافعي فيعيد صياغة فقهه و أصوله. و ينشئ علم أصول الفقه.

إلاّ أن الصراع بين المالكية و الحنفية أنسى أهل مصر فقه الليث و أباده، ذلك أن الليث لم يعمل على تدوين و حفظ ما كان في صدره إلى أن جاء الشافعي فانتصر له.

الفصل الخامس

مذهب داود بن علي الأصبهاني

إمام أهل الظاهر

200-270هـ / 815-884م

المبحث الأول: حياته و آراؤه

المبحث الثاني: فقهه و منهجه

المبحث الثالث: القائمون على المذهب و انتشاره

المبحث الأول

حياته

نسبه ومولده

هو داود بن علي بن خلف أبو سليمان الأصبهاني[1] الظاهري[2]الإمام البحر الحافظ العلامة، عالم الوقت، صاحب التصانيف، الزاهد المتنقّل، البغدادي، أحد الأئمة المجتهدين في الإسلام،وهو من أهل قاشان[3]، ومولده بالكوفة سنة 200هـ /815م[4] سكن بغداد، و بها سمع الحديث وتعلّم وعلّم وإليه رياسة العلم بها، كانت أمه أصبهانية وأبوه حنفي المذهب، وقد توفي داود ببغداد في رمضان سنة 270هـ/884م[5]، وقبره بالشونيزية[6] وكان سنه عند وفاته سبعين سنة[7].

---

(1) أي أنه من أصبهان وهي مدينة بأرض فارس، كما أنها تسمية الإقليم بكامله فتحت على يد أبي موسى الأشعري في عهد عمر بن الخطاب صلحا مقابل جزية سنة 23هـ، وفي تسميتها اختلاف فمنهم من نسبها إلى أصبهان بن فلّوج بن لنطي بن يونان بن يافث، ومنهم من قال بأنها سميت بأصبهان بن فلّوج بن سام بن نوح، وقيل هي اسم مركب من " أصب" أي فارس، و " هان " دليل الجمع أي الفرسان. وقيل بل اسم مشتق من الجندية، أي اسم للجند، وقيل جند الله، وإليها ينسب الكثير من العلماء منهم داود بن علي، وصاحب الحلية (ياقوت: المصدر السابق، ج1، ص206 وما بعدها من عدة صفحات).

(2) نسبة إلى المذهب الذي اتبعه داود القائم على الأخذ بظاهر النصوص – القرآن والسنة –وطرح ما سواهما والمنتسبون يسمون الظاهرية، وسنرى في مبحث فقهه.

(3) قاشان مدينة قرب أصبهان تذكر مع قم. بينها و بين أصبهان ثلاث مراحل، وبينها و بين قم اثنى عشر فرسخا ، (ياقوت: نفس المصدر، ج4، ص296).

(4) وقد اختلف في مولده، فقال الذهبي سنة 200هـ/815م وكذلك ابن كثير في حين ذهب آخرون وعلى رأسهم الزركلي بأنه ولد سنة 201هـ/816. كما ذكر ابن الوردي أنه ولد سنة 202هـ/817م ولكن الأصح أنه ولد سنة 200هـ/815م، كما اتفق عليه غالب من دون سيرة هذا الإمام، (الذهبي: التذكرة، ج2، ص522؛ ابن كثير: المصدر السابق، ج11، ص47، ابن الوردي: المصدر السابق، ج1، ص359، الزركلي: المصدر السابق، ج5 ص8).

(5) كما أنّ وفاته اختلف فيها من حيث شهر الوفاة، هل في ذي القعدة، أم هي في رمضان ، انظر(اليافعي: المصدر السابق ج2 ص 185، وابن عماد: المصدر السابق، مج1، ج2 ص159).

(6) الشونيزية: هي مقبرة بالجانب الغربي من بغداد وبها دفن الكثير من الصالحين أمثاله(ياقوت : المصدر السابق،ج2 ص374).

(7) الشيرازي: المصدر السابق، ص92، فخر الدين الرازي: المحصول في علم أصول الفقه، مؤسسة الرسالة،ط2، 1992، ج5، ص24، ابن الوردي: المصدر السابق، ج4،ص359، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13 ص97، الذهبي: العبر، ج2، ص 45، اليافعي: المصدر السابق، ج2، ص 184، الداودي: المصدر السابق، ج1، ص 166، ابن عماد: المصدر السابق، ج2، ص 158)، ويصفه الذهبي في ميزان الاعتدال أثناء تعديله، فيقول عنه، إنه كان إماما ورعا وزاهدا ناسكا والرواية عنه عزيزة.(الذهبي: ميزان الاعتدال، ج1، ص321).

شيوخه وتلامذته: كان الإمام داود بن علي من أهل بغداد قرأ على شيوخها وتتلمذ على مدارسها، ولكنه لم يمكث في بغداد فقط بل سافر إلى أماكن أخرى يطلب العلم، فحيثما سمع بشيخ له حديث أسرع إليه وسمع منه ومن ذلك أنه سافر إلى نيسابور[1] وسمع هناك من شيوخها المحدثين[2] و بالأخص إسحاق بن راهويه[3].

لقد صار داود عالما بفضل حسن حفظه وبحثه عن العلم حيثما كان، ونظرا لورعه وزهده كذلك، أصبح يحضر مجلسه أربعمائة طيلسان أخضر[4]، ويذكر أنه كان على المذهب الشافعي وأكثر تعصبا له وصنف في فضائله ومناقبه، ثمّ صار له مذهب خاص به[5]، وسنشرح أسباب هذا التوجه فيما بعد، وقد اعترف له الجميع بعلمه الغزير وبالأخص الحديث، حيث جعل منهجه يقوم على هذا الأساس "النصوص".

تتلمذ الإمام على يد الكثير من الشيوخ ودرس العديد من المناهج، فقد تتلمذ على مشايخ المذاهب الأربعة وتلامذ ا وتأثر بآخرين كانت لهم مذاهب اندثرت، وأهم شيوخه إسحاق بن راهويه، وأبو ثور[6] وسليمان بن حرب[7]، ومسدد بن مسرهد[8] والقعنبي عبد الله بن مسلمة[9]، ومحمد بن كثير العبدي[10].

---

(1) نيسابور هي من بلاد خرسان، (ياقوت: معجم البلدان، ج2 ص350)، فتحها المسلمون في أيام عثمان بن عفان، والأمير عبد الله بن عامر بن كريز سنة 31هـ/ ، صلحا وبنى بها جامعا وقيل أنها فتحت أيام عمر بن الخطاب على يد الأحنف بن قيس ثم انتفضت في أيام عثمان ففتحت ثانية، (ياقوت: نفسه، ج5، ص 331).

(2) الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج8، ص369. وقد سمع من إسحاق بن راهويه المسند والتفسير وجالس الأئمة وصنف الكتب، (محمد صالح موسى: المرجع السابق، ص100).

(3) إسحاق بن راهويه: هو أحد الأعلام وعلماء الإسلام وا تهدين من الأنام توفي سنة 238هـ/852م، (ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص317) سيأتي ذكره فيما بعدص 245.

(4) الذهبي: العبر: ج2، ص45.

(5) اليافعي: المصدر السابق، ج2، ص184، الداودي: المصدر السابق، ج1، ص166.

(6) هو الحافظ الامام ا تهد ابراهيم بن خالد الكلبي المتوفى سنة 240هـ/ 845م أنظر ترجمته ص 247.

(7) هو سليمان بن حرب بن بجيل الأزدي البصري نزيل مكة و قاضيها روى عن شعبة و الحمادين و أخذ عنه بن راهويه كان ثقة كثير الحديث تولى قضاء مكة سنة 214هـ/829م و عزل سنة 219هـ/834م (السيوطي: طبقات الحفاظ، ص170؛ ابن حجر: ذيب التهذيب، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1996، ج2، ص88؛ ابن عماد: المصدر السابق، ج2، ص54).

(8) هو مسدد بن مسرهد بن مسربل بن مستورد الأسدي البصري أبو الحسن الحافظ روى عن فضيل بن عياض و ابن عيينة قيل عنه صدوق و ثقة توفي سنة 828هـ/842م، (السيوطي: طبقات الحفاظ، ص184؛ ابن حجر: نفس المصدر، ج4، ص57).

(9) هو ابن قعنب عبد الرحمان المدني نزل البصرةروى عن مالك وشعبة وحماد بن سلمة و روى عنه البخاري و مسلم هو ثقة رجل صالح توفي 221هـ/836م، (السيوطي: طبقات الحفاظ، ج168).

(10) ابو عبد الله البصري سمع عن الثوري و شعبة و روى عنه البخاري و أبو داود ذكره ابن حبان في الثقات توفي سنة 223هـ/837م، (ابن حجر: نفس المصدر، ج3، ص682)

ومن تلاميذه أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن رؤيم[1] ، وزكرياء بن يحي الـساجي[2] وأبو بكر محمد بن أحمد الدجاجي[3]، وكذلك ولده أبو بكر محمد[4]، ، ويوسـف بـن يعقوب بن مهران الداودي[5].

عـلـمـه: لقد بلغ درجة من العلم والفقه إلى أن صار يناقش فقهاء عصره، بل وأحيانا كثيرة يرد على شيوخه فيفحمهم، فقد أعجب الإمام الطبري[6]. بفقهه وعلمه فقال: " إن أردت الفقه فكتب الشافعي وداود و أمثالهما [7].

وقد سأل أحد تلاميذ الإمام أحمد داود الظاهري: في قضية الخنثى إذا مات مـن يغسله؟ فقال داود: يغسله الخدم، فقال مناظره (مناظر داود) الخدم رجال: ولكن يـيمم، فسرد التلميذ على الإمام أحمد ذلك فقال: أصاب أصاب، ما أجود ما أجابه[8] يعني داود.

---

(1) أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد بن المغلس الداودي البغدادي أحد علماء الظاهرية له مصنفات كثيرة توفي سنة 324هـ/935م، (ابن عماد: المصدر السابق، ج2، ص302).

(2) زكرياء بن يحي الساجي البصري الحافظ له كتاب في علل الحديث و منسوب إلى الساج و هو نوع من الخشب كان من الفقهاء صنف كتاب اختلاف الفقهاء توفي سنة 307هـ /919م (ابن عماد: نفس المصدر ، ج2 ، ص 250)

(3) ولده محمد أبو بكر سيأتي بيانه ص 222.

(4) هو أبو بكر محمد بن أحمد أبو النضر بن سلمة الجارودي الأزدي روى عن جده وعن القعنبي ،كان إماما ثقة توفي سنة 291هـ/903م (ابن عماد: نفس المصدر ، ج2 ، ص208)

(5) يوسف بن يعقوب بن مهران الداودي القاضي أبو محمد الأزدي بن عم إسماعيل القاضي ولي قضاء البصرة وواسط كان حفظا وثقة توفي سنة 297هـ /909م (ابن عماد: نفس المصدر ، ج2 ،ص 227). و من تلاميذه أيضا أبو النصر السجستاني و عباس بن أحمد المذكر و أحمد بن مخلد الإيادي و أبو بكر النجار و أبو الطيب محمد بن جعفر الديباجي و خلق كثير أنظر (الذهبي: تذكرة الحفاظ: ج2، ص572، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13، ص103، ابن عماد: المصدر السابق، مجلد1 ج2، ص158، شعبان محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص93).

(6) هو الإمام محمد بن جرير الطبري من طبرستان، بغدادي النشأة توفي سنة 310هـ/922م وقد كان من سمع عن داود الظاهري وتبعه ثم انفصل عنه، كما كان متأثرا بالإمام الشافعي، وله مذهب خاص، تخلف عن داود لآراء كانت لهذا الأخير، سنذكره في الفصل الموالي ص 247.

(7) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13، ص 100.

(8) الذهبي: سير الأعلام، ص 100، كان داود يأخذ عن الإمام أحمد إلاّ أنّ الإمام أحمد منعه من الدخول عليه، وبدعه لكونه، قال بأنّ القرآن محدث، انظر(الذهبي: التذكرة، ج2، ص573).

وذكر أحدهم أنّ داود بن علي كان يناقش إسحاق بن راهويه فكان إسحاق يرد على داود هيبة منه رغم أنّ إسحاق هو شيخ الإمام داود[*].

لقد تميزت حياة الإمام داود في ميدان تلقي العلم والتفقه بمرحلتين:

فالأولى: نشط فيها للبحث عن العلم والتفقه عن العلماء حيثما كانوا وقد نبغ في هذه المرحلة بفعل عدة عوامل منها، سعة عقله وقوة حفظه وملكته الشخصية خـصوصا وأنه من الموالي الذين عرفوا بحبهم للعلم ونبوغهم فيه وكذلك رحلاته إلى خارج بغـداد حيث نيسابور وغيرها، ثم لا يمكن أن مل دور بغداد المليئة بالعلماء والفقهاء ، وما تتميز به من حرية الرأي وا ادلات ودور العلم.

لقد كانت بغداد تقصد من كل مكان، وفيها ترعرع علم أبي حنيفة والـشافعي وابن حنبل ولذلك تأثر داود بالفقه الشافعي بل وتعصب له ذلك أنه كتـب في مناقـب الشافعي[1] كتابين وقد أخذ الإمام الطبري عن داود ببغداد لأنه كان أكثر ميلا للشافعي وأكثر تأثرا بمدرسة الحديث.

المرحلة الثانية: نجد الإمام داود يستقل بمذهب خاص به، ويؤسس لمنحاه الفقهـي توجها ينكره علماء آخرون، فيرفضه ابن حنبل ويبتعد عنه الطبري، ويحاربه الكثير مـن العلماء حتى أنهم لم يعتدوا بخلافه في قضية الإجماع[2]. وإنكار العلماء له لـيس لمذهبـه الفقهي من حيث تطبيق طرق الاستنباط فحسب، بل كذلك لبعض آرائه.

وأهم ما يمكن ملاحظته أنه عاش في بيئة وفي زمن كثر فيهما الوضع وانتشرت فيه البدع والفرق الكلامية، والآراء المارقة عن الدين، ولذلك كان مسعاه هو البحـث عـن الحديث، وهذا ما يميز مذهبه فيما بعد.ولذا حينما اتجه إلى فقه الظاهر، فإنّ فقهه كان ما رواه من أحاديث[3]. إذ كانت كتبه مملوءة حديثا.

---

[*] إلاّ أننا نجد أنّ إسحاق بن راهويه فيما بعد يضربه بالنعل وينكر عليه انظر(الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13، ص103).

[1] الشيرازي: المصدر السابق، ص92.

[2] سنذكر ذلك في بيان فقهه بشيء من التفصيل.

[3] أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص545.

أبرز آرائه:

وما يتميز به علم داود الظاهري هو مخالفته لعلماء عصره عامة إذ اعتبره البعض من أهل البدع، كما قال البعض الآخر أنه لا يعتد به في الإجماع، وعلى هذا الأساس يمكن تقسيم آرائه إلى ما يلي:

أ- آراء تجاه أبرز فتنة ظهرت في ذلك العصر وهي فتنة خلق القرآن وهي تمس قضية العقيدة، وما للناس فيها من مذاهب.

ب- آراء تجاه طرق الاستنباط بالنسبة لأحكام الشريعة ومخالفته للمذاهب الأربعة، وهو ما سنراه في المبحث الثاني.

وما يمكن قوله أنّ داود قد أظهر رؤية مخالفة لما عليه الناس آنذاك، فمهما أنكروا عليه قوله في الأمرين السابقين، ولم نأخذ نحن اليوم بما، فإنه لا يمكن استصغار فكره أو الإنقاص من شأنه، لأنه ما قال الذي رأى حتى تبين لديه أنّ رؤيته تلك ومنحاه ذلك إنما هو مبني على أصول ثابتة، نابعة من القرآن والسنة، ولعل قوة مذهبه تنبع من هذا المنحى.

وآراء داود تصب كلها في إطار مذهب أهل السنة والجماعة - حتى وإن حكم عليه بعض الأتباع المتعصبين لمذاهبهم بالبدعة والكفر - إلاّ أنه يشذ عنهم في حالة واحدة وهي مسألة خلق القرآن والتي دار حولها النقاش كثيرا في أيامه.

<u>مشكلة خلق القرآن</u>: وهي مسألة قديمة قبل عهد داود الظاهري. وقد أثارها المعتزلة[1] وابتدعوها. حيث استحوذ بعض المعتزلة على المأمون، وزينوا له القول بأنّ القرآن محدث مخلوق، ونفي الصفات عن الله عز وجل، ولم يكن في الخلفاء قبله من بني

---

[1] المعتزلة يقولون: إنّ قول الله عز وجل : إنا جعلناه قرآنا عربيا" سورة الزخرف آية 3، وقال أيضا " وجعلنا الظلمات والنور" سورة الأنعام آية 1، أنّ كل ما جعله الله فقد خلقه، وقال كذلك عز وجل: " كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق" سورة طه آية 99، فأخبر أنه قصص لأمور أحدثها، وقال: " كتاب أحكمت آياته ثم فصلت" سورة هود آية 1، والله محكم كتابه ومفصله. فهو خالقه ومبدعه. (عبد الغني الدقر: الإمام الشافعي، دار القلم، بيروت، ط1 1972، ص299)، والخطر يكمن في النتيجة أي أنه ما دام كتاب الله مخلوقا، وكل مخلوق زائل ويعتريه النقصان. فالقرآن كذلك زائل يعتريه النقصان. وهو قول ونتيجة منافية لمنهج المسلمين وفكرهم.

أمية ولابني العباس من يقول بذلك، بل كانوا على مذهب السلف ومناهجهم، ولقد اقتنع المأمون بذا الرأي حتى أنه بعث برسالة إلى نائبه[1] يحثه على العمل بذا الرأي والقول به. وأن كل مخالف لهذا الفكر يجب أن يردع فكانت فتنة الإمام أحمد بن حنبل ومـن قـال قوله. فقد أخذ الإمام أحمد ونكّل به أواخر أيام المأمون، ثم أيام المعتصم، ولم تفرج المحنـة إلاّ بمجيء المتوكل الذي قربه إليه سنة 232هـ/846م[2].

وفي هذه المحنة ينتصر أهل السنة، ولكن آثار الفكرة تبقى مستمرة إلى ما بعد.

و تظهر هذه المسألة عند الإمام داود الظاهري حينما سئل في جماعة عن القرآن، فقال: "القرآن الذي قال الله عز وجل: " في كتاب مكنـون " وقـال :" لا يمـسه إلاّ المطهرون "[3] غير مخلوق وأما الذي بين أظهرنا ويمسه الجنب والحائض فهو مخلوق، ويبين أكثر فيقول: " ولفظي بالقرآن مخلوق"[4].

إنّ داود الظاهري يذهب في هذا الشأن إلى أنّ القرآن الذي هو في اللوح المحفوظ كلام الله غير مخلوق، أما ما هو متداول في المصاحف والمكتوب بالأيدي فهو مخلوق، وقد رد عليه الكثير من الناس بحجج رادعة[5].

---

(1) بعث برسالة إلى نائبه ببغداد إسحاق بن إبراهيم بن مصعب، عند خروجه إلى طرسوس لغزو الروم وذلك آخر عمره، وقيل وفاته سنة 218هـ/833م، انظر (ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص322).

(2) فيما يخص محنة الإمام أحمد بن حنبل، انظر تفصيلا لها عند ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص330، وما بدعها لعدة صفحات.

(3) سورة الوقعة الآية 78، 79.

(4) البغدادي: المصدر السابق، ج8، ص374، وانظر الذهبي: ميزان الاعتدال، ج1، ص322.

(5) قيل أن هذا مذهب يذهب إليه الناشئ المتكلم، وهو كفر بالله، إذ صح الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه ى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو، فجعل الرسول صلى الله عليه وسلم ما كتب في المصاحف والصُحُف والألواح قرآنا، والقرآن على أي وجه قرئ وتلي فهو واحد غير مخلوق. انظر (البغدادي: نفسه، ص 374).

ويقول الذهبي: هذا أدلّ شيء على جهله في الكلام، فإنّ الجماهير ما فرقوا بين المصحف الذي في اللوح المحفوظ وبين الذي في المصاحف، فإنّ الحدوث لديهم لازم لهذا أو هذا، وإنما يقولون القرآن كيف ما تلي أو سمع فهو وحي من الله وت يله غير مخلوق، انظر(الذهبي: ميزان الاعتدال، ص322).

ونظرا لهذا المنحى الذي اتخذه داود نجده يُحارب. ويقوم خلق كثير مـن الأئمـة ضده، ينكرون قوله بل و بدعوه[1]. فصارت بينه و بين الإمام أحمد جفوة[2]، وتخلف عنه الإمام الطبري، بل إنّ إسحاق بن راهويه ضربه وأنكر عليه[3].

إنّ الحكم على مسألة خلق القرآن - وعلى منتحلي هذه الفكرة، والقائلين بالجزء اليسير منها - بهذا الشكل جعل من مذهب الإمام داود مذهبا مشكوكا فيه من قبل عامة الناس آنذاك، ولذلك فإنه بنفور العلماء منه ومحاربة آخرين له ثم عدم تكفل الدولة بعـد انكسار شوكة المعتزلة أيام المتوكل بفكرة خلق القرآن. جعل مذهب داود يتقلص حجمه ويضعف أثره الفقهي وما يزيد من النقمة على هذا المذهب منحاه الفقهي الذي عـارض فيه جميع علماء عصره.

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13، ص101.

(2) فخر الدين الرازي: المصدر السابق، ج5، ص24، وانظر القصة عند الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13 ص99.

(3) الذهبي: نفسه، ص100.

المبحث الثاني:

فقه داود ومنهجه

لقد اتبع داود طريقة شذ بها عن سابقيه من الفقهاء، و عن الذين أخذ عنهم، كما أنه لم يلتزم بها من جاء بعده من العلماء إلاّ بعضهم ولمدة قصيرة، وفي مناطق معينة، وهو إن شذّ عن سابقيه، فإنه لم يأت بالشيء الجديد عليهم، بل إنه تمسك بأصول في استخراج الأحكام كانت لدى جميع الفقهاء السابقين، وهي الكتاب والسنة والإجماع والشيء المخالف هو أنه لم يتوسع كما توسع سابقوه في أخذهم بأصول أخرى غير هذه الأصول. فهل يمكن اعتباره متشددا أم متساهلا؟ هذا ما يجب توضيحه بعد سرد فقهه.

لقد خالف مذهبه المذاهب الأربعة في بعض الأحكام، وكان ذلك الخلاف نتيجة لهذه القواعد التي استند إليها في الاستنباط[1]، حيث أعرض عن التأويل، والرأي والقياس ولذا سمي ظاهريا عند تمسكه بالكتاب والسنة[2].

فالظاهرية لا يقولون بتعليل ولا قياس، ولا يعتمدون إلاّ على ظاهر النصوص ويرون أنه لا حاجة إلى القول بالتعليل والقياس والنصوص تفي بالأحكام ما دامت هذه الحياة[3]، وشعارهم في ذلك: " فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول"[4]، "و ما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله"[5]، وأنّ في عموميات النصوص من الكتاب والسنة ما يفي بجواب كل مسألة[6].

ومع كونه تتلمذ على المذهب الشافعي وتعصب له إلاّ أنه رجع إلى غير منهج الإمام الشافعي، وانتحل مذهبا خاصا به لا نقول أكثر تشددا من الشافعي ولكن أقلّ تنظيما منه.

---

(1) شعبان محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص92.

(2) عادل نويهض: المرجع السابق، ج ص181، أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص166.

(3) موسوعة جمال عبد الناصر: ج1، ص30.

(4) سورة النساء آية 59.

(5) سورة الشورى الأية 10.

(6) الخضري بك: المرجع السابق، ص 212، أبو العينين: المرجع السابق، ص231.

دوافع تكوين هذا المنحى:

ولسنا ندري ما هي الدوافع والأسباب التي أدت إلى مثل هذه القناعة، رغم أنّ من سبقوه قد تركوا زخما من المعلومات والمخطوطات والآثار، كان بالإمكان التوسع فيها، ولكن نعطي بعضا من الأحداث تكون قد دفعت بداود إلى مثل هذا المنحى:

أولا: تعدد المذاهب والمشارب بفعل حرية الرأي التي كانت مكفولة لأهل العلم والناس أجمعين آنذاك، ولا أدلّ على هذا من قول داود بخلق القرآن ولكن ليس كمذهب المعتزلة.

ثانيا: أثر الجمهور في إظهار مذهب ضد مذهب آخر بغية الانتصار للشيخ وتقزيمهم المنحى الآخر، خصوصا وأنّ المشاحنات كانت قد كثرت بين أفراد المذاهب، بل وكانت تؤدي بالأفراد إلى التكفير أو التفسيق.

ثالثا: إنّ شيوع الوضع في الحديث، وكثرة القول بالقياس وانتشار الفقه التقديري، دفع بأنصار السنة والأثر إلى أن يفندوا العمل بالقياس بل وإلى نفيه، لأنّ الناس صارت لا تعتبر بالنصوص و لا تلتزم بها .

رابعا: وجد الإمام داود ببغداد وهي مدينة أهل القياس والرأي، مدينة أبي حنيفة وأتباعه و قد كان يخالفهم، وبالأخص بعد أن صار أتباع الإمام الشافعي – المحسوب على أهل الأثر – يميلون إلى فقه العراق بعد ذهاب الشافعي إلى مصر وتعديله لفتاويه، ونكرانه لعمل أهل المدينة وصارت الغلبة لأهل الرأي.

خامسا: وفرة الحديث وغلبته وتدوينه، دفع إلى العمل على تطبيقه بدل الذهاب إلى أسس أخرى قد تذهب بالحديث، خصوصا وأنّ العهد هذا برزت فيه شخصيات تدافع عن السنة، مثل الإمام أحمد بن حنبل.

سادسا: إلاّ أننا نجزم أنّ هذا العهد وفي بغداد والعراق بالأخص تطرف الناس في الأخذ بالرأي والقياس نظرا لتوالي الأحداث ووقوع المستجد، وهنا ظهر تطرف آخر يحرم القياس ويأخذ بظواهر النصوص، وهو أمر طبيعي، فكلما تطرفت طائفة إلاّ وظهر من يناقضها وهو أكثر تطرفا ولكن إلى الاتجاه المعاكس تماما، وفي خضم هذا الصراع اندرس الاعتدال رغم صوابه ولكنه سيظهر فيما بعد أنه المنهج الأكثر واقعية والأجدر تطبيقا. وهذا الاعتدال كان يمثله الإمام الشافعي و أتباعه فيما بعد، و قد انتشر مذهبه أكثر مما كان عليه.

خصائص هذا المنحى:

ويمكن أن نميز خاصيتين في فقه ومذهب الإمام داود الظاهري ينفرد بهما عن المذاهب الأخرى:

أولاهما: أنه أخذ بظاهر النصوص، وأنّ القرآن مبين كله، إما بذاته أو ببيان السنة فالأمر كله عندهم للوجوب إلاّ إذا قام الدليل على غير ذلك.

ثانيهما: نفي القياس، لكنه يفتح أبواب الاجتهاد على مصراعيها، حتى لقد جرأ العامة على استنباط الأحكام، وكان ذلك سببا من أسباب الثورة التي شنها العلماء على هذا المذهب[1].

من خلال هذه الخصائص نجد الإمام داود يعطل كل الوسائل التي استعملها أهل الرأي بل إنه يهدم كل الأدوات التي يمكن بفضلها أن يجاب عن كل مستجد وطارئ في حياة المسلمين، وليس هذا بمقصد الشريعة.

كما يمكن أن نصنف مذهب داود الظاهري في إطار تيار أهل الأثر، ذلك أنه تتلمذ على هذه المدرسة في أشخاصها، إذ كان متأثرا وأشد تعصبا للإمام الشافعي[2]، وهو ناصر السنة، ثم جلس إلى الإمام أحمد وهو من كبار المحدثين، إذ يقوم مذهبه على النص بالأساس، وهو أكثر التزاما بالأثر، إلاّ أنّ الإمام داود تطرف أكثر عن سابقيه في الأخذ بالنصوص، حتى إنه وصل إلى إصدار فتاوى تثير الناس، وتلفت انتباههم لما فيها من غرابة، ولكنه عند الاستدلال عليها تظهر قيمتها وآثارها، حيث يتمسك حرفيا بالنصوص دون اعتبار لمدلولاتها ولا حتى مصالح الناس، لقد انحرف داود بهذا التفكير إذ يجعل الشريعة في نظره نصوصا فقط، ولا رأي فيها، فلا علم في الإسلام إلاّ من نص وأبطل القياس، وقد أخذ به الشافعي، فسئل داود عن ذلك فقال: أخذت أدلّة الشافعي في إبطال

(1) أبو العينين: المرجع السابق، ص232.

(2) ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص 255.

الاستحسان فوجدها تبطل القياس[1]، حتى إنّ داود ذهب إلى القول بأنّ أول من قـاس إبليس[2].

فتاوى في المذهب الظاهري:

ويمكن إظهار فقه داود من خلال تلك الفتاوي التي كان يشذ بها عن المذاهب الأخرى.

1- يرى داود الظاهري أنه يجوز مس المصحف من قبل الحائض والجنب، آخـذا بظاهر النص[3] " فاقرأوا ما تيسر من القرآن"[4].

2- تحريمه الشرب في آنية الذهب والفضة، مـع إباحـة اسـتعمالها في الأكـل والوضوء، متمسكا بظاهر[5] قوله ρ: "الذي يشرب في آنية الـذهب والفـضة، إنّما يجرجر في بطنه نار جهنّم"[6].أي أنه يأخذ بالفعـل الـذي ورد في الحـديث "يشرب" أما الأكل و الوضوء فلم يظهر في الحديث فهذا مباح.

3-إباحة سماع آلات الملاهي، كالعود والطنبور وغيرها، وينسب هذا القول لأهل المدينة ووافقهم بعض الصوفية، والجمهور على تحريم سماع تلك الآلات. لما ورد من النهي عنها في أحاديث النبي ρ [7].

4- وفي تفسيرهم للآيـة " فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع"[8]، أنه يحل للرجل أن يتزوج تسعا وهو مجموع ذلك العدد من الآية، ولم يعتبروا بالأحاديث الواردة في هذا الشأن ذلك أنه ثبت أنّ الرسول ρ "جمع بين تسع أو إحـدى

---

[1] أبو زهرة: تاريخ المذهب الإسلامية، ص 545.

[2] ولقد ذهب بعضهم إلى القول أن مذهب داود بدعة ظهرت بعد المائتين لغرابة فتاويه، انظر (الحجوي: المرجع السابق، ج3،ص23).

[3] مصطفى المشيني: المرجع السابق، ص61.

[4] سورة المزمل آية 20.

[5] ابن الوردي: المصدر السابق، ج1 ص359 ؛ شعبان محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص 92.

[6] رواه ابن حبان/كتاب الأشربة/ باب آداب الشرب، الحديث رقم 5342، 161/12. وقال النووي والإجماع على خلاف ذلك إلاّ قولا قديما للشافعي والعراقيين بالكراهة دون التحريم وقد رجع عنه، (محمد صالح موسى: المرجع السابق، ص103).

[7] محمد صالح موسى: نفسه ص104.

[8] سورة النساء آية 3.

عشرة" وقد قال تعالى: " لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة"[(1)]، وقال بأنه"مـثنى وثلاث ورباع" إنما هي للجمع لا للتخيير[(2)]، كما استخرجوا حكما آخر وهو وجوب الزواج ابتداء حملا للأمر الوارد في الآية " فانكحوا" على الوجوب[(3)]، إلاّ أننا وجدنا ابن حزم يرد بأنه لا يجوز لأحد أن يتزوج أكثر من أربعة إماء أو حرائر أو بعـضهن حرائـر وبعضهن إماء وفي ذلك تفصيل[(*)] و هو بذلك يخالف شيخه داود في هذه المسألة.

5- لا يصح الطلاق ولا الرجعة بدون إشهاد شاهدي عدل، والإشهاد يكـون على البيع والطلاق والرجعة واجبا محتما[(4)].

6- أنه لا يقع الطلاق إلاّ بأحد الألفاظ الثلاثة، الطلاق، التسريح، الفراق، ومـا اشتق منها إذا نوى با الطلاق، وما عدا هذه الألفاظ لا يقع با الطلاق مثـل، الخليـة والبرية وأنت مبرأة، وقد برأتك، وحبلك على غاربك. وقد وهبتك لأهلك، أو لمن يذكر غير الأهل. سواء نوى أم لم ينو الطلاق[(5)].

7- وفي مسألة حلف المدعى عليه. أو ما يسمى بالإقرار، وهو أقـوى الحجـج لإثبات دعوة المدعى " إقرار المدعى عليه" ومعناه اعترافه بالأمر المدعى به، الشهادة علـى

---

(1) سورة الأحزاب آية21.

(2) القنوجي البخاري: الروضة الندية سشرح الدرر البهية، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 1990، ج1 ص404، والحديثين الواردين في باب تحريم أكثر من أربعة هما حديث قيس بن الحارث قال: " أسلمت وعندي ثمان نسوة فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم، فذكرت له فقال: اختر منهن أربعة" رواه أبو داود وابن ماجة، وقد ضعفه غير واحد. وحديث غيلان الثقفي أنه أسلم وتحته عشرة نسوة في الجاهلية، فأسلمت معه، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يختار منهن أربعا" رواه أحمد وابن ماجة والترمذي وحكم أبو الحكم وأبو زرعة أنه مرسل. (القنوجي البخاري: نفسه، ج1، ص402). أي أنه طعن في صحة الحديث

(3) الخضري بك: المرجع السابق، ص213: وانظر أبو العينين: المرجع السابق، ص232.

* انظر ابن حزم: المحلى بالآثار، دار الكتب العلمية، ج9، ص5.

(4) الخضري بك نفسه، ص 213، أبو العينين: نفسه، ص232.وموقف الظاهرية تجاه الأوامر والنواهي يختلف عن باقي الفقهاء الذين قالوا أن الأوامر في النصوص والنواهي على الوقف حتى يقوم دليل على حملها على الوجوب أو التحريم أو الندب أو الإباحة أما الظاهرية فيرو ا على الوجوب حتى يقوم الدليل على صرفها إلى الندب أو الكراهية أو الإباحة فتصرف إليه (عبد ا يد محمود :المرجع السابق ،ص366؛ نقلا عن ابن حزم :الإحكام ،ج3 ،ص2 ؛ابن حزم : النبذ ،ص28)

(5) للمزيد من المعلومات ارجع إلى ابن حزم المحلى بالآثار ، ج9، ص436، وما بعدها من عدة صفحات

النفس، ويشترط لصحة الإقرار أن يكون المقر عاقلا بالغا غير مكره ولا محجـور عليـه، ومتى أقر المدعى عليه لا يصح رجوعه عن الإقرار حتى فيما يوجب الحد وطعنوا في صحة الحديث[1] الصادر في هذا الشأن واعتبروا اليمين حاسمة للنزاع ولا يجوز سماع بينة المدعى بعدها[2].

8- ومن غرائب فتاويه والتي تؤدي إلى المصلحة اليوم، وتحقق روح الشريعة، أنّ نفقة الزوج المعسر تجب على زوجته الغنية، لأنها ترثه فعليها النفقة بـنص القـرآن[3] " ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف"[4].

كما أنه من الطرائف التي تهم أنصار المرأة في الوقت الحاضر، أنّ المذهب الظاهري يرى بالجواز للمرأة أن تكون قاضيا على الإطلاق في كل شيء خلافا لأبي حنيفة الذي لم يجز لها ذلك إلاّ في قضايا الأموال. وخلافا لباقي الأئمة الذين لم يجعلوا لها هـذا الحـق مطلقا[5].

ومن خلال هذه الفتاوي نرى مخالفة المذهب الظاهري لجمهور الفقهاء، وبالأخص المذاهب الأربعة مما جعل أقواله هذه لا تنتشر ، وهم بذلك يشذون عن الجمهور، الذي كان له أتباع، كما أنّ هذا الاختلاف جعل الناس لا يعتدون بمذهب داود وينتـهي بـسرعة، عكس المذاهب الأخرى التي كانت أكثر تنظيما.

---

(1) الحديث هو قوله صلى الله عليه وسلم " ادرأوا الحدود بالشبهات" روى عن ابن مسعود وعمر فقط ارجع إلى ابن حزم: المحلى بالآثار، ج8، ص 525.

(2) صبحي المحمصاني: فلسفة التشريع، ص336 ونعني بهذه القضية أنه إذا عاد المدعى بعد يمين المدعى عليه وعرض البينة فهل تقبل منه أم لا تقبل وفي المسأة ثلاثة أقوال:

أ- طائفة رأت أن اليمين حجة ضعيفة أمام البينة، والبينة أصل واليمين هي الحلف، فمتى جاء الأصل انتهى الحلف وهؤلاء هم الأحناف والشافعية والحنابلة.

ب- وقال المالكية يجوز للمدعى عليه أن يقدم البينة بعد اليمين بشرط أن يكون جاهلا بالبينة قبل الحلف.

ج- وقال الظاهرية أنّ اليمين حاسمة للنزاع ولا يجوز سماع بينة المدعى بعدها. انظر (صبحي المحمصاني: نفسه، ص362، وما بعدها لعدة صفحات).

(3) ابن حزم: المحلى، دار الجيل، بيروت، ج10، ص92. و ما بعدها؛ محمد يوسف موسى: المدخل لدراسة الفقه الإسلامي، ص181.

(4) سورة البقرة آية 228.

(5) أبو العينين: المرجع السابق، ص237، صبحي المحمصاني: نفس المرجع، ص69.

كما أنه من خلال فتاوي الظاهرية وأقوالهم يمكن أن نخلص إلى منهجهم في الاستنباط الأحكام، وأصول مذهبهم، ومواقفهم تجاه الأصول الأخرى.

منهج الاستنباط:

إنّ مبدأ الظاهرية هو التمسك بظاهر القرآن والسنة وتقديمهما في التشريع على مراعاة المصالح والمعاني التي لأجلها وقع تشريع الحكم وأصلهم هذا قد خالفوا فيه جمهور المذاهب الأربعة، الذين أخذوا بالقياس وغيرها من الأصول. وقد اشتد النزاع بين الظاهرية وغيرهم كالحنفية المعروفين في القياس ثم المالكية ثم الحنابلة ثم الشافعية[1]. وقد قال الظاهرية أنّ على عموم النصوص من الكتاب والسنة دليلا لكل مسألة فقهية[2] .

وقد قالوا في ذلك: " أنّ دين الإسلام اللازم لكل أحد لا يؤخذ إلاّ من القرآن أو مما صح من الرسول ρ إما برواية علماء الأمة عنه وهو الإجماع، وإما بنقل جماعة عنه وهو نقل كافة، وإما برواية الثقات واحدا عن واحد حتى يبلغ الرسول ρ [3].

- ففيما يخص السنة: فقد اعتبروها وحيا، وقالوا يجوز نسخ القرآن بالسنة لأنّ كليهما من الوحي الإلهي فيكون هذا النسخ جائزا عقلا وشرعا[4]. ومثال ذلك، في الوصية: قال تعالى: " كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيرا الوصية للوالدين و الأقربين بالمعروف حقا على المتقين"[5]، وقد نسخت بالحديث الشريف:**"لا وصية لوارث"**[6] وعليه فقد ذهبوا إلى أنّ القرآن ينسخ القرآن والسنة تنسخ السنة والقرآن[7].

- كما أثير الجدل حول العمل بالخبر الواحد، أو الحديث برواية الواحد عن الواحد إلى أن ينتهي إلى النبي ρ فمنهم من رده قياسا على الشهادة التي لا تقبل أحادية، أما الظاهرية فقد قبلوا به، وقالوا أنّ خبر الواحد العدل عن مثله إلى رسول الله ρ يوجب

---

(1) الحجوي: المرجع السابق، ج3،ص24.

(2) غيانة: المرجع السابق، ص182؛ أحمد كحيل: النحو و الفقه الظاهري، مجلة أضواء على الشريعة الإسلامية، كلية الشريعة، الرياض، العدد 6، جمادى الثانية، 1395هـ، ص327.

(3) ابن حزم: المحلى بالآثار ج1، ص50.

(4) المحمصاني: المرجع السابق، ص156.

(5) سورة البقرة آية 180.

(6) رواه الترمذي /كتاب الوصايا عن رسول الله/ باب ماجاء لا وصية لوارث، الحديث رقم 2121، 434/4، وابن ماجة/كتاب الوصايا/باب لا وصية لوارث، الحديث رقم 2714، 906/2.

(7) ابن حزم: نفس المصدر، ج1، ص52.

العلم والعمل معا، لأنّ النبي ρ إذا ما أراد الفتوى لم يجمع كل من في المدينة لـ يحكم في المسألة، وقد اشترطوا في الحديث الأحادي أن يكون الراوي مسلما عاقلا، عدلا مشهورا بالضبط، وعليه تقبل رواية المرأة والرقيق والأعمى، وهم بذلك عكس المالكيـة الـذين يقدمون عمل أهل المدينة على خبر الواحد، وعكس الأحناف الذين يقدمون القياس على خبر الواحد[1].

ومسألة الموقوف[2] والمرسل لا تقوم بما حجة، وكذلك ما يرويه من لا يوثـق بدينه وحفظه، ولا يحل ترك ما جاء في القرآن أو صح عن الرسول ρ لقول صـحابي أو غيره[3].

فيما يخص الإجماع: والإجماع هو اتفاق جميع علماء العصر على حكـم حادثـة شرعية كما أنه اتفاق أمة محمد ρ على أمر من الأمور الدينية. وأنه كذلك اتفاق جماـة أهل الحلّ والعقد من أمة محمد ρ في عصر من العصور على حكم واقعة من الوقائع[4].

إلاّ أنّ الإجماع عند الظاهرية هو خلاف ذلك وأضيق، يقولون بأنّ مسألة الإجماع هو ما يتفق أنّ جميع أصحاب الرسول ρ عرفوه وقالوا به ولم يختلف منهم أحد، كتيقننا أنهم صلوا الصلوات الخمسة معه في عدد ركعا ا وسجدا ا. أو علموا أنه صـلاها مـع الناس كذلك، وأنهم كلهم صاموا معه أو علموا أنه صام مع الناس رمـضان، وكـذلك سائر الشرائع التي تيقنت مثل هذا اليقين، والتي من لم يقر با لم يكن من المؤمنين.

---

(1) ابن حزم: المحلى، ج1 ص50؛ الحجوي: المرجع السابق، ج1، ص37، مهدي فضل الله: المرجع الـسابق، ص113، المحمصاني: فلسفة التشريع، ص172.

(2) الحديث الموقوف هو الذي تقف سلسلة إسناده عند الصحابي وهو ما روى عن الصحابة من تقرير أو فعـل أو قـول متصلا كان أو منقطعا. (شرف الدين علي الراجحي: المرجع السابق، ص 91).

(3) ابن حزم: نفس المصدر، ج1، ص51.والحديث المرسل مر بمرحلتين الأولى أنه كان يقبل في القرن الأول والثـاني وفي المرحلة الثانية صار لا يقبل بعد القرن الثالث لعدم اتصال السند وكذلك لظهور الوضع والفتن (عبـد ا يـد محمـود :المرجع السابق ،ص260).

(4) ذلك هو تطور مفهوم الإجماع من عهد الإمام الجويني المتوفى سنة 418هـ/1027م إلى عهد الإمام الغزالي المتوفى سنة 505هـ/1111م إلى عهد الآمدي (ت 631 هـ) الذي هو عليه الإجماع اليوم، انظر (الإمام ابن المنذر: الإجمـاع سلسلة من ذخائر التراث الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ط1991 ص13).

وهذا مالا يختلف أحد في أنه إجماع، وهم كانوا حينئذ جميع المؤمنين، لا مؤمن في الأرض غيرهم، ومن ادعى غير هذا الإجماع كلف البرهان على ما يـدعي ولا سـبيل إليه[*].

وعلى هذا فالإجماع عند داود الظاهري هو إجماع الصحابة فقط دون غيرهم من التابعين، ولذا فحقيقة الإجماع عندهم مخالف للجمهور، إذ هو دليل غير مغاير للنصوص بل هو اتفاق على ما ثبت من الدين بالضرورة بحيث لا يشك فيه أحد من أهل الإسـلام كالشهادة ووجوب الصلاة والصوم، أو اتفاق على نقل فعل رسول الله ρ شهده بعضهم وعرف به الباقون يقينا، كفعله في خيبر إذ أعطاها لليهود بنصف ما يخرج منها من زرع أو تمر يخرجهم المسلمون إذا شاءوا. ولا شك في أنّ الاتفاق على ما علـم مـن الـدين بالضرورة ليس من الإجماع الذي تكلم عنه الفقهاء[1].

يقول ابن حزم في الإجماع: " اتفقنا نحن وأكثر المخالفين لنا أنّ الإجماع من علماء أهل الإسلام حجة وحق مقطوع به في دين الله عز وجل، ثم اختلفنا، فقالت طائفة هـو شيء غير القرآن وغير ما جاء عن النبي ρ، ولكنه أن يجتمع علماء المسلمين على حكم لا نص فيه، ولكن برأي منهم أو قياس منهم على منصوص، وقلنا هذا باطل ولا يمكن البتة أن يكون إجماعا من علماء الأمة على غير نص . . . "[2].

ونحن نعلم أنّ الإجماع نوعان: الإجماع الصريح والإجماع السكوتي:

(*) ابن حزم: المحلى، ج1، ص54؛ ابن حزم: الإحكام، منشورات دار آفاق، بيروت، 1980، ج4،ص149.

[1] ابن المنذر: المصدر السابق، ص31، ؛ علي عبد الرازق: الإجماع في الشريعة الإسلامية، دار الفكر العربي، ط1974، ص42؛ محمد يوسف موسى: المدخل لدراسة الفقه، ص192، الحجوي: المرجع السابق، ج1،ص46.

[2] ابن حزم: الأحكام ، ج4، ص128؛ محمد مصطفى شلبي: أصول الفقه الإسلامي، ج1، ص 163، 164. و يورد الظاهرية سببا لتعذر الإجماع أن علماء الصحابة قد افترقوا في الأمصار، ولم يجتمعوا منذ افترقوا، فصار بعضهم في اليمن و بعضهم في مكة و بعضهم في البحرين، ثم انتشروا حتى أصبح بعضهم في أقصى الشرق و البعض الأخر في أقصى الغرب، لهذا فإن اجتماعهم على أمر غير ممكن أصلا لكثر م و تباعد أقطارهم، أضف إلى ذلك أن الناس مختلفون في هممهم و آرائهم و طبائعهم (ابن حزم: الاحكام، ج4، ص134).

فالإجماع الصريح: يحصره الظاهرية في إجماع الصحابة كما سلف، وأنّ إجماع التابعين المجتهدين لا يكون حجة، ولا مصدرا فقهيا. إلاّ أننا نلاحظ أنّ هذا غير ممكن، حيث أنّ الصحابة في حد ذاتهم اختلفوا في أمور بحسب عدة عوامل سلف ذكرها. فكيف بمن جاء بعدهم، وبعد اتساع الرقعة الإسلامية، وحدوث الحوادث، وتباعد الأماكن والطّباع، والإجماع الذي ذهب إليه الظاهرية هو غير الإجماع الذي تحتاجه الأمة لأنه موجود في القرآن والسنة.

والإجماع السكوتي: ينكره داود الظاهري، وحجته أنّ السكوت لا يحتمل الموافقة الضمنية على وجه الإطلاق وإنما قد يحتمل الجهل بالحكم أيضا، أو المعارضة، أو الرفض، وإن كان الرافض لا يعلن معارضته ورفضه، فذلك لشدة تحوطه أو خشيته، أو لعواقب أخرى[1].

وينتهي ابن حزم الظاهري إلى ترتيب الإجماع وتقسيمه فيقول: لا يخلو الإجماع من أحد ثلاثة أوجه:

- إما أن يجمع الناس على ما لا نص فيه وهو باطل.

- وإما أن يكون الإجماع على خلاف النص الوارد من غير نسخ أو تخصيص له، ورد قبل موت الرسول ρ، فهذا كفر مجرد.

- وإما أن يكون الإجماع على شيء منصوص فهذا هو قولنا[2]. أي أن يجمع الصحابة على أمر جاء في القرآن أو في السنة، ويقول أيضا: " وما صح فيه خلاف من واحد – أي من الصحابة- أو لم يتيقن من واحد منهم، فليس إجماعا، لأنّ من ادعى الإجماع ههنا فقد كذب[3]. وقد ذهب الظاهرية إلى أنه إذا اختلف الناس أو نازع أحد في مسألة ما أن يرجع إلى القرآن وسنة رسول الله ρ لا إلى شيء غيرهما[4].

---

[1]مهدي فضل الله: المرجع السابق، ص ص 151.150؛ محمد يوسف موسى: نفسه، ص 192، موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامي: ج1، ص26.

[2]ابن حزم: الأحكام ج4 ص141، وانظر ابن المنذر: المصدر السابق، ص31.وقد ألف ابن حزم كتابا في الإجماع سماه مراتب الإجماع يبرز فيه الآراء تجاه الإجماع وموقفه منها ويأتي بأمثلة (ابن حزم :مراتب الإجماع ، دار الكتاب العربي ، ط2 ،ص7).

[3] ابن حزم: المحلى، ج1، ص54.

[4] نفسه: ج1، ص 55. وإذ نذكر ابن حزم فإننا نستدل على ما ذهب إليه الظاهرية في طرق الاستنباط و هي طريقة كان قد سطرها داود سابقا و بعثها ابن حزم في كتبه.

وعليه فإنّ الظاهرية لا يرون إجماعا من غير إجماع الصحابة، كمـا لا يـرون أن يجتمع الصحابة في أمر لا نص فيه، إذ هو باطل، كما أنهم لا يرون بإجماع التابعين نظرا للشروط التي حددوها، وأهمها عدم وجود خلاف أي واحد منهم وهذا هيهات أن يكون

وبما أن الصحابة يجتمعون على أمر معلوم من الدين بالضرورة، فهم بذلك قزمـوا الإجماع وحصروه حصرا يلغيه، وهذا ما خالف فيه الظاهرية جمهور العلماء.

وفيما يخص القياس: من المعروف أنّ داود خالف المذاهب الأخـرى في الأخـذ بالقياس، بل هو سبب خروجه عن الإمام الشافعي، إذ أنّ الشافعية يأخذون بالقياس على أنه المصدر الرابع من مصادر التشريع ولا يأخذون بالاستحسان، وقد اعتـبر المـذهب الظاهري أنّ المصادر الحقيقية هي النصوص أي القرآن والسنة فقط لا يجوز الاعتماد على الرأي والقياس، ولذلك خرج داود عن الشافعي بحجة أنه حينما سـئل لمـاذا خالفـت الشافعي ورددت القياس؟ قال طبقت أدلته في إبطال الاستحـسان[1] فوجـدتها تبطـل القياس[2].

وقد قال الظاهرية أنّ حجة القياس ظنية، ولذا فإنّ المجتهدين القائسين قد يختلفون فيما بينهم حول القياس الواحد، مما يلزم من ذلك إما التسليم بأقيـستهم بـالرغم مـن التناقض فيما بينها على أساس أنّ كل مجتهد مصيب، وهذا محال، وإما تصويب ظن أحد المجتهدين دون الآخرين على أساس أنّ المصيب منهم واحد فقط، وهذا أيضا محال لاستواء جميع الظنون من حيث المرتبة[3].وقد ألف ابن حزم في هذا الباب وغـيره مـن أبـواب الإجتهاد كتابا يرد فيه على أصحاب القياس والاستحسان وغيرهما [*].

---

[1] ذكر الشافعي أنه لا يجوز لمن استأهل أن يكون حاكما أو مفتيا، أن يحكم أو يفتي إلاّ من جهة خبر لازم، وذلك الكتاب والسنة، أو ما قاله أهل العلم لا يختلفون فيه، أو قياس على بعض هذا، ولا يفتي بالاستحسان إذا لم يكن الاستحسان واجبا، ولا في واحد من هذه المعاني" فالشافعي يقول بالاستحسان إذا كان راجعا لنص أو إجماع أو قياس، ومن ثم فإنّ إنكاره عائد إلى اللفظ وتخصيص هذا النوع من الاستنباط بالاستحسان من بين سائر الأدلة... انظر (محمد محدة: المرجع السابق، ص ص 208، 209).

[2] عادل نويهض: المرجع السابق، ج1، ص181.

[3] مهدي فضل الله: المرجع السابق، ص231.

[*] وهو كتاب إبطال القياس والرأي والاستحسان والتقليد والتعليل ، مطبعة جامعة دمشق ،سنة 1960 .

وما يمكن أن نلاحظه في المذهب الظاهري عامة أنّ النظرة تجاه القياس اتسمت بموقفين:

- الأول: لزعيم المذهب داود بن علي الذي كان لا يرى القياس في الشريعة ثم اضطر إليه وسماه دليلا وعمل به[1].

- والثاني: موقف ابن حزم الظاهري الذي أنكره تماما، ولم يعمل لا بجليه ولا بخفيه[2].

إنّ داود كان بالفعل ينكر القياس إلاّ أنه لم ينكر الجلي منه ولا منصوص العلة، بـل ذُكر عن ولده محمد [*] أنّ داود ينكر القياس الخفي فقط، يقول داود: " والحكم بالقيـاس لا يجب، والقول بالاستحسان لا يجوز" ثم يقول : " لا يجوز أن يحرم النبي ρ فُيحرم مُحرم غير ما حرم لأنه يشبهه إلاّ أن يوقفنا على علّة من أجلها وقع التحريم مثل أن يقول: حرمت الحنطـة بالحنطة لأنها مكيله، واغسل هذا الثوب لأنّ فيه دما، ... ويفهم بذا أنّ الذي أوجب الحكم من أجله هو ما وقف عليه، وما لم يكن ذلك فالتعبد فيه ظاهر، وما جاوز ذلك فمسكوت عنه داخل في باب ما عفي عنه، فكأنه لا يسمى منصوص العلة قياسا[3].

---

[1] البغدادي: المصدر السابق، ج8، ص374، " والدليل الذي ذكره البغدادي باب من أبواب الاستدلال وله مناح شتى، ومن أمثلته، أن يذكر النص فيه مقدمتان ولا يصرح بالنتيجة كأن يقول: " كل مسكر خمر، وكل خمر حرام، والنتيجة أن كل مسكر حرام، ولكن النص لم يصرح بالنتيجة فهل يعد هذا قياسا، كلاّ إنه يعد من دلائل اللفظ، أو القياس الإضماري كما يقول المناطقة، ومن ذلك تعميم فعل الشرط، مثل قوله تعالى: " قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف"، فالنص وارد في الكافرين، ولكن معناه المأخوذ من لفظه يفيد أنّ كل من يكون في حالة عصيان ويعود من هذا العصيان ويتوب في حال غفران الله تعالى، فالتعميم جاء من ظاهر النص ولم يكن من قياس..." انظر (محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 546).

[2] انظر ابن حزم :إبطال القياس ،ص3 . و القياس الجلي هو ما كان الفارق فيه بين الفرع والأصل مقطوعا من حيث العلة، وذلك كقياس المرأة على الرجل فيما يشتركان فيه من أحكام. أو كقياس الضرب على التأفف لجلاء العلة وتحققها في الأمرين.

والقياس الخفي هو ما ظن فيه نفي اعتبار الفارق دون القطع به، وكانت العلة فيه مستنبطة من حكم الأصل مثل قياس القتل، بمثقل على القتل بمحدد، والجامع بينهما هو القتل العمد العدوان لإثبات وجوب القصاص في المثقل. انظر (محمد محدة: المرجع السابق، ص195).

(*) محمد بن داود سيأتي ذكره في هذا الفصل كرمز من رموز الظاهرية ص222.

[3] ابن الوردي: المصدر، ج1، ص 359، وانظر الخضري بك: المرجع السابق، ص215، الحجوي: المرجع السابق، ج1، ص48.

وعلى هذا فمن ينسب إلى داود النفي المطلق للقياس لم يصب، إذ الذي صح أنه لا ينكر القياس الجلي، وإنما ينكر الخفي منه، ومنكرو القياس مطلقا الخفي والجلي هم طائفة من أصحابه زعيمهم ابن حزم. يقول الإمام الغزالي[1]. " فلا يظن بالظاهري المنكر للقياس إنكار المعلوم والمقطوع به من هذه الإلحاقات لكن لعله ينكر المظنون.. وإذا بان لنا أنّ إجماع الصحابة أنهم عملوا بالظن كان ذلك دليلا على نزول الظن منزلة العلم في وجوب العمل لأنّ المسائل التي اختلفوا فيها واجتهدوا فيها كمسألة الجد[*] وحد الخمر وغيرها من المسائل الظنية وليست القطعية.."[2].

وأما موقف ابن حزم من القياس، فإنه يلمح إلى أنّ القياس في الفقه يندرج تحت الاستقراء فنتائجه ممكنة أو ظنية، ولا يجوز لأحد أن يحكم في مسائل الشريعة بالتحليل والتحريم ما لم يتيقن أنّ أحكامه صحيحة ثابتة، ولا تكون الأحكام الفقهية على هذه الصفة فيما يرى ابن حزم.ويخشى ابن حزم أن يفضي استعمال القياس إلى أحكام عابثة في مجال التشريع، ولذلك نفى ابن حزم أن يكون داود أو أحد أصحابه قال بأي نوع من أنواع القياس[3].

---

(1) هو الإمام محمد بن محمد أبو حامد الغزالي ولد سنة 450هـ/ 1058م وتفقه على إمام الحرمين وبرع في علوم كثيرة، وله مصنفات منتشرة في فنون متعددة، كان من أذكياء العالم في كل ما يتكلم فيه، وساد في شبيبته ودرس بالنظامية ببغداد، ثمّ إنه خرج من الدنيا بالكلية وأقبل على العبادة وأعمال الآخرة، رحل إلى الشام وأقام بدمشق وصنف في هذه المدة – مدة مكوثه بدمشق – كتاب إحياء علوم الدين، وقد عارضه الكثيرون في هذا الكتاب، ثم خرج إلى نيسابور للتدريس، ثم عاد إلى بلده طوس فأقام بها وكانت وفاته يوم الاثنين الرابع عشر جمادى الآخرة في سنة 505هـ/1111م، انظر (ابن كثير: المصدر السابق، ج12 ص 173، 174).

(*) مسألة الجد: أن حكم الميراث بين الجد و الإخوة لم يرد فيه نص صريح من كتاب أو سنة، لذلك اختلف الصحابة على فريقين. الأول رأى أن القرآن ذكر الأجداد باسم الآباء في كثير من الآيات كقوله تعالى" **و اتبعت ملة آبائي إبراهيم و إسحاق و يعقوب**" سورة يوسف آية 38، فأطلق لفظ الآباء على الأجداد و لذلك اعتبروا الجد أبا يحجب به الإخوة مطلقا و قال بذا أبو بكر و عائشة و ابن الزبير و ابن عباس و إلى هذا ذهب أبو حنيفة. و الثاني رأى أن مرتبة الجد دون مرتبة الأب، فهو يساوي الإخوة في إدلائه معهم بالأب، فإن كان الجد أب الأب فالإخوة أبناء الأب، فهم جميعا برتبة واحدة في إدلائهم إلى الميت بالأب، فلا مجال حينئذ لترجيح إحدى الجهتين على الأخرى بلا مبرر و ذهب إلى ذلك زيد بن ثابت وعلي وعمر و عثمان و ابن مسعود و جمهور الصحابة و التابعين و مالك و الشافعي و ابن حمبل و مذهب أبو يوسف و محمد و هو الصحيح المعمول به، فيكون توريث الإخوة مع الجد ثابتا بالإجماع. (أحمد محي الدين العجوز: الميراث العادل في الإسلام، مؤسسة المعارف، بيروت، ط1، 1986، ص141).

(2) الحجوي: المرجع السابق، ج3، ص ص 25 ، 26.

(3) أديب نايف ذياب: المنهج عند ابن حزم وموقفه من القياس، مجلة دراسات العلوم الإنسانية، عمان، الأردن العدد السابع، ذي القعدة 1407هـ تموز 1987م ص 99 وما بعدها لعدة صفحات.

إنّ العصر الذي ظهر فيه الإمام داود ثم جاء من بعده من الظاهرية. قد كانت لهم فيه مناقشات وجدالات مع أصحاب القياس، بل اشتد الـ اع بينهما، فطائفة تعمل بالقياس وتتوسع فيه إلى أن وصلت إلى الفقه الافتراضي التقديري، ودافعوا عن القياس أيما دفـاع، والطائفة الثانية وهم الظاهرية، حاربوا هذا المذهب حربا شعواء، حيث وصل هـؤلاء إلى الاستهتار والاستهزاء بالأئمة، وكانت لهم نكت في هذا الشأن، إلاّ أنّ الغلبة كانت في الأخـير لفائـدة القياسيين والجمهور عامة، ووصلوا إلى إخراج أهل الظاهر من حلبة الصراع حينما وصفوهم بنفاة القياس وأخرجوا من إجماع العلماء، بعد أن شككوا فيهم هل يعتد بإجماعهم أم لا؟ فصار بذلك حكمهم على الحوادث من شواذ الفتيا ولا يعتد بخلافهم.

كما كانت لهم أحكام أخرى ومواقف فيما يخص تقدير الأحكام، حيث ذهب أهـل الظاهر إلى قطع يد كل سارق سواء كانت السرقة قليلة أم كثيرة،واحتجوا على ذلك بعمـوم قوله تعالى: " **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما**"[1]، وأيدوا ما ذهبـوا إليـه بقـول الرسول ρ في الحديث الذي رواه أبو هريرة قال: " **لعن الله السارق يسرق البيضة فتقطـع يده والحبل فتقطع يده**"[2] في حين نجد بقية الفقهاء يرون التقدير للكمية المسروقة[3].

ولهم كذلك موقف آخر من قضية الذرائع[*] وسدها، فإنهم يرون – الظاهريـة – لا مقتضى لنظرية سد الذرائع. إذ بحسب المسلمين أن يبتعدوا عن مواطن الشبهة عملا بالحديث: " **إنّ الحلال بيّن وإنّ الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات، لا يعلمهن كثير مـن الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الـشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه...**"[4].

ولذلك فهم يقفون موقف الرافض للأخذ بذا الأصل في وقت أخذ به الآخرون[5]

---

(1) سورة المائدة الآية 38.

(2) رواه البخاري/كتاب الحدود/باب لعن السارق إذا لم يسم، الحديث رقم 6،2489/6401، ومسلم/كتاب الحدود/باب حد السرقة ونصابها، الحديث رقم 1687، 1314/3.

(3) مصطفى سعيد الخن: المرجع السابق، ص 226.

(*) و الذريعة جمع ذرائع و هي الوسيلة الموصلة إلى الشيء، أما اصطلاحا فإ ا التوسل بما هو مصلحة إلى مفسدة، أي أن ظاهرها الاباحة و يتوصل بيها إلى فعل المحظور. (محمد محدة: المرجع السابق ، ص269).

(4) رواه مسلم/كتاب المساقاة/باب أخذ الحلال وترك الشبهات، الحديث رقم 1599، 1219/3، وأبو داود/كتاب البيوع/باب في اجتناب الشبهات، الحديث رقم 3325، 243/3.

(5) فتحي رضوان: من فلسفة التشريع الإسلامي، دار الكتاب العربي، القاهرة، ط1969، ص 35.

كما أنهم رفضوا الاحتجاج بمفهوم المخالفة[*]، ذلك أنهم رفضوا العمل بإعطاء حكم المنطوق للمسكوت عنه في حال المساواة أو الأولوية خشية الوقوع في القياس فهم بعدم القول بمفهوم المخالفة أولى وأجدر، وقالوا أنّ كل خطاب وكل قضية فإنما تعطيك ما فيهـا، ولا تعطيك حكما في غيرها، لأنّ ما عداها موافق لها، ولا أنه مخالف لها، ولكن كل ما عداها موقوف على دليله[1].

وهم إن التقوا مع الجمهور القائل بمفهوم المخالفة في كثير من الأحكام فذلك عن دليل آخـر وهو البراءة الأصلية، أو ما أسماه الفقهاء بالاستصحاب[2]، والاستصحاب الذي اتخذه الظاهرية يقوم على أنّ الأصل في الأشياء الإباحة[3].

وأمثلة ذلك ما قال ابن حزم: أنّ قول الرسول ρ: "**إنّما الولاء لمـن أعتـق**"[4]، دليل على أن لا ولاء لمن لم يعتق، وليس كما ظنوا - يقصد المخالفة– ولكن كما كان الأصل أن لا ولاء لأحد على أحد[5] لقوله تعالى: **"** إنّما المؤمنون إخوة" [6].

---

[*] ومفهوم المخالفة معناه دلالة اللفظ على ثبوت حكم المسكوت عنه مخالف للمنطوق ويسمة دليل الخطاب وهو أنواع متعددة انظر موسى إبراهيم الإبراهيمي، المرجع السابق ص 89.

[1] ابن حزم: الأحكام في أصول الأحكام، ج7، ص2.

[2] إنّ داود لا يقول بالقياس ولا بسد الذرائع ولا بمفهوم المخالفة والاستصحاب في معنى الأصل في الاشياء الإباحة.

والاستصحاب لغة هو من الصحبة والملازمة، وطلب الصحبة، واصطلاحا إثبات ما كان ثابتا ونفي ما كان منفيا انظر (محمد محدة: المرجع السابق، ص306.).

[3] محمد صالح موسى: المرجع السابق، ص ص 186، 169، مهدي فضل الله: المرجع السابق، ص 306.

[4] رواه البخاري/كتاب الزكاة/باب الصدقة على موالي أزواج الرسول، الحديث رقم 1422، 542/2، ومسلم/كتاب العتق/باب إنما الولاء لمن أعتق، الحديث رقم 1504، 1141/2؛ و تمام الحديث عن عائشة: أ ا أرادت أن تشتري جارية لتعتقها، فقال أهلها: نبيعكها على أنّ ولاءها لنا، فذكرت ذلك للرسول ص فقال:" **لا يمنعك ذلك، فإنما الولاء** لمن **أعتق**"، و المراد من ذلك ولاء العتاقة، و هو ميراث يستحقه المرء بسبب عتق شخص في ملكه، ويعني الرسول ص أنّ الشرط الذي اشترطوه غير مانع لك من ولائها، و الولاء سبب من أسباب الإرث و معناه القرابة الحكمية، و بذه العلاقة يرث المعتق عتيقه و لا يرث المعتوق من المعتق بذه القرابة ذلك أ امكافأة له على عتقه الذي أعاد به إلى عبده حريته، و عموما فإن الميراث يكون بثلاثة أسباب هي النسب، الزواج، الولاء أنظر تفصيل ذلك عند (أحمد محي الدين العجوز: المرجع السابق، ص66).

[5] ابن حزم: الأحكام في أصول الأحكام ج7 ص 16، وانظر مصطفى سعيد الخن: المرجع السابق صص 175،174، ولقد استباح ابن حزم أمورا لا يستسيغ الذوق أو الفقه إباحتها كقوله: " إنّ بول الإنسان ينجس الماء في حين أنّ بول الخ ير لا ينجسه، لأنّ القول بنجاسته أخذ بالقياس، ولا يصح القول بأنّ تحريم لحمه يقتضي نجاسة بوله لأنّ ذلك نوع من الرأي في الدين وهذا لا يجوز، انظر (مهدي فضل الله: نفس السابق، ص ص 70 ، 71).

[6] سورة الحجرات آية 10.

ولذلك فإنّ الفقه الظاهري في عهد داود كان أكثر اتساعا وتنظيما منه عند ابـن حزم، ذلك أنّ داود أخذ بالقياس الجلي في وقت نفاه ابن حزم الـذي طـور المـذهب الظاهري ولكن إلى التمسك أكثر بظاهر النصوص، ونشر المذهب، ولذا وصل الناس إلى عدم الاعتداد بم في الإجماع عكس ما كان أيام داود الظاهري. حيـث أنّ المحققـين لا يقيمون وزنا للظاهرية إلاّ لشيخهم داود فقد اعتبر خلافه من طرف البعض، إذ كان جبلا من جبال العلم والدين له من سداد الرأي والنظر وسعة العلم ونور البصيرة مـا يعظـم وقعه[1]. ولكن الغالبية من الفقهاء تنكروا لهذا المذهب حينما لم يعتد بالقياس منذ أيـام داود إلى ابن حزم، ودليل التنكر أن وصل بداود إلى أن يصفع بالنعال في مجلس القاضـي وحمله إلى البصرة لُيضرب عنقه لأنه رأى أنه جحد أمرا ضروريا من الشريعة في رعايـة مصالح العباد حين أنكر القياس[2].

وقد نشأ الخلاف حول عدهم من علماء الأمة وبذلك اعتبار قولهم في الإجماع أم لا؟، فنقل عن طائفة من الشافعية أنه لا اعتبار بخلاف داود وسائر نفاة القياس في الفروع دون الأصول، وقيل عنهم أ م ملحقون بالعوام، لأنّ معظم الشريعة صادرة عن اجتـهاد وقياس، وقيل يعتبر قوله – داود – إلاّ فيما خالف القياس الجلي، وما أجمع عليه القياسيون من أنواعه، وذهب البعض إلى عدم تقليدهم القضاء بل قال أحدهم إنهم لا يعدون مـن علماء الأمة وحملة الشريعة لأنهم معاندون مباهتون[3].

وهكذا نخلص إلى أن المذهب الظاهري من خلال طرق استنباطه قـد اختلـف اختلافا بينا عن المذاهب السابقة المندثرة منها والقائمة، حينما توقفوا عنـد النـصوص، فأثاروا المخالفين الذين ذهبوا إلى التشكيك في منهجهم. كما أنّ هذا المذهب قد جعـل جميع الأحكام تعبدية لا ينظر فيها إلى علل أقضيتها. ومصالح أريدت منـها، لأنّ هـذا

(1) الحجوي : المرجع السابق، ج3 ،ص 24.

(2) محي الدين الرازي: المحصول، ج2 ، ص24.

(3) النووي: ذيب الأسماء واللغات، قسم1 ص ص 183 ، 184، وقد ذكرت العديد من الانتقادات موجهة إلى هذا المذهب ذلك أنه لم يأخذ بالقياس انظر (الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13 ، ص ص 105، 106، الحجوي: المرجع السابق، ج3، ص32 وما بعدها لعدة صفحات، محمد صالح موسى، المرجع السابق، ص ص 104، 105).

قياس، ولا يجوز استعمال القياس في الأحكام التعبدية، وأنّ الشرع قد سكت عن أمـور يجب إجراؤها على حالها، وعدم القياس فيها ومعرفة حكمها بل هي كما جاءت. فما لم يرد فيها نص تؤخذ على حالتها الأولى أي الـبراءة الأصـلية، أو مـا اصـطلح عليـه بالاستصحاب. فهم يقولون كيف يتصرف بالقياس في الشرع، مبنـاه علـى الـتحكم والتعبد[1].

ولكن إذا نظرنا مليا يمكن الحكم بأنّ المذهب الظاهري من جهة أخرى هو أكثر مرونة، وأكثر استيعابا للأحداث حينما يستعمل النصوص من قرآن وسنة. في الاستدلال على الحوادث التي لها أحكامها الواضحة في القرآن والسنة، أما فيما يخص الحوادث التي لم يرد بشأ ا نصوص كثيرة فهي متروكة على حالها ، وهذا يجعل الناس (ا تمع) في نوع من السعة ورفع الحرج عنهم حيث تمسك هؤلاء بظواهر النصوص.

إلاّ أنه نظرا لكثرة الحوادث التي لم تثبت بقواعد أصولية لأجل الحكم عليها – في الفقه الظاهري – فإنه قد ظهر نوع من الفوضى وعدم التنظيم، وبذلك يصير التخلـف عن ركب التطور والارتقاء .

إنّ المذهب الظاهري إذ لم يجد رواجا عند الناس ولا اعتبارا له، إنما يعود ذلك إلى تطور ا تمع الذي صار ينتظم أكثر بحدوث الحوادث، فهو يبحث عن الحكم ويطمئن له بتقنين أصول لدى الفقهاء الآخرين، في حين لا يجد له ما يسنده عند الظاهريـة سـوى البراءة الأصلية.

ولأجل هذا أخذ العامة يتطاولون في الأخذ بظاهر النصوص، ويفتى كل إنـسان لنفسه حسب ما يراه ووفق ما له من زاد، وغالبا ما كانت ال وات هي التي تقودهم إلى ذلك. وهذا ما أقلق العلماء آنذاك، وهي نفس المظاهر التي نعاصرها، إذ لا نجد شـروطا يحتكم إليها الناس لأجل الإفتاء حتى أدنى الشروط من معرفة اللغة وتفسير الآي، وأسباب ال ول، وأنواع السنة وغير ذلك، فما أشبه اليوم بالبارحة!!.

---

[1] محمد صالح موسى: المرجع السابق، ص51.وقد ذكر عبد ا يد محمود أصول الظاهرية مرتبة إذ يقول:وأصول الظاهرية هي القرآن والسنة والإجماع والدليل ،فإن لم يكن شيء عن ذلك اعتمدوا على الاستصحاب ،وكل هذه الأصول هي نصوص أو راجعة إلى النصوص (عبد ا يد محمود :المرجع السابق ،ص364).

المبحث الثاني القائمون على المذهب وانتشاره

أبرز الفقهاء في المذهب

قام داود بن علي ببيان المذهب ونشره، وعمل على تمكينه، ومنافسة المذاهب الأخرى، فقد كان شافعي المذهب في أيامه الأولى أثناء تكوينه، إلاّ أنه انفرد فيما بعد عند نضجه بمنهج مغاير لمذهبه الأول القائم على عدة أصول — أصلها الإمام الشافعي وسار عليها تلامذته — إلى مذهب ارتآه لنفسه يقوم على ظواهر النصوص. وينبذما سواها من الأصول التي قال عنها أنها نتاج عقل وتخمين وهذا لا يجوز في التعبد — إذا الأحكام تعبدية-.

وقد شهد هذا المذهب تطورا في القرنين الثالث للهجرة، والخامس للهجرة. أي أيام منشئه داود وأيام منعشه ابن حزم الأندلسي. ونجد أهم الشخصيات التي قامت على نشر المذهب وتوضيحه والدفاع عنه — ما عدا داود — هي:

- محمد بن داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري المكنى أبا بكر 255هـ،297هـ/868، 909م. وهو ابن الإمام الظاهري صاحب المذهب، وهو أديب ومناظر وشاعر من أذكياء العالم، كما أنه كذلك أحد الظرفاء كان اخباريا صنف كتبا عديدة منها كتاب الزهرة في الآداب و الشعر و كتاب الفرائض ، وكتاب الإنذار والأعذار، والتقص في الفقه، والإيجاز، وكتاب الانتصار من محمد بن جرير الطبري. وكتاب الوصول إلى معرفة الأصول، واختلاف مصاحف الصحابة، وكتاب المناسك. حدث عن كثير منهم أبوه صاحب المذهب، وكان له بصر تام بالحديث، وبأقوال الصحابة، وكان يجتهد ولا يقلّد[1].

---

[1] ابن نديم: المصدر السابق، ص217؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13، ص 109، 110،

عاش إثنين وأربعين عاما ومات في العاشر من رمضان سنة 297هـ ـ/909م، ويقال أنه لما توفي أبوه جلس إلى الفتوى في مقام أبيه فاستصغره الناس وبعثوا إليـه مـن يسأله كما عن حد السكر – أي متى يكون الإنسان سكرانا – قال:

إذا عُزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم، فاستحسن الناس منه ذلك(1).

كما كانت لمحمد بن داود نفحات شعرية تدل على ملكته الأدبية وذوقه الرفيـع، إذ يقول في أحد ا الس وهو يناقش ويناظر:

أنزّه في روض المحاسن مقلـتـي وأمنع نفسـي أن تـنـال محرّما

وأحمل من ثقل الهوى ما لـو أنّـه يصب على الصخر الأصم تدّما

وينطق طرفي عن مترجم خاطـري فلولا اختـلاسي رده لتكلّـمـا

رأيت الهوى دعوى من الناس كلهم فما أن أرى حبا صحيحا مسلّمـا(2)

ولعله من خلال هذه الأبيات يظهر لنا منحاه في العشق الذي يراه مباحـا مـا لم يصرح به ولذلك قيل عنه أنه يبيح العشق بشرط العفاف(3).

كما كتب إليه ابن الرومي الشاعر المشهور قائلا:

يا ابن داود يا فقيـه العـراق أفتنا في فواتل الأحداق

هل عليهن في الجروح قصاص أم مباح لها دم العشاق

فيجيبه محمد بن داود قائلا:

كيف يفتيكم قتيل صريـع بسهام الفراق و الاشتياق

وقتيل التلاقي أحسن حالا عند داود من قتيل الفراق(4)

ابن كثير: المصدر السابق، ج11، ص 110.

(1) ابن كثير: المصدر السابق،ج11، ص 111.

(2) شعبان محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص95.

(3) ابن كثير: نفس المصدر ، ج11، ص 111.

(4) شعبان محمد إسماعيل: نفسه ص 97، ويقال أنه ابتلي بحب صبي اسمه محمد بن نافع ويقال محمد بن رحرف فاستعمل العفاف والدين في حبه، ولم يزل كذلك حتى كان سبب وفاته، -ولا نظن أن يكون ذلك إلا من خصومه ليقلصوا من نفوذه على النفوس- وقد حكى عن نفسه أنه لم يزل يعشق منذ كان في الكتاب، وصنف كتاب الزهرة في ذلك ومن شعره:

أشكو إليك فؤادا أنت متلفه شكوى عليل إلى إلف يعلّله

سُقمي تزيد على الأيام كثرته وأنت في عظم ما ألقى تقلّله

- ابن حزم: 384-456هـ/994م-1063م. وهو الإمام الحافظ العلامة، أبو محمد على ابن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن صالح بن خلف بن معد بن سفيان بن يزيد، مولى يزيد بن أبي سفيان صخر بن حرب الأموي، أصل جده من فارس أسلم، وخلـف المذكور هو أول من دخل بلاد المغرب وكانت بلدهم قرطبة[1].

ولد بقرطبة في آخر يوم من شهر رمـضان سـنة 384هـ ـ/994م و نـشأ في أسرةمرموقة حيث كان أبوه وزيرا، فنشأ تحت رعايته، وبين جواري القـصر ودلالهـن، وتعلم القرآن والشعر والخط وفنون أخرى، وظل ابن حزم مشتغلا بالأدب إلى أن جرت له حادثة في سن السادسة والعشرين فتحول إلى دراسة الفقه ونبغ فيه[2].

لقد بين الفقه الظاهري ورفع رايته ومرجع ذلك إلى أمرين:

الأول: تدوين أصوله وأحكامه في كتب مطبوعة ومتداولة، وأهمها كتاب المحلـى بالآثار وكتاب الإحكام في أصول الأحكام فقد وضح فيهما أصول المذهب مقارنا بينـه وبين غيره.

الثاني: الدعوة إلى مذهبه ونشره واستقطاب الشباب الذين كانوا يقصدونه مخلصين فزرع فيهم بذور هذا المذهب الذي انتشر وعلا صيته[3].

كما ألف كتبا من مختلف الفنون منها:

كتاب الإيصال إلى فهم كتاب الخصال، والإجماع ومسائله، والتقريب لحد المنطق، شرح الموطأ، كشف الالتباس ما بين أصحاب الظاهر وأصحاب القياس، كتاب الفصل

في الملل والأهواء والنحل، وطوق الحمامة، والمحلى بالآثار، وهو موسوعته الفقهية وغير ذلك من الكتب[4].

ألله حرم قتلى في الهوى أسفا　　وأنت يا قاتلي ظلما تحـلله　　(انظر ابن كثير: نفسه، ج11، ص111).

(1) ابن كثير: المصدر السابق، ج12.ص91.

(2) ابن حزم: المحلى بالآثار، ج1 ص5 كان ابن حزم في بداية أمره شافعي المذهب ثم انتقل إلى المذهب الظاهري بتأثير من أستاذه أبي الخيار مسعود بن سليمان الذي كان ظاهريا(أحمد كحيل: النحو و الفقه الظاهري، مجلة أضواء، الرياض، العدد6، جمادى الثانية1395هـ، ص228).

(3) مصطفى إبراهيم المشيني: المرجع السابق ص64 ولعل مكانة والده في الوزارة وتدبير الملك جعلت هذه المكانة من مذهبه وآرائه ما يزيدها شيوعا وانتشارا، وخوف الناس ربما كان أسبق من الاقتناع.

ولقد كان لابن حزم لسان حاد على العلماء وقلم ضار بهم، فكان هذا مما ورث الحقد عليه وإثارة الحكام ضده حتى طرد من بلاده وتوفي في قرية له في شعبان سنة 456هـ/1063م ويذكر أنه كان من أشد الناس تأويلا في باب الأصول وآيات الصفات وأحاديثها لأنه كان أولا قد تضلّع في المنطق[1].

- وكذلك من وجد بالأندلس على المذهب الظاهري، القاضي خطيب الأندلس منذر بن سعيد البلوطي الذي كان أول منافح في سبيل نشر هذا المذهب وقد ثار على التقليد وكان كثير الاحتجاج والنظر عالما باختلاف العلماء، توفي سنة 355هـ/965م[2].

- وكذلك مسعود بن سليمان بن مفلت أبي خيار المتوفى سنة 426هـ/1034م، وقد كان يذكره ابن حزم على أنه أستاذه انتهج منهج أهل الظاهر في الاستدلال[3].

وهناك علماء وتلامذة على المذهب ذاته منهم ابن المغلس[4] المتوفى سنة 324هـ/935م، إلاّ أنّ هؤلاء لم تكن لهم الشهرة التي بلغها ابن حزم الذي يعد بحق باعث المذهب الظاهري. خصوصا بعد وفاة ابن داود محمد الظاهري الذي لم يعمر كثيرا رغم براعته في العلوم، لكن ابن حزم وما له من مكانة لدى السلطان، وكذلك معرفته بفنون كثيرة جعلت منه الشخصية البارزة في الفقه الظاهري، وربما هي شخصية تنازع صاحب المذهب ذاته. نظرا لكتاباته الباقية. إذ هو زعيم الظاهرية في بلاد الأندلس والمغرب عامة. وهو نسخة لداود المشرق.

---

(4) مصطفى مشيني: نفس المرجع، ص 63؛ شلبي: المدخل في التعريف بالفقه، ص206.

(1) ابن كثير: المصدر السابق، ج12 ص92.

(2) مصطفى إبراهيم المشيني: المرجع السابق، ص 62.اسماعيل سامعي :المرجع السابق ،ص30 .

(3) محمد أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 550.

(4) ابن المغلس له مصنفات عديدة في المذهب مفيدة، أخذ الفقه عن أبي بكر بن داود وروى عن عبد الله بن أحمد بن حنبل، و علي بن داود القنطري، وأبي قلابة الرياشي وآخرين. كان ثقة فقيها فاضلا وهو الذي نشر علم داود وتوفي بالسكتة في 324هـ/ 935م، (ابن كثير: نفس المصدر، ج11، ص186).

انتشار مذهبه: لقد انتشر المذهب الظاهري في المشرق والمغرب وساعدت عدة عوامل على انتشاره وأهمها:

أولا: كتب داود الظاهري التي اشتملت على سنن وآثار عديدة بنى عليها فقهه، وقد ذكر ابن نديم أسماء حوالي سبعة و خمسين و مئة كتابا لداود الظاهري كانت منتشرة آنذاك لكن يبدو أنه لم يصل إلينا منها أي كتاب[1].

ثانيا: تلامذته الذين نشروا ما في هذه الكتب من علم والجو العام الذي أحدثته.

ثالثا: أنّ كثرة القائلين بالقياس في المشرق دفع إلى ظهور طائفة تتمسك بالنصوص وتتطرف في ذلك، باعتقاد منهم أنّ كل من قاس فهو منحرف عن الدين.

رابعا: كثرة الوضع في الحديث دفع إلى البحث عن الأحاديث وتمحيصها وبذلك الاعتناء بها والوقوف عندها.

وهكذا انتشر المذهب الظاهري في القرنين الثالث والرابع للهجرة، حتى صار المذهب الرابع في القرن الرابع بالمشرق[2].

لقد انتشر المذهب الظاهري، ببلاد بغداد وبلاد فارس، حيث كان الإمام داود وتلامذته في القرنين الثالث والرابع . ثم انتقل إلى بلاد أفريقية والأندلس[3]. وسبب انتشاره بالأندلس. كان في وقت شيخ المذهب داود، حيث رحلت طائفة كبيرة من علماء قرطبة إلى المشرق لأخذ العلم عن علمائه الإمام أحمد بن حنبل وداود وغيرهم[4].

وكان أول من أدخل هذا المذهب إلى الأندلس وبلاد المغرب، عبد الله بن محمد بن قاسم بن هلال المتوفى سنة 292هـ/904م، وكان مالكيا ثم تتلمذ على يد داود ونسخ كتبه وأقبل بها على أهل الأندلس واجتهد في نشر هذا المذهب[5].

---

[1] أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية، ص549؛ فؤاد سزكين: المرجع السابق، مجلد1، ج2، ص253.

[2] أبو زهرة: نفس المرجع، ص549.

[3] أحد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص 166، السريتي: المرجع السابق، ص 375.

[4] أبو زهرة: نفسه، ص 550، إن تلك الرحلات العلمية التي كانت نحو المشرق غالبا ما كانت تغتنم فرصة الحج الذي يلتقي فيه العلماء ويناقشون المسائل، والحجاز معروفة بميلها نحو الأثر، و لذا تأثر غالب من هاجر من المغرب إلى المشرق بمدرسة الأثر التي تعتمد على النصوص أكثر.

[5] إبراهيم مصطفى المشيني: المرجع السابق. ص 61، وقبل دخول المذهب الظاهري إلى الأندلس كانت هذه البلاد تشهد صراعا على البقاء بين مذهبين هامين هما المذهب الأوزاعي الأول في الانتشار، والمذهب المالكي الذي كان كذلك. بفعل الرحلات نحو المشرق، إذ جلبه هؤلاء التلاميذ الذين رحلوا إلى المشرق.

كما أنّ المذهب انتشر إلى ما وراء العراق والفرس حيث خراسان والسند[1]، وانتشر كذلك إلى عمان في القرن الرابع للهجرة. كما كانت الظاهرية المذهب الرسمي لدولة الموحدين[2] في عهد يعقوب بن يوسف 580-595هـ/1184-1198م[3].

وكذلك مذهب الدولة البهارية[4] التي حكمت السند من سنة 247هـ — 417هـ/ 861م-1026م[5].

وخلاصة القول أنّ المذهب الظاهري قد استمر منذ تأسيسه إلى القرن الرابع والخامس للهجرة إلاّ أنّ أزهى أيامه كانت أيام مؤسسة داود الظاهري وأيام منعشه ابن حزم الأندلسي في القرن الخامس للهجرة.. وما يلاحظ كذلك أنه انتشر إلى أقصى الشرق حيث السند وإلى أقصى الغرب حيث الأندلس دون أن ننسى مرتعه ومحضنه الأول بلاد العراق. كما أنه لا يعلم من عمل به بعد عصر الموحدين بالأندلس[6].

---

(1) السند بلاد بين بلاد الهند وكرمان وسجستان ومذهب أهلها الغالب عليها هو مذهب أبي حنيفة، وكان لهم فقيه يكنى بأبي العباس داودي المذهب له تصانيف في مذهبه وكان قاضي المنصورة. انظر (ياقوت: المصدر السابق، ج3 ص 367)، والمنصورة هي قصبة بلاد السند، (ياقوت: نفسه، ج5، ص211).

(2) دولة الموحدين: كانت هذه الدولة بين 541-633هـ/1147-1235م ظهرت بالمغرب بعد دولة المرابطين 448-541هـ/1056-1147م، كان شعار الدولة الموحدية " الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر"، زعيمهم محمد بن تمرت من قبيلة هرغة إحدى بطون مصمودة. زعم أنّ نسبه عربي وأنه ينسب إلى الحسين بن علي. ولقب بالمهدي سافر في أنحاء المغرب شرقا وغربا، والتقى مع عبد المؤمن بن علي وانتصر على المرابطين وخلف عبد المؤمن المهدي الذي توفي في 524هـ/1129م سيطر على جميع المغرب وفكر في الأندلس لكنه توفي سنة 557هـ/1161م وخلفه ابنه يوسف ثم يعقوب بن يوسف، انظر (إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص381 وما بعدها لعدة صفحات).

(3) فؤاد سزكين: المرجع السابق، مجلد 1، ج2، ص253.

(4) وهي نسبة إلى بار وهي قرية من قرى مرو ويقال لها بارين أيضا وينسب إليها رقاد بن إبراهيم البهاري توفي سنة 246هـ/860م انظر (ياقوت: نفس المصدر، ج1 ص 514)، وقيل إنها مدينة ومنطقة في الهند بولاية البنغال أخذ اسمها من معبد بوذي، و قد كانت بار ولاية في أيام حكم المسلمين في صدر القرن الثالث عشر ميلادي، ثم أعطيت لشركة الهند الشرقية سنة1765م و هي الآن الأكثر سكانا من أقسام البنغال مياهها كثيرة و أراضها خصبة كانت عامرة مشهورة و انحطت اليوم و تسمى كذلك بارات (خورشيد: دائرة المعارف الإسلامية، مجلد4، ص246؛ بطرس البستاني: دائرة المعارف، بيروت، ج5، ص636).

(5) صبحي المحمصاني:فلسفة التشريع، ص 72 وقد كان ابتداء الدولة البهارية بقتل المتوكل سنة 247هـ/861 م ، واعتلاء ابنه العرش محمد المنتصر بن المتوكل الذي قتله وجاء مكانه، انظر (ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص352).

(6) أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص32.

مؤلفات في المذهب:

لقد كتبت في المذهب عدة كتب أغلبها للإمام داود، وأهمها للإمام ابن حزم وجاء في هدية العارفين اهم ما كتبه داود منها:

كتاب إبطال التقليد، وإبطال القياس، رسالة أبي الوليد، رسالة الربيع بـن سـلمان، ورسالة هارون الشاري، كتاب الإجماع، كتاب الأصول، كتاب أعـلام الـنبي ρ، كتـاب الإفصاح، كتاب الإيضاح أربعة آلاف ورقة، وكتاب ترك الإكفار، كتاب الحجـة، كتـاب الدعاء، كتاب الدعوى والبيانات، كتاب الخبر الواحد، كتاب الخصوص والعمـوم، كتـاب الخبر الموجب للعلم، كتاب الذب عن السنن والأحكام والأخبار " ألف ورقة " كتاب الـرد على أهل الإفك، كتاب السجلات، كتاب الكافي في مقالة المطلبي الذي سماه كتاب الـسير، كتاب المتعة، كتاب المسائل الأصبهانيات، كتاب المـسائل البـصريات، كتـاب المـسائل الخوارزميات، كتاب المسائل المكتومات كتاب مسألتين خالف فيهما الشافعي. كتاب المستقبل والمستدبر، كتاب المشكل، كتاب المعرفة، كتاب المفسر وا مل، كتاب النـصاح خمـسمائة ورقة، كتاب الواضح والناضح للساعي، كتاب الوثائق ثلاث آلاف ورقة. وكتـاب في علـم الفقه يحتوي على مائة و ثمانية عشر كتابا[1].

كما ألف ابن حزم عدة كتب في تثبيت هذا المذهب قد سبق ذكرها. ولكن أبرزها من الفقه وأصول المذهب الظاهري، كتابي المحلى والأحكام في أصول الأحكام.

والمحلى آخر مؤلفات ابن حزم مات رحمه الله ولم يتمه، وأتمه ابنه الفضل أبو رافع في كتاب الإيصال مختصرا منه مسائله وملخصا لها، وينتهي المحلى كما ألفه ابن حزم عند آخر مسألة 2023، صفحة 401 من المحلى العاشر وعدد المسائل التي لخصها أبو رافـع 285 مسألة[2].

---

[1] ابن نديم: المصدر السابق، ص216؛ الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13، ص104، إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين في أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، اسطنبول، 1951، ص359.

[2]. عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق، ص124.

اندثاره:

انتشر وذاع المذهب الظاهري إلاّ أنّ هناك عدة أخطاء وقع فيها أصحاب المذهب، كما أنّ طبيعة المنهج المتبع في طرق الاستنباط للأحكام جعل هذا المذهب يندثر باندثار أصحابه وزوال القائمين عليه، ويمكن أن نقسم هذه الأسباب إلى ما يلي:

أولا: أنّ طبيعة المنهج جعلت الناس ينفرون من المذهب حينما تمسك بظواهر النصوص فقط وبذلك عطّل العمل بباقي الأدوات الاستنباطية التي كانت لدى الفقهاء الآخرين. عندها صار كل واحد يمكن له أن يحكم دون شرط على أية حادثة.

وعليه فقد منع داود التقليد منعا مطلقا، إذ لا يجوز للعامي أن يقلد بل أن يجتهد وإن لم يستطع سأل، ولكن لا يقبل القول من الآخر إلاّ إذا قدم له الدليل من الكتاب أو السنة أو الإجماع فإن لم يقدم واحدا من هذه الأدلة اتجه إلى غيره[1].

ثانيا: شدة وطأة أصحاب هذه المذاهب، وبالأخص ابن حزم الذي طور المذهب بالأندلس، إذ كان شديدا على مخالفيه بسبب حدة ميزاجه وأشد ما يكون عنفا حينما يناقش الأحناف أو المالكية، وهذا ما جعل الناس ينفرون منه ومن آرائه إلى آراء أكثر اعتبارا للرأي المخالف[2]..

وقد كانت لداود وأصحابه دعابة وطرفة تميزوا بها حتى صارت خلقا يستعملونها في مناقشة مخالفيهم وقطع حجتهم ، ومنها أن وقع بين داود والطبري مسألة فوقف الكلام عند داود بن علي فشق ذلك على أصحاب داود فكلم واحد منهم الطبري بكلمة موجعة فقام من المجلس تنكرا لهذه الكلمة وتسفيها لرأي داود[3].

ثالثا: ونظرا للسببين السابقي الذكر فإنّ العلماء في جميع البلاد الإسلامية وأتباعهم آنذاك تنكروا لآراء داود وابن حزم ومن اقتفى أثرهما، ربما عدوا – أصحاب هذا المذهب - من المبتدعة بتعليم العلم من الكتب من غير مفتاح المعلمين[4] ، وقد قال القاضي أبو بكر بن

---

(1) أبو زهرة: تاريخ المذاهب، ص548.

(2) عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق، ص124.

(3) ياقوت: معجم الأدباء، ج18، ص ص 78، 79.

(4) الشاطبي: الإعتصام، ج2، ص91، 295.

العربي في كتاب العواصم والقواصم عن الظاهرية أ ا أمة سخيفة تسورت على مرتبة ليست لهـا وتكلمت بكلام لم تفهمه ، تلقفوه من إخوا م الخوارج ، حيث تقول لا حكم إلا لله [*] .

ولذلك استهجن الناس مذهبه، وتلقوا كتبه بالإغفال والترك، حتى إنه ليمنـع بيعهـا في الأسواق وربما مزق بعضها، كما حرضوا عليه الأمراء، وحذروهم منه، ووصل ببعـضهم إلى أن عد داود من الكفار، وذلك نظرا للخلافات التي كانت بين أتباعه وأتباع المذاهب الأخرى[1].

وما يمكن ملاحظته من خلال ما سبق أنّ المذهب الظاهري هذا لم يكن ليستمر بعـد أن ذهب زعيمه داود الظاهري، إلا بسبب التفاف العامة حول المذهب، وهذا الالتفـاف عائـد إلى أمرين:

أولهما: الأسس التي اعتمدها في الاستنباط من النصوص: الكتاب والسنة وما لهما من أثر في نفوس عامة المسلمين، واستحالة نقاشهما أو انتقادهما.

ثانيهما: أنّ المذهب اعتمد على سلطان الملك وليس العلم حيث نشره وقام عليه ابن حزم وهو من أسرة مرموقة لها مكانتها ومرتبتها في قصور الأندلس، ثم إنه حينما تولى يعقـوب بـن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الموحدي، عمل بالقوة على إرساء المـذهب وتـدمير المـذاهب الأخرى وكل من قال بالرأي، وأحرق الكتب التي هي على غير الظاهرية

و خلاصة القول فإن المذهب الظاهري يعتبر من أبرز المذاهب التي أثّرت علـى الحيـاة الفقهية والتشريعية في القرن الثالث الهجري وما بعده، ولم يكن ذلك بسبب ما اسـتحدثه مـن أصول جديدة أذهلت الناس مثلما قام به الإمام الشافعي أو الإمام أبو حنيفة ومالك قبله، بـل إنّ شيئا من ذلك لم يحدث.وعلى العكس فإنّ تأثير هذا المذهب هو بالنظر إلى نكرانه لجميـع تلـك الأصول التي بنت المذاهب آراءها عليها، واستلهمت الأحكام عن طريقها، ولذلك نجد الأنظـار كلها تتجه نحو هذا المذهب، تعجبا من جهة ونقدا من جهة ثانية.

---

[*] ابن حزم :مراتب الإجماع ،دار الكتاب العربي ،بيروت ،ط2 ،ص4.

[1] الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج8 ص 373؛ الخضري بك: المرجع السابق، ص 214، وموسوعة جمال عبد الناصر: ج1، ص 34.

ومن بين العلماء الذين نفروا منه ولم يحبوا دخوله عليهم – ما ذكرنا سالفا – موقفه من الإمام أحمد بن حنبل، وذلك في بغداد إذ أنه حاول إخفاء آرائه فيما يخص خلق القرآن حتى يتمكن من مجالسة الإمام أحمد، إلاّ أنّ الإمام انتبه إليه وإلى حيلته فرفضه ولم يقبل لقاءه... وقد كان داود لا يقتنع بالسماع فقط بل كان يجادل ويحاجج ولذلك رفضه الإمام حتى لا يعكر صفو الحلقة وصفو تلاميذ الإمام، خصوصا وأنه فعلها مع أتباع الإمام الشافعي حينما خرج بآراء مخالفة لهذا المذهب في قضية إبطال القياس. انظر (فخر الدين الرازي: المصدر السابق، ج2، ص24، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج13 ص 99).

وربما ظهر هذا التوجه بسبب الحالة التي كانت في أواخر القرن الثالث للهجرة، حيث انتشرت الفرق الكلامية وال عات السياسية. وكثر الوضع والكذب في النصوص، مما جعل الناس تميل إلى هذا المذهب مدة من الزمن لما اعتمده من طرق استنباط القائمة على ظواهر النصوص فقط.

كما أننا نلمس من خلال دراستنا لتطور المذهب الظاهري أنّ من تمسك بهذا المذهب هم بعض العامة الذين لم يكونوا قادرين على إعمال العقل لقلة الزاد – على عكس ما نجده عند الآخرين من علماء فطاحل – ولذلك نجدهم يلجأ ون إلى أسهل الحلول، بإطلاق ما لم يأت نص من شأنه واضح على ظاهره، وبذلك الحكم بالتحليل أو التحريم على الحادثة الظاهر حكمها في النص. وهو أسلوب قد يلجأ إليه أي إنسان، لأنّ المذهب الظاهري لا ينظر إلى مراد النص والغايات التي يريد الشارع تحقيقها، وهو في ذلك يقلص حرية الاجتهاد للعلماء، ويعطي حرية الاندفاع للعامة للحكم على الحوادث.

وبالنظر إلى أنّ التشريع الإسلامي لم يأت ليختص بزمان من الأزمنة أو مكان من الأمكنة، فإنّ الحوادث كانت متنوعة منتشرة أفقيا عبر المعمورة، وشاملة لجميع الميادين وسائرة مع جميع الأوقات، ولذا فإنه ما كان لهذا المذهب أن يجد رواجا إلاّ أيام منشئه داود الظاهري في القرن الثالث الهجري، أما فيما يخص ابن حزم فيمكن القول أنّ منحاه يختلف عن منحى شيخه داود بالنظر إلى تمسكه أكثر بظواهر النصوص وعدم اعتبار القياس الجلي الذي اعتمده داود سابقا.

لقد أشرف ابن حزم على هذا المذهب كتابة ودروسا وتعليما للتلاميذ حتى صار المذهب الأول في المنطقة بعدما قضى على المذهب الأوزاعي وحاصر مذهب الإمام مالك إلى آخر القرن الخامس للهجرة، ثم جاء عهد الموحدين الذين حكموا الأندلس، فدعموا المذهب الظاهري وعمموا العمل به. خصوصا أيام الموحدي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي الذي تولى من سنة 580هـ – 595هـ/1184-1198م(*). وهو الذي أراد القضاء على المذهب المالكي وعمد إلى حرق كتبه وحمل الناس على الظاهر من القرآن والسنة، واستمر المذهب كذلك إلى أن خلفه مذهب الإمام مالك بعد استفاقة أصحابه، من المغرب، أما في المشرق فكان قد انقرض بفعل صولة الأحناف وجولة الشافعية وشدة الحنابلة.

(*) مبارك بن محمد الميلي :تاريخ الجزائر ،المؤسسة الوطنية للكتاب ،ج3 ،ص339 .

الفصل السادس

أثر المذاهب المندثرة في التشريع الاسلامي
و أسباب اندثارها

المبحث الأول : مذااهب أخرى مندثرة

المبحث الثاني : أثرها في التشريع الاسلامي

المبحث الثالث : أسباب اندثارها

المبحث الأول مذاهب أخرى مندثرة

انقضى عهد الخلافة الراشدة، وجاء عهد الخلافة الأموية، وكلما ابتعدنا عن القرن الأول للهجرة ازداد الخلاف الفقهي بكثرة، وتنوع الاجتهاد، وتبلورت الآراء، وبـدأت تظهر طرق أخرى للاستنباط، واختص كل عالم بمنحى فقهي له. وبدأت تظهر في الأفق ملامح المدارس الفقهية في عهد التابعين، بل إنّ تقاسيمها كانت أكثر وضوحا في عهـد تابعي التابعين أي في القرن الثاني للهجرة.

وهذا ما أدى إلى تشكيل المذاهب الفقهية الباقية منها والبائدة. وإذا كنـا قـد درسنا بعض المذاهب المندثرة في أشخاصها وآرائهم ومنحاهم الفقهي، فإنه لا يعني عـدم وجود مذاهب أخرى ومدارس كانت لها نفس القيمة الفقهية والفكرية وشخصيات لهـا أثرها على الحياة الفقهية والعلمية.

ونحن إذا اقتصرنا على الشخصيات الأربعة السالفة الذكر فذلك لاعتبارات أهمها:

- أ ا ظهرت بالفعل في القرن الثاني و الثالث للهجرة الذي هو إطار دراستنا
- أنها كانت أكثر قوة واتباعا وانتشارا ووضوحا.
- وكذلك باعتبار انتشارها وطول مكثها وتأثيرها على المذاهب الأربعة الكبرى.
- كما أنه لا يمكننا جمع هذه المذاهب كلها في بحث صغير كهذا، ذلك أنهـا تتطلـب جهدا ووقتا.

ومع هذا فإنه لا يسعنا إلاّ أن نشير إليها إشارات تجعل الباحث ربما يعتني با أو تكون ميدانا لأبحاث مستقبلية.

إنها مذاهب مندثرة لشخصيات بارزة لم يكتب لها البقاء إلاّ في أقوال أصحابا في كتب الطبقات والفقه المقارن، وهي مذاهب متعددة امتدت من أواخر القرن الهجري الأول إلى أوائل القرن الهجري الرابع. وتظهر هذه المذاهب البائدة في الشخصيات التالية:

-محمد بن عبد الرحمان بن أبي ليلى:

هو محمد بن عبد الرحمان بن أبي ليلى بن بلال بن بُليل بن أحيحة بن الجـلاح بن الحريش الأنصاري و هو قاضي الكوفة و مفتيها، تولى القضاء لـبني أميـة ثم لـبني العباس[1]، كان أبوه عبد الرحمان من التابعين و ثقة، و يذكر أنه كان علويا من أصحاب علي بن أبي طالب[2] وقد غرق ليلة دجيل[3] في وقعة الجمـاجم مـع ابـن الأشـعث 83هـ /701م[4]

ورث محمد عن أبيه علمه وفقهه فصار فقيه العراق وقاضيها.قال عنه وكيع أنـه أفقه أهل الكوفة وأنه كان لا يجيز شهادة الرافضة وكان يتحرى الشهادة حتى أنه كـان يسأل عن حال الشاهد ، وكان يستعمل الترجمان عند الضرورة في الحكـم ، ولا يجيـز شهادة من لا يشرب النبيذ[5] ، روى عن الشعبي ونافع وعطاء وغيرهم.

وقال عنه بن حنبل أنه كان سيئ الحفظ مضطرب الحديث ، وقال آخرون هو صاحب قرآن وسنة صدوق ، جائز الحديث ، قرأ عليه حمزة الزيات توفي و هـو علـى القضاء سنة 148هـ /765م وعمره إثنان وسبعون سنة[6].

---

(1) إبن سعد: المصدر السابق ، ج 5 ، ص 75؛ ابن عماد : المصدر السابق ، ج1، ص224 .

(2) الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج10 ص 200. ويقال أنه كان جوادا كريما أمتحن بالحكم والقضاء ،وكان له بيت يجتمع فيه الفقراء وفيه مصاحف كثيرة (خليفة خياط : المصدر السابق ، ص150؛ ابو نعيم : المصدر السابق ج4 ، ص353 ، المزي: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، دار الفكر، بيروت ط 1994، ج11، ص351).

(3) دجيل: نهر مخرجه من أرض أصبهان ومصبه في بحر فارس قرب عبادان، (ياقوت: معجم البلدان، ج2 ص 443).

(4) إنّ فتنة ابن الأشعث كانت سنة 81هـ/699م وامتدت إلى ما بعدها، وكانت بدايتها خلاف بين الحجاج وابن الأشعث وكان لهذه الفتنة معارك عديدة قال ابن كثير : جيء بعبد الرحمن إلى الحجاج وأمر بضرب عنقه سنة 83، وهو عكس ما رواه خليفة خياط بأنه غرق. انظر الفتنة عند(ابن كثير: المصدر السابق. ج9 ص35 وما بعدها لعدة صفحات.نفسه: ص150).

(5) وكيع : أخبار القضاة ، عالم الكتب ، بيروت ، ج3 ،ص 131 .

(6) ابن سعد: نفس المصدر، ج5 ، ص75 ؛ السيوطي: الطبقات ، ص81 ؛ ابن عماد : نفس المصدر، ج1، ص224.

الحسن البصري: هو الحسن بن أبي الحسن أبو سعيد البصري، واسم أبي الحسن يسار مولى زيد بن ثابت الأنصاري[1]. وهو من السبي، كان أبواه من بني النجار تزوج امرأة من بني سلمة من الأنصار، ويقال أنّ أمه كانت مولاة لأم سلمة زوج النبي ρ ولد بالمدينة[2] لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب[3] وكان شبيها بالصحابة في عهده[4].

يصفه صاحب الحلية أنه كان لفضول الدنيا وزينتها نابذا، ولشهوة النفس ونخوها واقدا[5]، قرأ عن الصحابة وكان من القراء[6]، حكم له الشافعي بالفصاحة ومناقبه جليلة كثيرة لا تحصى[7]. قال عنه علماء الطبقات أنه كان جامعا رفيعا وحجة مأمونا عابدا، وناسكا[8] له مع الحجاج وقائع كثيرة وواجهه بكلام صادع وسلمه الله منه[9]. قال ابن سعد: كان الحسن يشبه أصحاب رسول الله ρ وما هناك أجمع من الفقهاء منه. سئل عن الفتن وما وقع في أيام الحجاج فقال: لا تكن مع هؤلاء ولا مع هؤلاء[10].

وقد أقر بالخلافة الأموية، وأدرك أغلب خلفائهم من معاوية بن أبي سفيان إلى هشام بن عبد الملك، وبايع لهم، ونفّر الناس من الالتحاق بالثّائرين[11]، توفي في رجب سنة 110هـ/728م[12].

---

(1) البخاري: المصدر السابق، مجلد2، قسم2، ج1، ص 290.

(2) ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص 156.

(3) ابن الجزري: غاية النهاية، ج1، ص235، أي أنه ولد سنة 21هـ.

(4) ابن سعد: نفس المصدر، ج7، ص162.

(5) أبو نعيم: المصدر السابق، ج2، ص 132.

(6) ابن الجزري: نفس المصدر، ج1، ص235.

(7) نفسه: ص 235.

(8) اليافعي: المصدر السابق، ج1، ص 229.

(9) اليافعي: نفس المصدر، ص 231، وانظر قصته مع القراء الذين خرجوا مع ابن الأشعث، عند ابن سعد: نفس المصدر، ج7، ص 163، 164.

(10) ابن سعد: نفس المصدر، ج7، ص 164.

(11) حسن عطوان: الفقهاء والخلافة في العصر الأموي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991، ص 24.

(12) البخاري: نفس المصدر، ج 1،ص 290؛ ابن سعد: نفس المصدر، ج7، ص 177.

محمد بن سيرين: هو أبو بكر بن أبي عمرة البصري الأنصاري مولى أنس بـن مالك[1]. الصحابي الجليل، وهو من سبي خالد بن الوليد[2]، ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان بن عفان (24هـ/35هـ)[3]. أمه من أهل المدينة[4]، وكان من فقهـاء أهـل البصرة، روى عن خلق كثير كما روى عنه خلق كثير[5].

قال عنه ابن سعد أنه كان ثقة مأمونا عاليا رفيعا فقيها إماما كثير العلم، ورعـا وكان به صمم[6]. وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: محمد بن السيرين من الثقات[7].

وقال البخاري: أنه لم ير أحدا أعلم بالكتاب، ولا بطريق الجنة وطريق النار من الحسن البصري، ولم ير أحد أعلم بتجارة ولا قضاء ولا بفرائض ولا بحساب من محمد بن سيرين[8].

كان يقول: لو كنت متخذا كتابا لاتخذت رسائل النبي ρ، كما كان لا يـرى بأسا أن يكتب الحديث فإذا حفظه محاه[9]. كما كان مشهورا بتعبير الرؤيا ولـه فيهـا غرائبا[10]، ولكنه أجبن من الفتيا، وكان إذا ذكر الموت، مات كلّ عضو منه كما قـال الثوري[11].

---

(1) البخاري: المصدر السابق، مجلد 1، قسم 1، ج1 ص 90، هو أنس بن مالك بن النضر أبو حمزة الأنصاري خادم الرسول ص و له صحبة طويلة و حديث كثير توفي سنة 93هـ/711م (السيوطي: طبقات الحفاظ، ص19؛ ابن عماد: المصدر السابق، ج1، ص100).

(2) المزي: المصدر السابق، ص 345.هو خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمير بن مخزوم و هو من فرسان قريش و أشجعهم أمه عصماء بنت الحرث أخت أم الفضل أمن بني العباس أسلم في صفر 8هـ و توفي سنة 21هـ بقرية ميل بحمص(ابن سعد: المصدر السابق، ج3، ص177).

(3) ابن سعد: الطبقات الكبرى، دار صادر، بيروت، ج7، ص 193.

(4) خليفة خياط: المصدر السابق، ص 210.

(5) ومن الذين روى عنهم أبو هريرة، عبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، وأنس بن مالك وروى عنه الأوزاعي والشعبي وغيرهما. (البغدادي: المصدر السابق، ج5، ص332، ابن الجزري: غاية النهاية، ج2، ص 151، 152).

(6) ابن سعد:نفس المصدر، ج7، ص193.

(7) المزي: نفس المصدر، ج16، ص 347.

(8) البخاري: نفسه، مجلد1، قسم1، ج1، ص91.

(9) ابن سعد: نفس المصدر، ج7، ص 194.

(10) أبو نعيم: المصدر السابق. ج 2، ص276، ابن الجزري: نفس المصدر، ج2، ص 152.

(11) ابن الجزري: نفسه، ج2، ص 152.

وفي فقهه تأدب بالكوفيين حتى صار الشعبي يقول: عليكم بهذا الأصم يعني محمد بن سيرين[1]، كان عالما زاهدا ومعبرا فقيها. توفي في شوال سنة 110هـ/728م، وقيل أول يوم من رجب وهو ابن سبع وسبعين سنة[2].

عامر بن شراحيل الشعبي: هو عامر بن شراحيل بن عبد الشعبي، أبو عمرو الكوفي الإمام الكبير المشهور[3]، وهو ابن أخ قيس بن عبد من شعب همدان، أمه من السبي، ولد لسنتين خلتا من خلافة عمر بن الخطاب(13-23هـ) على المشهور[4].

يصفه صاحب الحلية بأنه كان بالأوامر مكتفيا وعن الزواجر منتهيا، تاركا لتكلف الأثقال معتنقا لتحمل الواجب من الأفعال[5].

روى عن خلق كثير وأغلبهم الصحابة. وروى عنه الكثيرون من التابعين، قال: أدركت خمسمائة من صحابة رسول الله ρ [6].

والأقوال في فضله علمه وورعه وحسن إسلامه وجهاده في سبيل الحق كثيرة لا تحصى، وفتاويه النابعة من حسن تفقه لا تعد، قال عنه مكحول الدمشقي: " ما رأيت أحدا أعلم بالسنة من الشعبي"[7]، وقال سفيان بن عيينة: " كان ابن عباس في زمانه والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه، وهو ثقة"[8]. وقال ابن سيرين: " قدمت الكوفة وللشعبي حلقة عظيمة، وأصحاب الرسول ρ يومئذ كثير"[9].

---

(1) الخطيب البغدادي: نفسه، ج5، ص 332.

(2) المزي: المصدر السابق، ج16، ص 349 وتوفي بعد الحسن البصري بمائة يوم، انظر أبو نعيم: المصدر السابق، ج2 ص 263، فقد ذكر ترجمة ممتعة له.

(3) ا لمزي: المصدر السابق، ج9، ص 349، ابن الجزري:غاية النهاية، ج1، ص 350.

(4) ا لمزي: نفس المصدر ، ج9، ص 349.

(5) أبو نعيم: المصدر السابق، ج4، ص310.

(6) المزي: نفس المصدر، ج9، ص 352.

(7) ابن الجزري: غاية النهاية، ج1 ص 350،

(8) المزي: نفس المصدر، ج1، ص 350.

(9) أبو نعيم: نفس المصدر ، ج4، ص 311.

ومن أقواله: " ما اختلفت أمة بعد نبيها إلاّ ظهـر أهـل باطلـها علـى أهـل حقها"،وقال: "البس من الثياب ما لا يزدريك فيه السفهاء، ولا يعيبه عليك العلماء".وقـال: " إنما هلكتم أنتم أنكم تركتم الآثار وأخذتم بالمقاييس". وسئل عن الأضحية إذا عسر شراؤها قال: " لأن أتركها وأنا موسر خير من أن أتكلفها وأنا معسر"[1].

وقد أقر بالخلافة الأموية، وشهد خلفاءهم من معاوية بن أبي سفيان إلى يزيد بن عبد الملك وبايع لهم و ى عن الفرقة والفتنة، . وكانت له مكانة رفيعة عند الحجاج، إلاّ أنه خرج أيام عبد الرحمان بن الأشعث أثناء ثورة القراء [*]، ثم ندم على خروجـه بعـد الهزيمة، وطلب العفو فقبل منه الحجاج ذلك، وقد تقلد ديوان المظالم أيام بني أمية[2]. كما أنهـم اختلفـوا في سـنة وفاتـه بـين 104هـ ـ/ 722م، 105هـ ـ/723م، 107هـ/725م، وقيل 110هـ/728م[3].

مكحول الدمشقي: هو مكحول الشامي أبو عبد الله، ويقال له أبـو أيـوب، ويقال أبو مسلم الدمشقي الفقيه، داره في دمشق[4]، وهو مولى لامرأة من هذيل، ويقال لامرأة من آل سعيد بن العاص[5].

وذكر ابن سعد أنه كان لعمرو بن سعيد بن العاص فوهبه لرجل من هذيل بمصر فأنعم عليه ا، وقرأ ا العلم، وقدم المدينة وسمع ا العلم، ولقي الشعبي وسمع شريحا ستة أشهر، ورأى أنس بن مالك بمسجد دمشق[6].

---

(1)أبو نعيم: المصدر السابق ، ج4، ص 314.

(*) هي تلك الثورة التي قادها عبد الرحمان بن الأشعث و سانده فيها العديد من القراء، و قد برزت بالعراق و ما جاورها إلى خرسان ، حيث خرج ابن الأشعث عن طاعة الوالي الأموي الحجاج بن يوسف في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، و قد اختلف في تاريخ هذه الثورة من حيث امتدادها بين 81هـ إلى 83هـ/700-702م و بين 82-84هـ/701-703م أنظر تفصيلا لهذه الثورة و بعض الثورات في العهد الأموي في رسالة لنيل شهادة الدكتراه من جامعة لندن (عبد الأمير عبد حسين دكسن: الخلافة الأموية، دراسة سياسية، دار النهضة، بيروت، ط1، 1973،ص243).

(2) حسن عطوان: المرجع السابق، ص 31، ص 45.

(3) المزي:المصدر السابق، ج9، ص 356.

(4) المزي: نفس المصدر ، ج18، ص356.

(5) خليفة خياط: المصدر السابق، ص 310، اليافعي: المصدر السابق، ج1 ص 243

(6) ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص 453.

يعتبر مكحول مفتي أهل الشام وعالمها، وثقه غير واحد، وهو من الطبقة الثالثة من التابعين بالشام[1].

قال الزهري:" العلماء أربعة: سعيد بن المسيب[*] بالمدينة، والشعبي بالكوفة، والحسن بالبصرة، ومكحول بالشام"[2]. و قال ابن سعد: أنه كان يقول بالقدر وكان ضعيفا في حديثه وروايته[3]. كما يؤثر عليه أنه كان يقول: " ما استودعت صدري شيئا إلاّ وجدته حين أريده"، و ذلك لقوة حفظه و سرعة تذكره. وذكر ابن معين أنه كان بالفعل قدريا ثم رجع[4].

كما يعتبر مكحول الدمشقي كذلك من أبرز المشايخ الذين تأثر بهم إمام أهل الشام الأوزاعي. ولقد اختلف الناس حول وفاته. فقيل سنة 111هـ/729م، وقيل 112هـ/730م وذكرت سنة 113هـ/731م، وذهب البعض إلى سنة 114هـ/732م، وقال البعض الآخر توفي سنة 118هـ/ 736 إلاّ أنّ الأرجح والغالب هي سنة 113هـ/731م[5].

---

(1) الذهبي: ميزان الاعتدال في نقد الرجال، دار المعرفة، بيروت، ج4، ص177، ويذكر أنّ صاحب تدليس ويروي بالإرسال عن عائشة وأبي هريرة.

(*) هو سعيد بن المسيب بن حزن المخزومي أبو محمد المدني سيد التابعين ولد لسنتين مضتا- و قيل أربع- من خلافة عمر (13-23هـ) سمي فقيه الفقهاء، كان أحفظ الناس لأحكام عمر و أقضياته، توفي سنة 94هـ/712م و قيل سنة 93هـ/711م و قد كانت جل رواياته عن أبي هريرة و قد تزوج ابنته و هو من فقهاء المدينة قرشي النسب جمع بين الحديث و التفسير و الفقه و الورع و العبادة (السيوطي: الطبقات، ص25؛ ابن عماد: المصدر السابق، ج1، ص102).

(2) اليافعي: المصدر السابق، ج1، ص 243، وقيل أنه كان أفقه أهل الشام، وأفقه من الزهري، (ابن كثير: المصدر السابق، ج9، ص 305).

(3) ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص 454.

(4) الذهبي: نفس المصدر: ج4، ص 178.

(5) المزي: المصدر السابق، ج18، ص 361.

عطاء بن أبي رباح: اسمه أسلم القرشي الفهري، أبو محمد المكي، مولى آل ابـن خيثم عامل عمر بن الخطاب على مكـة [1]، ولـد في خلافـة عثمـان بـن عفـان (24_35هـ)، ونشأ بمكة[2] روى عن خلق كثير وروى عنه خلق كثير أيضا[3].

انتهت إليه الفتوى في زمانه بمكة، وكان ينادي منادي من بني أمية في أيام مـنى (الحج) أنه لا يفتى الناس في الحج إلاّ عطاء بن أبي رباح.

قال عنه الإمام الأوزاعي: " مات عطاء يوم مات وهو أرضـى أهـل الأرض عندهم"[4] وقال عنه الإمام أحمد بن حنبل: " مرسلات سـعيد بـن المـسيب أصـح المرسلات، ومرسلات إبراهيم النخعي[*] لا بأس با، وليس مرسلات شيء أضعف مـن مرسلات الحسن، وعطاء بن أبي رباح، فإنهما يأخذان على كل أحد"[5].

وقد كان عطاء يصرح دوما أنه: " ما اجتمعت عليه الأمة أقوى عنـدنا مـن الإسناد"[6]. قال عنه سفيان بن عيينة: " كان عطاء يطيل الصمت فإذا تكلم تخيل إلينا أنه يؤيد[7]، توفي رحمه الله سنة 114هـ/732م[8].

---

(1) المزي: المصدر السابق، ج13، ص44. وقال خليفة خياط: يقال أنه مولى لبني فهر وهو من الطبقة الأولى من أهل مكة. (خليفة خياط: المصدر السابق، ص279).

(2) المزي: نفسه، ج13، ص44.

(3) روى عن عائشة وأبي هريرة وابن عباس وابن الزبير وغيرهم، وروى عنه مالك بن دينار والزهري، وقتادة والأعمش، والأوزاعي وغيرهم. كما روى عنه أبو حنيفة. انظر (اليافعي: المصدر السابق، ج1، ص 244).

(4) ابن كثير: المصدر السابق، ج9، ص 306.

(*) هو ابراهيم النخعي بن يزيد بن قيس بن الأسود أبو عمران فقيه أهل الكوفة و مفتيها قيل عنه أنه كان يحدث بالحديث بالمعاني، و من مواقفه أنه كان يقول و الله إن المرجئة أبغض عندي من أهل الكتاب و كان يمنع الناس من مجالستهم توفي سنة 96هـ/714م عن ثمان و خمسين سنة (ابن سعد: المصدر السابق، ج5، ص22؛ السيوطي: الطبقات، ص36).

(5) المزي: نفس المصدر، ج13، ص53.

(6) ابن كثير: نفس المصدر، ج9، ص 307.

(7) نفسه: ص 308.

(8) المزي: نفس المصدر، ج13 ص 53، وقيل توفي سنة 117هـ/735م (خليفة خياط: نفسه ص280)، إلاّ أنّ الأصح هو 114هـ/732م.

ابن شهاب الزهري: هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي الزهري أبو بكر المدني[1]، أحد الأئمة الكبار، وعالم الحجاز والأمصار، التابعي، ولد سنة 50هـ/668م وقيل 51هـ/669م[2]، وهو من الطبقة الرابعة من أهل المدينة له نحو ألفي حديث[3].

قال عنه الليث بن سعد: " ما رأيت أحدا قط أجمع من ابن شهاب ولا أكثر علما منه، لو سمعت ابن شهاب يحدث في الترغيب لقلت لا يحسن إلاّ هذا، وإن حدث عن الأنبياء وأهل الكتاب لقلت لا يحسن إلاّ هذا، وإن حدث عن العرب والأنساب لقلت لا يحسن إلاّ هذا، وإن حدث عن القرآن والسنة كان حديثه بوعي جامع"[4].

من صفاته أنه كان قصيرا، قليل اللحية، جالس سعيد بن المسيب نحو ثماني سنوات[5]. يذكر عن نفسه أنه مكث بين الشام والحجاز يبحث عن الحديث والعلم، إذ كان أكبر همه البحث عن الحديث[6].

و يثني عليه عمر بن عبد العزيز[*] فيقول: " عليكم بابن شهاب فإنه ما بقي أحد أعلم بسنة ماضية منه، وكذلك قال مكحول وغيره" ما رأيت أحدا أعلم من الزهري، فقيل له ولا الحسن فقال: ما رأيت أعلم من الزهري"[7].

---

(1) المزي: المصدر السابق، ج17،ص220؛ خليفة خياط: المصدر السابق، ص261.

(2) ابن الجزري: غاية النهاية، ج2، ص262، وذكر ابن كثير أنه ولد في خلافة معاوية بن أبي سفيان سنة 58هـ/676م. انظر (ابن كثير: المصدر السابق، ج9 ص 341).

(3) المزي: نفس المصدر، ج17، ص 225.

(4) أبو نعيم: المصدر السابق، ج3، ص360.

(5) ابن كثير: نفس المصدر، ج9، ص 341.

(6) أبو نعيم الصبهاني: نفس المصدر ، ج6 ، ص 362.

(*) كانت خلافة عمر بن عبد العزيز فيما ذكر غير واحد سنتين و خمسة أشهر و أربعة أيام (99-101هـ/ 717-719م). كان حكما مقسطا و إماما عادلا و ورعا دينا لا تأخذه في الله لومة لائم (ابن كثير: نفس المصدر، ج9، ص192).

(7) ابن كثير: نفسه ج9، ص 343.

وقد اختلف الناس في سنة وفاته، فقيـل سـنة 124هـ ـ / 741م وقيـل 123هـ/ 740م والأصح الأول، حيث توفي في منتصف رمضان عن اثنين وسـبعين سنة ودفن بقارعة الطريق لنيل دعاء المارة[1]. وقد توفي في آخر حد الحجاز وأول حـد فلسطين[2]. في أثناء رحلاته بين الشام والحجاز.

شعبة بن الحجاج: هو ابن الورد العتكي الأزدي أبو بسطام الواسطي الأصـل مولى عبده بن الأعز مولى يزيد بن المهلب بن أبي صفرة مولى الجهاضـم مـن العتيـك، بصري الدار، انتقل إلى البصرة ورأى الحسن وابن سيرين[3]. و قد سمع عن خلق كـثير منهم سعيد المقبري، ويحي بن أبي كثير وروى عنه سفيان الثوري وشريك وسفيان بـن عيينة وعبد الرحمان بن المهدي وعبد الله بن المبارك وخلق كـثير[4]. ولـه نحـو ألفـي حديث[5].

قال يحي بن معين: " كان شعبة رجلا صدوقا، وكان رحيما، إنما قدم بغداد في سبب أخ له كان محبوسا، وكان واسطيا[6] نزل البصرة، وهو أكبر من سفيان الثـوري بعشر سنين"[7]، قال الإمام أحمد: " شعبة أعلم وأثبت في الحديث وهو أحسن من الثوري فيه".وقال الشافعي: " لولا شعبة ما عرف الحديث في العراق، وكان يجـيء إلى الرجـل فيقول له: لا تحدث وإلاّ استعديت عليك السلطان"[8].

---

(1) البخاري: المصدر السابق، مجلد1، قسم1، ج1، ص 220.

(2) ابن الجزري :غاية النهاية ، ج2، ص 263.

(3) المزي: المصدر السابق، ج8، ص 344.

(4) الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج9، ص 255.

(5) المزي: نفسه، ج8، ص 351.

(6) نسبة لواسط و هي منطقة سميت بواسط لأ ا متوسطة بين البصرة و الكوفة شرع الحجاج في عمار ا سنة 84هـ/701م، و فرغ منها سنة 86هـ/703م، و يقال أن الحجاج لما فرغ من حروبه استوطن الكوفه فآنس من سكا ا الملل و البغض له فبحث عن موضع يبني فيه مدينته فكانت واسط (ياقوت:معجم البلدان ، ج5، ص347).

(7) الخطيب البغدادي: نفس المصدر، ج8، ص 255، 258.

(8) المزي: نفس المصدر، ج8، ص 251، 252.

و قد سئل الإمام أحمد: من أثبت شعبة أم سفيان؟ فقال: " كان سـفيان رجـلا حافظا، ورجلا صالحا وكان شعبة أثبت منه وأنقى رجالا، وأنه كان يخطئ في بعض الأسماء" وقال الثوري : " ما رأيت أحدا أورع في الحديث من شعبة، يـشك في الحـديث الجيـد فيتركه"[1]

ولد شعبة سنة 83هـ /701م، وتوفي بالبصرة سنة 160هـ/776م، وهو ابن سبع وسبعين سنة[2].

سفيان بن عيينة: ابن أبي عمران ميمون بن محمد الهلالي الكوفي ثم المكي مولى عبد الله بن رويبة من بني هلال بن عامر بن صعصعة، أصله من الكوفة[3]، وقيل هو مولى محمد بن مزاحم أخو الضحاك بن مزاحم وكان أعورا[4].

وهو الإمام المشهور من الطبقة الخامسة من أهل مكة[5]، ولد سنة سـبع و مائـة 107هـ 725م، و قد دخل أبوه مكة[6]، و لذا سمي بـ يل مكة.

وكانت لسفيان أسفار متعددة منها أنـه سـافر إلى الـيمن سـنة 150هـ ـ/767م ، و152هـ/ 769م [7] و جلس إلى الزهري، وروى عن خلق كثير، إذ هو من أصـحاب الزهري وأوثقهم[8]، قال عنه الشافعي، وعبد الرحمان بن مهدي: " كان ابن عيينة من أعلم الناس بحديث أهل الحجاز، وأنه أعرف بالقرآن وتفسير الحديث ما لم يكن عند الثوري".
وقد عرف سفيان بن عيينة بزهده وعبادته وطلبه للحديث[9]، إذ تفرغ له.

---

(1) البغدادي : المصدر السابق، ج9، ص 263، 264.

(2) نفسه: ج9، ص 266، وقال صاحب ذيب الكمال: " أنّ أول من فتش العراق عن امر المحدثين وجانب الضعفاء والمتروكين، وصار علما يقتدى به هو شعبة" انظر(المزي: المصدر السابق، ج88، ص 356).

(3) ابن سعد: المصدر السابق، ج5، ص 497.

(4) المزي: المصدر السابق، ج7، ص 368، ابن الجزري: غاية النهاية، ج1، ص 308.

(5) خليفة خياط: المصدر السابق، ج5، ص 284 .

(6) ابن سعد: نفس المصدر، ج5، ص 497،أبو نعيم: المصدر السابق، ج7، ص270.

(7) ابن سعد: نفسه، ج5، ص 497.

(8) البخاري: المصدر السابق، مجلد 4، قسم2، ج2، ص94، المزي: نفس المصدر، ج7، ص 376.

(9) الذهبي: تذكرة الحفاظ، ج1، ص 263.

و قد ذكر أنّ الشافعي قال: مالك وسفيان بن عيينة قرينـان - يعـني في الأثـر - ولولاهما لذهب علم الحجاز"[1]، وكان من أهم أقوال ابن عيينة: " من زيد في عقله نقص من رزقه"[2]، ويقول أيضا: " ليس العالم الذي يعرف الخير والشر، وإنما العـالم الـذي يعرف الخير فيتبعه ويعرف الشر فيجتنبه"[3]، ويقول أيضا: " لا تصلح عبادة إلاّ بالزهد، ولا يصلح زهد إلاّ بفقه، ولا يصلح فقه إلا ببصر"[4].

توفي يوم السبت أول يوم من رجب سنة 813/198م، ودفن بالحجون[5]، قيل وقد اختلط سنة 197هـ/812م فمن سمعه بعد هذه السنة فسماعه لا شيء[6].

عبد الرحمان بن مهدي: بن حسان بن عبد الرحمان العنبري وقيـل الأزدي[7]، كان ثقة كثير الحديث، ولد سنة 135هـ/752م[8]. كان للآثـار والـسنن تابعـا، وللأهواء والآراء دافعا، أملى على تلاميذه عشرين ألف حديث حفظا[9].

قال الإمام أحمد بن حنبل: " اختلف عبد الرحمان بن مهدي، ووكيع[*] في نحـو خمسين حديثا من حديث سفيان الثوري، فنظرنا فإذا عامة الصواب في يد عبد الرحمان بن مهدي.." ، وقال أيضا: " عبد الرحمان أقل سقطا من وكيع وسفيان"[10]، ومن آرائه في فقه و الفتوى ما أثر عليه قوله: " استفت نفسك وإن أفتاك المفتون"[11].

---

(1) المزي: المصدر السابق، ج7، ص 376.

(2) أبو نعيم: المصدر السابق، ج7، ص271.

(3) المزي: نفس المصدر، ج7، ص 378.

(4) أبو نعيم: نفس المصدر، ج7، ص 302.

(5) ابن سعد: المصدر السابق، ج5، ص 498 والحجون جبل بأعلى مكة عنده مدافن أهله بعد ميل ونصف من البيت (الحموي :معجم البلدان،ج 2 ، ص225).

(6) المزي: نفس المصدر، ج7، ص 381.

(7) المزي: نفسه، ج11، ص 387.

(8) ابن سعد: نفس المصدر، ج7، ص 297.

(9) له ترجمة ممتعة عند أبي نعيم: الحلية، ج9، من ص 3إلى ص 63 ارجع إليها.

(*) وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي (نسبة إلى رؤاس من قيس عيلان) هو أبو يوسف الكوفي الحافظ كان زاهدا عابدا يفتي بقول أبي حنيفة النعمان و هو محدث العراق، توفي سنة 196هـ/811م و قيل توفي سنة 197هـ/812م (السيوطي: الطبقات، ص133؛ ابن عماد: المصدر السابق، ج1، ص349).

(10) المزي: نفسه، ج11، ص 390.

(11) أبو نعيم: نفسه، ج7، ص 44.

وقال في مسألة خلق القرآن: " من قال بخلق القرآن فلا تصل خلفه، ولا تمش معه في طريق، ولا تناكحه، وأن يستتاب وإلاّ ضرب عنقه"[1].

و في الولاء للمسلمين و أئمتهم قال: " من نزع يدا فإنه يأتي يوم القيامة لا حجة له، ومن فارق الجماعة فإنه يموت موت الجاهلية"[2].

لقد كان عبد الرحمان بن مهدي شديد الاتباع للسنة. فقد ذكر له قوم من أهل البدع واجتهادهم في العبادة فقال: لا يقبل الله إلاّ ما كان على الأمر والسنة، ثم قرأ:"ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم"[3] فلم يقبل ذلك منهم، ووبخهم عليه، ثم قال: الزم الطريق والسنة"[4]، وكان يقول أيضا: احفظ لا يجوز أن يكون الرجل إماما حتى يعلم ما يصح مما لا يصح وحتى لا يحتج بكل شيء، وحتى يعلم بمخارج العلم"[5].

كما أنه يشدد القول على المبتدعة وأهل الفرق فيقول: " إنّ الجهمية أرادوا أن ينفوا أن يكون الله كلم موسى، وأن يكون " استوى " على العرش، وأرى أن يستتابوا فإن تابوا وإلاّ ضربت أعناقهم"[6]، توفي عبد الرحمان بن مهدي بالبصرة في جمادى الثانية من سنة 198هـ/813م، وله 63 سنة[7].

إسحاق بن راهويه:

هو إسحاق بن راهويه بن مخلد بن إبراهيم أبو يعقوب الحنظلي المروزي المعروف بابن راهويه[8]، وهو أحد الأئمة الأعلام، ثقة وحجة، إمام من أئمة المسلمين[9].

---

(1) أبو نعيم: المصدر السابق، ج9، ص 6.

(2) نفسه، ص58.

(3) سورة الحديد، الآية 27.

(4) أبو نعيم: نفس المصدر، ج9، ص 8.

(5) نفسه: ص3.

(6) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج9، ص 199، 200.

(7) ابن سعد: المصدر السابق، ج7، ص 297.

(8) الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج6، ص 345.

(9) الذهبي: ميزان الاعتدال، ج1، ص 183.

جُمع له الحديث والفقه، والحفظ والصدق، والورع والزهد رحل إلى العـراق والحجاز واليمن والشام سمع عن كثير من الفقهاء والعلماء، وعاد إلى خرسان، واستوطن نيسابور إلى أن توفي بها[1].

سمي ابن راهويه نسبة إلى أبيه الذي ولد في الطريق، فسمي راهويه وهي كلمـة فارسية تعني " في الطريق وجد"[2]، ولد سنة 161هـ/777م[3].

كان إسحاق بن راهويه قرينا للإمام أحمد في إتباعه للسنة وتمسكه بها و دفاعـه عنها، منتقدا لمخالفيها وخصوصا المبتدعة والفرق الزائغة[4].

و كان يقول: " إجماع أهل العلم أنه تعالى على العرش استوى، ويعلم كل شيء في أسفل الأرض السابعة"، ويقول أيضا: " ليس بين أهل العلم اختلاف أنّ القرآن كـلام الله ليس بمخلوق، وكيف يكون شيء خرج من الرب عز وجل مخلوقا"[5].

إلاّ أنّ إسحاق بن راهويه تغير قبل أن يموت بخمسة أشهر، أي أنه اخـتلط في آخر أيامه وتوفي سنة 238هـ/852م[6].

قيل عنه: لو أنّ إسحاق بن إبراهيم الحنظلي كان من التابعين لأقروا له بـالحفظ والعلم والفقه [7].

---

[1] الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج6، ص 346.

[2] الخطيب البغدادي: نفسه، ج6، ص 348.

[3] نفسه، ص 347.

[4] لمعرفة المزيد من أقواله وطريقته وأقوال الناس فيه، انظر أبو نعيم: المصدر السابق، ج9، ص 234 وما بعدها لعدة صفحات.

[5] الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج11، ص 370، 376.

[6] الذهبي: ميزان الاعتدال، ج1، ص183، ابن كثير: المصدر السابق، ج10، ص317.

[7] الخطيب البغدادي: نفسه، ج6، ص 350.

أبو ثور: هو الحافظ الإمام ا تهد إبراهيم بن خالد الكلبي البغدادي[1] الفقيـه، يكنى بأبي عبد الله، ويعرف بأبي ثور[2]، وهو أحد الفقهاء الأعلام[3]، روى عـن خلـق كثير، وروى عنه كذلك خلق كثير[4].

تفقه عن الإمام الشافعي وسمع من ابن عيينة ولم يقلد أحـدا[5]، فهـو أحـد الأئمةالبارعين فقها وعلما وورعا وفضلا وديانة وخيرا ممن صنف الكتب وفرع السنن. وذب عن حريمها، وقمع مخالفيها، له كتب مصنفة في الأحكام جمع فيها بـين الحـديث والفقه[6].

كان أول اشتغاله في مذهب أهل الرأي بالعراق إلى أن قدم الإمام الشافعي إليها فاختلف إليه وتأثّر به واتبعه ورفض مذهبه الأول. ثم صارت له فتاوى منفردة[7].

قال عنه الإمام أحمد بن حنبل، هو عندي من ملاح سفيان الثوري[8]، وهو ثقة مأمون[9]، كانت وفاته سنة 240هـ/845م، في صفر وكان له سبعون سنة[10].

أبو جعفر الطبري: هو محمد بن جرير بن يزيد بن خالد الطبري، وقيل يزيد بن كثير بن غالب[11] مولده سنة 224هـ/838م بآمل طبرستـان[12]، هو علامة وقتـه

---

(1) الذهبي: التذكرة، ج2، ص 512، اليافعي: المرآة، ج2، ص 129.

(2) المزي: المصدر السابق، ج1، ص 344.

(3) الذهبي: ميزان الاعتدال، ج1، ص29؛ السيوطي: الطبقات ، ص227.

(4) لمعرفة شيوخه و تلامذته إرجع إلى الذهبي: التذكرة، ج2، ص 513.

(5) اليافعي: المصدر السابق، ج2، ص 129.

(6) المزي: نفس المصدر، ج1، ص 345.

(7) اليافعي: نفسه، ج2، ص 130.

(8) الذهبي: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، دار الكتب الحديثة، ط1، 1972، ص 80؛ الذهبي: ميزان الاعتدال، ج1، ص 30.

(9) الذهبي: الكاشف، ص80.

(10) المزي: نفسه، ج1، ص 346، الذهبي: الكاشف، ص 80، اليافعي: نفسه، ج2، ص 129.

(11) ابن نديم: المصدر السابق، ص 234، ابن خلكان: المصدر السابق، ج4، ص 191.

(12) الذهبي: العبر في خبر من خبر، ج2، ص 146، ابن الوردي: المصدر السابق، ج1، ص 385، وطبرستان هي بلدان واسعة يشملها هذا الاسم، خرج من نواحيها الكثير من العلماء والفقهاء. والغالب على هذه النواحي الجبال. من بلدا ا دهستان، وجرجان، وآمل، وهي قصبتها وهي مجاورة لجيلان وديلمان، وهي بين الري وقومس والبحر وبلاد الديلم. انظر تفصيلا ا عند (ياقوت: معجم البلدان، ج4، ص 13 وما بعدها لعدة صفحات).

وفقيه زمانه وإمام عصره[1]، صاحب التصانيف[2]، كان مجتهدا إماما في التفسير والحـديث والتاريخ والفقه[3]. حافظا لكتاب الله العزيز والقراءات، عارفا بأقاويل الصحابة والتابعين[4]، يحكم بقوله ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله، جمع من العلوم ما لم يشاركه فيها أحد في أهل عصره[5].

لقد كان الإمام الطبري بارعا في علوم عديدة منها السنة فعرف طرقها وصحيحها وسقيمها وناسخها ومنسوخها، بصيرا بأيام الناس وأخبارهم[6]، و تتلمذ الطبري على جميع المدارس الفقهية المعروفة فقد أخذ فقه الإمام داود الظاهري مدة، وتفقـه علـى المـذهب الشافعي مدة أطول إذ أخذ الفقه الشافعي عن الربيع المرادي[7]، وعن الزعفراني[8]، وأخـذ فقه الإمام مالك عن يونس بن عبد الأعلى[9]، وأخذ فقه أهل العراق عن أبي المقاتـل[10]، وأدرك الأسانيد العالية بالكوفة والبصرة والعراق والشام ومصر[11].

---

(1) ابن نديم: المصدر السابق، ص 234، ابن الأثير الجزري: اللباب في ـذيب الأنسلب، مكتبة المثنى ،بغداد، ج2، ص 274.

(2) الذهبي: التذكرة، ج2، ص 710، ابن الجزري: غاية النهاية، ج2 ص106.

(3) اليافعي: المصدر السابق، ج2 ص 261.

(4) ابن الوردي: المصدر السابق ، ج1، ص 358.

(5) الخطيب البغدادي: المصدر السابق، ج2 ، ص 163، ابن الأثير: الكامل، ج5، ص 135، ابن تغري بردي: المصدر السابق، ج1، ص 205، ابن عماد: المصدر السابق، مجلد1، ج2، ص 260.

وقد قال الحموي: " وحصل أنّ تلاميذه قسموا ما كتب الطبري على أيام حياته فوجدوا أنّ لكل يوم من حياته أربع عشرة ورقة. وهذا لا يتهيأ لمخلوق إلاّ بحسن عناية الخالق"(ياقوت الحموي: معجم الأدباء، دار الغرب الإسلامي، ط1، 1993، ج6، 2443).

(6) ابن تغري بردي: نفسه، ج1، ص 205.

(7) الربيع المرادي بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي صاحب الشافعي وخدمه، روى كتب الشافعي، ولد سنة ثلاث أو أربع وسبعين ومائة (790م).وتوفي سنة سبعة ومائتين (822م)، قال عنه الشافعي "أنه أحفظ أصحابي" وهو آخر من روى عن الشافعي بمصر،(بن القاضي شبهة: طبقات الشافعية، عالم الكتب، بيروت، ط1، 1987،ج1، ص)65).

(8) الزعفراني الحسن بن محمد الصباغ أبو علي كان راويا للشلفعي، كان إمام في اللغة توفي في رمضان سنة 260هـ/873م. وهو أثبت رواة القديم، وهو بغدادي أيضا(بن القاضي: نفسه،ج1 ص)62).

(9) يونس بن عبد الأعلى بن مسيرة بن حفص بن حيان الصدفي،المصري أحد أصحاب الشافعي وأئمة الحديث، روى عن الشافعي أقوالا غريبة، وانتهت إليه رياسة العلم بديار مصر، ولد سنة 170هـ/786م ومات 264هـ/877م، (ابن القاضي: نفسه،ج1، ص 72).

(10) أبو المقاتل: هو قاضي الري و إمامها سمع منه البخاري توفي سنة 248هـ/862م (الذهبي: لسلن الميزان، ج5، ص388).

(11) ابن نديم: المصدر السابق، ص 234، البغدادي: المصدر السابق، ج2، ص 162، قال محمد بن خزيمة "ما أعلم على الأرض أعلم من ابن جرير" (الذهبي: العبر، ج1، ص460).

كانت له كتب كثيرة ككتاب التاريخ المعروف وكتاب التفـسير، واخـتلاف الفقهاء وتاريخ الرجال. وكتاب لطيف القول في الفقه. كتاب الخفيف، وكتاب التبصرة في الأصول وكتاب ذيب الآثار، وكتاب الشروط الكـبير، وكتـب آداب القاضـي، وكتاب الوصايا، وكتاب المحاضر والسجلات، وغيرها من الكتب[1]، وله تلاميذ أخـذوا عنه وشرحوا كتبه، وأصحاب ساروا على جه وانتصروا لمذهبه[2]، ومن الذين جـوا منهجه في الفقه المعافى بن زكرياء [*]

ويبرز علم محمد بن جرير الطبري في ثلاثة ميادين أساسية:

الأول: أنه كان مؤرخا بارعا. كتب تاريخا سماه تاريخ الأمم والملوك (أو تاريخ الرسل والملوك) بسط فيه الكلام بسطا وجعله مجلدات، وأنّ هذا المشهور المتداول هـو مختصر من كبير، أنه هو العمدة في هذا الفن... وذكر أنه قال لأصحابه: هـل تنـشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا؟ قالوا: كم قدره؟ قال:: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: مما يفني الأعمار قبل تمامه فقال: إنّ لله ماتت الهمم، فاختصره إلى نحو ما اختصر التفـسير، ترجم إلى الفارسية، ونقل إلى التركية وذيل بكتب الصلة[3].

---

(1) ابن نديم: المصدر السابق ، ص 234، الذهبي: التذكرة، ج2، ص 713، الحموي: معجم الأدباء، ج6، ص2444، الداودي: المصدر السابق، ج2، ص 111، إسماعيل باشا البغدادي: هدية العارفين، مج1، ص 27.

(2) ذكر صاحب الفهرست، أنّ من أبرز من كان على مذهبه. علي بن عبد العزيز الدولابي وأبو القاسم، وأبو الحسن، أحمد بن يحي بن علي المنجم المتكلم وله كتاب المدخل إلى مذهب الطبري، وكتاب الإجماع في الفقه على مذهب الطبري وغيره، انظر(ابن نديم: نفس المصدر ، ص 235).

(*) المعافى بن زكرياء بن يحي بن حميد الحافظ العلامة الفقيه المفسر القاضي الجريري ، كان على مذهب الطبري ، وقد كان أعلم الناس في وقته بالفقه والنحوي واللغة وأصناف الأدب ، له كتاب تفسير وكتاب الجليس والأنس ، توفي في ذي الحجة سنة 390هـ/999م .(السيوطي :طبقات الحفاظ ، ص 401).

(3) حاجي خليفة: كشف الظنون، دار الكتب العلمية بيروت، ط 1992، ا لمد1، ص 297، 298، وانظر مقدمة تاريخ الطبري: الطبري: تاريخ الرسل والملوك، دار الكتب العلمية.، بيروت، ط 1991، ص 06.

الثاني: أنه كان بارعا كذلك في التفسير، إذ يمتاز تفسيره بتحري الدقة في النقل عن الرسول ρ والصحابة والتابعين، ومعارضة أصحاب الرأي والمستقلين في التفكير، وقد أعطى كذلك في تفسير لإجماع الأمة سلطانا كبيرا[1] ويعتبر تفسيره هذا من أهم التفاسير المعتمدة على المنقول والمأثور، أو ما اصطلح عليه بالتفسير بالمأثور[2] حيث تجمع تفـسير الرسول ρ والصحابة والتابعين[3].

وفي أثناء تفسيره اعتمد على نقد الرجال جرحا وتعديلا ، فيصرح بما لا يتفق به من مرويات حتى آراء ابن عباس[4].

"كما اعتمد في تفسيره على آراء النحاة من الكوفيين والبصريين، وعلى أساليب العرب وبيا م وأشعارهم ونثرهم، ثم على وجوه القراءات والكلام في الناسخ والمنـسوخ والأحكام والخلاف فيها، ويبرز في تفسيره الذوق الأدبي والحسن البلاغي أكثر[5]."

ويقوم منهج التفسير عند الطبري على ما يلي:

1- الاعتماد على المأثور الذي يثبت صحته عند الطبري.

2- التنحي عن التفسير بالرأي، أي بعيدا عن الأهواء الشخصية والمذهبية، أمـا الرأي القائم على العلم فهو لا يرفضه.

3- دقته في الإسناد.

---

(1)حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، ج2، ص 268.

(2) يقول جولد تسيهر: منذ القرن الثاني للهجرة قام علماء الدين الإسلاميون بسد الحاجة إلى التفسير المأثور في مصنفات مسلسلة، بيد أنّ المحاولات الأولى لم تكن كافية إلى أن جاء كتاب عظيم – يقصد تفسير الطبري - يصور من ناحية ذروة التفسير بالمأثور، ويعد من ناحية أخرى نقطة بدء وحجر أساس لأدب التفسير القرآني، فهو على حين يضم بين طياته تلك الكتب على صورة كاملة يشمل بين جوانحه في نفس الوقت، على بذور الاتجاهات التي أدت إلى التفسير الزائد على مجرد التسجيل.

انظر(جولد تسيهر: مذاهب التفسير الإسلامي، دار اقرأ ، ط1992، ص 106، 107).

(3) إبراهيم سليمان الكروي: الحضارة العربية الإسلامية، دار السلاسل، الكويت، ط1984، ص 211.

(4) حسن إبراهيم حسن: نفسه، ج2، ص 268.

(5) رابح دوب: البلاغة عند المفسرين، دار الفجر، مصر، ط1، 1997، ص 250.

4- الاعتماد على اللغة العربية.

5- الاعتماد على الحديث النبوي الشريف.

6- الاستعانة بالشعر والاستشهاد به.

7- تسجيل القراءات، وقد كان عالما بذه القراءات، ويرجح ما ارتضاه منها.

8- العناية بالإعراب.

9- مناقشة الآراء الفقهية.

10- تصويب رأي السلف.

11- الإدلاء برأيه.

12- التقليل من الأساطير[1].

ثالثا: أنه كان عالما بالقراءات وصنف كتبا في ذلك، وأهم كتاب صـنفه هـو الجامع، وفيه نيف وعشرون قراءة[2].

ويذكر ياقوت أنّ الطبري ألّف كتابا كبيرا في ثمانية عشر مجلدا بخطوط كـبيرة ذكر فيه جميع القراءات المشهورة منها والشاذة، وعلل ذلك وشرحه، واختار منها قراءة لم يخرج با على المشهور[3]، ويظهر أنه نفس الكتاب الذي أسماه" كتاب الفـصل بـين القراء" وذكر فيه اختلاف القراء بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام وغيرها ويـذكر

---

(1) رابح دوب:المرجع السابق ، ص 252 وما بعدها لعدة صفحات.

وفي ذلك يقول الإمام أحمد بن تيمية: " وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسير محمد بن جرير الطبري، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة وليس فيه بدعة، ولا ينقل عن المتهمين كمقاتل بن بكر الكلبي"، وقال السيوطي: " تفسير الإمام أبي جعفر الطبري أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف في التفسير مثله انظر(لبيب السعيد: دفاع عن القراءات المتواترة، دار المعرف، القاهرة. ط1978، ص09).

(2) لبيب السعيد: نفسه، ص9.

(3) ياقوت: معجم الأدباء، ج6، ص 2444، ومن المؤسف أن يضيع مثل هذا الكتاب لما فيه من ثروة قيمة اندثرت بسبب نزوة مذهبية أو عدم اعتناء.

فيه وجه القراءة وتأويلها، والدلالة على ما ذهب إليه كل قارئ لها، واختياره الصواب منها والبرهان على صحة ما اختاره في ذلك بقوته على التفسير والإعراب. وكان يقرأ قديما برواية حمزة قبل أن يختار قراءته[1].

فقهه: أخذ الطبري الفقه عن داود الظاهري مدة، ودرس فقه أهل العراق ومالك والشافعي على رجاله[2]، ثم استقل بمذهب له، إلا أنّ مبدأ اجتهاده كان باتباع المذهب الشافعي[3]. ثم أسس بعد عودته من مصر مدرسة فقهية تنسب إليه سميت الجريرية[4].

وما يدل على أنه تمذهب بالمذهب الشافعي قبل اجتهاده هو ما ذكر في كتب الطبقات بأنه أظهر المذهب الشافعي وأفتى به في بغداد عشرة سنين وقد أخذ علم الشافعي عن الربيع المرادي والحسن الزعفراني، وقد ذكره الشافعية بأنه من أفراد علمائهم ذلك أنه أخذ فقه الشافعي[5].

استقل الإمام الطبري بمذهب له بعد اجتهاد وتدقيق، وقد أودع مذهبه هذا في كتبه الفقهية المطولة والمختصرة، ووضع كتابا سماه " لطيف القول" أداره على ثلاثين بابا جعله خلاصة مذهبه في أحكام شرائع الإسلام مما اختاره وجوده واحتج به، ويذهب إلى ما عليه جماعة من السلف وعلى أهل السنة[6]

لقد ساهمت عدة عوامل في بروز الإمام الطبري كفقيه كان له مذهب خاص به، فقد تتلمذ على الإمام داود ثم خالفه وكانت لتلك المخالفة آثارها السلبية، وأخذ فقه الشافعي في مصر، وتأثر بفقه الإمام مالك وأبي حنيفة وجادل الحنابلة، ثم إنّ رحلاته كانت لها القسط الكبير في هذا البروز، إذ جعلته يحتك بعدة بيئات أثرت معارفه، كما

---

(1) ياقوت: معجم الأدباء، ج6، ص 2454، وما بعدها لعدة صفحات.

(2) موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامي، ج1، ص 53.

(3) قال ياقوت: "كان ابتدأ الفقه في مدينة السلام على مذهب الشافعي وكتب كتابه عن الحسن بن محمد الزعفراني عن الشافعي" ياقوت: معجم الأدباء، ج6، ص2448.

(4) فؤاد سوزكين: المرجع السابق، مجلد1، ج1، ص 159.

(5) النووي: المصدر السابق، قسم1، ج1، ص 79، محمد صالح موسى: المرجع السابق،ص 107.

(6) محمد أبو الفضل: ذخائر العرب، تاريخ الطبري، دار المعارف، ط1، 1979، ج1، ص 11؛ عبد الله محمد الجبوري: الإمام بن جرير الطبري و مذهبه الفقهي، مجلة كلية الشريعة، بغداد، العدد5، 1399هـ، 1979م، ص153.

كانت له ملكة في الحفظ يُندر أن توجد عند آخر، اكتسبها من حسن الاطّلاع ومجالسة العلماء فتكونت له شخصية العالم البحر.

ويعتمد فقه الطبري على القرآن من خلال الاعتناء بالتفسير، وإظهار عبقريته اللغوية، ورصيده الشعري، وبلاغته الفائقة، كما اعتمد على الحديث تنقيحا وتصحيحا وجعل لذلك كتابا خاصا سماه تهذيب الآثار[1].

ويقوم فقهه أيضا على الإجماع إذ يقول: " والإجماع الواجب للعلم قطعا لا يصدر عن خبر الواحد ولا عن قياس، لأنّ خبر الواحد والقياس لا يوجب العلم قطعا فيما يصدر عنه، فكيف يكون موجبا كذلك؟ ولأنّ الناس يختلفون في القياس هل هو حجة أم لا؟، فكيف يصدر الإجماع عن نفس الخلاف؟"[2]، و في هذا يتأثر الطبري بالفقه الظاهري كما سلف.

ويقول أيضا: " والإجماع ما نقله المتواترون لما أجمع عليه أصحاب رسول الله ρ من الآثار دون أن يكون ذلك رأيا مأخوذا من جهة القياس"[3].

ويظهر أنّ الإمام الطبري في فقهه كان يتحفظ من القياس، حيث أنه التمس من أحد المقربين له أن يجمع له كتب الناس في القياس، فجُمعت له نيف وثلاثون كتابا، وأقامت عنده مدة ثم انقطع للحديث قبل موته بشهور، ورد الكتب إلى صاحبها، وفيه علامات له بحمرة قد علّم عليها[4].

وربما يعود تحفظ الإمام الطبري من منحى القياس إلى تلك الضغوط التي كانت موجودة في بغداد بلد القياسيين أصحاب أبي حنيفة وذلك من قبل أتباع داود الظاهري،

---

(1) وقد خرج أحاديثه وقدمه أبو فهر محمود شاكر وهو من مسند عبد الله بن عباس، ارجع إليه، الطبري: تهذيب الآثار، مطبعة المدني، المؤسسة السعودية، مصر، ط2، 1982.و هو في عدة أجزاء.

(2) فؤاد عبد المنعم، من ذخائر التراث الإسلامي: الإجماع لابن المنذر، ص 28.

(3) ياقوت: معجم الأدباء، ج6، ص 2458.

(4) ياقوت:نفس المصدر، ج6، ص 2462.و لعل هذا التحفظ مرده إلى تأثره بفقه الظاهري، و كذلك أثر أصحاب الإمام داود في تلك الفترة.

والإمام أحمد بن حنبل، وكذلك من طرف الشافعية، فعامل الضغط والإكراه ربما كان أكبر من عامل القناعة والإتباع[*].

وللإمام الطبري فتاوى عديدة موجودة في كتابه التفسير، تنم عن حسن تفقه وكثرة إطلاع، وقوة تمسك بالآثار، ومذهبه يقوم على أساس الرخص في الدين والتيسير[1]

مواقفه: كانت للإمام الطبري مواقف متعددة حاسمة تجاه مسائل كثيرة، ظهرت أثناء ذلك العصر، كما كانت لهذه المواقف آثار سلبية على فقهه ومذهبه وانتشاره، فاندثر، وضاعت العديد من مؤلفاته بفعل الاضطهاد والتعصب.

وقد كان بإمكان الإمام أن ينتشر فقهه ويقمع معارضيه من الحنابلة، حيث عرض عليه القضاء لكنه أبى وامتنع[2].

والإمام الطبري يذهب في جلّ مذاهبه إلى ما عليه الجماعة من السلف، وطريقة أهل العلم المتمسكين بالسنن، شديد على مخالفيهم متبعا منهج السلف لا تأخذه في ذلك ولا في شيء لومة لائم، ومن ذلك أنه كان يذهب إلى مخالفة أهل الاعتزال في جميع ما خالفوا فيه الجماعة من القول بالقدر وخلق القرآن وإبطال رؤية الله في القيامة، وفي قولهم بتخليد أهل الكبائر في النار وإبطال شفاعة الرسول ρ، وفي قولهم في استطاعة الإنسان قبل فعله[3].

---

[*] و قد ذكر بعضهم أن الإمام الطبري اعتمد في طرق استنباطه على القياس و حددت أصول الطبري كما يلي: -الإعتماد على القرآن الكريم كمصدر أول - الإعتماد على السنة النبوية و يحتج فيها بخبر الآحاد – الاجماع و قد ذكره في كتاب اختلاف الفقهاء - أقوال الصحابة حيث اعتبر قول الصحابي حجة مالم يعلم له مخالف، و إذا اختلف الصحابة تخير ما كان أقرب لسنة و القرآن - القياس على الكتاب و السنة(محمد الجبوري: المرجع السابق، ص149)

[1] انظر تفسيره لقوله تعالى: " فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر" سورة البقرة آية 185. حيث اختلف الفقهاء حول إفطار الصائم في المرض والسفر، أهو رخصة أم عزيمة، فذهب الطبري إلى أنه رخصة ولا يعيد أي لا قضاء عليه. انظر (الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن دار المعرفة بيروت لبنان، ج1، ص 87 وما بعدها لعدة صفحات).

[2] الزركلي: المصدر السابق، ج6، ص 294، السيوطي: طبقات الحفاظ، ص 308.

[3] ياقوت: معجم الأدباء، ج6، ص 2462.

وبسبب مواقفه النابعة عن تفكير نجد الطبري يُتهم بعدة تُهم كانت تروج في ذلـك العصر، وأنّ كل من ا م با إلاّ ولقي التضييق من ا تمع ومن السلطان وحتى مـن العلمـاء أنفسهم.

ومن هذه التهم التشيع والرفض، ثم ادعوا عليه بالإلحاد[1]، إلاّ أننا نجزم بأنّ مخالفتـه للإمام داود الظاهري، وكذلك عدم اعتبار الإمام أحمد بن حنبل من الفقهاء كان سببا واضحا في ا امه والتضييق عليه بل ومعاداته، وضربه وحتى دفنه ليلا بعدما احتجز في م له مـدة[2]، فلقد كتب كتابا سماه الرد على ذي الأسفار يرد فيه على داود بن علي الأصبهاني بعدما لزمـه مدة، كما أنه سئل من قبل الحنابلة عن حديث الجلوس على العرش، فقال: أما أحمد بن حنبل فلا يعد خلافه، فقالوا: قد ذكره العلماء في الاختلاف، قال ما رأيته روى عنه ولا رأيت لـه أصحابا يعول عليهم، وأما حديث الجلوس على العرش فمحال وأنشد يقول:

سبحان من ليس له أنيس ولا له في عرشه جليس[3]

ويذكر أنه لما سمع أصحاب الحديث والحنابلة ذلك وثبوا ورموه بمحـابرهم وقيـل كانت ألوف، فقام أبو جعفر ودخل داره، فرموه بالحجارة حتى صار على بابه كالتل العظـيم وكتب على بابه

لأحمد م ل لا شك عال إذا وافى إلى الرحمن وافـ ـد
فيدنيه ويقعـده كريمـا على رغم لهم في أنف حاسد
له هذا المقام الفـرد حقا كذاك رواه ليث عن مجاهـد[4].

لقد كانت لفتنة الحنابلة على الإمام الطبري القسط الكبير في إحراق كتبه وإهمالهـا وتقزيم مذهبه واندثاره.

توفي رحمه الله ليومين بقيا من شوال سنة 310هـ / 922م[5]

---

(1) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص134.
(2) ياقوت: معجم الأدباء، ج6، ص 2450.
(3) ياقوت: نفسه: ج6، ص2450.
(4) ياقوت: نفسه: ج6، ص 2451.
(5) ابن نديم: المصدر السابق، ص 234؛ الذهبي: العبر، ج2، ص 146؛ اليافعي: المصدرالسابق، ج2، ص 261.

المبحث الثاني: المذاهب المندثرة وأثرها في التشريع الإسلامي

حينما اتسعت رقعة البلاد الإسلامية، واختلط العرب بالعجم وكثر الاشتباه والاحتمال في الفهم، وكثرت الحوادث واحتدم الجدل بين أهل الحديث وأهل الرأي، وتشتت المجتهدون إلى طرائق شتى، وجد الفقهاء أنفسهم في حاجة إلى وضع قواعد يسيرون عليها في استنباط الأحكام من أدلتها عندئذ قام مؤسسو المذاهب الفقهية عامة خلال القرنين الثاني والثالث للهجرة (الثامن والتاسع للميلاد)، بالاجتهاد الضروري لإيجاد منهج عمل واستخدام هذا المنهج لاستخلاص التشريع السني من مصادر التشريع.

و قد وضع كل منهم مذهبه مستقلا عن الآخر –سواء المذاهب الأربعة أو المذاهب المندثرة- بشتى اتجاهاتها وذلك وفق الاتجاهات الشخصية المختلفة[1].

كما تحكمت عدة عوامل في اتخاذ المنحى الملائم لكل فقيه نذكر منها أثر البيئة التي عاش فيها كل واحد منهم " والعادة محكمة" وكذلك ملكة الذوق الفقهي، إذ لا يمكن لأي شخص أن يصير ممن يحسب من المجتهدين، ويصدر أحكاما يرتاح إليها مجموعة من البشر إلاّ إذا كانت له ملكة الاستنباط ومعرفة الذوق العام ، وكيفية الولوج إلى أنفس الناس، مع مراعاة أحكام ومقاصد الشريعة التي جاءت لأجلها للتنفيذ والتحقيق، بالإضافة إلى تأثر بعضهم ببعض بسبب تلك الرحلات التي كان يقوم بها هؤلاء الفقهاء من حين لآخر وخصوصا لقاءاتهم أيام الحج، و عند الخليفة، وتلك الزيارات المتبادلة و المراسلات الكثيرة، وهي مراسلات علمية يبحثون فيها المسائل[2]، ويُقَومون فيها بعضهم البعض، ويحاول الأول إقناع الثاني لاتباع منهجه، والإفتاء برأيه الذي رآه صوابا. وكل ذلك ما كان ليكون إلاّ لأجل توحيد الأمة على رأي يكون فيه إجماع وتسكن النفوس عند تطبيقه وتحقق بذلك وحدة الأمة في الميدان التشريعي، وهذا مقصد من مقاصد الشريعة والدين.

---

1) أحمد محمود الشافعي: أصول الفقه الإسلامي، مؤسسة الثقافة الجامعية الإسكندرية، ط1983، ص12، الفرد بل: المرجع السابق، ص 131.

(2) هي تلك المراسلات بين الإمام مالك والإمام الليث بن سعد والزيارات واللقاءات بين سفيان الثوري والأوزاعي.

لقد كان لأصحاب المذاهب المندثرة – وإن لم ترق مذاهبهم إلى مستوى المذاهب الأربعة المشهورة من حيث الإنتشار – بفضل هذا العمل الأثر الكبير في إبقاء وحدة الأمة الإسلامية من خلال إصدار فتاوى عديدة لأحداث مستجدة متعددة، وإن لم يصلنا منها الكثير فإنّ بصماتهم واضحة في كيان التشريع، عظيمة الأثر، حتى إنه لا يمكن أن يكون إجماع إلاّ وذكر فيه الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وغيرهم، وذلك لإمامتهم وثقتهم وكثرة حديثهم وعلمهم، ولقد وصل الأمر باسحاق بن رهويه إلى القول: " إذا اجتمع الثوري والأوزاعي ومالك على أمر فهو سنة"[1]، بمعنى أنّ أثرهم في الإجماع واضح واتباعهم للسنة ظاهر، وأنه لا يمكن أن يذكر إجماع إلاّ وفيه هذه الشخصيات.

ومع أنّ الذهبي يرد على هذا القول فإنّ رده تأكيد على هذا القول، إذ يقول: "بل إنّ السنة سنة النبي ρ والخلفاء الراشدين من بعدهم، والإجماع هو ما اجتمعت عليه علماء الأمة قديما وحديثا، إجماعا ظنيا أو سكوتيا، فمن شذ عن الإجماع من التابعين أو تابعيهم لقول باجتهاده احتمل له، فأما من خالف الثلاثة المذكورين "الثوري و الأوزاعي و مالك" من كبار الأمة فلا يسمى مخالفا للإجماع أو السنة، وإنما مراد إسحاق بن راهويه، أنهم إذا اجتمعوا على مسألة فهو الحق غالبا، كما يقول اليوم: " لا يكاد يوجد الحق فيما أئمة الاجتهاد الأربعة على خلافه، مع اعترافنا بأنّ اتفاقهم على مسألة لا يكون إجماع الأمة، و نهاب أن نجزم في مسألة اتفقوا عليها بأنّ الحق في خلافها"[2].

إنّ هذا الحكم الذي وصل إليه إسحاق بن راهويه، ومن بعد الإمام الذهبي، وغيرهم من العلماء والفقهاء وأصحاب التدوين، إنما يؤكد لما لهؤلاء الأئمة من أثر في إجماعهم أو خلافهم، والسبب يعود بالأساس إلى تلك الثروة العلمية، من أحاديث وغيرها، التي يزخر بها هؤلاء الفقهاء يحفظونها، ويروونها، فهم الثقات الأثبات الصادقون في رواياتهم، حتى وإن أخذ بعضهم بالمراسيل والمقاطيع، وروى الغرائب، وربما اعتمد على

---

(1) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج7، ص 116.

(2) نفسه: ص 116، قال الرازي أنّ الإجماع لا يتم مع مخالفة الواحد والاثنين خلافا لأبي الحسن الخياط من المعتزلة، ومحمد بن جرير الطبري، انظر (فخر الدين الرازي: المحصول في علم الأصول، ص181).

الضعفاء مثلما قيل عن سفيان الثوري وغيره، إلاّ أنّ الضعيف إذا تعددت طرقـه اعتـبر، وربما استعمل وجيء به حتى يُظْهر عيبه.

ولحفظهم الحديث فإنهم –هؤلاء الأئمة- قد صانوا هذا الأصل من الشوائب التي كانت تكثر في زما م وبعدهم من الأحاديث الموضوعة، ولذلك فقد اعتمد رواة الحديث ومدونوه على أمثال الأوزاعي والثوري والليث، لكثرة حـديثهم، وصـدق مآخـذهم وشيوخهم وبراعتهم في انتقاء الحديث.

ولعله بالنظر إلى قيمة هؤلاء العلماء حفظة الحديث المذكورين، وبالنظر كذلك إلى ورعهم وزهدهم، وحبهم السنة والدفاع عنها اختلف أصحاب الحديث في قبول الحديث المرسل، بين القبول المطلق، والرد مطلقا، او التفصيل فيه، ذلك أنّ إرسال الحديث معنـاه عدم تقييده، وكأنّ الراوي لم يقيد روايته باتصال السند فأسقط الصحابي الذي تحمله عن الرسول ρ [1].وقد كان الناس يقبلون العمل بالحديث المرسل في القرن الأول أما في ايته فقد بدأ الخلاف ينشب حوله واحتدم الصراع حوله منذ القرن الثالث للهجرة [*] .

إنّ أخذ بعضهم بالمراسيل وأنواع الحديث الأخرى، ما كان قبول ذلك منـهم إلاّ أنهم ثقاة قد أخذوا عن الثقة وهم يتحملون مسؤولية ما قد أرسلوا ، ولا يمكن لهؤلاء أن يأخذوا المصدر الثاني في التشريع وهو السنة وما أدراك ما هي، - باعتبار أنّ السنة وحي من الله على رسوله -، إلاّ بعد تمحيص وكد في ذلك، يقول الأوزاعي في بيان فضل السنة وأنها وحي: "وأنّ الكتاب هو أحوج إلى السنة من السنة إلى الكتاب"[2]، فهي تبين ما لم يبينه القرآن من أحكام، أو أنها تفسره وتشرح ما لم يفهمه الصحابة أو مكملة له.

ومن هنا ما كنت ترى حديثا في باب من الأبواب إلاّ وذكر في سـنده الثـوري والأوزاعي أو الليث بن سعد لاعتنائهم بالحديث.

---

(1) حسن مظفّر رزق: القول الفصل بالحديث المرسل، مجلة الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، العدد 62، السنة 6، 1404 ،ص 32.

(*) وقد أرسل أبو داود رسالة إلى أهل مكة يقول فيها "أما المراسيل فقد كان يحتج با العلماء فيما مضى أمثال الثوري ومالك و الأوزاعي ،حتى جاء الشافعي فتكلم فيه وتابعه أحمد بن حنبل وغيره "(عبد ا يد محمود :المرجع السابق ،ص260).

(2) الحجوي: المرجع السابق، ج1، ص33.

كما ألّف بعضهم ودون كتبا في هذا المجال، إلاّ أنها ذهبت، ولم يبق في مجال الحديث إلاّ تلك المروية في كتب السنة وأجلّ ما وصلنا من هؤلاء أصحاب المذاهب المندثرة، كتاب تهذيب الآثار لأبي جعفر الطبري وهو مسند عبد الله بن عباس قام بتحقيقه والتعقيب عليه محمود محمد شاكر. ويقال أنّ الطبري مات قبل أن يتمه وهو من عجائب كتبه من الفقه والسنن[1].

ولم يبرع هؤلاء الفقهاء المندثرة مذاهبهم في الحديث وشرحه وتدوينه وتقديمه إلى الناس، وإنما كان لهم باع أيضا في تفسير القرآن الكريم باعتباره المصدر الأول للتشريع، ويذكر في هذا الشأن تفسير الإمام سفيان الثوري الذي يعد من أحسن التفاسير المدونة، وهي غير موجودة إلاّ في بعض المكتبات.

ولكن ما وصلنا من تفسير اعتمده الناس في جميع مراحل أبحاثهم الإسلامية هو تفسير محمد بن جرير الطبري الذي قال عنه العلماء أنه من أجل التفاسير المعتمدة، وهو الذي ألّفه قبل كتاب التاريخ في أواخر القرن الثالث الهجري، فسره معتمدا على أقوال الصحابة والتابعين، وآراء النحاة من الكوفيين والبصريين، وعلى أساليب العرب وبيانهم وأشعارهم ونثرهم، ثم على وجوه القراءات والكلام في الناسخ والمنسوخ والأحكام والخلاف بينها وكان التاريخ مصدرا هاما من مصادر تفسيره[2].

وقد نقل ابن جرير المرويات من أشهر مفسري الصحابة والتابعين كابن عباس من خمسة طرق[3]. وفي تفسيره يشير الإمام الطبري بطريقة أو بأخرى إلى الرواية أنها من الإسرائيليات، وكأنه يحذر القارئ[4].

(1) الداودي: المصدر السابق، ج2، ص 111.

(2) رابح دوب: المرجع السابق، صص 243، 250.

(3) وعن سعيد بن جبير من طريقين، ومجاهد من ثلاث طرق أو أكثر في بعض المواضع وعن قتادة بن دعامة من ثلاث طرق وعن الحسن البصري من ثلاث طرق وعن عكرمة من ثلاث طرق، وعن الضحاك بن مزاحم من طريقين وعن ابن مسعود من طريق واحد، انظر(الطبري: جامع البيان عن تأويل أي القرآن ،ج1، ص4).

(4) علي يوسف علي: المرجع السابق، ص25.

فهذه التفاسير والأحاديث المروية سواء في كتب خاصة قـديما أو الاجتـهادات الموجودة حاليا في إطار إحياء التراث[1]، أو المروية هنا وهناك قد كان لها تأثير في تنويـع الرؤية تجاه النصوص الأولى وهي القرآن والسنة، أو إعطاء أحكام متنوعة رغم الاختلاف بحسب طرق الاستنباط المعتمدة، قد كان لها تأثير أيضا في تنويع الأحكام الفقهية ومصادر الاستنباط.

فيما يخص الاختلاف: لقد وقع اختلاف مذهبي بين هذه الشخصيات، وغالبا ما كان ذلك نتاجا موعة من المعطيات الذاتية الشخصية القائمة على مدى الحفظ والتمييز، وحسن التفكير أو خارجية راجعة بالأخص إلى مدى وصول الصحابة والتابعين إلى تلك المنطقة، وبذلك وفرة النصوص والمصادر ثم أثر البيئة والأعراف التي كانت سائدة في كل منطقة، وكما تكلمنا سابقا فإنّ العرف أو العادة محكمة.

و كان هذا الاختلاف أيضا حول اعتبار المصدر دليلا أو غير دليل، وفي ثبوته أو عدمه، وفي الترجيح أثناء التعارض،و اختلافهم في أنواع الدلالات[2].

والاختلاف هذا في فهم النصوص وكيفيات تطبيقها، إنما يظهر أمرا آخر إيجابيـا في الشريعة الإسلامية و لدى هؤلاء الفقهاء المذكورين سابقا ، حيث يـبرز أن الـشريعة شريعة فهم وعقل، وأنه لا حجر على الأفكار فيها، وإنّ الأئمة قد اجتهـدوا في سـبيل الوصول إلى وجه الحق في الأحكام[3]، كما كانت لهؤلاء الفقهاء الحرية في اتخاذ الموقـف المناسب دون خوف من السلطان، ذلك أنّ الفقيه كانت له قوة أكبر من قوة الـسلطان نظرا للمسؤولية الملقاة على كاهله والباقية عكس السلطة الزمنية للوالي، فإنه وإن اضطهد الفقيه يوما، فقد كان له نصير في ا تمع ولو سريا على أن ينصر جهرا فيما بعد ولو لمدة من الزمن.

---

(1) هناك محاولات جادة في ميدان بعث التراث في هذا ا ال ومن أهمها وأجلها ما يقوم به الأستاذ محمد رواس القلعه جي وغيره.

(2) موسوعة الفقه الإسلامي: ج1، ص19.

(3) أنور العمروسي: المرجع السابق، ص45.

وقد وصل إلينا اليوم من خلال تلك الآراء التي وجدت هنا وهنـاك أو جمعـت لهؤلاء الأئمة البائدة مذاهبهم مجموعة من الفتاوى الثرية في جميع ا الات العلمية، وهـي محل إعجاب وبا يستطيع الفقه الإسلامي استيعاب جميع مطالب الحياة الحديثة والتوفيـق بين الحاجيات[1]. ولم يكن ذلك إلاّ بوجود الأئمة ا تهدين الذين سدوا بـاب الحاجـة بتشريعات كثيرة في ميدان المعاملات البشرية وما فيها من اختلاف لـدى البـشر بـين المسلمين والمصالحين أهل الذمة. وقد جعلهم الشرع جزءا من ا تمع ينبغـي أن يـصان ويحافظ عليه، فها هو الليث بن سعد يفتي بأنّ بناء الكنائس من عمارة المدن، والأوزاعي الذي يراسل الخليفة في أهل الذمة ليحط عنهم بعض الشيء من الجزية أو زيادة أرزاق[2].

إنّ الاختلاف بين الفقهاء في أحكام متعددة لم يكن ليبتعد عن الجزئيـات الـتي تحتمل الاجتهاد، أما في مجال الكليات فهي قطعية يقينية لا خلاف فيها[3]، وهذا ما يظهر وحدة فقهاء المسلمين. إذ مجال الاجتهاد واسع يستوعب كل المناطق والأزمنة والعـادات والأمكنة، لكن في حدود معلومة من الدين بالضرورة.

وفي أثناء هذا الاختلاف وجدنا فريقا يسعى إلى فهم روح التشريع، وتذوق معانيه والغوص على علله وحكمه وشوطه في هذه الناحية أبعد من شوط الفريق الآخر الـذي يحرص على ما ظهر من المعاني ولا يريد الابتعاد عنه بالمقدار الذي يبتعد به الفريق الأول[4]

ظهر هذا أثناء بروز مدرستي أهل الحديث وأهل الفقه، الأولى بالحجاز والثانيـة بالعراق في القرن الأول للهجرة (السابع والثامن للميلاد) وفي القرن الثاني للهجرة لاحظنا الغلبة لأهل الرأي، وهذا حينما يأخذ كل من الليث والأوزاعي والثـوري بـالرأي ولا ينكرانه ما دام يحقق المصلحة ويفسر الظواهر ويعطيها حلولا وفق الشريعة، فيعتبرونه ولا يتوسعون فيه توسع الحنفية، ذلك أنهم كانوا في بيئة غير تلك الموجودة في الحجاز، وهي بيئة معروفة بحضارا ا وعادا ا الفارسية والبيزنطية ، المطلّة على شعوب غير عربية فكـان

---

[1] أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص 17.

[2] قد مر معنا ذكر مواقفهما تجاه أهل الذمة.

[3] أنور العمروسي: المرجع السابق، ص 45.

[4] موسوعة الفقه الإسلامي، ج1، ص 29، 30.

لزاما أن يعمل بالرأي ولا يتنكر له، والفرق بينهم وأبي حنيفة أنهم كـانوا لا يقـدمون القياس على بعض أنواع الحديث كحديث الآحاد.

إلاّ أنه بظهور القرن الثالث للهجرة (التاسع للميلاد) وجدنا بروز مدرسة جديدة بالعراق وسوف تتوسع أكثر في الأندلس وهي مدرسة داود الظاهري وتلميذه ابن حزم، إذ تطرفا في الأخذ بظواهر النصوص من جهة، وعدم اعتبار القياس من جهـة أخـرى، وذكرا أنّ في نصوص القرآن والسنة ما يجزئ عن كل قياس أو غيره و أن أول من قـاس إبليس.

وبالرغم من تنكر الكثير لهذا المنحى الذي سار فيه داود وابن حزم إلاّ أننا وجدنا المدرسة ذا ا حققت ثلاثة أمور في شأن التشريع الإسلامي:

الأول: أنها أعطت نوعية جديدة من الأحكام وبشكل واضح تجاه بعض المظـاهر التي كان يشهدها العالم الإسلامي وتحرج الناس منها مدة.

الثاني: أنها حافظت على النصوص، وبالأخص موضوع السنة، إذ عملت علـى نشرها بكل قوة، فنقّحت ما يجب تنقيحه، ولم تعتبر بالضعيف منها، وبـذلت ا هـود للتمكين للصحيح منها وتدوينه، ودافعت عن منحاها أيما دفاع وأعطت معـنى آخـر للإجماع الذي حصرته في الصحابة وفي زمن واحد فقط دون اعتبـار لإجمـاع الأئمـة والفقهاء الآخرين.

الثالث: جعلت مدرسة الظاهر لكل حادثة وظاهرة لم يرد بشأ ا نص يحرمهـا أو يمنعها مباحة، باعتبار أنّ الأصل في الأشياء الإباحة.

ومن خلال هذا يمكننا أن نخالف العديد من الناس تجاه الظاهرية، ففي حين يـرى أغلب الناس أنّ الظاهرية كانت أكثر جمودا من المذاهب الأخرى نجدها أكثر تساهلا في تفسيرها للنصوص، وإعطاء الأحكام على الحوادث التي ترد من حين لآخر.

ذلك أنّ المذهب الظاهري يعمد إلى إعطاء لكل حادثة نصا، وما لم يرد في حادثة نص يتركها على حالها،عندها نقول أنّ المذهب متساهل تجاه الأحكام وقـدم للتـشريع نوعية جديدة لم نجدها عند غيره من المذاهب الأخرى، فقد طبقت حرفية النصوص، وما

لم يرد فيه نص أجرته على أصله، ولم تقدم فيه حكما إلاّ الإباحة، وعليه فإن المذهب الظاهري ليس جامدا، وإنما هو غير منظم بأصول وأحكام لها ضوابط واضحة المعالم، حينما اعتمـدوا على ظاهر النص.وما يلاحظ أن موقفهم من القياس هو رفض اعتباره أصلا من أصول التشريع ،كما رفضوا كذلك مفهوم المخالفة ،إلا أننا وجدناهم يتعاملون بما يشبه القياس ولا يـسمونه قياسا بل يسمونه "الدليل" أو الاستدلال والذي قسموه إلى دليل مأخوذ من الـنص و دليـل مأخوذ من الإجماع [*].

وإنّ الذين نقدوا المذهب الظاهري كانت –ربما- غاية نقدهم أنّ المذهب يعطي حـق إصدار الأحكام لكل شخص توفرت فيه الشروط للاجتهاد أم لم تتوفر وغالبا ما كانت العامة من الناس تتحجج بالمذهب الظاهري فتذهب إلى النص مباشرة دون المرور على حلـق العلـم والاقتداء بتوجيهات العلماء. وهذا يشين التشريع أكثر مما يزينه، ويحدث نوعا مـن الفوضـى داخل المجتمع أكثر مما ينظّمه.

ومن أمثلة ذلك ما ذكر في قضية إباحة أو تحريم الموسيقى.

فقد ذكر الليث " أنّ الوليمة إذا كان فيها ضرب بالعود لا ينبغي للمسلم أن يـشهدها ويدل هذا القول على منع الآلات الوترية عند الإمام الليث، في حين ذهب الظاهرية (ابن حزم) إلى إباحة الآلات الموسيقية جميعها، واعتمدوا على عدم ورود تحريم فيها بعـد أن ضـعف الأحاديث الواردة في المنع، بل أرجع بعضها إلى الوضع، وصرف أوجه الاستدلال المعتمدة عند المانعين، وأودع تضعيفه وأوجه الاستدلال عنده إلى مطلب المناقشة[1].

ومع الاختلاف بين الفقهاء –سواء بين فقهاء المذاهب المندثرة أو بينـهم والمـذاهب الباقية- إلاّ أننا نجدهم متفقون على أنّ الكتاب والسنة هما المصدران الأساسيان اللذان يرجـع إليهما كل المصادر الأخرى، لأنّ حجية تلك المصادر راجعة إليهما، وأنّ كل نزاع أو خلاف بين المجتهدين مرده إليهما . ومن هنا لم تتسع هوة الخلاف بين الفقهاء المجتهـدين لأنّ الكـل ينشد الحق ويبتغيه[2].

---

[*] انظر تفصيل ذلك عند عبد المجيد محمود :المرجع السابق ،ص379 .

[1] أحمد مصطفى علي القضاه: الشريعة الإسلاميةوالفنون، دار الجيل، بيروت، ط1، 1988، ص 208، ارجع إلى ابن حزم : المحلى ج9، ص 56.

[2] محمد مصطفى شلبي: الفقه الإسلامي بين المثالية والواقعية، الدار الجامعية، بيروت، ط1982، ص 124، 125.

وعلى هذا الأساس فإننا نصل إلى نتيجة مفادها أنّ المذاهب الفقهية في مجملها، البائدة منها والباقية لا يمكن أن نصنفها إلى أهل حديث وأهل رأي، إلاّ باعتبار أولوية تقديم القياس على بعض نصوص الحديث التي رآها القياسيون ضعيفة لا يمكن تقديمها على العقل والرأي باعتبار أنّ العقل لا يتعارض مع الشريعة، في حين يقدم الآخرون أحاديث الآحاد على القياس عند وضع مراتب أصول التشريع، ولا يهملون القياس.

إنّ هذه المذاهب كلها تعتمد النصوص – القرآن والسنة – فهي أهل حديث ولم يقل أحد برأيه إلاّ عندما رأى عدم بلوغ الحديث درجة تجعل الفقيه يقتنع به ،فأهل العراق كانوا يطلبون الحديث من مصادره وشيوخه ويجتهدون في ذلك إذ من أصحاب أبي حنيفة وهو محمد بن الحسن من اتصل بالأوزاعي وطلب الحديث عنه، وهذا ما يجعل الأوزاعي متصلا بغيره من الفقهاء، وعلى رأسهم أهل العراق، ولم يكن يخالفهم في كل المسائل بل هناك اتفاق بينه وبين بعضهم، وفي كثير من المسائل يتفق مع سفيان الثوري[1].

كما وجدنا بعض تلاميذ المدارس الفقهية من انتقل من مدرسته الأولى إلى الثانية لعدم اقتناع بدليل بسيط، وأنّ بعضهم كان يدرس عند البعض الآخر، إذ حاول داود الظاهري أخذ العلم عن الإمام أحمد، وتتلمذ الطبري مدة على الشافعية وعلى داود الظاهري وأخذ عنه. وأخذ الثوري عن الأوزاعي، وتناقش الليث مع الإمام مالك، وقيل أنّ الليث كان على المذهب المالكي ثم انفرد بمذهبه بل إنّ الشافعي علم أنّ مصر بها المذهبان المتصارعان المالكي والحنفي، فقال: " لأدخلن مصر ولأجعلن أهلها ينتقلون من القولين إلى قولي"، وبالفعل دخل الشافعي مصر، وصارت مصر في تفكيرها شافعية وتحول الكثير من تلاميذ الليث سابقا إلى المذهب الشافعي، حينما انتصر له الشافعي أمام المذهبين المالكي و الحنفي.

---

[1] خليل داود الزرو: المرجع السابق، ص 104.
اتفق سفيان الثوري مع الأوزاعي بأنّ الرسول صلى الله عليه وسلم أسهم للفرس بسهمين ولصاحبه بسهم واحد، أما أبو حنيفة فقد خالفهما في ذلك واستعمل الرأي فأعطى للفرس سهما ولصاحبه سهما وردوا ذلك بأنه ليس واردا، إذ لا يجوز أيضا أن يساوي الفرس بصاحبه المسلم، الزرو: نفس المرجع، ص 104.

لأجل هذه الأدلة كلّها وجب أن نقول بأنه لا يمكن إعطاء صفة أهل الحديث أو الرأي لأي فريق لأنّ كليهما اعتمد الحديث والأثر وكليهما اعتمد الرأي، إلاّ فيما يخـص تـسبيق مصدر على آخر أو مدى المغالاة فيهما،وهي أدلة في نفس الوقت تبرز مدى تـأثر المـذاهب ببعضها البعض والاتصال فيما بينها واعتبار أحدهما دون تنكر.

ودليل آخر لتأثر المذاهب بعضها بالآخر، أننا لم نجد للمذاهب المندثرة مذهبا مـدونا قائما بذاته، لكننا وجدنا لهم أقوالا كثيرة مدونة في كتب غيرهم من المذاهب، مثل اخـتلاف ابن أبي ليلى لأبي يوسف، والرد على سير الأوزاعي. كما وجدنا آراء مدونة لهؤلاء الأئمـة في الفقه الإسلامي المقارن[1].

كما أننا نلاحظ الإمام الطبري قد غلبت عليه طريقة المحدثين – رغم وجوده بـالعراق – فهو يروي الحادثة عن جملة من الرواة ويترك للقارئ اختيار الأحسن... وهـذه الطريقـة أخذها عن الإمام مالك بن أنس، كما رُوي عن الأوزاعي نفس الطريقة التي اتبعها في التفسير، وأخذ الطبري فقه الشافعي عن الربيع المرادي المتوفى سنة 270هـ/883م وأخـذ فقـه أبي حنيفة[2]، وهذا ما يبرز لنا أنّ المذاهب الفقهية وطريقة استنباطها كانت تتأثر بعضها بالبعض، وهو دليل على أنّ لها نقاط التقاء أكثر مما لديها فيما بينها فجوات عريضة.

إنّ الاعتماد على النصوص والذي نجد لها سلطانا على المذاهب كلها حينمـا يقـدم زعماء المذاهب الكتاب والسنة كأول مصدرين للتشريع، فإنه لا يعني أنّ هذه المذاهب لم تأخذ بالرأي تماما، بل وجدنا للمذاهب المندثرة هذه وغيرها مسحة الرأي لديها، وأنهـا لا تتنكـر لإعمال العقل لدى الجميع، بما في ذلك داود الظاهري الذي قيل عنه أنه يأخذ بالنصوص فقط، وجدناه لا ينكر القياس الجلي المعروف العلة و الواضح الصورة[3].

لا غرابة في أن تعتمد المذاهب الرأي والاجتهاد، إذ أنّ أصحاب الرسول ρ وعلى

---

(1) أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص29.

(2) أحمد أمين: ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيوت، ط5، ج2، ص 205.

(3) وذلك كقياس المرأة على الرجل فيما يشتركان فيه من أحكام، وقياس ضرب الوالدين على التأفف لجلاء العلة وتحققهما في الأمرين، وقد صرح داود أنّ القياس واجب العمل به في صورتين:

أ- أن تكون علة الأصل منصوصا عليها صراحة أو إيماء

ب-أنّ الفرع أولى بالحكم من الأصل. وقال أنّ القياس جائز عقلا ولكن لم يرد في الشرع ما يدل على وجوب العمل به،انظر (محمد محدة: المرجع السابق، ص195، وما بعدها لعدة صفحات).

رأسهم الخلفاء الراشدون متفقون على هذا، فالكثرة الكاثرة من الآثار المنقولة عنهم تدل على أنّ الرأي مصدر من مصادر التشريع يرجع إليه إذا لم تسعفنا النصوص، وفي عصرهم كثرت الحاجة إلى استعماله، وأنه نوعان جماعي وفردي، وأولهما مقدم على ثانيهما[1]، وقد انتقلت هذه الطريقة من الصحابة إلى التابعين إلى من بعدهم أصحاب المذاهب، أخذوا بالرأي الذي يحقق مقاصد الشريعة الإسلامية وكليا ا الأساسية، بل إنّ زعيم أهل الحديث الإمام مالك قد أخذ به وحثّ عليه أصحابه "فأسد بن الفرات هو الذي لقي محمد بن الحسن وتفقه بأصحاب الإمام أبي حنيفة، ونشر مذهب مالك بأفريقية، وذلك بعد أن رحل إلى الإمام مالك وأخذ عنه ولم يصادفه عليلا، فأحاله على ابن وهب –كما ذكروا- بل قال له لما استزاده بعد فراغه من السماع عنه "حسب ما للناس يا مغربي، إن أحببت الرأي فعليك بالعراق"[2]، وكثيرون ممن كانوا على مذهب أهل الحديث قد مالوا إلى فتوى أهل العراق، والعكس كذلك.

ومن أشهر المحدثين أصحاب المذهب الذين تأثروا بالرأي في العراق سفيان الثوري –كما مضى – الذي كان يتحرج من حديث الآحاد، ولكن لا يقدم القياس عليه.

لقد وجدنا المذاهب المندثرة تعتمد في طريقة استنباطها الأحكام على أصول ترمي إلى تحقيق مصالح العباد في كل شيء و تتحرى التيسير في الأحكام، يقول سفيان الثوري: "العلم عندنا الرخص عن الثقات أما التشدد فكل إنسان يحسنه"[3]، وهذا حتى يسهل الأخذ بالدين وتحبب إلى الناس تكاليفه، وتنشر هذه التعاليم في أرجاء المعمورة، وعلى قول أحد العلماء: " التكاليف كلها راجعة إلى مصالح العباد في دنياهم وأخراهم، والله غني عن عبادة الكل، ولا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضره معصية العاصين"[4].

ويرفع الليث بن سعد الحرج عن ا تمع الذي يفتي فيه، ويأخذ بذلك الفقهاء بعده حينما ينكر على الإمام مالك بن أنس تأصيل عمل أهل المدينة، إذ يجعله في أصول

---

(1) محمد مصطفى شلبي: المرجع السابق، ص 119.

(2) أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 55.

(3) أبو نعيم: المصدر السابق، ج6، ص 367.

(4) المحمصاني، فلسفة التشريع، ص219.

التشريع، بحجة أنّ هجرة الرسول ρ والعدد الأكبر من الصحابة كانت إلى المدينـة، وأنّ فيها نزل الوحي والتشريع. وقد رد الليث بأنّ الصحابة لم يكونوا في المدينة فقط وإنمـا تفرقوا في الأمصار، حملوا معهم أحاديث النبي ρ وتفسيره للآي، كما اجتهد الـصحابة بآرائهم في العديد من الحوادث التي كانت في البلاد المفتوحة ولم يكن الحجاز والمدينة قد تعودوا عليها[1].

وهو في ذلك إذ ينقد الإمام مالكا في الأخذ بعرف أهل المدينة، إنما يقر بعـرف آخر هو أهل مصر، وأقوال فقهائها، خصوصا وأنّ مصر كانت لها عادات سـابقة قبـل دخول الإسلام، وهي عادات النصارى والتي يجب اعتبارها في مجال العادات التي لا تمس بأركان الدين وخصوصياته.

كما ينتقد الإمام الأوزاعي الحنفية في قضية التعامل مع أهل الحرب، ويجعل منطقة الشام أولى بالاتباع لأنها منطقة دخلها الصحابة وفتحوها بوجود أهل الكتاب فيها وقـد تعاملوا مع هذه الظاهرة أثناء الفتح بما وجد لديهم من السنة، فكان فقه الأوزاعي كمـا يقول هو الأقرب للسنة من فقه العراق والأحناف في مجال وباب السير والتعامـل مـع المحاربين والمهادنين وأهل الكتاب. وقد انتقد ما كتبه محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، كما يرد عليه أبو يوسف كذلك، وفي هذا الأخذ والرد ثراء للتشريع الإسلامي في هـذا الميدان، إذ تقارن النصوص والتعاملات الإسلامية كما كان لهذا الاختلاف أثر كـبير في مجال إقامة وتأسيس أصول الفقه الإسلامي.

فالاختلاف بين الليث والإمام مالك، ودراسة الاختلاف بين سير الإمام الأوزاعي والأحناف، قد كان مجالا ثريا جعل الإمام الشافعي عند قدومه مصر أن يعيد صياغة فقهه الذي كان لديه سابقا بالعراق المتأثر بمدرسة أهل العراق إلىفقه يعتمد الأثر والتقريب بين مدرستي أهل الفقه وأهل الحديث، ويؤسس علم أصول الفقه، ويؤلف رسالته المشهورة، و يراجع فقهه السابق ، و غالبا ما تحدد فتوى الشافعي بدخوله مصر أو قبلها فما كـان للشافعي أن يؤسس علم أصول الفقه لأول مرة في تاريخ التشريع الإسـلامي إلاّ بعـدما اصطدم بواقع تميز بالصراع بين أصحاب المدارس المندثرة (الأوزاعي و الليث) وأصحاب

[1] انظر رد الليث بن سعد على الإمام مالك في الملحق رقم: 02

المذاهب الباقية (مالك وأبي حنيفة)، وقد انتصر في كثير من المواقف والأحكـام لفائـدة المذاهب المنقرضة، ولعل فقه هؤلاء يظهر في آراء الإمام محمد بن إدريس الشافعي.

وما يلاحظ أنّ مدار الاختلاف بين هؤلاء الفقهاء هو حول تحقيق المصالح في تنفيذ الأحكام بالنسبة للعباد أثناء التعامل بالشريعة.. إذ أنّ الدين المصلحة، وقد قيل أنه مـتى وجدت المصلحة فثم شرع الله، وما اختير الرسول ρ بين أمرين إلا اختار أيسرهما لرفـع الحرج وتحقيق المصالح، والمصالح تقدر بقدرها.

إنّ هذا المنحى الذي اتخذه هؤلاء الفقهاء، إنما كان زمن الـصحابة وفي عهـد الخلفاء الراشدين،فقد وجدنا عمر بن الخطاب يذهب بعيدا في تحري العدالة والمصلحة إلى حد عدم الاكتفاء بالامتناع عن جلد شارب الخمر في حالات الضرورة فحـسب بـل كذلك يذهب إلى حد عدم تطبيق النص عند زوال حكمته، أي أنّ عمر بـن الخطـاب يعمل بروح النص لا بظاهره وحرفيته، ذلك كان شأنه حين امتنع عن ا عطاء الصدقات للمؤلفة قلوبم الذين وردت الآية: "إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم..."[1]، وينهى عن قطع يد السارق في عام ا اعة، مع أنّ الـنص عـام وشامل لا يفرق بين زمن الرخاء أو زمن القحط وا اعة[2]، و بين المـسروق القليـل أو الكثير .

ومن خلال هذه الحادثة، والعديد من الحوادث التي وقعت زمن الصحابة والـرد عليها والحكم فيها: " وصلت ثروة إلى الفقهاء المسلمين على اختلاف مذاهبهم، وهؤلاء كتبوا في مناهج الشريعة وفي المصالح والأسباب التي بنيت عليها، وقد قسموا الأحكام من هذه الناحية إلى قسمين فئة العبادات، وفئة المعاملات الدنيوية.

أما الأولى فتبحث في المسائل التعبدية وهي معروفة بالشرع، والثانية فهي تعود إلى مصالح العباد في الدنيا،وهذه الأخيرة هي أحكام مقاصدها الشرعية معروفة بالعقل وهـي مبنية على جلب المنافع للناس ودرء المفاسد عنهم، وبعبارة أخرى أن الأصـل في المنـافع الإباحة، في المفاسد المنع، وقد قال با معظم الفقهاء ولم يشذ عنهم إلاّ القليل أمثال داود

(1) سورة التوبة الآية 60.

(2) عبد الحميد متولي:مناهج التفسير في الفقه ، مكتبة عكاظ، السعودية ، ط1 ، 1983 ، ص37.

الظاهري الذي لم يفرق بين العبادات والمعاملات، بل عد الفئتين تعبدا، لا ينظر فيهما إلى معقول المعنى"[1].

موقفها من الفرق: ويبرز أثر آخر لهذه المذاهب المندثرة، من خلال مواقفها تجاه الفرق الكلامية والأفكار الهدامة التي كانت رائجة في نواحي الخلافة الإسلامية، وقد وصل بعضها إلى بغداد وحواضر الإسلام كدمشق والفسطاط وغيرها، إذ أعطى هؤلاء الفقهاء تصورا موحدا ينم عن عمق تفكير، وحسن تمسك بأركان الإسلام، ووحدة الأمة، رغم تباعد أماكنهم، فقد حكم كلهم بأنّ القدرية والقائلين بخلق القرآن والخوارج وغيرهم، أنهم على غير السنة ويجب متابعتهم وعدم الاقتداء بهم، بل وذهب بعضهم إلى عدم الصلاة وراءهم وعليهم، ولا أن يناكحهم المسلمون ،ومثال ذلك حادثة الأوزاعي في قضية غيلان الدمشقي أن حكم عليه الوالي بالقتل ، وقتل لضعف الحجة أمام الأوزاعي. وحسن دفاع هذا الأخير على آراء أهل السنة والجماعة.

لقد بقي هؤلاء الفقهاء متبعون لطريقة الصحابة والتابعين،وصانوا الدين من الشوائب والترهات، ودافعوا بكل ما أوتوا من قوة حجة وحسن أداء ضد المارقين عن الدين من الفرق الدينية وغيرهم من الزنادقة، وغالب الصراع بين أهل السنة والفرق الأخرى كان حول آيات وأحاديث الصفات، وخلق القرآن والإمامة،ورغم أنّ الغلبة كانت أحيانا لهذه الفرق من خلال وقوف بعض الحكام و الأمراء إلى صفهم إلاّ أنّ الفقهاء دافعوا عن مذهب السنة ومكنوا له في الأخير،مع العلم أنّ موقف داود الظاهري يختلف تماما عن موقف فقهاء السنة الآخرين في مسألة خلق القرآن، ويأتي برأي جديد، ففي حين يذهب المعتزلة إلى القول بخلق القرآن، ويذهب أهل السنة إلى أنّ القرآن غير مخلوق،يظهر قول داود بأنّ القرآن الذي في اللوح المحفوظ وهو الوحي غير مخلوق، وأنّ الذي هو مكتوب بالأيدي وموجود في المصاحف مخلوق، وهو قول لا يمكن الأخذ به لأنّ عامة الناس لا تفرق بين ما هو موجود في اللوح وما هو مكتوب في المصاحف، فهما

---

[1] صبحي المحمصاني:فلسفة التشريع، ص 219 ، قال الشاطبي: و القول بالمصالح المرسلة ليس متفقا عليه بل اختلف فيه ، فمنهم من رده و قال أن المعنى لا يعتبر ما لم يستند إلى أصل ، و قال مالك بل يعتبر و بنى الأحكام عليه على الإطلاق ، و قال الشافعي و معظم الحنفية أنه يعتد بالمعنى الذي لم يستند إلى أصل صحيح لكن بشرط قربه من معاني الأصول الثابتة (الشاطبي: الإعتصام ، ج2، ص111).

واحد، وأنّ مثل هذا القول يعتبر ا ـزاما، وفي نفس الوقت مدخلا للقائلين بخلق القرآن، ونافذة لهم حتى يتمكنوا، وسد باب الذرائع أولى في هذا ا ال.

وربما ذهاب داود الظاهري إلى مثل هذا القول لم يكن إلاّ لضغط ذلك الزمان الذي انتصرت فيه فكرة المعتزلة، وصار الخليفة يأمر القضاة، وكل الناس بالقول بخلق القرآن، ومن لم يقل بخلقه لم تؤخذ شهادته، وربما عوقب، فكان منحى داود هذا القول.

الموقف تجاه السلطان: هذه ظاهرة أخرى لها أثرها في التشريع الإسلامي لدى هؤلاء الفقهاء المندثرة مذاهبهم تتمثل في موقفهم تجاه السلطان، وأولى الأمر عموما.

فهذه المسألة كثيرا ما كانت منبع الخلاف بين الفرق الإسلامية، وعليها مدار ال اع وربما كانت أساس بروز مذاهبهم،كما أنّ الواقع السياسي لا يمكن تجاهله في تأثيره على الحركة العلمية الفقهية آنذاك، وإذا لا حظنا سير هؤلاء ومواقفهم تجاه السلطان نجدها تتفرع إلى قسمين:

فالأول: يمثله الليث والأوزاعي وداود وحتى الأئمة الآخرين وعلى رأسهم محمد ابن جرير الطبري، كان لهم موقف إيجابي حينما تعاملوا مع الولاة والخليفة، رغم ما كان يصدر من هؤلاء من مواقف لا ترضي طبقة الفقهاء، حتى وصل بعض إلى القول بخلق القرآن، ووصل الآخر إلى إعمال السيف لأجل فرض الاستقرار وقمع الخارجين عن سلطانه. وربما وصل بعض هؤلاء الفقهاء إلى الجلوس على كرسي القضاء والديوان لمدة من الزمن مثل الليث في وقت استعفى فيه الآخرون بطريقة لا تثير السلطان بل تعترف له بالولاء، وإقرار له بالخلافة رغم وجود الفرق المضادة وما لها من حجج.

والقسم الثاني: والذي يمثله سفيان الثوري حيث كان معاندا للسلطان نافرا منه، وكان ينتقده في كلّ مرة حتى وهو على فراش المرض-كما سبق- وهي وسيلة ثانية يتبناها الثوري في تعامل الفقهاء مع السلطان حتى يرتدعوا ويعودوا عن أعمالهم التي أثارت المسلمين وضغطت عليهم في بعض الأحيان لمصلحة رآها الحاكم أو لـ وة تنم عن فساد أخلاق أو زيغ في الحكم .

ومن خلال هذين الموقفين لهؤلاء الفقهاء نستخلص أمـرين في مجـال الأحكـام السلطانية والإمامة:

الأمر الأول: أنّ هذه المواقف تجعل للمسلمين الحق والشرعية في نفس الوقـت في التعامل مع السلطان بإحدى الطريقتين، ولا تضبطهما إلاّ المصالح (من حيث درء المفاسد وجلب المصالح)،حيث أنّ لكلّ فريق نصوص شرعية يعتمد عليها باعتبـار أنهـم أئمـة المسلمين وأصحاب حديث، ولهم طرق في الفتوى، وأنّ مناهجهم معتبرة.

الأمر الثاني: أنّ انتقاد الثوري أو موالاة الليـث والأوزاعـي وداود ورضـاهم وتعاملهم مع السلطان، لم يكونا- هذين الموقفين - على حساب مبادئ الدين الإسلامي، من حيث أنّ كليهما كان يحث أولي الأمر بطريقته على توخي الحق والابتعاد عن الباطل سواء بالنصيحة أو الإنكار أوالفرار.

ولم يمنع جور السلطان من الاعتراف بشرعية الخليفة والأمير، وتحذير الناس مـن الخروج عن طاعة أولي الأمر، فرغم متابعة الخليفة والأمراء للإمام سفيان الثوري إلاّ أنه لم يعلن الخروج عن الخليفة بل كان في كل جلساته يقر بضرورة اتباع أولي الأمر على الرغم من رميه بتهمة التشيع وإهدار دمه وطلب رأسه، و هكذا أثْرت هذه المواقف من هـؤلاء الفقهاء الفقه الإسلامي، وأعطته قيمة و تنوعا في مجال تعامل الفقيه مع السلطان.

ولأجل هذا كان من الطبيعي أن يحظى الفقهاء والعلماء باحترام أفـراد الطبقـة الحاكمة التي رأت فيهم دعامة تستند إليهم في حكمها، وتستعين بهم في اكتساب الـرأي العام بحكم ما لهم من سيطرة على النفوس، وقد تجلت مظاهر الاحترام من خلال حرص الخلفاء على جمع الفقهاء والعلماء حولهم خصوصا أيام بني العباس[1].

مثلما كان الأمر كذلك بالنسبة للأمير الأموي بالأندلس – هـشام[2] – يكـن الاحترام العميق للإمام مالك، ولذلك بذل قصارى جهده لنشر مذهبه المالكي بالأندلس،

---

[1] أحمد عبد الرزاق: المرجع السابق، ص123.

[2] هشام الأول (172 -180 هـ/789 -796 م) شهد عهده تحولا مذهبيا، إذ كان شديد الإعجاب بالمذهب المالكي وقد عرفه بواسطة الفقيه أبو عبد الله زياد بن عبد الرحمان اللخمي ،وكذلك الفقيه البربري يحي الليثي وآخرون متخلين عن الأوزاعية الـتي كانت المذهب الرسمي ،ويرجع بعضهم هذا لتحول إلى أسباب سياسية متمثلة في الاستقلالية والانفصال عن الدولة العباسـية في بغداد صاحبة المذهب الحنفي (ابراهيم بيضون :المرجع السابق ،ص217).

وصار مذهبه المذهب الرسمي للخلافة الأموية بالأندلس، وقوى نفوذ فقهاء المالكية حينما جمعوا إلى الفقه منصب القضاء الشرعي وصارت لهم السلطة[1].

ومن خلال دراستنا لأعمال أصحاب المذاهب المندثرة وعلـى رأسـهم سـفيان الثوري، والليث بن سعد ، وجدنا أنّ كليهما يقدم وجهات نظـر وطريقـه في التربيـة والإصلاح للراعي والرعية.

فالليث مدرسة في كيفية إصلاح الأمة حينما يقسم وقته لأجل الارتقاء بـا تمع المصري، حيث جعل لنفسه جلسات يقدم فيها التوجيهات اللازمة.

- أنه وصل إلى تخصيص جزء من وقته للسلطان الذي إن صلح صلحت الرعيـة فيجيبه عن المسائل ويفتيه، ويعطيه وجهة نظر في قضية السياسة والإمامة، وينـصحه إن رأى فيه اعوجاجا.

- وقسم من وقته جعله السة العلماء، وطالبي العلم، لترشيدهم إلى ما ينفع الأمة وتوحيد الفتوى بمصر حتى لا يشوش على ا تمع باختلاف البين حول الموضـوع الهـين وتوحيد مصادر التلقي.

- وقسم يعمل فيه لتوعية الرعية وتعليمها، وإعانتها على حوائج الدهر وتقـديم المساعدات.

وهكذا كان الليث أكثر انفتاحا وإيجابية بالنسبة للراعي والرعية.

وأما طريقة الثوري، فإنه حينما عارض السلطان، واعتزل الحياة اعتبر من مؤسسي طريقة الزهد والتصوف[2] المشروع حينما يدعو إلى الابتعاد عن السلطان والـوالي، ولا

---

[1] سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب، دار العلم للملايين، ط5، 1990، ص 395، 396.

[2] معنى التصوف أنّ العبد إذا صفا من كدر البشرية يقال له: قد تصوف فهو صوفي وقيل هي كلمة تنسب إلى (صفة المسجد النبوي) إذ كان يجلس في مؤخرته الفقراء الذين ليس لهم أهل ولا مأوى، وقال جورجي زيدان بأنها كلمة يونانية "سوفيا" تعني الحكمة ويقول الصوفية، أنها ترك الصفات الذميمة والاتصاف بالصفات الحميدة، وهناك تفاصيل لهذه المادة للمزيد منها ارجع إلى(عبد الله الأمين: دراسات في الفرق والمذاهب القديمة والحديثة، دار الحقيقة، بيروت، ط1، 1968، ص 237 وما بعدها لعدة صفحات)

يرضى بدخولهم عليهم ولا العكس، بل إنه يحث على اجتنابهم ويرى في التعامل معهم ذهابا للدين[1]، وحتى ينجو الإنسان في هذه الدنيا والآخرة عليه أن يبتعد قدر الإمكان عن ملذات الدنيا التي إن اقترب من السلطان غرق فيها.

من حيث الانتشار: لقد انتشرت هذه المذاهب وتوزعت في كافة أنحاء الخلافة، ففي العراق وجدنا فقه الثوري وداود وفي مصر فقه الليث بن سعد وفي الشام فقه الإمام الأوزاعي،وفي المغرب والأندلس فقه الإمامين الأوزاعي وداود فيما بعد. أما الحجاز فقد كان يفد إليها هؤلاء الفقهاء كلهم فيسمعون أصواتهم، وتبرز آراؤهم أيام الحج وغيره.

وعليه فقد قام هؤلاء بنشر تعاليم الإسلام في زمانهم وبقيت بعض آثارهم بعد وفاتهم، وغالبا ما كانت فتاويهم تتساير مع البيئة التي عاشوا فيها،وقد بقي الناس يحتكمون إلى آرائهم رغم غزو بلادهم من قبل فقهاء آخرين، على رأسهم فقه الحنفية والمالكية والشافعية، وعوامل الدهر كان لها النصيب الأوفر في بقاء مذاهب واندثار أخرى.

ومثال ذلك أنّ انتشار مذهب الإمام الأوزاعي بين أهل الأندلس في بداية الفتح، كان له الأثر الفعال في انتقال علم الحديث وانتشاره واتساع روايته، وذلك لأنّ هذا المذهب يعتمد الكتاب والسنة في استنباط الأحكام، وهذا ما أدى إلى العناية الفائقة والاهتمام البالغ بعلم الحديث دراية ورواية[2] بالأندلس،وربما كان انتشار المذهب الظاهري بالأندلس والمالكي كذلك له قاعدة سابقة بوجود الحديث الذي جاء به أصحاب الأوزاعي سابقا.

ونفس الشيء بالنسبة لبلاد العراق التي انتشر فيها مذهب الثوري، وهو المحدث الثقة "أمير المؤمنين" فهي بلاد كانت قد عرفت بالرأي أيام أبي حنيفة، ولكن ظهر بها الحديث وانتشر بفعل اعتناء العلماء به أمثال الثوري، وربما درس الإمام أحمد على تلاميذ الثوري الحديث و تأثر بهم فكان من البارعين فيه، ومن المنطقة نفسها خرج داود الظاهري بمذهبه القائم على الاحتكام إلى ظواهر النصوص.

---

[1] انظر الملحق رسالته إلى عباد بن عباد: ملحق رقم:05

[2] مصطفى إبراهيم المشيني: المرجع السابق: ص45.

ولقد طالت مدة الفقه الظاهري في العمل به وزاحم المذاهب الأربعة الأخرى بل جعله بعضهم رابع المذاهب في القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) بدل المذهب الحنبلي الذي يذكر في أصحاب الحديث و عد المذهب الخامس كذلك في القرن الثامن للهجرة (الثالث عشر والرابع عشر للميلاد) وهذا لاعتماده على النصوص[1].

إنّ انتشار هذه المذاهب لم يقتصر على منطقة واحدة من المناطق بل وجدت آراء المذاهب المندثرة في كثير من الأمصار، وهذا الانتشار دليل القوة في الأخذ بأقوالهم من خلال حفظ الأحاديث، وحسن صياغة الفتوى ومسايرة الواقع والبيئة.

وخلاصة القول: أنّ هذا الانتشار للمذاهب وتعويض مذهب بدل الآخر في المنطقة الواحدة قد أعطى لتلك المنطقة نماذجا، وأنواعا من الفتاوى وورث ثقافة فقهية ودينية كان لها أثرها البالغ على تربية المجتمع وتثقيفه وازدهار فكره،ومثال ذلك عن أثر الحركة الثقافية القيروان التي تعتبر حاضرة من حواضر العالم الإسلامي إذ "صارت – كما يقول موسى لقبال مرجلا يغلي بالدراسات والنقاش المذهبي فتنوعت حلقات مساجدها ما بين واصلية وخارجية وسنية وشيعية وتعايشت فيها مذاهب العراقيين والشافعية والمالكية والأوزاعية والظاهرية ،حتى كتب الظفر نهائيا للمذهب المالكي ومحيت المذاهب الأخرى خاصة مذهب أبي حنيفة."[2]

لقد كانت المذاهب المندثرة بحسب ما لديها من آراء وفقه وآثار ترك بعضها وأحرق وأتلف البعض الآخر الأثر العميق في الحياة التشريعية من حيث عدة أوجه يمكن تلخيصها في:

أولا-تنوع الإنتاج الفقهي بتنوع الحوادث، إذ نجد لكل حادثة عدة آراء لم تكن لتخرج عن مقاصد الشريعة.

ثانيا- أنها تركت الكثير من الآثار ثم زالت ولم يصلنا منها إلاّ الشيء القليل الذي تقدر قيمته مثلما نجده في إنتاج الإمام الطبري في جميع الفنون.

ثالثا- قامت بتربية المجتمع وتوعيته طيلة القرن الثاني والثالث للهجرة وامتد بعضها إلى القرن الخامس للهجرة والبعض الآخر إلى القرن الثامن الهجري وفي ذلك نماذج في إصلاح الأمة.

---

(1) أحد تيمور باشا: المرجع السابق، ص48.

(2) حسن محمود :قيام دولة الفاطميين ،ص92 ؛موسى لقبال :المغرب الإسلامي ،ص134 .

رابعا- أنها أثّرت على المذاهب الفقهية الأربعة الباقية بتوجيها ا ونقدها وهذا ما جعل المذاهب الباقية تنتقي فتاويها وتدعمها أكثر.

خامسا- حافظت هذه المذاهب على التراث الإسلامي وبالأخص في مجـال الحـديث ونقد رجاله.

سادسا- كونت تلاميذ كان لهم تأثير كبير في الحياة الفقهية التشريعية رغم أن بعضهم تحول إلى أحد المذاهب الأربعة الباقية .

لقد تميز القرنان الثاني والثالث للهجرة بما حصل فيهما من إنتاج كبير وظهـرت فيـه مذاهب متعددة، ووقعت أحداث عظام دفعت إلى تطور ا تمع الإسلامي آنذاك، فصار يُميـز بين الأشياء، واكتسب ثقافة عظيمة بفعل ما للفقهاء من باع وما للسلطان من تشجيع لأجـل الارتقاء بالعلم وا تمع عامة، إذ في هذين القرنين كان السلطان يخدم الفقه والتشريع.

أما مع بداية القرن الرابع للهجرة (العاشر للميلاد) فقد بدأت تظهر ملامح التعـصب المذهبي بشكل سلبي بعدما كان إيجابيا. وتبرز هذه الظاهرة في حادثة الإمام محمد ابـن جريـر الطبري، صاحب العلم الكبير الذي منعته الحنابلة من الظهور مثلما منعت الدخول عليه وبئس ما فعلت[1].

وفي منتصف القرن الرابع الهجري بدأ انحلال الدولة الإسلامية وتفككـت إلى ممالـك ودويلات كثيرة متنابذة متناحرة فيما بينها وانتشر الفساد فيها حتى عم ذلك الفقهاء والعلماء الذين انقسموا بدورهم كل منهم يتحزب لسياسة الدولة التي ينتمي إليها أو يحابي الحاكم الذي يعيش في ظل سلطانه، فيرى في سياسته وتصرفاته موافقة للشريعة طمعا في نيـل منـصب أو مكسب مادي[2] أو خوفا من السلطان أو بغية تجنب الانقسام .

وهكذا قلّ الورع، وقلّت معه الكفايات، و عندها خشي أتباع المذاهب الأربعـة أن يوجد من يستغل دعوى الاجتهاد لبث البدع والسموم الفكرية، وإفساد قواعد الشريعة ، كما رأوا في تفاريع المذاهب المستقرة غنى وكفاية، فأفتوا بإغلاق باب الاجتهاد[3].

---

[1] ابن الأثير: الكامل، ج8، ص135.
[2] مهدي فضل الله: المرجع السابق، ص70.
[3] همام عبد الرحيم سعيد: المرجع السابق، ص 155.

وهذا الإغلاق له إيجابياته وسلبياته:

- فسلبياته أنهم منعوا الاجتهاد الذي هو روح الشريعة الإسلامية ومصدر نموهـا وبقائها إذ لا يمكن توقيف الاجتهاد في حين أن الحوادث والوقائع والتصرفات مـستجدة وموجودة في كل مكان وزمان و لا يمكن توقيفها أو نسيا ا، فكان لابد من إعطاء حكم صريح فيها، فلا يتصور أن تكون النصوص متوقفة والحوادث متكاثرة،لأن دا ـك يعتـبر مدعاة للتخلف وهو ما حدث بالفعل فيما بعد .

- والشيء الإيجابي: أنّ غلق باب الاجتهاد كان في فترة ضعف وفوضى فلأجـل سد باب ولوج العامة ومن لا كفاية له، كان لابد من غلق باب الاجتهاد والاقتصار على ما هو موجود في المذاهب الأربعة خصوصا وأنّ أتباع المذاهب الأربعة صاروا يجتهدون في المذهب ذاته، ولذلك فإنّ الاجتهاد لم يتوقف داخليا في المذهب ولكن خارج المذهب وقد كان هناك تدوين كثير.

إننا لا نلوم هؤلاء في غلقهم لباب الاجتهاد لأسباب قد عرفناها وإنما نلوم علـى هذه الظاهرة أنها طالت مدة كبيرة منذ القرن الرابع للهجرة إلى قرون بعدها ولا تـزال هذه الظاهرة لها آثارها في وقت كان لابد من أخد هدا ا ال بجدية فائقة خصوصا ونحن نلج اليوم باب الألفية الثالثة والعالم مليء بالمستجدات وهو الآن يخرج من بوتقة الدولـة إلى سعة العولمة وما لها من آثار.

المبحث الثالث: أسباب الاندثار

خضعت المذاهب الفقهية كغيرها من الظواهر الكونية إلى حتمية تاريخية قائمة على الصراع بين كافة الموجودات على هذه البسيطة، وأنّ هذا الصراع لا يمكن أن ينتهي حتى يظهر صراع آخر في ثوب جديد وتلك هي طبيعة الأشياء التي تؤدي حتما إلى التطور خصوصا في الجانب العلمي.

فإذا كان القرن الأول للهجرة (7، 8 ميلادي) قد برز فيه الصراع بين الجديد الذي تغلّب في الأخير على الوثنية الموجودة بالحجاز وما جاورها من بلاد الفرس والروم، فإنّ القرن الثاني للهجرة (8، 9 ميلادي) هو عصر استقرار لتلك الدولة الفتية التي بنت قوا بانتصارها على ما سلف، وإقامة الدين الواحد، عندها بدأ صراع جديد داخلي عملي، يقوم أساسا على إعطاء حلول للحوادث المستجدة التي لم تكن في القرن السابق، وكان كلما طال الزمن وتوسعت الرقعة - رقعة هذه الدولة - ازدادت الحوادث وصار الناس بحاجة إلى معرفة حكم الشريعة في ذلك، عندئذ ظهر علماء وفقهاء، انطلق كل واحد منهم من الكتاب والسنة، لكن وصل في غالب الأحيان إلى إعطاء حكم يختلف عن الفقيه الآخر.

وقد ذكرنا سابقا أنّ الأحكام المعطاة -وفق اجتهاد - إنما كانت تختلف عن بعضها البعض بالنظر إلى عدة أسباب وعوامل أبرزها:

- مدى الإلمام بالنصوص من طرف المجتهد وقوة إطلاعه وحفظه.
- كيفية فهمه للنصوص وتقديره لمصالح العباد والأدلة الواردة.
- قوة ذكائه وحسن استنباطه وذوقه الفقهي.
- دور البيئة التي عاش فيها كل فقيه ومراعاته لها.

فبسبب هذه العوامل وغيرها برزت المذاهب الفقهية المتعددة في القرنين الثاني والثالث للهجرة، ولكن نظرا لعدة أسباب وجدنا البعض منها يكثر انتشاره وتوسعه ويطول عمره وسلطانه، والبعض الآخر تقلّ رقعته وينحصر، ويقصر عمره فيندثر.

إنه لم يبق اليوم إلاّ المذاهب الأربعة المعروف، ولكننا إذا قارنا بينها وبين المذاهب المندثرة وجدناها -بعضها- أقل شأنا من بعض المذاهب المندثرة، والسبب في ذلك أنّ عوامل البقاء ومعاول الفناء كان لها الحكم الفصل في اختيار من ترضاه وإخفاء من تنكره، وتلك هي حتمية الصراع.

فمعاول هدم المذاهب البائدة كثيرة متنوعة، لكن يمكن تصنيفها إلى أسباب ذاتية خاصة بالمذهب تعود إلى طبيعته وتلامذته ومدى اعتناء أصحابه به وغير ذلك، وأسباب خارجية، تعود في الأساس إلى مدى قبول المجتمع والسلطان لهذا المذهب أو ذاك. وبالنظر إلى كل هذه الأسباب لا يمكننا أن ننكر دور التنافس الحاد الذي عمل على تكريسه وإلهابه أتباع المذاهب كلها.

وعليه فإنّ أسباب اندثار المذاهب البائدة تعود إلى:

أولا- عدم تدوين أصحاب المذاهب لآرائهم وطرق استنباطهم والقواعد التي بنوا عليها مذهبهم، إذ لم يحرروا أصولا في ذلك[1]. فقد ذكر أنّ الإمام الأوزاعي فقيه الشام، طُلِب منه أن يصلح كتبا كانت قد كتبت في آرائه وفتاويه فما عرض لشيء منها[2].

كما قيل للإمام الليث بن سعد فقيه مصر: " إنا نسمع منك الحديث ليس في كتبك"، قال: " أو كل ما في صدري في كتبي؟، لو كتبت ما في صدري ما وسعه هذا المركب"[3].

وهذا يدلّ على عدم اهتمام أصحاب المذاهب المندثرة بالتأليف، فضاعت ثروة علمية في مجال الفقه غزيرة ما كان ينبغي أن تضيع.

---

(1) محمد صالح موسى حسين: المرجع السابق، ص97.

(2) المزي: المصدر السابق، ج17، ص316.

(3) المزي: نفسه، ج24، ص 269، الذهبي: سير أعلام النبلاء، ج8، ص 153، ابن حجر: تهذيب التهذيب، دار صادر، بيروت، ط 1326، ج8، ص 463.

ثانيا- لم يقم أتباع هذه المذاهب بتدوين مذاهب شيوخهم، وصيانة مؤلفـا م، ولو فعلوا ذلك لكتب لمذاهبهم البقاء مثل المذاهب الأخرى[1]. بل وجدناهم إما يملّون من منافسة الآخرين، ويمقتون الصراع تورعا، وإما أنهم ذهلوا أمـام المـذاهب القادمـة – كمذهب الإمام الشافعي الذي انتشر بمصر واعتنقه أتباع الليث بن سعد – فمالوا إليهـا وتنصلوا من مذاهبهم الأولى، يقول الإمام الشافعي: " الليث أفقه من مالك إلاّ أنّ أصحابه لم يقوموا به"، وفي رواية ضيعه قومه، وفي أخرى ضيعه أصحابه[2].

وفي المقابل نجد للمذاهب الباقية المشهورة تلاميذ نجباء سرت فيهم روح العـالم وتأثروا بطريقته، وأخذوا عزيمته فنشروا مذهبه وقوي[3]، ولا عجب إن قلنا أنّ المـذهب جسم وروح فالأتباع والتلاميذ جسمه وآلته، والشيخ وتعاليمه روحه، فالجسم دون روح جثة هامدة والروح دون الجسم لا معنى لها.

ثالثا- وحتى تلك الكتب التي كانت زمن شيوخ المذاهب المنـدثرة، وجـدناها زالت إما في حيا م أو بعد وفا م وذلك لعدة أسباب.

فقد روى عن الإمام الثوري أنه أوصى بدفن كتبه وحرقها، وقد كان يندم على أشياء كتبها عن الضعفاء وقال: " حملني عليها شهوة الحدث"[4].كما ذكر أصحاب كتب الطبقات أنّ أغلب كتب الأوزاعي التي بقيت من زمانه احترقت وزالت زمن الرجفة التي أصابت بيروت[5].

فإذا كان صاحب المذهب لم يهتم بمذهبه تدوينا وحفظا ونشرا في حياته كيـف يمكن أن تكون الحرارة لدى أتباعه الذين جاءوا بعده، وعندها لم تستطع هذه المـذاهب المكوث أكثر من فترة بسيطة بعد وفا م. وإننا لم نجد لآرائهم تدوينا إلاّ في بعض الكتب، وما يلاحظ أنّ المذاهب الأربعة قد احتوت كتبها بعض آراء فقهاء المذاهب المندثرة، مثل

---

(1) محمد صالح موسى حسين: المرجع السابق، ص99، قلعه جي: المصدر السابق، ص61.

(2) محمود سعيد: المرجع السابق، ص14.

(3) الخضري بك: المرجع السابق، ص 254.

(4) ابن الملقن: طبقات الأولياء، مكتبة الغانجي، القاهرة، ط2، 1994، ص 32.

(5) المزي: المصدر السابق، ج17، ص316، ابن حجر: ذيب التهذيب، ج6، ص 242.

الليث والأوزاعي الذين وجدنا آراءهما في كتب الإمام الشافعي يستدل بهما لقوة رأييهما سواء في السير أو في طرق الاستنباط.

رابعا- كما كان عامل الورع والزهد وتركيبة شخصية الفقهاء المندثرة مذاهبهم أثر في اندراس مذاهبهم وزوالها، فغالبا ما كانوا يهملون الكتابة، أو تولي القضاء، وهما عاملان أساسيان في بقاء المذهب وانتشاره،إذ وجدنا الإمام الأوزاعي يطلب منه الخليفة والوالي أن يتولى القضاء أو ديوانا من الدواوين، إلاّ أنه يطلب هو بدوره الإعفاء فيستعفى وذلك تورعا وخوفا[1]. كما أنّ الإمام الثوري كذلك بعث إليه المنصور يريده على القضاء، ويكتب له كتابا في ذلك فيفر بعدما يرمي الكتاب في نهر دجلة[2].

وذكر أنّ الليث بن سعد كان جيد الذهن والفكر، وأنه لما ولي القضاء بمصر –ضغطا من الوالي – لم يحمد الناس ذهنه وطريقة قضائه[3]، إذ كان تقيا زاهدا وورعا رحيما، ولم يكن ذا شخصية قوية مؤثرة. ذلك أنّ القضاء يقتضي الصرامة فلم يمكث فيه.

خامسا- إنّ طبيعة وخصائص المذهب، وكيفية اعتماده طرق الاستنباط كانت من الأسباب الذاتية التي نفّرت الناس من اتباع المذهب، بل والتنكر لها مثلما كان الحال بالنسبة للمذهب الظاهري، إذ كانت روح التشدد من جهة والجمود من جهة ثانية،و عدم المرونة هي التي قضت على المذهب وهذا عندما وقف داود الظاهري، ومن تبعه كابن حزم عند النصوص ولم يأخذ بالرأي[4]، فلقد ترك القياس وحصر الإجماع في الصحابة وكل ذلك مما يمنع من مواكبة التشريع الإسلامي للتطور الحضاري

(1) الذهبي: سيسر أعلام النبلاء ج7، ص 116، صبحي المحمصاني: المرجع السابق ص 47.

(2) أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص165.

(3) محمود سعيد: المرجع السابق، ص 17.

(4) عبد الحميد متولي: المرجع السابق، ص3.

الصحيح وتجعله تشريعا قاصرا عن تلبية حاجات الناس في كل زمان ومكان[1].يقول ابن خلدون: " ثم درس مذهب أهل الظاهر اليوم بدروس أئمته، وإنكار الجمهور على منتحليه، ولم يبق إلاّ في الكتب ا لمّدة... وربما عد منتحله من أهل البدع بنقله العلم من الكتب مـن غير مفتاح المعلمين، وقد فعل ذلك ابن حزم بالأندلس على علو مرتبته في حفظ الحديث[2].

بالإضافة إلى هذا نجد الاعتماد على المراسيل والمقاطيع في أخذ الأحاديث عند بعضهم ما قد أعابهم عليه فقهاء المذاهب المذاهب الأربعة. وأمور أخرى كانت غير مقبولة لدى طالبي العلم، إذ سئل أحد أتباع الإمام الليث:"من أخرج لكم هذه الأحاديث من عند الليث؟ فقال: " شيخ كان يقال له زيد* بن الحباب"[3].فهده الأحاديث الغريبة من هدا الشيخ غير المعـروف عند هؤلاء جعل في نفوس الناس بعض الريبة والحيطة.

سادسا- الغلو الذي تميز به أتباع بعض المذاهب المندثرة – على الأخـص المـذهب الظاهري – إذ كان هناك تنافس في نشر المذهب والتمكين له، ودفع هـذا إلى أن يـستهجن أتباع المذهب الظاهري المذهب الآخر وتطورذلك إلى القذع والإنكار، وربما إلى التكفير كما سلف – عندئذ نقم المسلمون على هؤلاء، وتلقوا كتب الظاهرية، بالترك والإغفال، حتى وصل إلى أن يمنع بيعها بالأسواق، وربما تمزق في بعض الأحيان، ولم يبق إلاّ مذهب أهل الرأي مـن العراق، وأهل الحديث من الحجاز"[4].

وهكذا فإنّ تعصب ابن حزم وأتباعه كان له فترة بالأندلس، جاء بعدها فترة المالكيـة فتطرفوا هم كذلك إذ أحرقوا كتب ما عدا المالكية، وقالوا: يكفينا علم وفقه عالم أهل المدينـة الإمام مالك.

---

(1) محمد صالح موسى حسين: المرجع السابق، ص105.

(2) ابن خلدون: المقدمة، ص 429 .

(*)هو أبو الحسين الكوفي سمع مالك بن مغول وخلقا كثيرا وكان حافظا صاحب حديث واسع الرحلة صابرا على الفقر والفاقة ،وهو خرساني الأصل رحل إلى العراق والحجاز وروى عنه ابن حنبل وابراهيم ابن سعيد الجوهري وأبو خيثمة وغيرهم ،قال عنه الإمام أحمد "كان صاحب حديث كيسا رحل إلىمصر وغيرها " (ابن سعد :المصدر السابق ،ج5،ص99،السيوطي:الطبقات ،153،ابن عماد:المصدرالسابق ،ج2،ص6)

(3) المزي: المصدر السابق، ج24، ص272، قال أبو سعيد بن يونس: وقد انفرد الغرباء عن الليث بأحاديث ليست عند المصريين عنه،المزي: نفسه، ج24، ص 271.

(4) ابن خلدون: المقدمة ، ص 429 .

كما كان نفس الموقف بالنسبة للإمام محمد بن جرير الطبري ومحنته مع الحنابلة حيث جاء بآراء أثار م والسبب في ذلك أنّ الطبري صنف كتابـا في ذكـر اخـتلاف الفقهاء[1] لم يصنف مثله، ولم يذكر فيه أحمد بن حنبل فقيل له في ذلك: فقال: لم يكـن فقيها، وإنما كان محدثا، فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة ببغداد، وقـد وصل تطرفهم إلى أن رموه بمحابرهم، وأغلقوا[2] بابه بركام من الحجارة ومنعوا خروجه أو الدخول عليه، ورموه بالإلحاد والرفض، كما أنه ألّف في فضائل الإمام علي فرماه محمد أبو بكر بن داود الفقيه الظاهري بالرفض[3]وهي مة العصر كان أهل السنة ينفرون من تابعها والمدافع عنها .وفي ذلك قال الشاعر :

حسدوا الفتى إذا لم ينالوا سعيه   فالناس أعداء له وخصوم

كضرائر الحسناء قلن لوجهها   حسدا وبغيا أنّه لدميم

ونخلص إلى أنّ الانتصار للمذهب غالبا ما كان انتصارا لطـرق علميـة بالنـسبة للمذاهب القوية في طروحا ا وآرائها، أما تلك المذاهب التي كانت أقل شأنا من حيـث الاتباع أو الانتشار أو التأليف، فإنه قد لجأ أتباعها إلى المعاداة والانتصار بالقوة لمذاهبـهم وآراء شيوخهم، ثم تطور إلى ضرب العلماء وحصارهم بعد الاسـتهجان ثم إلى حـرق الكتب وتتبع التلاميذ ورميهم بنعوت و م كان من نتائجها في بعض الأحيان القتل.

سابعا- حينما يقول أصحاب أبي حنيفة بل وأبو حنيفة خصوصا: " لا ينبغي لمن لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي"[4]، وكذلك ما سلف ذكره في تحفيز تلامذة الـشافعي لمن يحفظ مختصر المزني[5]ونفس الشيء بالنسبة للمالكية في تمجيدهم للموطأ، ما هـي إلاّ

---

(1) يقول الحجوي: ذلك أنه من الجدل نشأ علم الخلاف أو الخلافيات، وكان ممن ألف فيه ابن جرير الطبري، فسبب له ذلك محنة مع الحنابلة،(الحجوي: المرجع السابق، ج3، ص 153).

(2) ابن الأثير: الكامل، ج8، ص 134، 135.

(3) علي موسى علي: حضارة وعباقرة، دار ابن زيدون، بيروت، ط1، 1992، ص ص 32،33.

(4) محمد مصطفى شلبي: المدخل، ص 207.

(5) المزني:هو الفقيه أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل المصري صاحب الشافعي كان زاهدا عابدا ناصر المذهب الشافعي، وله مختصر في المسائل على مذهبه توفي سنة 264 هـ / 877 م ودفن إلى جانب الشافعي بالقرافة الصغرى ونسبته إلى مزينه بنت كلب بن وبرة أم القبيلة المشهورة (ابن عماد :المصدر السابق ،ج2،ص148)

تحفيزات تجعل الطالب للعلم يتبحر في فقه هؤلاء ويقتنع به ويصير بذلك من أتباعه، وكم رجع تلاميذ من المذاهب البائدة إلى المذاهب الأربعة الباقية.

ثامنا- أنّ نسيان مناهج هؤلاء - أصحاب المذاهب المندثرة - وما وصلوا إليه من حلول في الفروع سببه أنّ أكثرهم لم يكن مقيما في مدينة يقصد إليها العلم، ويقدم إليه التلاميذ، فدمشق في عهد الأوزاعي كان العلم قد رحل منها إلى بغداد، ومصر في الوقت الذي كان فيه الليث لم تكن قد صارت منتجعا للعلم والعلماء، إلاّ ما كان من تلاميذ مالك الذين كانوا يغالبون أصحاب الليث حتى غلبوهم[1]، وكذلك بالنسبة للمغرب والأندلس إذ كانت قبلتهم مكة والحجاز دوما.

ولاشك أنّ المنطقة التي كانت مركز العلم والعلماء هي بغداد عاصمة الخلافة العباسية، والحجاز محج المسلمين،وقد كانت يسيطر عليهما فقه الإمام أبي حنيفة والشافعي وابن حنبل بالعراق كله، وفقه الإمام مالك بالحجاز كما كانت هذه السيطرة بفعل السلطان. وقد تمسك الناس بها فصار العراق معروفا بالرأي والحجاز معروفا بالأثر" وإنك لترى هذا المذاهب تجري كالأنهار في الأقطار، فيحمل ماؤها بعض لون المجرى الذي تجري فيه"[2]، فيصبحان متلازمين، يتذوقه أصحابها وينكرون أي ماء دخيل قد يعكر صفوهم، و تلك هي طبيعة التأثير والتأثر.

تاسعا- كما كان لبعض أصحاب المذاهب تخصصات طغت على حياتهم العلمية، إذ انشغل الفقيه بفن من الفنون ما جعله يصبغ حياته العلمية دون التأصيل لطريقة استنباطه،فقد انكب بعضهم مثل السفيان الثوري وتفرغ لحفظ الحديث وتنقيحه وانتقاء الرجال وحفظ السنن والقدح في الضعفاء فكان أشد الناس انتقاء للسنن، وأكثرهم مواظبة عليها، وجعل ذلك صناعة له[3]، وهذا ما دفع بالعلماء إلى أن يصفوه بأمير المؤمنين لحفظه الحديث والاعتناء به، وإرسائه لمعالم علم الجرح والتعديل.

---

[1] أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص30.

[2] نفسه، ص31.

[3] محمد لقمان السلفي: نشأة علم نقد الحديث، مجلة البحوث الإسلامية، الأمانة العامة لإدارة البحوث العلمية، الرياض، العدد 16، السنة 1406، ص 201.

كما نجد أنّ الإمام الطبري قد كرس حياته وسخر وقته لأجل التدوين بـالأخص في مجال التفسير والتاريخ، وعلم القراءات، وفنون أخرى، فكانت حياته موزعة علـى عـدة ميادين، إلاّ أنه لم يجتهد في نشر مذهبه والتمكين له بقدر ما اجتهد في التدوين، كما لم يكن له تلاميذ يطورون مذهبه وذلك بفعل المحنة وضغط الحنابلة وأهل الظاهر.

عاشرا- دور السلطان في التمكين للمذاهب الأربعة دون المندثرة

كان الخلفاء الراشدون وحكام الدولة الأموية لا يتبنون مذهبا بعينـه، بـل كـانوا يعظمون أهل العلم وخاصة أهل الاجتهاد ويسندون القضاء والمناصب لمن يـبرع في العلـم بكتاب الله وسنة رسوله ρ، وأما فيما بعد إلى عصر التقليد، فقد كان حكام كـل مـصر وزمان قد تبنوا مذهبا من المذاهب ومكنوا له ونشروه وقصروا مناصب القضاء والإفتاء له، كما أنّ بعض أهل الثراء كانوا يبنون المدارس ويقفون الأوقاف على مدرسيها، ومـشايخها، ويشترطون أن لا يتولى ذلك إلاّ أصحاب مذهب من المذاهب سموه[1].

فها هو هارون الرشيد في خلافته، يولي القضاء لأبي يوسف – صاحب أبي حنيفـة بعد سنة 170هـ/786، وصارت تولية القضاء بيده، فلم يكن يولي ببلاد العراق وخرسان والشام ومصر إلى أقصى أفريقية إلاّ من أشار به، وكان لا يولي إلاّ أصـحابه المنتـسبين إلى مذهبه، فاضطر العامة إلى فتاويهم وانتشر مذهبه[2].

ولقد وصل المذهب الحنفي إلى المغرب كذلك وبقي حينا من الزمن علـى عهـد الدولة الأغلبية حينما حكمت المغرب تحت رعاية الخلافة العباسية ما بين سـنتي 184-296هـ/799 ـ 908م إلى أنّ غلب المذهب المالكي[3] يوم أن تولى سـحنون بـن سعيد قضاء القيروان[4] سنة 234هـ / 848 م ،فعمل على ترسيخ المـذهب المـالكي

---

(1) عمر سليمان الأشقر: المرجع السابق، ص153.

(2) أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 51.

(3) كان أول من أدخل المذهب المالكي إلى المغرب علي بن زياد المتوفى سنة 183هـ/800م، وقد كان تلميذا للإمام مالك،(إبراهيم التهامي: مدرسة أهل الحديث بالمغرب العربي، مجلة الموافقات، المعهد الوطني لأصول الدين، الجزائر، العدد 5، السنة 5، جوان 1996، ص 199).

(4) الفرد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط3، 1987، ص 127.

وقضى به وفرق أهل الأهواء والبدع من الجامع وشردهم[1].

كما ازداد المذهب المالكي انتشارا بالأندلس بانتقال الفتيا إليه في دولة الحكم بن هشام 180-206هـ/796، 822م، وكان يحي بن يحي بن كثير مكينا عنده مقبول القول، فصار لا يولى القضاء إلاّ من أشار به فانتشر المذهب المالكي[2]، وفي المغرب واجه المالكية محنة ضارية سواء أيام الأغالبة أو أيام الفاطميين الذين تحالفوا مع الأحناف فنكل بالمالكية ولكن المذهب صمد إلى أن انتصر له المعز بن باديس في بداية القرن الخامس للهجرة [*] .واستمر المذهب المالكي في الانتشار والاستقرار بالمغرب والأندلس، وبلغ ذروته على عهد المرابطين[3]، حيث لم يكن يقرب من أمير المؤمنين و يحظى عنده بالزلفى إلاّ من علم علم الفروع على مذهب مالك، الأمر الذي جعل الناس تقبل على فقه الإمام مالك إقبالا كبيرا دراسة وتأليفا ونتج عن ذلك أن هجرت المذاهب الأخرى[4].

واستمر الأمر كذلك على المذهب المالكي طيلة فترة حكم المرابطين (ق5، 6هـ/11،12م) إلى أن غلب الموحدون في النصف الأول من القرن 6هـ/12م، إذ تبع عبد المؤمن بن علي[5] نفس المنهج في الأخذ بالمذهب المالكي ولكنه أخذ في العقيدة

---

[1] عبد الرحمان الجيلاني: كيف رسخ المذهب المالكي بالمغرب العربي، مجلة الموافقات، الجزائري، العدد الثالث، جوان 1994 ص 228.

[2] أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 66.

[*] انظر محنة المالكية في المغرب عند (موسى لقبال :دور كتامة ،ص411 وما بعدها).

[3] يطلق هذا الاسم على الزعماء والقبائل البربرية الذين رحلوا من الصحراء الكبرى حوالي منتصف ق 11 لبث الدعوة للإسلام السني وفرضه بقوة السلاح، وأسسوا دولة في شمال إفريقيا إلى إسبانيا، كانت زعيمة الحلف قبيلة صهاجة وأبرز القبائل(جدالة، لمتونه، لمطة و مسوفة)،وتسمى قبائل الملثمين وكان المرابطون الأوائل على المذهب المالكي وأعظمهم جميعا الفاتح يوسف بن تاشفين الذي ملك حوالي خمسين سنة وأسس دولة لم يستطع خلفاؤه الاحتفاظ بها أكثر من أربعين عاما، وآخر أمراء دولة المرابطين إسحاق بن علي بن تاشفين. انظر(ألفرد بل: المرجع السابق، ص 226 وما بعدها لعدة صفحات).وقد قام المؤرخون بعدة ابحاث حول هذه الدولة في جامعة الجزائر قسم التاريخ منهم مزاري عبد الصمد توفيق حول جيش المرابطين ،ورسالة لنيل شهادة دكتوراه دولة لمحمد الأمين بلغيث تحت عنوان الحياة الفكرية في الأندلس في عهد المرابطين بالإضافة إلى ما كتبه حسن احمد محمود .

[4] إبراهيم التهامي: مدرسة أهل الحديث بالمغرب العربي، مجلة الموافقات، معهد أصول الدين الجزائر، العدد 5، السنة الخامسة، جوان 1996، ص 199.

[5] عبد المؤمن بن علي، هو الذي التقى صدفة مع مؤسسة الدولة الموحدية محمد بن تمرت الملقب بالمهدي، وكان عبد المؤمن ذاهبا نحو الشرق للعلم فأقنعه ابن تمرت بالعزوف وصارا يبثان الدعوة ضد المرابطين كما صارت القيادة العسكرية لعبد المؤمن الذي خلف مؤسس الدعوة بعد وفاته سنة 524هـ/1130م(إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص ص 382، 383).

بمذهب أبي الحسن الأشعري(*)، وكان قصده حمل الناس على العمل بظاهر القرآن والحديث، ولما تولى حفيده يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن [1] تظاهر بالمذهب الظاهري وأعرض عن مذهب مالك فعظم أمر الظاهرية في أيامه وكان بالمغرب خلق كثير يقال لهم الحزمية نسبة إلى ابن حزم، ثم مال يعقوب بن يوسف بن علي في آخر أيامه إلى الشافعية واستقضاهم على بعض البلاد[2].

ويبرز دور السلطان أكثر حينما تناظر فريقان (الأحناف والمالكية) بالأندلس -التي لم يكن با المذهب الحنفي أقل منه بالمغرب- يوما بين يدي السلطان فقال لهما:"من أين كان أبو حنيفة؟ قالوا الكوفة، ومالك؟ قالوا المدينة، قال : عالم دار الهجرة يكفينا، وأمر بإخراج أصحاب أبي حنيفة، وقال لا أحب أن يكون في عملي مذهبان"[3].

ثمّ إنه لما ظهرت الدولة الأموية بالمغرب أرادت الانفراد عن الدولة العباسية ووجدت الأندلس على مذهب الأوزاعي الذي كان قد نشأ بالشام أيام الأمويين –وقد أبقى عليه خلفاء بني العباس بالشام – فأقامت في قولها رسم السنة وأخذت بمنهج أهل المدينة في فقههم وقراءتهم، وألزمت الناس بحرف نافع ومذهب مالك[3].

وفي الشام كان الغالب على أهلها مذهب الأوزاعي حتى ولي قضاء دمشق بعد قضاء مصر أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي[4] الشافعي المذهب، فأدخل إليها مذهب الشافعي

(*) ولد أبو الحسن الأشعري سنة 260 هـ/873م بالبصرة وتوفي سنة 330هـ/941م تخرج على المعتزلة في علم الكلام على شيخه أبي علي الجبائي كان له مذهب في العقائد جاء به بعد اعتكافه مدة وازن فيها بين أدلة المحدثين الفقهاء من جهة و المعتزلة من جهة أخرى وقد بين آراءه في كتاب الإبانة وكتاب مقالات الإسلاميين وانتصر لأهل السنة و الإمام أحمد ، إذ سلك مسلك النقل ومسلك العقل واستعان بالقضايا الفلسفية ، ومن أنصار مسلكه أوبكر الباقلاني ت403هـ/1012م وأبي حامد الغزالي ت505هـ/1111م(أبو زهرة : تاريخ المذاهب ، ص160 وما بعدها).

[1] يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن 580 – 595هـ/ 1184-1198م وقد كان معاصرا للسلطان صلاح الدين الأيوبي في وقت كانت المعركة الصليبية على أشدها في المشرق والمغرب،(إبراهيم بيضون: المرجع السابق، ص 384).

[2] أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 67.

[3] أحمد تيمور باشا:نفسه، ص 54.

[3] عبد الجيلالي: كيف رسخ المذهب المالكي، مجلة الموافقات، الجزائر، العدد3، جوان 1994، ص 230، لقد كان السلطان هشام بن عبد الرحمان كثير الإعجاب بفقه وسيرة الإمام مالك فحمل الناس على اتباعه، انظر المشيني: المرجع السابق، ص55.

[4] كان ثقة عدلا من سادات الناس، وكان أصله من أهل الكتاب من اليهود، ثم أسلم صار ما صار إليه، تذكر ترجمته في طبقات الشافعية(ابن كثير : المصدر السابق، ج11، ص 122).

وحكم به تزكية من الخليفة والأمير، وتبعه من بعده من القضاة، وهو أول من أدخل إلى الـشام مذهب الشافعي[5].

وفي مصر كان مذهب الإمام الليث بن سعد هو السائد، وأنّ الأمير والقاضي لم يكن ليوليه الخليفة إلاّ بمشورة الليث، وإذا رأى الليث بضرورة عزلهما، عزلهما الخليفـة، وهذه المكانة دفعت الخليفة والأمير إلى أن يطلب منه تولي القضاء بنفسه أو الإمارة، إلاّ أنّ الليث تورع عن ذلك وأحجم، وهو ما دفع بالخليفة إلى أن يولي قضاء مصر أصحاب أبي حنيفة، إلاّ أنّ الليث يتدخل - كما سلف - حينما يفتى القاضي في مسألة الأحباس على خلاف فقه الليث، بل بفهم أهل الرأي، فما كان من الليث إلاّ أن يطلب عزله فعُزِل.

والسلطان بقدر ما تكون له اليد الطويلة في نشر المذهب على حساب الآخر فإنه تكون له نفس القوة في حصر وضرب مذهب وتقزيمه خلاف الآخر، إذ غالبا ما كانـت العداوة بين السلطان والعالم الفقيه تدفع الفقيه إلى التنكر للخليفة والوالي وهذا لـه أثـره على طريقة حكم السلطان، وبالمقابل فإنّ تنكر السلطان للفقيه له أثره كذلك على انتشار المذهب -وبقائه سلبا-.

فهذا سفيان الثوري راعه كثرة ما اقترفه أبو جعفر المنصور وقبله ابو العباس مـن ظلم وما أراقه من دماء في سبيل الدولة العباسية، فجاهر بالنيل منه، فأراد الخليفة قتلـه، كما عرض عليه الخلفاء العمل لهذه الدولة فرفض ورمى بالكتب في نهر دجلة وهـرب، وظل متواريا من بطش السلطان حتى مات مستترا ودفن ليلا[1].

فمواقف سفيان الفقهية متوارية مثله، وكتبه كذلك، إذ لم يسمح الولاة ببروزهـا ولا الأخذ بها خوفا من الخليفة، وإذا خاف الولاة انزوى المجتمع وتقاعس وأخذه الخوف من إتباع أفكار وآراء المعرضة، حفاظا على أعناقهم من سلطان العباسيين، ومن وجهـة نظر أخرى فإنّ تقريب السلطان لبعض أصحاب المذاهب كالليث بن سعد بمصر، والإمام الأوزاعي بالشام في حين كانت المذاهب الأخرى تعاني الاضطهاد والفتن، من شـأنه أن

---

[5] أحمد تيمور باشا: نفسه، ص74.

[1] أحمد فراج حسين: تاريخ الفقه الإسلامي، ص 165، محمد يوسف موسى: تاريخ الفقه الإسلامي، ج3، ص 22

يثير في الناس بعض الرأفة فينتصروا لهذه المذاهب المضطهدة بالاتباع ولو خفيه إلى حين أن يظهر من الأمراء وأصحاب الحكم من ينتصر لها فيلتف الناس حولها.

فلقد وجدنا أنّ أغلب المذاهب التي ُنكل بأصحابا، وأصابتهم المحن، جاء فيما بعد من انتصر لها، فصار أكثر إتباعا كالمذاهب الأربعة، فما كان لمذهب أحد بن حنبل لينتشر -رغم ضعف طرحه أمام مذهب الأوزاعي أو الليث - إلاّ بعد فتنة خلق القرآن، وتمسكه بالسنة وطريق الجماعة[1]،وما كان للمذهب الحنفي أن ينتشر إلا بعد محنة عاناهـا أيـام الأمويين وبداية عهد العباسيين ،وكذلك بالنسبة لفتنة المالكية أيام الفاطميين بالمغرب .

وفي شأن دور السلطان في التمكين للمذاهب الفقهية يصرح ابن حـزم قـائلا: "مذهبان انتشرا في بدء أمرهما بالرياسة والسلطان، مذهب أبي حنيفة، فإنه تولى القضاء أبو يوسف كان القضاة من قبله، فكان لا يولي البلاد إلا من أقصى الشرق إلى أقصى أعمال إفريقية إلاّ أصحابه المنتمين إلى مذهبه، ومذهب مالك بن أنس عندنا، فإنّ يحي بن يحـي كان مكينا عند السلطان – الحكم بن هشام الربـضي (180 -206 هـ ـ/796 - 822م) مقبول القول في القضاة، فكان لا يلي قاض في أقطارنا إلاّ بمشورته واختيـاره، ولا يشير إلاّ بأصحابه ومن كان على مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا والرياسة. فـأقبلوا على ما يرجون البلوغ أغراضهم به[2]"

وهكذا توارث الأحناف والمالكية القضاء كما تتوارث الضياع وصارت مذاهبهما السيدة في وقت تقلص فيه حجم المذاهب الأخرى فاندثرت.

ونحن إد نقر بأنّ للسلطان دور في نشر مذاهب وتقويتها، وتقزيم أخرى وإضعافها فبقيت الأولى واندثرت الثانية، فإنه لا يمكننا أن نجزم بأنّ هذا العامل هو العنصر الأساسي

---

(1) يقول حسن إبراهيم حسن: كان المأمون يميل إلى الأخذ بمذهب المعتزلة لأنه كان أكثر حرية واعتمادا على العقل، فقرب أتباع هذا المذهب إليه، ومن ثمّ أصبحوا ذوي نفوذ كبير في قصر الخلافة ببغداد، ووافق المأمون المعتزلة فيما ذهبوا إليه، وسخر قوة الدولة لحمـل الناس على القول بخلق القرآن كما امر أن يأخذ القضاة العهد بألاّ يقبلوا شهادة من لا يقول بخلق القرآن، وأن يعاقب كا من لم يقـل بذا الرأي.

وسار المعتصم على سياسة أخيه المامون رغم أنه لم يكن له حظ من العلم وكذلك اقتدى الواثق بأبيه المعتصم وتشدد في فرض آرائـه الدينية على الناس مما أدى إلى إثارة خواطر أهل بغداد، انظر (حسن إبراهيم حسن: المرجع السابق، ج2، ص ص 132، 133).

(2) ابراهيم امي : مدرسة أهل الحديث في المغرب العربي ، مجلة الموافقات، عدد 05 ، السنة 05 ، جوان 1996، ص198.

فيما وصلت إليه الحركة المذهبية الفقهية، فبقدر ما كان للسلطان قوة كان للفقهاء قـوة أكبر وعزيمة أكثر، وتجلد وصبر،كما أنه لا يمكن لأي خليفة أو وال أن ينتصروا لمـذهب إلاّ بقناعة ذاتية ومراعاة لواقع المجتمع، فالخلفاء والولاة لم يكونوا في سـذاجة إلى هـذه الدرجة حتى يقفوا في وجه الرعية التي انتشر فيها مذهب ما ويلزموها بخلاف ما اقتنعت بـه، ذلك أنّ لسلطان الفقهاء قوة لا يمكن صدها والوقوف في وجهها من طرف سلطان الخليفـة والوالي، وإن وجد ذلك في فترة من الزمن لا يعطي حكما عاما على الظاهرة، ثم إنّ كل مـن وقف في وجه قناعة المجتمع بأية وسيلة كانت لفرض قناعته كان مآله الفشل الذريع فيما بعد، وذكرت سيئات أعماله في التاريخ.

إنّ مكمن السر في بقاء المذاهب واندثارها يعود أساسا إلى مـدى إصـرار أصـحابها وأتباعها على مواقفهم، ونضالهم المستمر – دون النظر إلى النتائج – في سبيل الـتمكين لهـا، وهذا لا يكون إلاّ عن قناعة بقوة الحجة، وصحة الطريق، فدونوا فقههم وبقوا على آرائهـم، رغم مخالفة الولاة[1]، وثبت أصحاب المذاهب وأتباعها في وقت لم يقو أتباع المذاهب المنـدثرة على مزاحمة ومسايرة المذاهب الأربعة التي بدورها فرضت سرعة فائقة من حيـث الانتـشار والتنظيم لآرائها فصارت أكثر قوة بفعل ما خلفه أصحابها من مدونات وتلاميذ.

إنّ الصراع على البقاء بين المذاهب ما كان ليفصل فيه لصالح فريق دون آخر في مـدة قصيرة، وفي منطقة واحدة، بل كان يتطلب ذلك مدة طويلة وحلبة كبيرة، ولم تكن النتيجة إلاّ لصاحب النفس الطويل والأساس المتين، والاستمرارية في النضال لأجل التمكين للمذهب.

ولعلّ عامل الزمن والتاريخ من جهة، وقوة المذهب وتنظيمه من جهة ثانية كان لهمـا الأثر الكبير في بقاء المذاهب واندثارها، ذلك أنّ الأفكار لن تظهر قوتها بفعل ميل سـلطان أو

[1] قد يكون للسلطان دخل في ذلك، ولكن ليس كل شيء كما يرى ابن حزم، بل آخر العوامل، وإلاّ فلم كان منـصب القضاء والقرب من ولي الأمر في انتشار مذهب أبي حنيفة في العراق، ولم يكن سببا في انتـشاره بمـصر، ولا سـائر الأقطار الأخرى، مع أنّ الخلافة واحدة والدولة في ذروة قوتها، والأمثلة كثيرة.

فالمسلم لا يخضع في أي عصر إلى مذهب ديني إلاّ عن عقيدة منشؤها النظر والبحث، إن كان من أهلها وأما الثقة بمن يحبهم ويجلّهم وتربى في حجورهم وأما الدعية البارعة المحببة ممن لهم مكانة في نفوس العامة، وأما سيف المعز وذهبه فقـلّ أن يفلحا في مثل هذا الأمر (انظر: موسوعة الفقه الإسلامي "جمال عبد الناصر" ج1، ص 32، 33).

[2] والأمثلة التاريخية عديدة منها انتشار المذهب الحنفي في المغرب تحت ستار الوفاق بين والدولة الفاطمية حيث كان لهمـا مصالح مشتركة في القضاء على المذهب المالكي ولكن صبر وتجلد المالكية كانت نتيجته زوال المذهب الحنفـي انظـر (حسن أحمد محمود :قيام دولة المرابطين ،ص 90 ؛موسى لقبال :دور كتامة ،ص411).

وال إليها أو كثرة أتباع وجماهير، لأنهما مقياسان زائلان، إنما القوة تكمن في مدى نضجها ومواجهتها لمصاعب الزمن، وتقديمها لحلول تبقى صالحة، يرجع إليها بعد تدوينها، ويؤخذ بها في وقت كان الناس سالفا والسلطان قديما قد رفضها، تلك هي قوة المذهب(2).

وبالإضافة إلى هذه الأسباب العشر هناك أسباب أخرى يمكـن اعتبارهـا مـن مكملات اندثار المذاهب نذكر منها:

أحد عشر- أنه منذ سقوط بغداد في يد المغول سنة 656هـ/1258م تميز هذا العهد وما بعده بعملية التقليد للمذاهب الأربعة، فسد باب الاجتهاد، ولم تكن هنالـك آراء خارجة عن إطار المذاهب الأربعة، فكل ما سواها لا يؤخذ به بل يحارب، ودخـل المسلمون عصر الجمود وإنكار كل ما هو جديد في ميدان الفتوى، وصار التعصب ظاهرا وأفتى العلماء بفتوى جديدة هي إغلاق باب الاجتهاد.

ولا شك أنّ الركود والسكون يفسد الماء الذي هو أساس الوضوء به تقوم الحياة، فكيف بالسكون والجمود في الفقه الذي هو أساس التشريع، والعقول به تحيا.

اثنا عشر- وسبب آخر كان له أثره هو دخـول المغـول إلى بغـداد فبغـزوهم واحتلالهم إياها عاثوا في الأرض فسادا وبغداد حاضرة العالم الإسلامي، ومركز إشـعاعه الحضاري والفقهي بالأخص، زال كل التراث حينما جعل المغول الكتب والمؤلفات معبرا يعبرون به نهر دجلة والفرات، وبذلك ضاعت الكثير من كتب المجتهدين وفتاويهم.

ثالث عشر- ولاشك أنّ الحروب الصليبية التي كانت ضد المشرق والمغرب العربي وبالأخص على منطقة الشام كان من سلبياتها حرق آلاف الكتب وتدمير آلاف المساجد ودور العلم وما فيها من مؤلفات وتراث كان يملؤها، واستكملت الحروب الـصليبية في القرن التاسع عشر والعشرين للميلاد بحركة استعمارية أوربية كان لها كذلك الأثر الكبير في زوال وسلب التراث، فكل شيء له قيمة تاريخية إلاّ وأخذ وما لم يقدر على أخذه هدم وأبيد وأحرق، وتلك هي الظاهرة الأخرى في إطار الصراع الحتمي الـذي ظهـر بعـد سنوات الجمود في العالم الإسلامي.

تلك هي أسباب اندثار المذاهب الفقهية والتي ساهمت جلّها أو بعضها في زوالهـا فمنها من اندثر لأسباب ذاتية داخلية –وهذا أغلبها – ومنها ما اندثر بفعل خارجي.

وهكذا أخذت المذاهب الأربعة الباقية تتغلب مع الزمن، وغيرها مـن المـذاهب السنية يُدرس، حتى إذا كان القرن السابع للهجرة، تمّ لها الغلبة والتمسك وأفتى الفقهـاء بوجوب إتباعها وقد درس ما عاداها إلاّ بقايا المذهب الظاهري في بعض البلاد بقيت إلى القرن الثامن للهجرة ثم درس كذلك[1].

إنه لم يبق من المذاهب إلاّ من توفرت له شروط البقاء، إذ المذاهب مثلها كمثـل الكائن الحي لا يبقى إلاّ إذا توفرت له شروط الحياة، وقوة المناعة،وعليه فالحياة العلمية في القرنين الثاني والثالث للهجرة كانت بحرا مليئا بالأمواج العاتية وتشهد حربا ضارية على البقاء، لا يقوى على الانتصار فيها إلاّ صاحب الفلك الكبير والآلة الفعالة، حتى ينتـصر، ويبقى طافيا فوق السطح، ويصل إلى شاطئ الأمان فرحا بما قدم. أما تلك السفن التي لم تكن محصنة، ولم تحمل زادها، فقد انكسرت وغرقت، وصارت حطاما في قاع البحـر، تتطلب براعة حتى يصل الغواص إلى اقتناء دررها المخزونة عند ذاك الحطام.

---

[1] أحمد تيمور باشا: المرجع السابق، ص 85.

الخـاتمـة

و نخلص إلى القول بعد هذا الشرح إلى:

أنّ القرنين الثاني و الثالث للهجرة (الثامن و التاسـع للمـيلاد) كانـا مليـئين بالأحداث المتنوعة ، يدل هذا التنوع على أن هناك ـضة حقيقية للعالم الإسلامي و على حرية في أسمى معانيها رغم ما شهده من بعض السلبيات، و من أبرز مظاهر و ميـادين النهضة هي تلك الحركة الفقهية و التشريعية عامة و التي صارت تتطـور مـن مرحلـة لأخرى، ساهم في تطويرها عدة عوامل.

فقد كان من نتاج هذا التطور أن برزت إلى الوجود مذاهب فقهية قادت هـذه الحركة، وتأثّرت بعدة عوامل و أثرت في ا الات الأخرى، إلاّ أنه مع مرور الزمن بقيت مذاهب و اندثرت أخرى بحسب عوامل ذاتية خاصة بالمذهب، و عوامل خارجـة عـن المذهب، إذ من المذاهب ماكان له قوة التحمل و الصبر أمام تحديات الزمن و مستجدات العصر فطال عمرها، و منها ما انقرض و لم يستطع الصمود.

كما يمكننا - من خلال ما سلف – أن نستشف عدة نتائج لهذه الظاهرة الدينيـة - و هي تطور الفقه - و ظهور المذاهب أهمها :

- أن التشريع الإسلامي أخذ يتطور من مرحلة إلى أخرى، فكان لكـل مرحلـة خصائصها، و أصول استنباط الحكم فيها، منذ عهد الرسول ε إلى عهد الجمود و إغلاق باب الاجتهاد و الاعتماد على ما خلفه الفقهاء الأربعة دون غيرهم، و أنه لم يكن هذا التطور و الانتشار و التنوع في استعمال وسائل الاستنباط التي سميت بأصول الفقـه، إلاّ حينما تنوعت مشارب الفقهاء، و تنوعت خصائص ا تمـع كـذلك، و كثـرت المستجدات فصارت الحاجة إلى تنويع المصادر ضرورية.

- يسجل كذلك تنوع و اختلاف بين الفقهاء ا تهدين في اعتماد الأصول التي ا يستنبط الحكم، إذ صار لكل فقيه آلات استنباط تختلف عن الأخر من حيث عددها و ترتيبها و أولوية بعضها على الأخرى، فهناك من توسع في استعمال هذه الوسائل، و هناك من أحجم و اقتصر على مصدرين أو ثلاثة كداود الظاهري.

- أن هناك عدة عوامل ساعدت في بروز المـذاهب الفقهيـة، و بـالأخص في اختلاف أخذها بمصادر التشريع، و هذه العوامل غالبًا ما كانت تتمثل في شخصية الفقيه ومدى استيعابه للواقع و حفظه للثروة الفقهية و حسن الأداء و التمييز بـين المـصالح، وكذلك أثر الرحلات و المناقشات و الحج و الشيوخ، و طبيعة المنطقة مـن بـداوة أو حضر، فكان الإنتاج الفقهي وفق ذلك.

- يلاحظ في هذين القرنين صراع فكري يبدو من حيث الانتـشار الأكثـر للمذهب و التمكين له، و ا ادلات و المراسلات، و المدونات و ما تحمله مـن ردود، فتبرز حجج و تدمغ أخرى، و لقد كان لهذا الصراع وزنه في إثراء خزانة الفقه و الإجابة عن التساؤلات المطروحة.

و لكن ما يمكن تأكيده أن هذا الصراع كان بريئًـا و في نفـس الوقـت تميـز بالإخلاص للمجتمع و السلطان، و في بعض الأحيان كان ينحرف إلى محاولات القـضاء على المذهب الأخر، و التنكر للاختلاف الفقهي، فنتج أن بقيـت مـذاهب و أبيـدت أخرى.

- إنه من غير المعقول أن نصنف المذاهب إلى أهل فقه و رأي و أهل حديث و أثر إلاّ بقدر التوسع، ذلك أن المذاهب الفقهية اعتمدت كلها علـى الأصـلين، الكتـاب والسنة، و لا يمكن أن نجد مذهبًا لم يأخذ بما، كما لا نجـد الاخـتلاف أكثـر إلاّ في الأصول الأخرى، و يمكن أن نصنف مذاهبهم بحسب الانتشار أو صاحب المذهب.

- لقد تطور الفقه الإسلامي بفضل تلك الانتقادات و المناقشات التي كانت بـين زعماء المذاهب و حتى بين التلاميذ. فبرع هؤلاء في ضبط القواعد و الأصول، و تـدوين الكتب، و إقامة ا الس المتنوعة و المراسلات الكثيرة، و استمر الوضـع كـذلك إلى أن وصل الفقه مرحلة من التنظيم و الاستقراركانت له نتائجه على الفرد و ا تمـع، ومـن نتائجه أيضا تدوين أصول الفقه.

- يلاحظ تحرز المسلمين من الأخذ عن الضعفاء و المدلسين و المرسلين للحديث، و هي ظاهرة بقدر ما حافظت على الدين و صانت السنة و بذلك ا تمع من الوضع في الحديث و التقليص منه، دفعت كذلك أصحاب الحديث إلى الاجتهاد في البحـث عـن الحديث و حفظه و تدوينه. كما كان لها أثر أخر في غير صالح المذاهب الـتي اعتمـدت على الضعفاء أو المدلسين أو من قام بالإرسال، أمثال الثوري و الأوزاعي رغم باعهم في هذا الميدان، حيث أن مذاهبهم اندثرت بسبب هذا الاعتماد.

- كما كان لنفاة القياس أثر سلبي و إيجابي في عملية التشريع، فالسلبي هو أ ـم عطلوا حركة التشريع و الفقه عند تمسكهم بظواهر النصوص فقط الصحيحة الواضـحة، و هذا لا يتساير مع التطور الإنساني، ذلك أن النصوص منتهية و الحوادث غير منتهيـة، كما أ م شجعوا العامة – بذا المنحى – على الخوض في أحكام الشريعة دون رصيد.

أما الأثر الإيجابي فإ م وسعوا دائرة المباح في جميع الميادين، و أن المنع لا يمكن أن يكون إلاّ بنص ثابت.

و لكن ما يسجل ضدهم أ م أعطوا صبغة الفوضى لواقع التشريع، و بذلك نفـر الناس من المذهب، خصوصًا حينما تطاول العامة على العلمـاء، و أخـذوا يطلقـون الأحكام، فخرجت إلى الوجود فتاوى مشوهة لا تؤدي الغرض الشرعي أو الجمـالي و الإنساني، لأن الناقص لا يقدم إلاّ الناقص، و نفي الاجتهاد بآليات غـير الكتـاب والسنة هو تعطيل للشريعة وتضييق على المسلمين.

- إن الأخذ بالرأي و الاجتهاد لم يظهر بعد الرسول ε بل كان في حياته حينمـا اجتهد الصحابة فأقرهم عليها فصارت وحيًا. " إن هو إلاّ وحي يوحى ".

ثم اجتهد الناس بعد وفاته ε و تنظم هذا الاجتهاد بإيجاد أصول واضحة المعالم و الدلائل و النتائج، و تطور في نفس الوقت حتى صاروا يفترضون الأحـداث و يعطـون حكما لها قبل وقوعها، فهم بقدر ما أقروا بشرع من قبلنا أسسوا أحكامًا لأجيـال مـا بعدهم.

- ولا يوجد مذهب من المذاهب قد استولى استيلاء كاملاً على مصر من الأمصار إلاّ و كان يزاحمه غيره في كثير من الأحيان، و يجاوره في أماكن أخرى، فتجد المـذهب الواحد يذكر في أماكن كثيرة. و أقاليم متعددة، و ذلك ما يعطى أحكامًا متنوعة علـى حادثة واحدة في منطقة معينة. و يصير بذلك الناس في حالة من اليسر الفقهي الشرعي.

- إن النقاش بين الفقهاء كان جادًا و له أثره على الفقه. لكنه حينما وصـل إلى التلاميذ وجدنا الواحد منهم يتعصب لشيخه، بل ذهب بعضهم إلى التطاول على العلماء بالوقوف في وجههم، بل و حصارهم و حتى ضربهم.

- إنه لا يمكن ذكر تطور و انتشار الفقه دون ذكر دور الموالي الذين أثّروا في هذا الميدان مثل الميادين الأخرى. و انصهروا في المجتمع الإسلامي، حيـث شـارك المـوالي الصحابة و التابعين في العلم و التجارة و السياسة، و تخرج منهم علماء، بـل إن أغلـب العلماء موالي بفعل حبهم للدين و الذود عنه و تحسين وضعهم، و أيضًا بحكم صـراحة تعاليم الدين، أنه لا فرق بين عربي و أعجمي إلاّ بالتقوى، و أن الخلق كلهم عيـال الله أحبهم إليه أنفعهم لعياله.

- كما كان للخلفاء و الأمراء دور في إثراء الحياة التشريعية بفـضل تـشجيعهم للعلم و العلماء ماديًا، إذ صار الفقيه و العالم لا يعاني الحاجة، و كذلك تشجيعهم معنويًا بتقريبهم و توليهم المناصب، و استشارتهم عند الحاجة، و مجالستهم في أغلب الأحيـان، و قد كان من الخلفاء و الأمراء من له باع في ميدان الفقه و العلم فناقش و جادل و صار جزءًا من الحياة العلمية و التشريعية يعتمد عليه.

- إن المذاهب الفقهية المندثرة كانت بالفعل صمام أمان للمجتمع الإسـلامي في القرنين الثاني و الثالث الهجري. تضبط تصرفاته، و تقود تصوراته الفكرية، إذ كانت تمثل وحدة المسلمين الفكرية تجاه الفرق السائدة آنذاك التي كانت تمثل بطريقـة أو بـأخرى خطرًا على الكيان الإسلامي السني المنهج.

و سلطة الفقهاء كانت أقوى من سلطة الخلفاء و الولاة، حيث كـانوا يمثلـون السلطة التشريعية و الدستورية، يلجأ إليها السلطان في جميع تصرفاته خوفًا من انحرافـه

و بذلك ثورة ا تمع عليه. و نظرًا لهذه العلاقة الطيبة، و صحة التفكير عند هؤلاء الفقهاء و محافظة على تحقيق المصالح العليا للمجتمع و للدولة الإسلامية، لم يكن ليفتي أحد منهم بالخروج عن السلطان، لأن الخليفة يمثل وحدة الأمة.

و هكذا ورثت المذاهب الفقهية تراثًا عظيمًا في ميدان الفقه و التشريع، كما كان في ميادين أخرى باعتبار أن الفقه كان يتطور استجابة للأوضاع العامة.

و نوضح أن المذاهب الفقهية غير خارجة عن الدين حينما تختلف فتاويها بالإباحة عند أحدهم و التحريم عند الأخر، بل كل له أصل اعتمد عليه و اجتهد وفقه، و توصـل إلى نتيجة، توصل إلى عكسها الأخر. و لا يمكن أن نحكم أن كليهما على حق، و لكـن نقول أن لكليهما أجر الاجتهاد فمن أصاب فقد وفّق و من أخطأ صوبه الأخـر و لـه الأجر.

و بعد فترة الاجتهاد و التدوين جاءت فترة الجمود و الـدعوة إلى غلـق بـاب الاجتهاد حينما رأى الناس أن من لا فقه له و لا ورع، و لا يحمل أدوات الاجتهاد صار يجتهد، و ينتقد في نفس الوقت أئمة المسلمين، و كذلك خوفًا من انتشار الفتاوى غـير الصائبة و تحريف الشريعة عن مقاصدها، عندئذ منع الاجتهاد و اقتصر البحث و الفتوى في إطار المذاهب الأربعة المعروفة.

المـلاحـــق

الملحق رقم 01
أبرز أسماء الفقهاء المفتين في الحواضر الإسلامية(*)

برز في الحواضر الإسلامية بعد عهد الصحابة العديد من التابعين المفتين وأهمهم .

المفتون بالمدينة

ابن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبا بكر بن عبد الرحمان بن حارث بن هشام، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهؤلاء هم الفقهاء، وقد نظمهم القائل فقال:

إذا قيل مَن في العلم سبعة أبحر روايتهم ليست عن العلم خارجه

فقل: هم عبيد الله، عروة، قاسم، سعيد، أبو بكر، سليمان، خارجه

أبان بن عثمان، وسالم، ونافع، وأبو سلمة بن عبد الرحمان بن عوف، وعلي بن الحسين.

وبعد هؤلاء أبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، وابناه محمد وعبد الله، وعبد الله بن عمر بن عثمان وابنه محمد، وعبد الله والحسين ابنا محمد بن الحنفية، وجعفر بن محمد بن علي، وعبد الرحمان بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، ومحمد بن المنكدر، ومحمد بن شهاب الزهري.

المفتون بمكة شرفها الله

عطاء بن أبي رباح، وطاوس بن كيشان، ومجتهد بن جبر، وعبيد بن عمير، وعمرو بن دينار، وعبد الله بن أبي مليكة، وعبد الرحمان بن سابط، وعكرمة.

ثم بعدهم أبو الزبير المكي، وعبد الله بن خالد بن أسيد، وعبد الله بن طاوس، ثم بعدهم عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وسفيان بن عيينة.

وبعدهم مسلم بن خالد الزنجي، وسعيد بن سالم القداح.

وبعدهما الإمام محمد بن إدريس الشافعي، ثم عبد الله بن الزبير الحميدي، وإبراهيم بن محمد الشافعي ابن عم محمد، وموسى بن أبي الجارود، وغيرهم.

* ابن قيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين دار الجيل بيروت ،ج3،ص22.

المفتون بالبصرة

عمرو بن سلمة الجرمي، وأبو مريم الحنفي، وكعب بن سود، والحسن البصري، وأبو الشعثاء جابر بن زيد، ومحمد بن سيرين، وأبو قِلابة عبد الله بن زيد الجرمي، ومسلم بن يسار، وأبو العالية، وحميد بن عبد الرحمان، ومطرف بن عبد الله الشُخير، وزرارة بن أبي أوفى، وأبو بردة بن أبي موسى.

ثم بعدهم أيوب السختساني، وسليمان التيمي، وعبد الله بن عوف، ويونس بن عبيد، والقاسم بـن ربيعة، وخالد بن أبي عمران، وأشعث بن عبد الملك الحمراني، وقتادة، وحفص بن سليمان، وإيـاس بن معاوية القاضي.

وبعدهم سوار القاضي، وأبو بكر العتكي، وعثمان بن سليمان البُتي، وطلحة بن إيـاس القاضـي، وعبيد الله بن الحسن العنبري وأشعث بن جابر بن زيد.

ثم بعد هؤلاء عبد الوهاب بن مجيد الثقفي، وسعيد بن أبي عروبة، وحماد بن سلمة، وحماد بن زيـد، وعبد الله بن داود الحرشي، وإسماعيل بن عليلة، وبشر بن المفضل، ومعاذ بن معاذ العنبري، ومعْمر بن راشد، والضحاك بن مخلد، ومحمد بن عبد الله الأنصاري.

المفتون بالكوفة

علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، وعمرو بن شرحبيل الهمداني، ومسروق بن الأجدع الهمداني، وعبيدة السلماني، وشريح بن الحارث القاضي، وسليمان بن ربيعة الباهلي، وزيد بن صوحان، وسويد بن غفلة، والحارث بن قيس الجعفي، وعبد الرحمان بن يزيد النخعي، وعبد الله بن عتبة بن مسعود القاضي، وخيثمة بن عبد الرحمان، وسلمة بن صهيب، ومالك بن عامر،و عبد الله ين سخبرة، وزر بن حُبيش، وخلاس بن عمرو، وعمرو بن ميمون الأودي، وهمام بن الحارث، والحارث بن سويد، ويزيد بن معاوية النخعي، والربيع بن خثيم، وعتبة بن فرقد، وصلة ابن زفر، وشريك بن حنبل وأبو شقيق بن سلمة، وعبيد بن نضلة، وأبو عبيدة وعبد الرحمان ابنا عبد الله بن مسعود وعبد الرحمان بن أبي ليلى.

ثم بعدهم إبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، وسعيد بن جبير، والقاسم بن عبد الرحمان بن عبد الله بن مسعود، وأبو بكر بن أبي موسى، ومحارب بن دِثار، والحكم بن عتيبة، وجبلة ابن سحيم وصحب بن عمر. ثم بعدهم جماد بن أبي سليمان، وسليمان بن المعتمر، وسليمان الأعمش، ومسعر بن كدام.

ثم بعدهم محمد بن عبد الرحمان بن أبي ليلى، وعبد الله بن شبرمة، وسعد بـن أشـوع، وشـريك القاضي، والقاسم بن معْن، وسفيان الثوري، وأبو حنيفة، والحسن بن صالح بن حي.

ثم بعدهم حفص بن غياث، ووكيع بن الجراح، ويوسف القاضي، وزفر بن الهذيل، وحماد بن أبي حنيفة، والحسن بن زياد اللؤلؤي القاضي، ومحمد بن الحسن، وعافية القاضي، وأسد بن عمرو، ونوح بن دراج القاضي، وأصحاب سفيان الثوري، كالأشجعي والمعافي بن عمران وصاحبي الحسن بن حي الزولي، ويحي بن آدم.

المفتون بالشام

أبو إدريس الخولاني، وشرحبيل بن السمط، وعبد الله بن أبي زكريا المحاربي، وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي، وحبان بن أمية، وسليمان بن حبيب المحاربي، والحارث بن عمير الزبيدي، وخالد بن معدان، وعبد الرحمان بن غنم الأشعري وجبير بن نفير.

ثم كان بعدهم عبد الرحمان بن جبير بن نفير، ومكحول، وعمر بن عبد العزيز، ورجاء ابن حيوة.

المفتون بمصر

يزيد بن أبي حبيب، وبكير بن عبد الله بن الأشج، وبعدهما عمرو بن الحرث، والليث بن سعد، وعبد الله بن أبي جعفر.

وبعدهم أصحاب مالك كعبد الله بن وهب، وعثمان بن كنانة، وأشهب، وابن القاسـم، والمـزني، والبويطي وابن عبد الحكم،محمد بن علي بن يوسف، وأبو جعفر الطحاوي.

مفتو القيروان سحنون بن سعيد، وسعيد بن محمد الحداد.

المفتون بالأندلس يحي بن يحي، وعبد المالك بن حبيب، وبقي بن مخلد، وقاسم بن محمد، ومسلمة بن عبد العزيز القاضي، ومنذر بن سعيد، ومسعود بن سليمان، ويوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر.

المفتون باليمن

مطرف بن مازن قاضي صنعاء، وعبد الرزاق بن همام، وهشام بن يوسف، ومحمد بن ثور، وسماك بن الفضل.

المفتون ببغداد أبو عبيد القاسم بن سلام، و أبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي

الملحق رقم 2

رسالة الليث بن سعد إلى الإمام مالك(*)

وهي رسالة بعث بها الليث بن سعد إلى الإمام مالك تبين مدى النقاش الذي كان يجري بين العلماء وذود كل إمام عن منهجه في الاستنباط .

سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو ، أما بعد عافانا الله وإياك ، وأحسن لنا العاقبة في الدنيا والآخرة قد بلغني كتابك تذكر فيه من صلاح حالكم الذي يسرني ، فأدام الله ذلك لكم وأتمه بالعون على شكره والزيادة من إحسانه ، وذكرت نظرك في الكتب التي بعثت بها إليك وإقامتك إياها وختمك عليها بخاتمك ، وقد أتتنا فجزاك الله عما قدمت منها خيرا ، فإنها كتب انتهت إلينا عنك فأحببت أن أبلغ حقيقتها بنظرك فيها وذكرت أنه قد أنشطك ما كتبت إليك فيه من تقويم ما أتاني عنك إلى ابتدائي بالنصيحة ، ورجوت أن يكون لها عندي موضع ، وأنه لم يمنعك من ذلك فيما خلا إلا أن يكون رأيك فينا جميلا إلا لأني لم أذاكرك مثل هذا ، وأنه بلغك أني أفتي بأشياء مخالفة لما عليه جماعة الناس عندكم ، وأني يحق علي الخوف على نفسي لاعتماد من قبلي على ما أفتيتهم به ، وأن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة وبها نزل القرآن ، وقد أصبت بالذي كتبت به من ذلك إن شاء الله تعالى ، ووقع مني بالموقع الذي تحب ، وما أجد أحدا ينسب إليه العلم أكره لشواذ الفتيا ولا أشد تفضيلا لعلماء أهل المدينة الذين مضوا ولا آخذ لفتياهم فيما اتفقوا عليه مني والحمد لله رب العالمين لا شريك له ، وأما ما ذكرت من مقام رسول الله ρ بالمدينة ونزول القرآن بها عليه بين ظهري أصحابه وما علمهم الله منه وأن الناس صاروا به تبعا لهم فيه فكما ذكرت ، وأما ما ذكرت من قول الله تعالى : " والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم "، فإن كثيرا من أولئك السابقين الأولين خرجوا إلى الجهاد في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله فجندوا الأجناد واجتمع إليهم الناس فأظهروا بين ظهرانيهم كتاب الله وسنة نبيه ولم يكتموهم شيئا علموه . وكان في كل جند منهم طائفة يعلمون كتاب الله وسنة نبيه ويجتهدون برأيهم فيما لم يفسره لهم القرآن والسنة ،وتقدمهم عليه أبو بكر وعمر وعثمان الذين اختارهم المسلمون لأنفسهم ، ولم يكن أولئك الثلاثة مضيعين لأجناد المسلمين ولا غافلين عنهم ، بل كانوا يكتبون في الأمر اليسير لإقامة الدين والحذر من

* ابن القيم الجوزية: إعلام الموقعين عن رب العالمين، دار الجيل ،بيروت ، ج3،ص83.

الاختلاف بكتاب الله وسنة نبيه ، فلم يتركوا أمرا فسره القرآن أو عمل به النبي ρ أو ائتمروا فيه بعده إلا علموهموه ، فإذا جاء أمر عمل فيه أصحاب رسول الله ρبمصر والشام والعـراق على عهد أبي بكر وعمر وعثمان ولم يزالوا عليه حتى قبضوا لم يأمروهم بغيره ، فلا نراه يجوز لأجناد المسلمين أن يحدثوا اليوم أمرا لم يعمل به سلفهم من أصحاب رسول الله ρوالتابعين لهم ، مع أن أصحاب رسول الله ρ قد اختلفوا بعد في الفتيا في أشياء كثيرة ، ولولا أني قد عرفت أن قد علمتها كتبت بها إليك ، ثم اختلف التابعون في أشياء بعد أصحاب رسول الله ρ سعيد بن المسيب ونظراؤه أشد الاختلاف ، ثم اختلف الذين كانوا بعدهم فحضرتهم بالمدينة وغيرها ورأسهم يومئذ ابن شهاب وربيعة بن أبي عبد الرحمن وكان من خلاف ربيعة لبعض ما قـد مضى ما قد عرفت وحضرت ، وسمعت قولك فيه وقول ذوي الرأي من أهل المدينة يحيى بـن سعيد وعبيد الله بن عمر وكثير بن فرقد وغير كثير ممن هو أسن منه حتى اضطرك ما كرهـت من ذلك إلى فراق مجلسه . وذاكرتك أنت وعبد العزيز بن عبيد الله بعض ما نعيب على ربيعة من ذلك ، فكنتما من الموافقين فيما أنكرت ، تكرهان منه ما أكرهه ، ومع ذلك بحمد الله عند ربيعة خير كثير ، وعقل أصيل ولسان بليغ ، وفضل مستبين ، وطريقة حـسنة في الإسـلام ، ومودة لإخوانه عامة ولنا خاصة رحمه الله وغفر له وجزاه بأحسن من عمله . وكان يكون من ابن شهاب اختلاف كثير إذا لقيناه ، وإذا كاتبه بعضنا فربما كتب إليه في الشيء الواحد علـى فضل رأيه وعلمه بثلاثة أنواع ينقض بعضها بعضا ، ولا يشعر بالذي مضى من رأيه في ذلك ، فهذا الذي يدعوني إلى ترك ما أنكرت تركي إياه . وقد عرفت أيضا عيب إنكـاري إيـاه أن يجمع أحد من أجناد المسلمين بين الصلاتين ليلة المطر ، ومطر الشام أكثر من مطر المدينة بما لا يعلمه إلا الله لم يجمع منهم إمام قط في ليلة مطر ، وفيهم أبو عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص ومعاذ بن جبل ، وقد بلغنا أن رسول الله ρ قـال : " **أعلمكم بالحلال والحرام معاذ بن جبل** " وقال : " **يأتي معاذ يوم القيامة بين يدي العلمـاء برتوة** " وشرحبيل بن حسنة وأبو الدرداء وبلال بن رباح ، وكان أبو ذر بمصر والـزبير بـن العوام وسعد بن أبي وقاص ، وبحمص سبعون من أهل بدر ، وبأجناد المسلمين كلها وبالعراق ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعمران بن حصين ، ونزلها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في الجنة سنين ،وكان معه من أصحاب رسول الله ρ فلم يجمعوا بين المغرب والعشاء قط . ومن ذلك القضاء بشهادة شاهد ويمين صاحب الحق ، وقد عرفت أنه لم يـزل يقـضي بالمدينة به ، ولم يقض به أصحاب رسول الله ρ بالشام وبحمص ولا بمصر ولا بـالعراق ، ولم

يكتب به إليهم الخلفاء الراشدون أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، ثم ولي عمر بن عبد العزيـز وكان كما قد علمت في إحياء السنن والجد في إقامة الدين والإصابة في الرأي والعلم بما مضى من أمر الناس ، فكتب إليه رزيق بن الحكم : إنك كنت تقضي بالمدينة بشهادة الشاهد الواحد ويمين صاحب الحق ، فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : إنا كنا نقضي بذلك بالمدينة ، فوجـدنا أهل الشام على غير ذلك فلا نقضي إلا بشهادة رجلين عدلين أو رجل وامرأتين ، ولم يجمع بين العشاء والمغرب قط ليلة المطر ، والمطر يسكب عليه في م له الذي كان فيه بخناصرة ساكنا ومن ذلك أن أهل المدينة يقضون في صدقات النساء أ ا متى شاءت أن تتكلم في مؤخر صداقها تكلمت فدفع إليها ، وقد وافق أهل العراق أهل المدينة على ذلك وأهل الشام وأهل مصر ، ولم يقض أحد من أصحاب رسول الله ρ ولا من بعدهم لامرأة بصداقها المـؤخر إلا أن يفـرق بينهما موت أو طلاق فتقوم على حقها . ومن ذلك قولهم في الإيلاء إنه لا يكون عليه طـلاق حتى يوقف وإن مرت الأربعة الأشهر ، وقد حدثني نافع عن عبد الله بن عمر وهو الذي كان يروى عنه ذلك التوقيف بعد الأشهر أنه كان يقول في الإيلاء الذي ذكر الله في كتابه : لا يحل للمولي إذا بلغ الأجل إلا أن يفيء كما أمر الله أو يعزم الطلاق ، وأنتم تقولون : إن لبث بعد الأشهر التي سمى الله في كتابه ولم يوقف لم يكن عليه طلاق ، وقد بلغنا أن عثمان بن عفـان وزيد بن ثابت وقبيصة بن ذؤيب وأبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قـالوا في الإيـلاء : إذا مضت الأربعة الأشهر فهي تطليقة بائنة ، وقال سعيد بن المسيب وأبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وابن شهاب : إذا مضت الأربعة الأشهر فهي تطليقة ، وله الرجعة في العدة . ومن ذلك أن زيد بن ثابت كان يقول : إذا ملك الرجل امرأته فاختارت زوجها فهي تطليقة ، وإن طلقت نفسها ثلاثا فهي تطليقة ، وقضى بذلك عبد الملك بن مروان ، وكان ربيعة بن عبد الرحمن يقوله ، وقد كاد الناس يجتمعون على أ ا إن اختارت زوجها لم يكن فيه طلاق ، وإن اختارت نفسها واحدة أو اثنتين كانت له عليها الرجعة ، وإن طلقت نفسها ثلاثا بانت منه ولم تحل له حتى تنكح زوجا غيره فيدخل با ثم يموت أو يطلقها ، إلا أن يرد عليها في مجلسه فيقول : إنما ملكتك واحدة ، فيستحلف ويخلى بينه وبين امرأته . ومن ذلك أن عبد الله بن مـسعود كان يقول : أيما رجل تزوج أمة ثم اشتراها زوجها فاشتراؤه إياها ثلاث تطليقـات ، وكـان ربيعة يقول ذلك ، وإن تزوجت المرأة الحرة عبدا فاشترته فمثل ذلك . وقد بلغنا عنكم شـيئا من الفتيا مستكرها ، وقد كنت كتبت إليك في بعضها فلم تجبني في كتـابي ، فتخوفـت أن تكون استثقلت ذلك ، فتركت الكتاب إليك في شيء مما أنكره وفيما أوردت فيه على رأيك ،

وذلك أنه بلغني أنك أمرت زفر بن عاصم الهلالي حين أراد أن يستسقي أن يقدم الصلاة قبل الخطبة ، فأعظمت ذلك لأن الخطبة والاستسقاء كهيئة يوم الجمعة إلا أن الإمام إذا دنا من فراغه من الخطبة فدعا حول رداءه ثم نزل فصلى ، وقد استسقى عمر بن عبد العزيز وأبو بكر بن محمد بن عمرو بن حزم وغيرهما ، فكلهم يقدم الخطبة والدعاء قبل الصلاة ، فاستهتر الناس كلهم فعل زفر بن عاصم من ذلك واستنكروه . ومن ذلك أنه بلغني أنك تقول في الخليطين في المال : إنه لا تجب عليهما الصدقة حتى يكون لكل واحد منهما ما تجب فيه الصدقة ، وفي كتاب عمر بن الخطاب أنه يجب عليهما الصدقة ويترادان بالسوية ، وقد كان ذلك يعمل به في ولاية عمر بن عبد العزيز قبلكم وغيره ، والذي حدثنا به يحيى بن سعيد ولم يكن بدون أفاضل العلماء في زمانه فرحمه الله وغفر له وجعل الجنة مصيره ابن سعيد ومن ذلك أنه بلغني أنك تقول : إذا أفلس الرجل وقد باعه رجل سلعة فتقاضى طائفة من ثمنها أو أنفق المشتري طائفة منها أنه يأخذ ما وجد من متاعه ، وكان الناس على أن البائع إذا تقاضى من ثمنها شيئا أو أنفق المشتري منها شيئا فليست بعينها . ومن ذلك أنك تذكر أن النبي ρ لم يعط الزبير بن العوام إلا لفرس واحد ، والناس كلهم يحدثون أنه أعطاه أربعة أسهم لفرسين ومنعه الفرس الثالث ، والأمة كلهم على هذا الحديث أهل الشام وأهل مصر وأهل العراق وأهل إفريقية ، لا يختلف فيه اثنان ؛ فلم يكن ينبغي لك - وإن كنت سمعته من رجل مرضي - أن تخالف الأمة أجمعين . وقد تركت أشياء كثيرة من أشباه هذا ، وأنا أحب توفيق الله إياك وطول بقائك لما أرجو للناس في ذلك من المنفعة ، وما أخاف من الضيعة إذا ذهب مثلك مع استئناسي بمكانك ، وإن نأت الدار فهذه منزلتك عندي ورأيي فيك فاستيقنه ، ولا تترك الكتاب إلي بخبرك وحالك وحال ولدك وأهلك وحاجة إن كانت لك أو لأحد يوصل بك ، فإني أسر بذلك ، كتبت إليك ونحن صالحون معافون والحمد لله ، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم شكر ما أولانا وتمام ما أنعم به علينا ، والسلام عليك ورحمة الله .

ملحق رقم 3

رد الأحناف على الأوزاعي فيما يخص السبر(*).

وهي بعض الآراء التي كان يخالف فيها الإمام الأوزاعي الأحناف ورد الأحناف على الأوزاعي.

سهم الفارس والراجل وتفضيل الخيل

قال أبو حنيفة رضي الله تعالى عنه يضرب للفارس بسهمين سهم له وسـهم لفرسـه ويـضرب للراجل بسهم وقال الأوزاعي : أسهم رسول الله ρ للفرس بسهمين ولصاحبه بـسهم واحـد ، والمسلمون بعد لا يختلفون فيه.

قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى في المرأة إذا سبيت ثم سبي زوجها بعدها بيوم وهما في دار الحرب أنهما على النكاح وقال الأوزاعي ما كانا في المقاسم فهما على النكاح وإن اشتراهما رجل فشاء أن يجمع بينهما جمع وإن شاء فرق بينهما وأخذها لنفسه أو زوجها لغيره بعدما يستبرئها بحيضة على ذلك مضى المسلمون ونزل به القرآن وقال أبو يوسف إنما بلغنا عن رسول الله ρ وأصحابه أنهم أصابوا سبايا وأزواجهم في دار الحرب وأحرزوهم.

حال المسلمين يقاتلون العدو وفيهم أطفالهم قال أبو حنيفة رحمه الله تعالى إذا حـصر المـسلمون عدوهم فقام العدو على سورهم معهم أطفال المسلمين يتترسون بم قال يرمو م بالنبل والمنجنيق يعمدون بذلك أهل الحرب ولا يتعمدون بذلك أطفال المسلمين قال الأوزاعي يكف المسلمون عن رميهم فإن برز أحد منهم رموه فإن الله عز وجـل يقـول " ولـولا رجـال مؤمنـون ونـساء مؤمنـات " حتى فرغ من الآية فكيف يرمي المسلمون من لا يرونه من المشركين قال أبو يوسف رحمه الله تعالى تأول الأوزاعي هذه الآية في غير ولو كان يحرم رمي المشركين وقتـالهم إذا كـان معهم أطفال المسلمين لحرم ذلك أيضا منهم إذا كان معهم أطفالهم ونساؤهم فقد ى رسول الله ρ عن قتل النساء والأطفال والصبيان وقد حاصر رسول الله ρ أهل الطائف وأهل خيبر وقريظة والنضير وأجلب المسلمون عليهم فيما بلغنا أشد ما قدروا عليه وبلغنا أنه نصب على أهل الطائف المنجنيق فلو كان يجب على المسلمين الكف عن المشركين إذا كان في ميدا م الأطفـال لنـهى رسول الله ρ عن قتلهم لم يقاتلوا لأن مدائنهم وحصو م لا تخلو من الأطفال والنساء والـشيخ

الكبير الفاني والصغير والأسير والتاجر وهذا من أمر الطائف وغيرها محفوظ مشهور من سنة رسول الله ρ وسيرته ، ثم لم يزل المسلمون والسلف الصالح من أصحاب محمد ρ في حصون.

(*) أبو يوسف :كتاب الرد على سير الأوزاعي ،تحقيق أبو الوفا الأفغاني ،دار الكتب العلمية ،بيروت ،ص52.

باب شراء أرض الجزية

قال أبو يوسف رضي الله عنه: وسئل أبو حنيفة رضي الله عنه عن الرجل المسلم يشتري أرضا من أرض الجزية فقال هو جائز.

وقال الأوزاعي : لم تزل أئمة المسلمين ينهون عن ذلك ويكتبون فيه ويكرهه علماؤهم

وقال أبو يوسف رحمه الله تعالى : القول ما قال أبو حنيفة رضي الله عنه.

باب المستأمن في دار الإسلام

قال أبو يوسف : وسئل أبو حنيفة رضي الله عنه عن قوم من أهل الحرب خرجوا مستأمنين للتجارة فزنى بعضهم في دار الإسلام أو سرق هل يحد ؟ قال لا حد عليه ويضمن السرقة لأنه لم يصالح ولم تكن له ذمة.

قال الأوزاعي رحمه الله تقام عليه الحدود.

وقال أبو يوسف: القول ما قال أبو حنيفة رضي الله عنه ليس تقام عليه الحدود لأنهم ليسوا بأهل ذمة لأن الحكم لا يجري عليهم أرأيت إن كان رسولا لملكهم فزنى أترجمه ؟ أرأيت إن زنى رجل بامرأة منهم مستأمنة أترجمها ؟ أرأيت إن لم أرجمهما حتى عادا إلى دار الحرب ثم خرجا بأمان ثانية أمضي عليهما ذلك الحد أرأيت إن سبيا أيمضي عليهما حد الحر أم حد العبد وهما رقيق لرجل من المسلمين ؟ أرأيت إن لم يخرجا ثانية.

الحربية تسلم فتزوج وهي حامل

قال أبو حنيفة رضي الله عنه إذا كانت المرأة المسلمة التي جاءت من دار الحرب حاملا فتزوجت فنكاحها فاسد.

وقال الأوزاعي رحمه الله: ذلك في السبايا فأما المسلمات فقد مضت السنة أن أزواجهن أحق بهن إذا أسلموا في العدة.

وقال أبو يوسف : إن تزوجهن فاسد وإنما قاس أبو حنيفة رضي الله عنه هذا على الـسبايا على قول رسول الله ρ "**لا توطأ الحبالى من الفيء حتى يضعن** " قال فكذلك المسلمات .

في الحربي يسلم وعنده خمس نسوة

قال أبو حنيفة رضي الله عنه في رجل من أهل دار الحرب تزوج خمس نـسوة في عقـدة ثم أسلم هو وهن جميعا وخرجوا إلى دار الإسلام : إنه يفرق بينه وبينهن

وقال الأوزاعي رحمه الله بلغنا أنه قال أيتهن شاء

وقال أبو يوسف : ما قال رسول الله ρ فهو كما قال وقد بلغنا من هذا ما قال الأوزاعـي وهو عندنا شاذ والشاذ من الحديث لا يؤخذ به لأن الله تبارك وتعالى لم يحـل إلا نكـاح الأربع فما كان من فوق ذلك كله فحرام من الله في كتابه فالخامسة ونكاح الأم والأخـت سواء في ذلك كله حرام فلو أن حربيا تزوج أما وابنتها أكنت أدعهما على النكاح أو تزوج أختين في عقدة النكاح ثم أسلموا أكنت أدعهما على النكاح وقد دخل بـالأم والبنـت أو بالأختين فكذلك الخمس في عقدة ولو كن في عقد متفرقات جاز نكاح الأربـع وفـارق الآخرة.

الملحق رقم 4

كتب الأوزاعي في صلاح أمور المسلمين إلى ولاة الأمر(*)

باب رسالة الأوزاعي إلى أبى عبيد الله وزير الخليفة في موعظة وسوال حاجة

أما بعد فإني أسأل الله عز وجل أن لا يسلب منك عقلا ولا دينا وان يجعل الغالب عليك فيما أنت فيه التوقى لما كنت تعرف وتكره قبل أن تبتلى ولا يجهلك عنه فتنه طمع ولا كثره شغل وان يمن عليك بذكر قله المتاع وتقريب حضور فراقه ثم يجعلك لحظك فيه مؤثرا وعلى سلبه منك مشفقا فإنك المرء أحب أن أتعاهده بذكر ما عسى الله أن يحدث به خيرا فإني أرجو أن يكون الغيب منى على النصح لك وحب العصمة في دينك وصرف السوء عنك فيه أن شاء الله وقد سألني إدريس الكتاب إليك فان قدرت له رحمك الله على لحق في سكان جبلة طلبت له أعنته بما عسى الله أن يجعل قضاء حاجته بما يتسبب منه واعنت عليه ثم يجزيك به خيرا ويجعله من النوافل المذخورة في الآخرة أن شاء الله فعلت والسلام عليك.

باب رسالة الأوزاعي إلي وزير الخليفة أبى عبيد الله في

تنجز كتاب من الخليفة بتخليه محبوس

كتب إلى أبى عبيد الله أما بعد قسم الله لك ولما أنت فيه عاصما من سخطه ونية تعمل عليها وتؤدى با حق من يلزمك فيما وجدت السبيل إليه طلب الفرج عنه إذا استغاث بك وكنت رجاءه في نفسه بإذن الله وانه لا يزال من أولئك متوسل بي إليك فلا آلوك فيه نصحا وعند العقاب ومعاينة الحساب لا تستكثر عملا.

ولا تستقل ذنبا فألهمك الله ذكره وطلب الوسيلة عنده ثم أن يزيد بن يحيى الخشني في حبس أمير المؤمنين أصلحه الله وكان من أعوان بن الأزرق ولم يبلغني عنه سوء قرف به وقد طالت إقامته فيه فان رأيت رحمك الله أن يكون من المهدى كتاب إلى أمير المؤمنين أصلحه الله فيه يذكر من أمره ما نرجو تخلصه به مما هو فيه من ضرر الحبس فعلت أعانك الله على الخير وجعله اغلب الأمور عليك وآثرها عندك والسلام عليك ورحمة الله.

رسالة الأوزاعي إلى المهدي بن أمير المؤمنين في شفاعة لأهل مكة في تقويتهم

كتب إلى المهدى: أما بعد فان الله عز وجل جعل رسوله ρ لمن بعده من ولاة المؤمنين إماما وقدوة

(*) محمد بن إدريس الرازي:الجرح والتعديل ،دار إحياء التراث العربي،بيروت ،ج1،ص188.

وأسوة حسنة في رحمته بأمته والرأفة عليهم وخفض جناحه لهم في عفوه عنهم قال الله عز وجل في صفة رسوله بالمؤمنين رؤف رحيم فأسأل الله أن يعزم لأمير المؤمنين والأمير على الصبر بالتشبه بنبيه ρ والاعتصام بسنته ومنافسه الأخيار أعمال البر ويجعل ثوابهما في يوم البعث الأمن والإفضاء إلى رضوان الله عز وجل وقد أصبح الأمير حفظه الله من خليفة المسلمين بحال الأمين المصدق أن شكا لمن مسه الضر من أمته لم يتهم نصحه ولم يجبه قوله وأن دافع عنهم رهقا أطلب لهم عفوا أخذ بقلب الخليفة توفيقه وأحدث له بما ألقى إليه من الفضل سرورا إن شاء الله فجعل الله الأمير لأمته أمنه ومألفا ورضاهم به وأخذ بأفئد م اليه ثم انه أتاني من رجل من مقانع أهل مكة كتاب يذكر الذي هم فيه من غلاء أسعارهم وقلة ما بأيديهم منذ حبس عنهم بحرهم وأجدب برهم وهلكت مواشيهم هزلا فالحنطة فيهم مدان بدرهم والذرة مدان ونصف بدرهم والزيت مد بدرهم ثم هو يزداد كل يوم غلاء وانه أن لم يأ م الله بفرج عاجلا لم يصل كتابي حتى يهلك عامتهم أو بعضهم جوعا وهم رعية أمير المؤمنين أصلحه الله والمسئول عنهم وقد حدثني من سمع الزهرى يقول أن عمر بن الخطاب في عام الرمادة وكانت سنة شديدة ملحة من بعد ما اجتهد في إمداد الأعراب بالإبل والقمح والزيت من الأرياف كلها حتى بلحت مما أجهدها قام يدعو الله عز وجل فقال اللهم اجعل أرزاقهم على رءوس الظراب فاستجاب الله عز وجل له وللمسلمين فأغاث عباده فقال عمر والله لو أن الله عز وجل لم يفرجها ما تركت أهل بيت لهم سعة إلا أدخلت عليهم أعداهم من الفقراء فإنه لم يكن اثنان يهلكان من الطعام على ما يقيم الواحد فبلغنا انه حمل إلى عمر من مصر وحدها ألف ألف إردب وبلغنا أن رسول الله ρ قال هل عسى أحدكم أن تبيت فصاله رواء وجاره طاو الى جنبه فان رأى الأمير أصلحه الله أن يلح على أمير المؤمنين في إغاثة أهل مكة ومن حولهم من المسلمين في بره وبحره بحمل الطعام والزيت إليهم قبل أن يبتلى بهلاك أحد منهم جوعا فعل وقد حدثني داود بن علي أن عمر بن الخطاب قال لو هلكت شاة على شاطئ الفرات ضياعا ظننت أن الله عز وجل سيسألنى عنها وإنما الأمر واحد وكل من العدل في الحكم عليه يوم القيامة مشفق إلا أن يعفو الله عز وجل ويرحم وهى أمتكم أحق من خلفتم فيها بالعفو والرأفة رسول الله ρ ألحقكم الله به مصلحين أوردكم عليه بإحسان والسلام كتب في خمس من شهر ربيع الآخر سنة ثنتين وخمسين ومائة.

رسالة الأوزاعي الى أمير المؤمنين شفاعة في زيادة ارزاق أهل الساحل

عن الأوزاعي انه كتب أما بعد ولى الله لأمير المؤمنين أموره بما ولى به أمور من هدى واجتبى وجعله بهم مقتديا فان أمير المؤمنين أصلحه الله كتب إلى أن ألا ادع إعلامه كلما فيه صلاح عامة وخاصة

فان الله عز وجل يأجر على من عمل به ويحسن عليه الثواب وأنا اسأل الله عز وجل أن يلهم أمـير المؤمنين من أعمال البر ما يبلغه به عفوه ورضوانه في دار الخلود دنانير في كل عام سلفا من عطيا م وأمير المؤمنين أصلحه الله أن نظر في ذلك عرف انه ليس في عشرة دنانير لامرئ ذي عيال عشرة أو أدنى من ذلك أو أكثر كفاف وان قوت عشرة وقتر على عياله فربما جمع الرجل عـشرته في غـلاء السعر في شراء طعام لعياله ما يجد منه بدا ثم يدان بعد ذلك في إدامهم وكسو م وما سوى ذلك من النفقه عليهم في عشرة لقابل ولو أجرى عليهم أمير المؤمنين أصلحه الله في أعطيا م سلفا في كل عام خمسة عشر دينارا ما كان فيها عن مصلح ذي عيال فضل ولا قدر كفاف وأهل الساحل بم ل عظيم غناؤه عن المسلمين فإنه لا يستمر لبعوث أمير المؤمنين فصول إلى ثغوره ولا سياحة في بلاد عـدوهم حتى يكون من وراء بيضتهم وأهل ذمتهم بسواحل الشام من يدفع عنهم عدوا إن هجم عليهم وا م إذا كان القيظ تناوبوا الحرس على ساحل البحر رجالا وركبانا وإذا كان الشتاء قاسوا طول الليـل وقرة ووحشته حرسا في البروج والناس خلفهم في أجنادهم في البيوت والأدفاء فإن رأى أمير المؤمنين حفظه الله أن يأمر لهم في أعطيا م قدر الكفاف ويجريه عليهم في كل عام فعل وقد تصرمت الـسنة التي كانت تأتيهم فيها عشرا م ودخلوا في غيرها حتى اشتدت حاجتهم وظهر عليهم ضرها وهـم رعية أمير المؤمنين والمسئول عنهم فإنه راع وكل راع مسئول عن رعيته وقد بلغنا أن رسول الله ρ قال انه لحبيب إلى أن أيفارق الدنيا وليس منكم أحد يطلبني بمظلمة في نفسه ولا ماله أتم الله علـى الأمير نعمته واحسن بلاءه في رعيته وقد قدم علينا رسول أمير المؤمنين أصلحه الله بالعطية من النفقة والكسوة التي أمر أمير المؤمنين عافاه الله بقسمها في أهل الساحل فقسمناها فيهم من دينار لكل رجل وديناربن وقل المال عن اليتامى والأرامل فلم يقسم فيهم منه شيء ولليتامى والأرامـل وهـم مـن المساكين في الوجوه الثلاثة في كتاب الله عز وجل من الصدقات ومن خمس المغانم وما أفاء الله على رسوله والمؤمنين من أهل القرى فأن رأى أمير المؤمنين أصلحه الله أن يبعث بما يقسم فيهم فعل جعل الله أمير المؤمنين برسوله ρ متشبها في رأفته ورحمته بالمؤمنين أتم عليه نعمته ومعافاته والسلام عليك ورحمة الله.

رسالة الأوزاعي الى عبد الله بن محمد أمير المؤمنين يعظه ويحثه على ماحل باهل قاليقالا وطلب الفداء

عن الأوزاعي أنه كتب إلى عبد الله بن محمد أمير المؤمنين أما بعد فان الله عز وجل إنما استرعاه أمر هذه الأمة ليكون فيها بالقسط قائما وبنبيه ρ في خفض الجناح لهم متشبها وبأعماله التي مع قرابته فإنه من القدوة في أعمال رسول الله ρ أسوة حسنة وبلغنا أن رسول الله ρ قال في اليوم الذي قبضه الله عز وجل فيه فاطمة بنت رسول الله ويا صفية عمة رسول الله اعملا لما عند الله عز وجل

فإني لا املك لكما من الله شيئا وبلغنا انه أمر قريشا أن تجتمع فلما اجتمعت قال لهم إلا أن أوليائي المتقون فمن اتقى فهو أولى بي منكم وان كنتم أقرب منه رحما نسأل الله أن يسكن دهماء هذه الأمة على أمير المؤمنين ويصلح به أمورها ويرزقه رحمها والرأفة بها فان سياحة المشركين كانت عام أول في دار الإسلام وموطأ حريمهم واستـ الهم نساء المسلمين وذراريهم من معاقلهم بقاليقلا لا يلقاهم من المسلمين لهم ناصر ولا عنهم مدافع كان بما قدمت أيدي الناس وما يعفو الله عنه أكثر فان بخطاياهم سبين وبذنوبهم استخرجت العواتق من خدورهن يكشف المشركون عورا ن ولائد تحت أيدي الكوافر يمتهنو ن حواسر عن سوقهن وإقدامهن ويردون ولدا ن الى صبغة الكفر بعد الإيمان مقيمات في خشوع الحزن وضرر البكاء فهن بمرأى من الله عز وجل ومسمع وبحيث ينظر الله من الناس الى أعراضهم عنهن ورفضهم اياهن في أيدي عدوهم والله عز وجل يقول من بعد أخذه الميثاق من بنى إسرائيل أن إخراجهم فريقا منهم من ديارهم كفر ومفادا م أساراهم أيمان ثم أتبع اختلافهم وعيد منه شديد لا يهتم بأمرهن جماعة ولا يقوم فيهن خاصة فيذكروا بهن جماعتهم فليستعن بالله أمير المؤمنين وليتحنن على ضعفاء أمته وليتخذ الى الله فيهن سبيلا وليخرج من حجة الله عليه فيهن بان أن يكون أعظم همه وآثر أمور أمته عنده مفادا ن فان الله عز وجل حض رسول الله ρ والمؤمنين على من اسلم من الضعفاء في دار الشرك فقال مالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان إلى قوله نصيرا هذا ولم يكن على المسلمين لوم فيهن فكيف بالتخلية بين المشركين وبين المؤمنات يظهر منهن لهم ما كان يحرم علينا إلا بنكاح وقد حدثني الزهرى انه كان في كتاب رسول الله ρ الذي كتب به بين المهاجرين والأنصار أن لا يتركوا مفرحا أن يعينوه في فداء أو عقل ولا نعلم انه كان لهم يومئذ فئ موقوف ولا أهل ذمة يؤدون إليهم خراجا إلا خاصة أموالهم ووصية رسول الله ρ المسلمين بالنساء في حجة الوداع وقوله إنما أوصيكم بالضعيفين المرأة والصبي ومن رافة رسول الله ρ كانت بهن قوله انى لأقوم في الصلاة أريد أن أطول فيها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي كراهة أن أشق على أمه فبكاؤها عليه من صبغة الكفر أعظم من بكائه بعض ساعة وهى في الصلاة وليعلم أمير المؤمنين انه راع وان الله مستوف منه وموفيه حين يوقف به على موازين القسط يوم القيامة أسأل الله أن يلقى أمير المؤمنين حجته ويحسن به الخلافة لرسوله في أمته ويؤتيه من لدنه أجر عظيما والسلام عليك.

ملحق رقم 5

رسالة الثوري إلى عباد بن عباد[*]

وهي رسالة تبين موقف سفيان الثوري من السلطان وطريقته في الحياة

من سفيان بن سعيد إلى عباد بن عباد سلام عليك فإني احمد إليك الله الذي لا اله إلا هو أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله فان اتقيت الله عز وجل كفاك الناس وان اتقيت الناس لم يغنوا عنك من الله شيئا سألت أن اكتب إليك كتابا أصف لك فيه خلالا تصحب بها أهل زمانك وتؤدى إليهم ما يحق لهم عليك وتسأل الله عز وجل الذي لك وقد سألت عن أمر جسيم الناظرون فيه اليوم المقيمون به قليل بل لا اعلم مكان أحد وكيف يستطاع ذلك وقد كدر هذا الزمان انه ليشتبه الحق والباطل ولا ينجو من شره إلا من دعا بدعاء الغريق فهل تعلم مكان أحد هكذا وكان يقال يوشك أن يأتي على الناس زمان لا تقر فيه عين حكيم فعليك بتقوى الله عز وجل والزم العزلة واشتغل بنفسك واستأنس بكتاب الله عز وجل واحذر الأمراء وعليك بالفقراء والمساكين والدنو منهم فان استطعت أن تأمر بخير في رفق فان قبل منك حمدت الله عز وجل وان رد عليك أقبلت على نفسك فان لك فيها شغلا واحذر الم لة وحبها فان الزهد فيها أشد من الزهد في الدنيا وبلغني أن أصحاب محمد ρ كانوا يتعوذون أن يدركوا هذا الزمان وكان لهم من العلم ما ليس لنا فكيف بنا حين أدركنا على قله علم وبصر وقله صبر وقلة أعوان على الخير مع كدر من الزمان وفساد من الناس وعليك بالأمر الأول والتمسك به وعليك بالخمول فان هذا زمان خمول وعليك بالعزلة وقلة مخالطة لناس فان عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال إياكم والطمع فان الطمع فقر واليأس غنى وفي العزلة راحه من خلاط السوء وكان سعيد بن المسيب يقول العزلة عباده وكان الناس إذا التقوا انتفع بعضهم ببعض فأما اليوم فقد ذهب ذلك والنجاة في تركهم فيما نرى وإياك والأمراء والدنو منهم وان تخالطهم في شيء من الأشياء وإياك أن تخدع فيقال لك تشفع فترد عن مظلوم أو مظلمه فان تلك خدعه إبليس وإنما اتخذها فجار القراء سلما وكان يقال اتقوا فتنة العابد الجاهل وفتنة العالم الفاجر فان

---

[*] **محمد بن إدريس الرازي :الجرح والتعديل ،ج1،ص86؛ ابو نعيم :الحلية ،ج6،ص376.**

فتنتهما فتنه لكل مفتون وما كفيت المسألة والفتيا فاغتنم ذلك ولا تنافسهم وإياك أن تكون ممن يحب أن يعمل بقوله وينشر قوله أو يسمع منه وإياك وحب الرياسة فإن من الناس من تكون الرياسة أحب إليه من الذهب والفضة وهو باب غامض لا يبصره إلا البصير من العلماء السماسره واحذر الرئاء فإن الرئاء أخفى من دبيب النمل وقال حذيفه سيأتي على الناس زمان يعرض على الرجل الخير والشر فلا يدرى أيما يركب وقد ذكر عن رسول ρ قال لا تزال يد الله عز وجل على هذه الأمة وفي كنفه وفي جواره وجناحه ما لم يمل قراؤهم إلى أمرائهم وما لم يبر خيارهم أشرارهم وما لم يعظم أبرارهم فجارهم فإذا فعلوا ذلك رفعها عنهم وقذف في قلوبهم الرعب وانزل بهم الفاقة وسلط عليهم جبابرتهم فساموهم سوء العذاب وقال إذا كان ذلك لا يأتيهم أمر يضجون منه إلا أردفه بآخر يشغلهم عن ذلك فليكن الموت من شأنك ومن بالك واقل الأمل وأكثر ذكر الموت فإنك إن أكثرت ذكر الموت هان عليك أمر دنياك وقال عمر أكثروا ذكر الموت فإنكم إن ذكرتموه في كثير قلله وان ذكرتموه في قليل كثره واعلموا انه قد حان للرجل يشتهى الموت أعاذنا الله وإياك من المهالك وسلك بنا وبك سبيل الطاعة.

قائمة المصادر والمراجع

أ- المصادر

-القرآن الكريم
-صحيح البخاري
-صحيح مسلم

1-ابن الأثير (أبو الحسن علي بن أبي كرم ت.630 هـ): الكامل في التاريخ، دار صـــــادر 1966. الجـــــزء الخـــــامس و الثـــــامن .

--إبن الأثير الجزري(عز الدين الشيباني ت 630هـ) : اللبـاب في الأنـساب ، ذيب مكنبة المثنى ، بغداد ، الجزء الأول والثاني دون تاريخ الطبع.

2-ابن الأثير الجزري (شمس الدين محمد بن محمد الدمشقي ت. 833هـ) : غاية النهاية في طبقات القراء، مكتبة الغانجي، مصر 1933. الجزء الأول و الثاني.

3-الأصبهاني(أبو نعيم أحمد بن عبد الله ت. 430هـ) :حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربي، بيروت. ط2، 1967 في عدة أجزاء.

-دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان دون تاريخ الطبع.

4-البخاري (إسماعيل بن إبراهيم ت. 256هـ) : التاريخ الكبير، تحقيق سـلمان ضبيات، محمد عبد المعيد خان، دار الكتب العلمية، بيروت. الجزء الأول والثاني و الرابع دون تاريخ الطبع.

5-البغدادي(أبو بكر أحمد بن علي الخطيب ت 1070م): تاريخ بغداد أو مدينة السلام، مكتبة الغانجي القاهرة. ط1، 1931. في عدة أجزاء.

6-البغدادي(عبد القاهر ت.469هـ) : الفرق بين الفرق، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت. ط 1993.

7- ابن تغري بردي (جمال الدين الأتابكي813-874هـ) : النجوم الزاهرة في أخبار مصر و القاهرة، المؤسسة المصرية العامة. الجزء الأول و الثانيـدون تـاريخ الطبع.

8-ابن جماعة (بدر الدين محمد بن إبراهيم 639-733هـ): المنهل الـروي في مختصر علم الحديث، تحقيق محي الدين عبد الرحمان رمضان، دار الفكر دمشق،ط2 ،1986.

9-ابن الجوزي أبي الفرج عبد الرحمان ت 630هـ (ت. 597هـ ـ) : صـفة الصفوة، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الركن، الهند 1356.

10- ابن حجر(شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني 773- 852هـ ـ) : ـذيب التهذيب، دار صادر بيروت.في عدة أجزاءدون تاريخ الطبع.

-وطبعة أخرى دار الفكر، بيروت،ط1، 1990.

11- ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي،بيروتدون تاريخ الطبع.

12- ابن حجر: لسان الميزان، دار الفكر بيروت، ط1993.

13- ابـن حجـر : تقريـب التهـذيب،تحقيق عـادل مرشـد، مؤسـسة الرسالة،بيروت،ط1، 1996.

14- ابن حزم (علي بن سعيد الأندلسي ت.1064م) : الفـصل في الملـل و الأهواء و النحل، تحقيق إبراهيم محمد نصير، دار الجيل، بيروت دون تاريخ .

15- ابن حزم: المحلى بالآثار، تحقيق عبد الغفار سليمان البندراني، دار الكتـب العلمية، بيروت، دار الجيل، بيروت.الأجزاء الأول والثامن والتاسع دون تاريخ.

16- ابن حزم: الإحكام في أصول الأحكام ، منشورات دار أفـاق، بـيروت 1980. الجزء الأول و الرابع.

17- ابن حزم :مراتب الإجماع ،تحقيق محمد زاهـد الكـوثري ،دار الكتـاب العربي، بيروت ،ط2،دون تاريخ الطبع.

18- ابن حزم :إبطال القياس والرأي والاستحسان ،تحقيق سعيد الأفغاني ،مطبعة جامعة دمشق ،ط1960.

19- الحموي ياقوت(شهاب الدين بن عبد الله البغـدادي ت.626 هـ ـ) : معجم الأدباء، دار الغرب الإسلامي تحقيق إحسان عباس بيروت لبنان.الجزء الثامن عشر دون تاريخ.

20- الحموي ياقوت: معجم البلدان، دار صادر بـيروت. ط 1984.جميـع الأجزاء.

21- ابن حيان (عبد الله بن محمد 274-369هـ) : طبقات المحدثين بأصبهان و الواردين عليها، تحقيق عبد الغفور حسين البلوشـي، مؤسـسة الرسـالة. ط2، 1992.الجزء الثاني.

22- ابن خلدون (عبد الرحمان محمد 732-808هـ): العبر وديوان المبتـدأ والخبر ، دار الكتاب، بيروت. ط 1957.الجزء الثالث.

23- ابن خلدون: المقدمة ،دار الفكر بيروت،ط 2003.

24- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكـر 607-681هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافـة، بيروت دون تاريخ.

-وطبعة أخرى دار صادر تحقيق وداد القاص وعز الدين أحمد موسى.الجزء الثاني.

25- خليفة حاجي (1017-1067م) : كشف الظنون عن أسماء الكتب و الفنون، دار الكتب العلمية، بيروت. ط 1992.ا لمد الأول.

26- خليفة بن خياط(ابن خليفة العصفوري أبـو عمـر الحـافظ البـصري ت.240هـ): طبقات الرواة، بغداد. ط1967،1.

27- الداودي (ابن أحمد ت. 945هـ) : طبقات المفسرين، تحقيق علي محمد، مكتبة وهبة، عابدين مصر. ط1، 1972.الجزء الأول و الثاني.

28- الذهبي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد 673-748هـ) : ميزان الاعتدال في نقد الرجال،تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت لبنان.الجزء الأول و الثاني.-وطبعة أخرى مطبعة السعادة مصر دون تاريخ.

29- الذهبي: الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة، تحقيق موسى محمد علي الموشي، دار الكتب الحديثة، بيروت. ط1، 1972.

30- الذهبي: العبر في خير من غير.

- الجزء الأول، تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت 1960.

-الجزء الثاني، تحقيق أخر لفؤاد سيد، الكويت 1961.

31- الذهبي: سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب أرنؤوط، مؤسسة الرسالة. ط10، 1994.في عدة أجزاء.

32- الذهبي: تذكرة الحفاظ، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان. ط 1956.الجزء الأول و الثاني.

33- الرازي (محمد بن إدريس ت. 327هـ) : الجرح و التعديل، دار إحياء التراث العربي، بيروت.ط1، 1952.الجزء الثاني.

34- الرازي(فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين 544-606هـ):المحصول في علم الأصول،تحقيق طه جابر العلواني، مؤسسة الرسالة، ط2، 1992.

35- الزركلي (خير الدين): الإعلام، مطبعة كوستاتوماس و شركاؤه. ط2، 1955.

36- السبكي (تاج الدين عبد الوهاب 727-771هـ): طبقات الشافعية، مطبعة البابي الحلبي ،تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو. ط1، 1965.

37- ابن سعد (محمد بن منيع الهاشمي البصري الواقدي ت.230هـ): الطبقات الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت 1990،
- وكذلك تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت.
-وكذلك تحقيق سهيل كيالي، دار الفكر، ط1، 1994.في عدة أجزاء.

38- السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر الشافعي، ت. 911هـ): حسن المحاضرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1967.

39- السيوطي: طبقات الحفاظ، تحقيق علي محمد عمر، مكتبة وهبة عابدين، مصر 1973.-وطبعة أخرى دار الكتب العلمية بيروت،ط1، 1983.

40- الشاطبي (ابو اسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي ت 790 هـ): الإعتصام، تحقيق محمد رشيد رضا، دار المعرفة بيروت،1986.الجزء الثاني.

41- الشافعي (محمد بن ادريس 150 – 204 هـ) الرسالة الأصولية ،تحقيق محمد سيد الكيلاني ،مطبعة مصطفى بابي ،القاهرة ،ط1 ،1969 .

42- ابن شاهين عمر (ابن حفص) : تاريخ أسماء الثقات، دار الكتب العلمية، بيروت 1986.

43- الشعراني (عبد الوهاب أحمد بن علي ق 10هـ): لواقح الأنوار في طبقات الأخيار، (الطبقات الكبرى)، دار الجيل، بيروت 1988.

44- الشهرستاني (أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أحمد، 479-548هـ): الملل و النحل، تحقيق محمد سيد الكيلاني، دار المعرفة، بيروت. ط7، 1961الجزء الأول والثاني.

45- الشيرازي(بن أبي إسحاق الشافعي 393-472هـ) : طبقات الفقهاء، تحقيق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط3، 1981.

46- الطبري (محمد بن جرير ت.310هـ): المنتخب من كتاب الذيل المذيل، المكتبة التجارية الكبرى، مصر 1939.الجزء الثامن.

47- الطبري: تاريخ الطبري، سلسلة دفاتر العرب، تحقيق محمد أبـو الفـضل إبراهيم، دار المعارف. ط4، 1979.

48- الطبري: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، مطبعة البـابي الحلبي،مـصر. ط2، 1954.الجزء الأول.

49- الطبري: تاريخ الأمـم و الملـوك، دار الكتـب العلميـة، بـيروت. ط 1991.الجزء الرابع.

50- ابن العربي(أبو بكر محمد بن عبد الله 468-543هـ): أحكام القرآن ، تحقيق علي محمد البجاوي، دار المعرفة بيروت،1987. الجزء الرابع.

51- ابن عماد الحنبلي(أبو الفلاح عبد الحي ت. 1089) : شذرات الذهب في أخبار من ذهب،.تحقيق شبار عواد معروف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط4، 1994.جميع الأجزاء.

- وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت.

- المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت.

- مطبعة دار الأفاق الجديدة، بيروت،لبنان. دون تاريخ.

52- ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني، بيروت.

53- الفيروز آبادي(محي الدين محمد بن يعقوب): البلغة في تاريخ أئمة اللغـة، تحقيق محمد المصري، وزارة الثقافة، دمشق 1972.

54- ابن القاضي شهبة (أبي بكر أحمد تقي الدين الدمشقي): طبقات الشافعية، عالم الكتب، بيروت،ط1، 1990.

55- القنوجي (ابن الطيب البخاري): الروضة الندية في شرح الدرر البهية، دار الكتب العلمية، بيروت. ط1، 1990.

56- ابن القيم الجوزية (محمد بن أبي بكر الزرعي ت571هـ): إعلام الموقعين عن رب العالمين،تحقيق عبد الرؤوف سعد، دار الجيل، بيروت.الجزء الثالث. دون تاريخ الطبع.

57- ابن كثير(عماد الدين أبو الفداء ت 744هـ) : البداية و النهاية، مكتبة المعارف، بيروت. ط5، 1984.في عدة أجزاء.

58- ابن كثير:تفسير القرآن العظيم، دار المعرفة بيروت،1982.

59- الكندي (ابن عمر محمد بن يوسف المصري، ت.350هـ): تاريخ ولاة مصر و قضا ا، مؤسسة الكتاب الثقافية. ط1، 1987.

60- مخلوف(محمد بن محمد): شجرة النور الزكية في طبقات المالكية، دار الكتاب العربي، بيروت. ط 1349هـ.

61- المزي(جمال الدين يوسف،654-742هـ): ذيب الكمال في أسماء الرجال، تحقيق أحمد علي عبيد و حسن أحمد آغا، دار الفكر، بيروت. ط 1994

-وتحقيق بشار عواد، مؤسسة الرسالة،ط4، 1994.في عدة أجزاء.

62- ابن الملقن(سراج الدين أبوحفصي المصري 725-804هـ) : طبقات الأولياء، تحقيق نور الدين شريبة، مكتبة الغانجي. ط 1994.

63- المناوي(زين الدين محمد): الكواكب الدرية و تراجم السادة الصوفية، دار صادر بيروت. ط 1999.

64- ابن المنذر : الإجماع، سلسلة من دفاتر التراث الإسلامي، تحقيق فؤاد عبد المنعم أحمد، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية. ط 1991.

65- ابن نديم (محمد بن إسحاق ت377 هـ): الفهرست، مكتبة خياط، بيروت، لبنان. دون تاريخ الطبع.

66- النووي(أبو زكريا محي الدين بن شرف ت. 676هـ): تهذيب الأسماء واللغات، دار المطبوعات المنيرية، دمشق 1972.

67- ابن الوردي (زين الدين عمر أبو حفص بن المظفر بن عمر ت.749هـ): تتمة المختصر في أخبار البشر، تحقيق أحمد رفعت البدراوي، دار المعرفة، بيروت. ط1، 1970.-و طبعة أخرى تحقيق زعلول، دار الكتب العلمية، الجزءان الأول و الثالث.

68- وكيع (بن حيان محمد بن خلف، ت.306 هـ) : أخبار القضاة، عالم الكتب، بيروت.الجزء الأول.

69- اليافعي (أبو محمد عبد الله ، ت. 768م) : مرآة الجنان و عبرة اليقظان، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت. ط2، 1970.الجزء الأول و الثاني.

70- يعقوب(بن إبراهيم المعروف بأبو يوسف ،ت. 182هـ): الرد على سير الأوزاعي، علق عليه أبو الوفا الأفغاني، دار الكتاب العربية، بيروت. دون تاريخ.

71- مؤلف مجهول : أخيار مجموعة، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة. ط1، 1981.

ب - المراجع

1- إبراهيمي موسى إبراهيم : المدخل إلى أصول الفقه و تاريخ التشريع الإسلامي، دار عمار، الجزائر. ط 1989.

2- أرسلان شكيب: محاسن المساعي في مناقب الإمام ابن عمر و الأوزاعـي، دار الحياة بيروت، 1967.

3- إسماعيل شعبان محمد : أصول الفقه تاريخه و رجاله، دار المريخ، الرياض. ط1، 1981.

4- الأشقر عمر سليمان : تاريخ الفقه الإسلامي، قصر الكتاب، الجزائر. 1990

5- الأعظمي محمد مصطفى : دراسات في الحديث النبوي و تاريخ تدوينه، المكتب الإسلامي، بيروت. ط 1980.أبو زهرة محمد: تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت.

6- ألفريد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمن بدوى، دار الغرب الإسلامي، بيروت. ط3، 1987.

7- الأمين محسن : أعيان الشيعة، تحقيق حسن الأمين، دار التعارف للمطبوعـات، بيروت. 1983.

8- أمين أحمد : فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت. ط10، 1969.

9- أمين أحمد : ظهر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت لبنان. ط5.

10- أمين أحمد : ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت. ط10.

11- أيوب إبراهيم : التاريخ العباسي السياسي و الحضاري، الشركة العالمية للكتاب، بيروت. ط1، 1989.

12- بدران أبوالعنين بدران : الشريعة الإسلامية تاريخها و نظرية العقود و الملكيـة، مؤسسة شباب مصر، الاسكندرية.

13- بروكلمان كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية، دار العلـم الملايـين، بـيروت. ط12، 1993.

14- البغدادي إسماعيل باشا : هدية العارفين من أسماء المؤلفين و آثـار المـصنفين، مكتب المثنى، بغداد.

15- بيضون إبراهيم : الدولة العربية في إسبانيا، بيروت. ط3، 1986.

16- بيطار أمينة: تاريخ العصر العباسي، بيروت. ط2، 1977.

17- تستشيجيفسكا يوجينا غيانة : تاريخ التشريع الإسلامي، دار آفـاق، بـيروت. ط1، 1980.

18- تيمور باشا أحمد: نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة و انتـشارها عند جمهور المسلمين دار القادري، بيروت. ط 1990.

19- الثعالبي محمد الحجوي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي، دار المعارف، الرباط. 1340هـ.

20- جلي احمد محمد أحمد :دراسة عن الفرق في تـاريخ المـسلمين (الخـوارج و الشيعة)، الرياض ، ط2، 1988.

21- تسهير جولد : مذاهب التفسير الإسلامي، دار اقرأ. ط 1992.البستاني بطرس ، دائرة المعارف، بيروت، 1880.

22- . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام، دار الجيل، بيروت. ط13، 1991.

23- حسين محمد صالح موسى : الاجتهاد في الشريعة الإسلامية، دار طلاس، دمشق. ط1، 1988.

24- حسين مؤنس :تاريخ المغرب و حضارته ، بيروت ، ط1، 1992

25- الخضري بك محمد: تاريخ التشريع الإسلامي، دار الفكر العربي، بيروت. ط1، 1992.

26- الخضري محمد : الدولة العباسية ، دار المعرفة ، بيروت، 1996.

27- خلاف عبد الوهاب : مصادر التشريع الإسلامي. ط5، 1982.

28- الخن مصطفى سعيد : أثر الاختلاف في القواعد الأصولية، بيروت. 1972.

29- الدقر عبد الغني : الإمام الشافعي، دار القلم، بيروت. ط1، 1972.

30- دكسن عبد الأمير عبد حسين : الخلافة الأموية – دراسة سياسية – دار النهضة العربية ، بيروت ، ط1 ، 1973 .

31- دوب رابح : البلاغة عند المفسرين، دار الفجر، مصر. ط1، 1997.

32- الراجحي شرف الدين علي : مصطلح الحديث و أثره على الدرس اللغوي عند العرب، دار النهضة، بيروت. ط1، 1980.

33- رضوان فتحى : من فلسفة التشريع الإسلامي، دار الكتاب العـربي، القـاهرة. 1969.

34- الزرو خليل داود : الحياة العقلية في الشام في القرنين الأول و الثاني للهجرة، دار الآفاق بيروت ط1، 1971.

35- أبو زهرة محمد: تاريخ المذاهب الإسلامية، دار الفكر العربي، بيروت.

36- **أبو** زهرة محمد : الشافعي، بيروت. ط2، 1948

37- أبو زهو محمد محمد: الحديث و المحدثون، أو عناية الأمـة الإسـلامية بالـسنة المحمدية، دار الفكر العربي. 1378هـ

38- زيدان عبد الكريم :الوجيز في أصول الفقه ،مؤسسة الرسـالة ،بـيروت،ط7، 1997.

39- سالم عبد العزيز : المغرب الكبير، دار النهضة العربية، بيروت. ط 1981.

40- سالم عبد العزيز : بحوث إسلامية في التاريخ و الحضارة و الآثار، دار الغـرب الإسلامي، بيروت ط1، 1991.

41- سامعي اسماعيل :دور المذهب الحنفي في الحياة الاجتماعية والثقافية ببلاد المغرب الاسلامي من ق2 إلى ق5 هـ ،رسالة ماجستير ،إشراف موسـى لقبـال ،1994-1995.

42- السريتي عبد الودود : النظريات العامة في الفقه الإسلامي و تاريخه، دار النهضة العربية، بيروت. 1992.

43- سزكين فواد : تاريخ التراث العربي، ترجمة محمد فهمي حجازي، الـسعودية. 1983.

44- سعد محمود : فقه الليث بن سعد في ضوء الفقه المقـارن، منـشأة المعـارف، الإسكندرية مصر.

45- السعيد لبيب : دفاع عن القراءات المتواترة في مواجهة الطـبرى المفـسر، دار المعارف، القاهرة. ط 1978.

46- سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب.دار العلم للملايين، ط1990،5.

47- الشافعي أحمد محمود : أصول الفقه الإسـلامي، مؤسـسة الثقافـة الجامعيـة الإسكندرية. 1983.

48- شبارو عصام محمد : الدولة العربية الإسـلامية الأولى، دار النهـضة العربيـة، بيروت. ط3، 1995.

49- الشرقاوي عبد الرحمن : شخصيات إسلامية، دار اقرأ، بيروت. ط1، 1981.

50- الشعار مروان محمد : سنن الأوزاعي أحاديث و آثار و فتاوى، دار النفـائس، بيروت. ط 1993

51- شلبي أحمد: التاريخ الإسلامي و الحضارة الإسلامية، مكتب النهـضة العربيـة، بيروت. ط3، 1966.

52- شلبي محمد مصطفى : المدخل في التعريف بالفقه الإسلامي، دار النهضة العربية، بيروت. ط2، 1969. و طبعة أخرى لدار النهضة بيروت. ط 1985.

53- شلبي محمد مصطفى : أصول الفقه الإسلامي، دار النهضة بيروت. ط 1986.

54- شلبي محمد مصطفى : الفقه الإسلامي بين المثالية و الواقعية، الـدار الجامعيـة بيروت. 1982.

55- الطنطاوي علي : رجال من التاريخ، دار المنارة، جدو. ط8، 1990.

56- العبادي أحمد مختار : من التاريخ العباسي و الفاطمي، بيروت. ط 1971.

57- عبد الرزاق أحمد: تاريخ العلوم و الحضارة الإسـلامية، دار العزيـز للطباعـة، الإمارات العربية. ط 1989.

58- عبد الرزاق علي: الإجماع في الشريعة الإسلامية، دار الفكر العربي. ط 1947

59- العجوز أحمد محي الدين : الميراث العادل في الاسلام ، مؤسسة المعارف ، بيروت ط1، 1986.

60- العريني الباز : تاريخ أوربا العصور الوسطى، بيروت 1968.

61- العريني الباز: المغول ، دار النهضة العربية بيروت ط1986 .

62- عطوان حسن : الفقهاء و الخلافة في العصر الأموي، دار الجيل، بيروت، ط1، 1991.

63- علي موسى علي : حضارة و عباقرة، دار إبن زيدون، بيروت. ط1، 1992.

64- عمر أحمد بن محمد الأنصاري: أثر اختلاف الفقهاء في الشريعة ، مكتبة الرشد ، الرياض ، ط1، 1996.

65- العمروسي أنور : التشريع و القضاء في الإسلام، مؤسـسة شـباب الجامعـة الإسكندرية. 1984.

66- فاروق عمر : التاريخ الإسلامي و فكر القرن العشرين، بيروت. ط2، 1985.

67- فراج أحمد حسين : تاريخ الفقه الإسلامي، الدار الجامعية، بيروت. ط 1989.

68- فروخ عمر : تاريخ صدر الإسلام و الدولة الأموية، دار العلم للملايـين. ط1، 1970.

69- فريد أحمد : من أعلام السلف، دار الإيمان، الإسكندرية. ط1، 1998.

70- فضل الله مهدي: الاجتهاد و المنطق الفقهي في الإسلام، دار الطليعة، بـيروت. ط1، 1987.

71- القضاة أحمد مصطفى علي: الشريعة الإسلامية و الفنون، دار الجيـل بـيروت. ط1، 1988.

72- القطان مناع : تاريخ التشريع الإسلامي، مؤسسة الرسـالة، بـيروت. ط11، 1993.

73- قلعجي محمد رواس : موسوعة فقه سفيان الثوري، دار النفائس، بيروت. ط1، 1990.

74- قنديل عبد المنعم : حياة الصالحين دار الشهاب، الجزائر. ط 1988.

75- كاشف سيدة إسماعيل : مصر في فجر الإسـلام، دار الرائـد العـربي. ط3، 1986.

76- كرو أبو القاسم محمد : شخصيات أدبية من المشرق و المغرب، بـيروت. ط3، 1966.

77- الكروي إبراهيم سلمان : الحضارة العربية الإسلامية، دار السلاسل، الكويـت. ط 1984.

78- الكيلاني إبراهيم زيد : دراسات في الفكر العربي الإسلامي، دار الفكر عمـان، الأردن.

79- لقبال موسى : المغرب الإسلامي، المؤسسة الوطنية للكتـاب، الجزائـر. ط3، 1984.

80- لقبال موسى :دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية ،الشركة الوطنيـة للنـشر والتوزيع ،الجزائر ،ط 1979 .

81- متولى عبد الحميد : مناهج التفسير في الفقه الإسلامي، مكتبة عكاظ السعودية. ط1، 1983.

82- محدة محمد : أصول الفقه الإسلامي، دار الشهاب باتنة، الجزائر.

83- المحمصاني صبحي : فلسفة التشريع في الإسلام، دار العلم للملايـين، بـيروت. ط4، 1974.

84- المحمصاني صبحي : الأوزاعي و تعاليمه الإنسانية و القانونية، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1978

85- محمود حسن أحمد : العالم الإسلامي في العهد العباسي، دار الفكـر، بـيروت. ط1.

86- محمود حسن احمد :قيام دولة المرابطين ،دار الفكر العربي ،القاهرة ،ط 1957 .

87- محمود عبد الحليم : أقطاب التصوف، دار المعارف مصر. ط 1976.

88- محمود عبد ا يد :الإتجاهات الفقهية عند أصحاب الحديث في ق3 هـ ـ ،مكتبة الغانجي ط1979.

89- مرحبا محمد عبد الرحمان : الموجز في تاريخ العلوم عند العـرب، بـيروت. ط 1968.

90- المشيني مصطفى إبراهيم : مدرسة التفسير في الأندلس، مؤسسة الرسالة، بيروت. ط1، 1986.

91- بن مصطفى أحمد المشهور بـ طاش كبرى زادة : مفتاح الـسعادة و مـصباح السيادة في موضوعات العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت.

92- المغربي علي عبد الفتاح : الفرق الكلامية الاسـلامية ، مكتبـة وهبـة ، ط1، 1995

93- الملاّ أحمد علي : أثر العلماء المسلمين على الحضارة الأوربيـة، دمـشق. ط2، 1981.

94- الملاح حسين محمد : الأوزعي محدثا و حافظا ، المكتبـة العـصرية ، بـيروت ط1993

95- موسى محمد محمد : دولة الفرنجة و علاقتها بالأمويين في الأندلس : مؤسـسة الثقافة الاسلامية ، الاسكندرية ، ط 1981 .

96- موسى محمد يوسف : المدخل لدراسة الفقه الإسـلامي، دار الفكـر العـربي، القاهرة. ط1، 1961.

97- موسى محمد يوسف : تاريخ الفقه الإسـلامي، دار المعرفـة، القـاهرة. ط2، 1966.

98- الميلي مبارك بن محمد :تاريخ الجزائر في القديم والحـديث ،المؤسـسة الوطنيـة للكتاب ،لجزء الثالث ،دون تاريخ الطبع .

99- النعنعي عبد الحميد : تاريخ الدولة الأموية بالأنـدلس، دار النهـضة العربيـة، بيروت. ط 1986.

100- نويهض عادل : معجم المفسرين من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر، مؤسسة نويهض الثقافية. ط3، 1988.

ج- الموسوعات و القواميس

1- زكار سهيل :المعجم الموسوعي ،دار الكتاب العربي ،دمشق ،ط1 ،1997 .

2- عمارة محمد : قاموس المصطلحات الاقتصادية و الحضارة الاسلامية ، دار الشروق ط 1993

3- ا لمس الأعلى للشؤون الإسلامية، موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسـلامي القاهرة، 1967

4- مجموعة من المؤلفين منهم محمد ثابت أفندي ، دائرة المعارف الإسلامية.

5- بطرس البستاني : دائرة المعارف ، دار المعرفة بيروت .

6- محمد فريد وجدي : دائرة المعارف ، بيروت ط3 .

د- الدوريات

1- مجلة الدارة، الرياض، العدد الثاني السنة الثالثة، جمادى الثاني 1397هـ، جـوان 1977م.

2- مجلة البحوث الإسلامية، إدارة البحوث العلمية، الريـاض، العـدد 15 الـسنة 1406هـ.

3- مجلة الجامعة الإسلامية: المدينة المنورة، العدد 62، السنة 16، جمـادى الآخـر 1404ه

4- مجلة الفكر الإسلامي بيروت، العدد 5 السنة الثانية، ربيع أول 1391هـ، أيـار 1971م.

أ- العدد 11 السنة الأولى، رجب 1390هـ، أيلول 1970م.

ب- العدد 7 السنة الثانية، جمادى الأولى 1391هـ، تموز 1971م.

5 - مجلة دراسات العلوم الإنسانية، عمان الأردن، العدد 7 ذي القعدة 1407هـ، تموز 1987م.

6 - جلة الموافقات، المعهد العالي لأصول الدين، الجزائر.العدد الثالث 1994 .العـدد الخامس 1996 .

7- مجلة كلية الشريعة ، بغداد العدد الخامس 1979 .

8- مجلة أضواء على الشريعة ، كلية الشريعة ، الرياض العدد الثالث 1392ه،

و العدد الرابع 1393 و العدد السادس 1395 .
9- مجلة كلية الآداب ، الرياض السعودية ، العدد الخامس 1977 ، 1978
10- مجلة كلية الامام الأعظم ،العراق ، العدد الثالث ، 1977 .
11- مجلة الأصالة ،الجزائر ،العدد 36-37 ،السنة الخامسة ،سبتمبر 1976.

الفهارس

- **فهرس الآيات**
- **فهرس الأحاديث**
- **فهرس المذاهب و الفرق و الديانات**
- **فهرس الأعلام**
- **فهرس القبائل والأسر و الأمم والدول**

- فهرس الأماكن
- فهرس الموضوعات

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس المذاهب و الفرق و الديانات

فهرس الأعلام

فهرس القبائل و الأسر و الأمم و الدول

فهرس الأماكن

فهرس المواضيع

مـلاحظـة:

نوقشت هذه الرسالة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الوسيط بجامعة الجزائر قسم التاريخ

بتاريخ 2004/03/13م من طرف اللجنة المكونة من السادة الدكاترة:

- الأستاذ الدكتور عبد العزيز فيلالي - جامعة قسنطينة - رئيسا.
- الأستاذ الدكتور موسى لقبال - جـامعة الجزائر - مشرفا.
- الأستاذ الدكتور محمد دراجي - رئيس قسم الشريعة الجزائر- عضوا.
- الأستاذ الدكتور مختار حساني - جـامعة الجزائر - عضوا.

و قد نال بموجبها الطالب عبد القادر بوعقادة شهادة الماجستير بدرجة مشرف جدا.